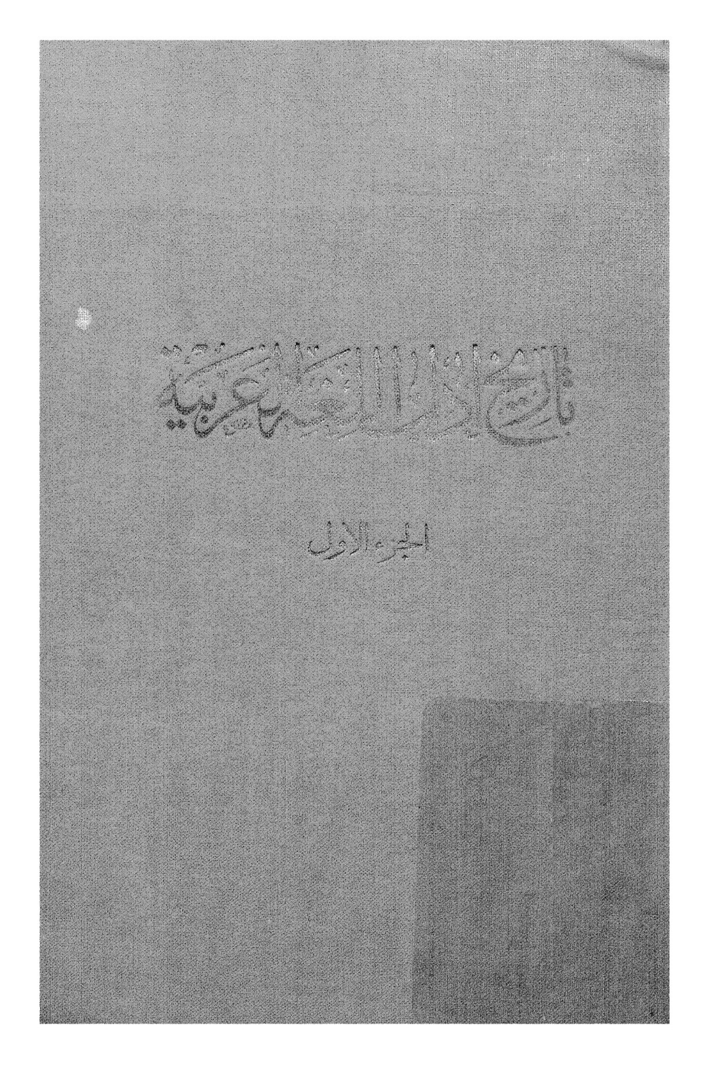

تاريخ آداب اللغة العربية
الجزء الأول

كتاب

تاريخ آداب اللغة العربية

يشتمل على تاريخ اللغة العربية وعلومها وما حوته
من العلوم والآداب على اختلاف مواضيعها . وتراجم العلماء
والادباء والشعراء وسائر ارباب القرائح . ووصف
مؤلفاتهم واماكن وجودها او طبعها
من اقدم ازمنة التاريخ
الى الآن

تأليف

جرجي زيدان

منشىء الهلال

الجزء الاول

يحتوي على تاريخ آداب اللغة العربية في عصر الجاهلية
وعصر الراشدين والعصر الاموي
اي من اقدم ازمنة التاريخ الى سنة ١٣٢هـ

مطبعة الهلال بالفجالة بمصر
سنة ١٩١١

المقدمة

تاريخ التأليف في هذا الموضوع

لم يكن تاريخ آداب اللغة معروفاً عند الافرنج قبل نهضتهم الاخيرة في التمدن الحديث . وما لبثوا ان تنبهوا له حتى الفوا فيه واصبحوا وما من لغة من لغاتهم الا وفيها كتاب او غير كتاب في تاريخ آدابها . ولما استشرقوا اخذوا في درس اللغة العربية وكتبوا في تاريخ آدابها غير كتاب سيأتي ذكرها

اما العرب فالمشهور انهم لم يؤلفوا في تاريخ آداب لسانهم والحقيقة انهم اسبق الامم الى التأليف في هذا الموضوع مثل سبقهم في غيره من المواضيع . فان في تراجم الرجال كثيراً من هذا التاريخ لانهم يشفعون الترجمة بما خلفه المترجم من الكتب ويبينون مواضيعها وقد يصفونها . واول كتاب خصصوه للبحث في المؤلفين والمؤلفات «كتاب الفهرست» لابن النديم (سنة ٣٧٧ هـ) وهو يشتمل على آداب اللغة العربية من اول عهدها الى ذلك العصر مرتبة حسب المواضيع . ولم يقتصر ذلك الكتاب على آداب العرب الاصلية ولكنه تضمن ما احدثوه من العلوم الاسلامية واللسانية وما نقلوه عن اللغات الاخرى بالتفصيل مع تراجم المؤلفين والمترجمين والشعراء والادباء . ولولاه لضاع اسماء كثير من الكتب النفيسة . ولاعوزنا تراجم كثيرين من الادباء والشعراء والعلماء . فهو ذخيرة ادب وعلم لا تثمّن . وقد طبع في ليبسك سنة ١٨٧٢

ولم يظهر بعده كتاب يستحق الذكر قبل كتاب مفتاح السعادة ومصباح السيادة ويعرف بموضوعات العلوم لطاشكبري زاده المتوفى سنة ٩٦٨هـ رتبهُ حسب المواضيع ايضاً وذكر فيه ١٥٠ فناً ومنه نسخة خطية في المكتبة الخديوية

يليه كتاب «كشف الظنون عن اسامي الكتب والفنون» للّا كاتب چلبي المتوفى سنة ١٠٦٧ هـ وهو معجم مرتب على الابجدية حسب اسماء الكتب . وبلغ ما حواه منها نحو ١٥٠٠٠ كتاب مع اسماء اصحابها ووفياتهم وتواريخ اهم العلوم . وقد طبع عدة طبعات اهمها طبعة ليبسك ولندن سنة ١٨٣٥ــ ١٨٥٨ في ٧ مجلدات معها ملحق فيه ذيل احمد منيف زاده . وفهارس مكاتب دمشق وحلب وورودس والمغرب وفهرس السيوطي وابن خليفة الاندلسي وبعض مكاتب الاستانة . وله طبعات اخرى في الاستانة ومصر في مجلدين

واخيراً كتاب « ابجد العلوم » لصديق القنوجي من اهل هذا العصر وهو كتاب

ضخم عوّل فيهِ صاحبه على من تقدمهُ ورتبهُ على المواضيع . وقد طبع على الحجر في الهند سنة ١٢٩٦ ﻫ في ٣ مجلدات كبيرة

على ان هذه الكتب وامثالها تعدُّ من المآخذ الاساسية لدرس آداب اللغة . ولكنها لا يصحُّ ان تسمَّى تاريخاً لها بالمعنى المراد بالتاريخ اليوم ولم يتصدَّ احدٌ للتأليف في تاريخها على النمط الحديث قبل الافرنج المستشرقين فهم اول من كتب فيهِ من اواسط القرن الماضي لكنهم لم يوفوه حقه الا في اول هذا القرن . وسنأتي على اسماء مؤلفاتهم فيما يلي

اما في العربية فلعلنا اول من فعل ذلك . ونحن اول من سمى هذا العلم بهذا الاسم « تاريخ آداب اللغة العربية » فنشرنا منه فصولاً صدر اولها سنة ١٨٩٤ في الهلال التاسع من السنة الثانية وآخرها في اواخر السنة الثالثة وقد انتهينا فيهِ الى تاريخ آدابها في عصر الانحطاط . ثم شغلنا عن اتمامهِ ووعدنا القراء بالعود الى هذا الموضوع على ان نفرد له كتاباً خاصاً مع التوسع والتدقيق . فقضينا بضع عشرة سنة ونحن لا تقع لنا شاردة الا قيدناها ولا ملاحظة الا حفظناها وتدبرناها والقراء يطالبوننا به . فاعلنا في السنة الماضية عزمنا على القيام بوعدنا وها نحن فاعلون

الغرض من هذا الكتاب

نعني بتاريخ آداب اللغة تاريخ ما تحويه من العلوم والآداب وما تقلبت عليه في الاعصر المختلفة . او هو تاريخ ثمار عقول ابنائها ونتائج قرائحهم . وهاك اهمّ اغراضنا منهُ :

١ بيان منزلة العرب بين سائر الامم الراقية من حيث الرقي الاجتماعي والعقلي

٢ تاريخ ما تقلبت عليه عقولهم وقرائحهم وما كان من تأثير الانقلابات السياسية على آدابهم باختلاف الدول والاعصر

٣ تاريخ كل علم من علومهم على اختلاف ادواره من تكونه ونشوئه الى نموه ونضجه وتشعبه وانحلاله حسب الاعصر والادوار

٤ تراجم رجال العلم والادب مع الاشارة الى المآخذ التي يمكن الرجوع اليها لمن يريد التوسع في تلك التراجم

٥ وصف الكتب التي ظهرت في العربية باعتبار مواضيعها وكيف تسلسلت بعضها من بعض وبيان مميزاتها من حيث حاجة القراء اليها ووجه الاستفادة منها

٦ لا نهتمُّ من هذه الكتب بالاكثر الا بما لا يزال باقياً منها ويمكن الحصول عليه . فاذا كان مطبوعاً ذكرنا محل طبعه وسنته واذا كان لم يطبع اشرنا الى المكاتب الكبرى التي يوجد فيها — نعني المكاتب الدولية في اوربا او غيرها كالمكتبة الملكية في

برلين ومكتبة المتحف البريطاني في لندن والمكتبة الاهلية في باريس والمكاتب الدولية في فينا وغوطا واكسفورد ومنشن وليدن وغيرها والمكتبة الخديوية في القاهرة ومكاتب اياصوفيا او كوبرلي او بيازيد او غيرها في الاستانة . حتى اذا اراد احد الوقوف على شيء من الاصول الخطية طلبها في قوائم تلك المكاتب

وبالجملة فان غرضنا الرئيسي ان يكون لهذا الكتاب فائدة عملية فضلاً عن الفائدة النظرية بحيث يسهل على طلاب المطالعة معرفة الكتب الموجودة ومحل وجودها وموضوع كل منها وقيمته بالنسبة الى سواه من نوعه . فهو اشبه بدائرة معارف تشتمل على تاريخ قرائح الامة العربية وعقولها وتراجم علمائها وادبائها وشعرائها ومن عاصرهم اوعاملهم من كبار الرجال . ووصف المؤلفات العربية على اختلاف مواضيعها . ومتى تم الكتاب الحقناهُ بفهرس ابجدي للاعلام والمواضيع فيصير معجماً للعلم والعلماء والادب والادباء والشعر والشعراء ولما جادت به قرائحهم من التصانيف او المنظومات ووصف كل منها ومحل طبعه او وجوده

تقسيم الموضوع وابوابه

ترددنا كثيراً في الخطة التي نتخذها في تقسيم هذا الكتاب بين ان نقسمهُ حسب العلوم او حسب الاعصر — ومعنى قسمته حسب العلوم ان نستوفي الكلام في كل علم على حدة من نشأته الى الآن . على ان نبدا باقدمها فنذكر تاريخ الشعر مثلاً وتراجم الشعراء وما تقلب عليه من اول عهده الى الآن . ونفعل مثل ذلك بالخطابة وغيرها من آداب الجاهلية وهكذا في العلوم الاسلامية كالفقه والتفسير والادب والنحو واللغة والتاريخ والجغرافية وغيرها . اما قسمته حسب الاعصر فيراد بها الكلام عن احوال العلوم معاً في كل عصر على حدة وهذا الذي اخترناه . فقسمنا هذا الكتاب الى تاريخ آداب اللغة العربية قبل الاسلام وتاريخها بعده . وقسمناها في الاسلام الى اعصر حسب الانقلابات السياسية لبيان ما يكون من تأثير تلك الانقلابات فيها . فبدأنا بعصر الراشدين فالعصر الاموي فالعباسي فالمغولي فالعثماني فالعصر الحديث . وقسمنا كلاً منها الى ادوار حسب الاقتضاء . وسيدخل هذا الكتاب في ثلاثة اجزاء هذا اولها

موضوع هذا الجزء

يشتمل هذا الجزء على تاريخ آداب اللغة في العصر الجاهلي وفي عصر الراشدين والعصر الاموي . اي من اول عهدها الى سنة ١٣٢ هـ . فبدأنا بمقدمات

تمهيدية في ما هو المراد بآداب اللغة ومن هم اسبق الامم الى العلم وما هي مصادر آداب اللغة على الاجمال . واتينا بآداب اللغة اليونانية على سبيل المثال . ثم عمدنا الى آداب العرب قبل الاسلام فقسمناها الى الجاهلية الاولى في زمن الحمورابيين وما بعدهم . والجاهلية الثانية في القرنين الاخيرين قبل الهجرة . وصدرنا الكلام بفصول في الفرق بين لغة الجاهليتين ودرجة ارتقاء عقول العرب . والمرأة في الجاهليــة . وتقدمنا الى الآداب الجاهلية فقسمناها الى :

١ الآداب العربية ويدخل فيهــا اللغة و الشعر والخطابة والامثال والنسب ومجالس الادب والاخبار ونحوها

٢ العلوم الطبيعية وتحتها الطب والبيطرة والخيل ومهاب الرياح

٣ العلوم الرياضية اردنا بها الفلك والميثولوجيا والتوقيت

٤ ما وراء الطبيعة ويدخل فيها الكهانة والعيافة والقيافة وتعبير الرؤيا والزجر وغير ذلك

واخذنا في الكلام عن كل علم على حدة فبدأنا باللغة فذكرنا تاريخها قبل الاسلام وما دخلها من الالفاظ الاعجمية وكيف كانت لما جاء الاسلام وفروعها ومميزاتها عن سائر اللغات . ثم الامثال وانواعها وما الف فيها . وانتقلنا الى الشعر وهو اهم تلك الاداب فافضنا في درسه وبحثنا في هل عند العرب شعر تمثيلي . وكيف بدأ العرب ينظمون . وما هو اصل وزن الشعر عندهم واسباب نهضة الشعر في الجاهلية واهمها استقلال عرب الحجاز من اليمن وحروبهم فيما بينهم . وبينا عدد الشعراء بالنظر الى القبائل و بالنظر الى الاقاليم وتاثير الاقليم في قرائحهم . ثم عقدنا فصلاً في خصائص الشعر الجاهلي واحوال شعرائه . وتسهيلاً لدرسهم وتفهمهم قسمناهم حسب اغراضهم الى : اصحاب المعلقات والشعراء الامراء والشعراء الفرسان والشعراء الحكماء والشعراء العشاق والصعاليك واليهود والنساء الشواعر والشعراء الهجائين ووصاف الخيل والموالي وسائر الشعراء . وذكرنا مميزات كل طبقة واشهر شعرائها وتراجمهم وامثلة من اقوالهم وما صارت اليه دواوينهم والمآخذ التي يرجع اليها في معرفة اخبارهم . ثم تقدمنا للكلام على سائر علوم الجاهلية

وفي عصر الراشدين بدأنا بذكر التغيير الذي احدثه الاسلام في نفوس العرب وما كان من تأثير ذلك في آدابهم ولا سيما الشعر والخطابة . ثم كتبنا فصلاً في الشعر والنبي وآخر في الشعر والخلفاء الراشدين وما حدث من العلوم في هذا العصر مع تاريخ الخط

وقدمنا الكلام في العصر الاموي بمميزات ذلك العصر وما اقتضته سياسة بني امية

من التفريق بين القبائل واصطناع الاحزاب وتأثير ذلك في ادابهم فبدأنا بالعلوم الشرعية كالقراءة والتفسير والحديث والفقه مع تمهيد في البصرة والكوفة . ثم العلوم اللسانية النحو والحركات والاعجام ثم التاريخ والجغرافيا . ورجعنا الى ماصارت اليه آداب الجاهلية في ذلك العصر وهي اللغة والشعر والخطابة وتكلمنا عن اسباب رواج الشعر ومميزاته فيه . وقسمنا هذا العصر الى ثلاثة ادوار . وقسمنا شعراءه الى شعراء السياسة وشعراء الغزل والشعراء الخلعاء والسكيرين والشعراء الادباء . وقدمنا الكلام في فحول ذلك العصر . وقسمنا شعراء السياسة الى احزاب اهمها : انصار بني امية وانصار آل المهلب وانصار العلويين والخوارج وغيرهم . واتينا بتراجم شعراء كل طبقة وامثلة من اقوالهم حسب اغراضهم وادوارهم مع ذكر دواوينهم ومآخذ اخبارهم . وختمنا الجزء بفصول في قرائح الشعراء وشياطينهم والقراءة فيهم . واخيراً في الخطابة والخطباء والانشاء وبه تم العصر الاموي وهو آخر الجزء الاول

الكتب التي عولنا علينا

يطول بنا ذكر الكتب التي اطلعنا عليها قبل تاليف هذا الكتاب . وهي على الاجمال كتب التاريخ والادب واللغة والشعر . وقد ذكرنا جانباً كبيراً منها بين مآخذ تاريخ التمدن الاسلامي وتاريخ العرب قبل الاسلام . واتينا بقائمة اخرى في اخر باب الشعر الجاهلي من هذا الكتاب صفحة ١٦٥ فنكتفي هنا بذكر الكتب التي هي من قبيل تاريخ اداب اللغة في العربية وفي الافرنجية ولم يرد ذكرها في تلك القائمة واليك اهمها :

١ — الكتب العربية

الفهرست	لابن النديم	طبع في ليبسك سنة ١٨٧٢
مفتاح السعادة	لطاشكبري زاده	خط في المكتبة الخديوية
كشف الظنون ٣ اجزاء	لكاتب چلبي	طبع في ليبسك سنة ١٨٥٨
ابجد العلوم ٣ اجزاء	لصديق القنوجي	« في الهند « ١٢٩٦ هـ
مقدمة ابن خلدون	ابن خلدون	« بولاق « ١٢٨٤ «
طبقات الادباء	للانباري	« مصر « ١٢٩٤ «
« الاطباء جزءان	لابن ابي أصيبعة	« « « ١٨٨٣
وفيات الاعيان ٣ اجزاء	ابن خلكان	« « « ١٣١٠ هـ
فوات الوفيات جزءان	لابن شاكر	« « « ١٢٨٣ هـ
المزهر جزءان	للسيوطي	« بولاق « ١٢٨٢ «
اكتفاء القنوع	لادوارد فانديك	« مصر « ١٨٩٧

٢ — الكتب الفرنساوية

Loliée, Hist. des littératures comparées des origines
. au XXe cièdes, Paris, 1900
Deltour, Hist. de la littérature grecque, „ 1896
Bouchot, Précis de la littérature ancienne, „ 1874
Perrens, Hist. de la littérature, italienne „ 1867
Baret, Hist. de la littérature espagniole „ 1863
Jusserand, Hist. abr. de la littérature anglaise „ 1896
Duval, La littérature syriacque, „ 1900
Seignobos, Hist. de la civilisation, 3 vol. „ 1905
Sédillot, Hist. gen. des arabes, leur civil., ect. „ 1877
Huart, Littérature arabe, „ 1902
Dozy, Recherches sur l'histoire et littérature de
l'Espagne, 2 Vol. „ 1881
Brunetière, Hist. de la littérature française, „ 1900
Le Bon, La civilisation des arabes, „ 1884

٣— الكتب الانكليزية

Browne, A literary hist. of Persia 2 Vol. London, 1900
Margoliouth, Mohammed and the rise of Islam „ 1905
Boer, The hist. of philos. in Islam „ 1903
Scott, Hist. of moorish empire in Europe 3 Vol. New York, 1904
Nicholson, A literary hist. of the Arabs, London, 1907
Frazer, A literary hist. of India, „ 1898

٤ — الكتب الالمانية

Hammer-Purgstall, Litteraturgeschichte der Araber bis zum
Ende des 12 Jahrhundert der Hidschret, 7 Vol. Vienna, 1856
Wüstenfeld, Geschichtschreiber der Araber und ihre
Werke, Göthingen 1882
Goldzihr, Muhammedanische Studien, Halle, 1890
Diercks, Die Araber im Mittelalter und ihre Einfluss
auf die Cultur Europa's, Leipzig, 1882
Schak, Pœsie und Kunst der Araber in Spanien, Stuttgart, 1877
Brockelmann, Geschichte der Arabischen Litteratur,
2 Vol. Weimar, 1902

هذا وقد بذلنا الجهد في تحقيق ما كتبناه على ما بلغ اليه الامكان . ولكن الكتاب واسع الموضوع كثير الجزئيات والانسان موضع الضعف . فنتقدم الى من يقع لنا على خطأ ان ينبهنا اليه لنستدركه في الاجزاء التالية . وما العصمة الا لله وحده

مقدمات تمهيدية

١ — ما هو المراد بآداب اللغة

آداب اللغة علومها . والمراد بتاريخ آداب اللغة تاريخ علومها أو تاريخ ثمار عقول ابنائها ونتاج قرائحهم . فهو تاريخ الامة من الوجهة الادبية والعلمية . ولكل أمة تاريخ عام يشمل النظر في كل احوالها ويتفرع الى تاريخ سياسي وآخر اجتماعي وآخر اقتصادي وآخر أدبي أو علمي . فالتاريخ السياسي يبحث في ما مرَّ على الامة من الفتوح والحروب وما توالى عليها من الدول وانواع الحكومات ونحو ذلك . والتاريخ الاجتماعي يبين الادوار التي تقلبت بها تلك الامة من حيث عاداتها واخلاقها . والاقتصادي يتناول النظر في تاريخ مالية تلك الامة وثروتها واحوالها الزراعية والصناعية وغيرها . وقس على ذلك سائر ضروب التاريخ . ومنها التاريخ الادبي أو العلمي وهو يبحث في تاريخ الامة من حيث الادب والعلم فيدخل فيه النظر في ما ظهر فيها من الشعراء والادباء والعلماء والحكماء وما دونوه من ثمار قرائحهم أو نتاج عقولهم في الكتب وكيف نشأ كل علم وارتقى وتفرع عملاً بسنَّة النشوء والارتقاء

والتاريخ العام ان لم يشمل تاريخ آداب اللغة كان تاريخ حرب وفتح وسفك وتغلب واستبداد . اذ لا يستطاع الوصول الى فهم حقيقة الامة أو كنه تمدنها أو سياستها الا بالاطلاع على تاريخ العلم والادب فيها . فهو شارح للتاريخ يعلل الاسباب والحوادث بعللها الحقيقية . فاذا قرأنا تاريخ امة وعرفنا ما توالى عليها من الاحوال السياسية والادارية والاقتصادية والاجتماعية واستخرجنا أسباب تمدنها ورقيها أو تقهقرها وسقوطها — مهما علمنا من ذلك كله فان الاسباب لا تزال غامضة حتى نعلم تاريخ علوم تلك الامة وهو تاريخ عقولها وقرائحها فتنجلي لنا العوامل الاصلية في اسباب رقيها أو سقوطها . فان ما تخلفه من الآثار الادبية ينمُّ عما كانت عليه من الارتقاء العقلي أو الميل القلبي وسائر احوالها من الاعتدال أو العفة أو التهتك . من الهمة أو الخمول الى غير ذلك من الآداب والاطوار — وانما الامة الاخلاق ما بقيت — على ان تاريخ آداب اللغة

لا يكون وافياً ان لم يوضح بالتاريخ السياسي

وأهل التمدن الحديث يجعلون البحث في آداب اللغة من أهم الوسائل لتفهم تاريخها السياسي ويقسمون ذلك التاريخ الى اطوار على مقتضى ما تقلب عليها من الاحوال الادبية ويقيسون ما تبينوه من الاطوار الماضية على ما سيكون . فيتنبأون عن مستقبل الامة متى عرفوا الطور الذي بلغت اليهِ في ايامهم . وبالقياس على الماضي يقولون ان ان هذه الامة هي الآن في دور الحماسة الشعرية مثلاً ولا تلبث ان تنتقل الى العصر الادبي ثم العلمي فالفلسفي الخ

فتاريخ آداب اللغة هو تاريخ عقول ابنائها وما كان من تأثير ذلك في نفوسهم وفي اخلاقهم. ويدخل فيه تعيين مابلغت اليه الامة من الرقي العلمي وامتازت بهِ على سواها . وبيان تاريخ كل علم وما تقلب عليهِ من الاحوال ووصف ما خلفوه من الآثار المكتوبة من حيث فوائدها وكيفية تفرعها أو تخلفها بعضها عن بعض

٢ — اسبق الامم الى العلم

من هو أول من قال شعراً ؟ أو أول من رصد الكواكب أو اخترع الكتابة أو وضع الاعداد ؟ من قسم السنة الى اشهر والاشهر الى اسابيع وهذه الى الايام فالساعات ؟ نعرف مثلاً ان اول من رصد الكواكب الكلدانيون ولكن من هو الرجل الذي بدأ بالرصد ؟ ان ذلك ذهب في ثنايا القرون المتباعدة كما ذهبت اسماء مكتشف الملح ومخترع النار وصانع الابرة والمغزل ونحوهما من الادوات القديمة . والسبب في ذهاب تلك الاخبار ان الانسان عاش ادهاراً قبل ان اخترع الكتابة ولم يكن يدون أعماله وآثاره مع ان بعضها عظيم الاهمية بالنظر الى التاريخ

وللعلم بهذا الاعتبار تاريخان احدهما قبل اختراع الكتابة والآخر بعدها ولادخل لآداب اللغة في ما هو قبل الكتابة لان معول اصحاب هذا العلم على ما بين ايديهم من مدونات العلوم والآداب . فاي امة دونت العلم اولاً ؟

لا خلاف في ان الشرق اسبق الى تدوين العلم من الغرب . فقد نظم المشارقة الشعر وعالجوا الامراض ووضعوا الشرائع ورصدوا الكواكب وعينوا اماكنها وسموها باسمائها والغرب في غفلة وظلام دامس . فاي امم الشرق اسبق الى العلم ؟

يعسر الجواب على ذلك جواباً قطعياً لان اكثر آثار الشرق لا تزال مدفونة تحت الرمال أو الاتربة في مصر والشام ومابين النهرين واليمن والحجاز وآسيا الصغرى وفارس والهند . وفيها آثار الفراعنة والفينيقيين والاشوريين والبابليين والمعينيين والحميريين والحثيين وغيرهم . ولم ينتبه العلماء الى اهمية هذه الآثار الا في القرن الماضي فتألفت الجمعيات وجمعت الاموال للتنقيب واستخراج الاحافير وحل الكتابات . فحلوا الخط الهيروغليفي بمصر والمسماري بين النهرين والمسند في اليمن والنبطي في الحجاز والفينيقي في فينيقية . وقرأوا ما اكتشفوه من الاحافير فاطلعوا على كثير من احوال تلك الامم . لكن اعمال التنقيب لا تزال في اولها ولا يزال معظم الآثار مدفوناً وخصوصاً في ما بين النهرين واسيا الصغرى واليمن وسائر بلاد العرب . اما مصر فان حظها من التنقيب اكثر من حظ سواها .

وادي النيل

وقد تبين من قراءة الآثار حتى الان ان وادي النيل ووادي الفرات اسبق بلاد المشرق الى الاشتغال بالعلم والادب وقد قضيا ادهاراً وهما زاهران منيران بالعلم وسائر العالم في ظلام . نبغ العلماء والاطباء والشعراء بمصر في عهد الاسرة الثالثة من الدولة المصرية الاولى قبل بناء اهرام الجيزة أي منذ نحو ٦ آلاف سنة . ويفتخر أحد كتاب الدولة في عهد الاسرة السادسة بمصر انه كان متولياً ادارة الكتب فطلب الى ذويه ان ينقشوا ذلك على قبره منذ نيف و ٥ آلاف سنة

ويدلُّ ذلك طبعاً على وجود الكتب من ذلك الحين وان لم يصل الينا شيء منها ولكننا سمعنا ببعضها . وربما كان أهم ما وصلنا خبره منها « كتب الاموات » وهي كتب الطقوس وفيها شعر وادب وتاريخ وعقود وعهود وأغانٍ و بعضها قديم جدًّا ربما كان قبل مينا أول فراعنة مصر . وهي تشبه كتب الدين عند سائر الامم القديمة كالفيدا عند البراهمة والزندافستا عند الجابرية والكنغ عند الصينيين والتلمود عند اليهود لكنها اقدم منها كلها

وكان الفراعنة يطلبون العلم ويتفاخرون به ويقال ان توسرتسن احد ملوك هذه الاسرة كان عالماً بالطب فوضع فيه كتاباً تداوله الناس الى القرن الاول للميلاد . ولا

ريب ان الرياضيات في عهد العائلة الرابعة بناة الاهرام كانت من ارقى العلوم . وقد نبغ الشعراء بمصر من اقدم ازمانها وكان منهم طائفـة كبيرة يجتمعون في مجلس تحوتمس الثالث ورعمسيس الثاني . كما اجتمع بندار وزملاؤه من شعراء اليونان بعد الف سنة في مجالس ملوك اليونان . وكما اجتمع شعراء العرب بعد الف وخمسمائة سنة اخرى في مجالس الرشيد وسيف الدولة والصاحب بن عباد وغيرهم . وكان شعراء الفراعنة ينظمون القصائد في كل نصر أو فتح يمتدحون ملوكهم ويسمونهم ابناء الشمس واصحاب التاجين

وادي الفرات والسومريون والاكاديون

ويقال نحو ذلك عن أهل بابل واشور في وادي الفرات اودجلة فان العلم عندهم قديم وقد تعاصر البابليون والمصريون وتبادلوا المعارف . ولكن ظهر بالاكتشافات الأثرية في بابل أنه كان هناك قبل تمدن البابليين امتان سبقتا البابليين الى اسباب المدنية او العلم هما الاكاديون والسومريون جاوءا وادي الفرات من عهد بعيد وعندهم العلم والكتابة وهي الاحرف المسمارية فاقتبسها البابليون منهم وطبعوا بها اخبارهم على آثارهم . وكان السومريون عند قدومهم الفرات اهل شريعة ودين وصناعة يبنون المدن والقلاع وينسجون الانسجة . نزل السومريون والاكاديون وادي الفرات نحو القرن الخامس والاربعين قبل الميلاد أي منذ نحو ٦٥٠٠ سنة ومعهم العلم والصناعة وما زالوا نبراساً يستضاء بهم الى اوائل القرن العشرين ق م اي نحو٢٥ قرناً . وهم يختلفون عن سائر سكان ذلك الوادي لغة وشكلاً كما يظهر من صورهم المنقوشة على الآثار . وقد اقتبس اهل الشام والعراق عنهم كثيراً من اسباب العـلم واستدل بعض العلماء على آثار ذلك في مزامير داود

أقدم مكتبة في العالم

وعاصر هذه الامة في وادي الفرات غير دولة من اصل سامي . وعثر النقابون على قرميدة بابلية عليها كتابة مسمارية فيها قائمة باسماء ملوك بابل منذ اكثر من ستين قرناً ويدل ذلك على قدم التمـدن في ذلك البلد المبارك . وفي جملة أولئك الملوك ملك اسمه « شرجينا » كان محباً للعلم والعلماء راغباً في العمارة أنشأ مكتبة في « ورقة » من

أعمال العراق سماها مدينة الكتب . وعهد الى رجال من خاصته في جمع الكتب قديمها وحديثها وان يفسروا بعضها بالترجمة أو التعليق . واستعان بالعلماء من سائر الاقطار لينقلوا علوم الآخرين الى لسانهم وتدوين علومهم . واشتغل آخرون بالشرح والتعليق — كما فعل بطليموس فيلاذلفوس بالاسكندرية في القرن الثالث قبل الميلاد وكسرى انو شروان في جنديسابور في القرن الخامس للميلاد وكما فعل الرشيد والمأمون في بغدد في القرنين الثاني والثالث للهجرة . وقد دون شرجينا هذه العلوم بالحرف المسماري نقشا على الطين وهي القراميد الاشورية المعروفة

فكانت مكتبة ورقة هذه مملوءة بالكتب اللغوية والفلكية والشرعية والادبية وغيرها . ثم نسخت بعد انشائها بخمسة عشر قرناً بامر أمير أشوري وحفظت في دار خاصة بها كما تحفظ المكاتب اليوم . وعثر التقابون بالامس على بقايا هذه المكتبة بين النهرين ونقلوها الى المتحف البريطاني في لندن فهي هناك الى هذه الغاية

على أن هذه البقايا نتف اكثرها محطم لاينتفع به . أما أقدم اثر علمي بقي سالماً كاملاً الى هذا العهد فهو شريعة حمورابي فانها دونت في أواسط القرن الخامس والعشرين قبل الميلاد وقد رجحنا في كتابنا « العرب قبل الاسلام » صفحة ٤٩ ج ١ أن دولة حمورابي عربية وأنها أقدم دول العرب . فاذا صح استدلالنا هناك كان أقدم الآثار العلمية الباقية كاملة عربي الفكر وان كان اشوري اللغة

ويلي المصريين والبابليين في التمدن القديم الفينيقيون في سوريا والحثيون فيها وفي أسيا الصغرى والفارسيون والهنود والصينيون وغيرهم

اليونان

ظلت الآداب زاهرة في الشرق وهو وحده مبعث العلم والمعرفة والمدنية حتى آن تقهقره على مقتضى سنة العمران . فانتقلت الرئاسة منه الى الغرب واسبق الامم الغربية الى ذلك اليونان لانهم أقربها الى الشرق من سواهم . وعنهم أخذ الرومان وأنشأوا التمدن الروماني ولكل من هاتين الامتين كتب خاصة في تاريخ آدابها والمرجع في ذلك الى تاريخ آداب اللغة اليونانية فانها أساس آداب سائر لغات أوربا حتى الحديثة منها الى اليوم . ولما نشأت الدول الحديثة وتمدنت وظهر فيها العلماء والادباء

واستقلت كل أمة بلغتها وآدابها صار لكل منها تاريخ خاص لاداب لسانها وقد الف في آداب كل لغة منها عدة كتب وهي أشهى ما يقرأ من تواريخ تلك الامم

على أن الاداب اليونانية كانت أيضاً أساساً لاداب أكثر الامم التي ظهرت بعد اليونان في الشرق ومن جملتهم العرب. فالتمدن الاسلامي مدين لاداب اليونان في أكثر العلوم الطبيعية. وكذلك الفرس في نهضتهم أيام الاكاسرة

ثم ان الآداب العربية كانت أساساً لاداب كل أمة ظهرت في أثناء التمدن الاسلامي او بعده — حتى في أوربا فالافرنج في نهضتهم الاخيرة استعانوا على انشاء تمدنهم بما خلفه العرب من كتب العلم والفلسفة

فالعلم نشأ في الشرق وأثمر أولاً في وادي النيل ووادي الفرات وانتشر منهما في سائر المشرق. ثم انتقل الى الغرب فتناوله اليونان واستثمروه وعالجوه حتى صار علماً خاصاً بهم. ومنهم أخذه الرومان في الغرب والفرس والسريان والعرب في الشرق وانتقل من الرومان الى أمم أوربا في الاجيال الوسطى وحفظ في الكنائس والاديار

أما في الشرق فاجتمع علم اليونان أخيراً الى المسلمين فدرسوه وأضافوا اليه ما اقتبسوه من علوم الفرس والهند وتوسعوا بذلك كله من عند أنفسهم. وقد ملأوا العالم مؤلفات وعلماء وارصاداً ومدارس ومكاتب نحو الف سنة. فلما نهضت أمم أوربا لانشاء التمدن الحديث اقتبسوا كثيراً من آداب العرب ونقلوا مئات من كتبهم الى السنتهم فكانت أساساً لتمدنهم الحديث

٣ — مصادر آداب اللغة بوجه عام

الامم تتشابه بطبائعها ومداركها من أكثر الوجوه وان اختلفت في بعضها ولذلك جاءت آدابها متشابهة في مواضيعها ومصادرها ومناحيها وتأثيرها مع تباين في كل امة تمتاز به عن سواها. فاداب اللغة عند كل الامم قديماً وحديثاً مؤلفة من الشعر والنثر. والشعر يقسم الى مواضيع كثيرة من الحماسة والغزل والفخر والرثاء والمدح. والنثر يقسم الى التاريخ والادب والفقه والفلسفة والعلم على أنواعه. ولم تخل امة من الشعراء والخطباء والعلماء والفلاسفة على تفاوت في الاجادة واختلاف في الاساليب. ولو دونت الامم القديمة آدابها لوجدت التشابه أكثر وضوحاً ولكنهم لم يفعلوا ولا تيسر

للمحدثين العثور على مايصح جمعه ودرسه . وأقدم الامم التي دونت تاريخ آدابها وعلومها على نحو ما نحن فاعلون في هذا الـكتاب اليونان فقد الفوا في تاريخ آداب لغتهم غير كتاب وقسموها وبوبوها وأنتقدوها . وألف آخرون في آداب اللغة اللاتينية ثم آداب كل لغة من اللغات الاوربية الحية . وجروا على مثل ذلك في تدوين آداب اللغات السامية فالفوا في آداب لغة الهند والفرس والسريان والعرب

خصائص الامم

واذا طالعت تواريخ آداب هذه اللغات اتضح لك وجه الشبه بينها لـكنك تجد لـكل امة خصائص في شعائرها ومداركها تمتاز بها عن سواها . فاليونان يظهر من تاريخ آداب لسانهم أنهم يمتازون عن سواهم بسعة التصور وقوة العارضة والجنوح الى الفلسفة . ويمتاز الرومان في السياسة والنظام والتشريع . ويمتاز العرب بدقة الاحساس في نفوسهم وسرعة الخاطر وسعة الخيال . ويمتاز الهنود باستغراقهم في الخيالات والاوهام واليهود أميل الامم الى التدين — وقس على ذلك

وقد ترتب على هذا التفاوت في المواهب امتياز كل أمة باداب أجادت فيها وتناقلها سائر الامم عنها . كامتياز اليونان بالفلسفة والشعر القصصي والتمثيل وعنهم أخذها سائر الامم . وامتاز الرومان بوضع الشرائع والنظامات السياسية والاجتماعية التي هي أساس شرائع أوربا ونظامها الاجتماعي الى هذه الغاية . وامتاز الهنود بوضع القصص الخرافية على السنة الحيوانات مثل كليلة ودمنة وعنهم اخذها سائر الناس . وامتاز اليهود بالتوحيد وهم قدوة الامم فيه . وأما العرب فقد ملأوا الدنيا شعراً وادباً وفقهاً وتاريخاً وهم قدوة الناس في المعاجم العلمية والتاريخية وفلسفة التاريخ

واعتبر ذلك في الامم الاوربية الحديثة فان لـكل منها مزية في شيءمن آداب اللغة . فالفرنساويون أهل فصاحة وطلاقة في الـكلام والانشاء — اشتهروا بذلك من أقدم أزمانهم . قال يوليوس قيصر لما نزل بلادهم قبيل الميلاد « ان الغاليين اهل ذوق في الحرب والـكلام » وأيد ذلك كثرة من ظهر فيهم من الـكتاب والمنشئين والخطباء في الادب بالقياس على سائر امم اوربا . والالمان يمتازون بابحاثهم الفلسفية العويصة وتتبع المواضيع الى اقصى جزئياتها ونقدها وتوسعهم في قواعد اللغة . اما

الانكليز فيمتازون بجنوحهم الى الحقيقة المحسوسة في آرائهم فلا يبنون ابحاثهم الا على الواقع وترى ذلك ظاهراً في اعمالهم واخلاقهم . والايطاليان معروفون بتبرزهم في الفنون الجميلة فهم شديدو التأثر من اعمال الطبيعة وظواهرها

على ان تفوق بعض الامم في بعض الاداب لا يمنع تشابه تلك الامم بسائر الآداب . ويحسن بنا قبل التقدم الى الكلام عن آداب اللغة العربية ان نذكر نموذجاً عن آداب اللغات الاخرى . وقد تقدم ان الامم الشرقية القديمة لم تجمع آدابها وليس لدينا منها مايصح اتخاذه مثالاً لنا . والامم المتمدنة الآن في اوربا واميركا ترجع آداب لغاتها الى اللغة اللاتينية اي لغة الرومان . وهؤلاء اقتبسوا اكثر آدابهم عن اليونان . فاداب اللغة اليونانية خير مثال لاداب لغات العالم المتمدن لانها أساسها كلها من حيث الادب والشعر والفلسفة وسائر العلوم القديمة . وما من أدب اوعلم او فلسفة في اللغة الفرنساوية او الانكليزية او الايطالية او غيرها الا وله اصل او اساس في اللغة اليونانية ـ واكثر مؤلفات تلك الامم ومنظومات شعرائهم في الاجيال الوسطى صور او اظلال لما كان عند اليونان ـ حتى امهن اللاتينية فان الانياد في اللغة اللاتينية لفرجيل انما هي نسخة من الياذة هوميروس وكذلك فردوس ملتن وجهنم دانتي وتلماك فنيلون وغيرهم

فافضل نموذج لاداب العالم المتمدن آداب اللغة اليونانية وهي اهمها جميعاً ولها تاريخ طويل يرجع الى قرون عديدة قبل الميلاد وهاك اقسامها :

٤ — آداب اللغة اليونانية

تقسم آداب هذه اللغة الى سبعة ادوار او اطوار :

١ العصر الخرافي : ويراد به اقدم ازمان الامة اليونانية ولم يبق منها الا القصص الخرافية عن الالهة ونحوهم مما يسمى في اصطلاح الافرنج ميثولوجيا Mythology وهو يبدأ قبل زمن التاريخ وينتهي الى القرن التاسع قبل الميلاد واسماء رجاله وشعرائه خرافية

٢ عصر الابطال والحروب : وهو يشمل القرن التاسع المذكور ونصف الثامن (من سنة ٩٠٠ — ٧٥٠ ق م) وفيه ظهر اقدم الشعر الوصفي او القصصي . نعني

نعني منظومات هوميروس في الالياذة والاوذ يسية وفيه جرت حروب الارانطة وطيبة وحصار ترواده الشهير الذي وصفه هوميروس في الياذته .ولم يبق من اداب هذا العصر غير الشعر القصصي ولم يعرف من شعرائه غير هوميروس وهسيود . اما هوميروس فهو ابو الشعراء ورب الشعر القصصي وقد عاش اسمه بالياذته التي نقلت الى سائر لغات العالم وباوذيسته . اما هسيود فانه جاء بعد هوميروس وخلف شعراً في نشيدين احدهما الف بيت وصف بها بناء العالم وتعاقب الآلهة والآخر ٨٠٠ بيت وصف بها الطبيعة ونسبوا اليه نشيداً ثالثاً مؤلفاً من ٤٠٠ بيت وصف به قوس هركيل

٣ العصر الثالث : من سنة ٥٧٠—٥٠٠ ق م وفيه تحضر اليونان وعمروا المدن ووضعوا الشرائع وأنشأوا المستعمرات حول البحر المتوسط والبحر الاسود واتسعت تجارتهم وقامت الفتن بينهم في التنازع على السلطة فقام مثل هذا التنازع في آداب لسانهم ونشأ الشعر التمثيلي (الدرام Dram) وكان مقره اثينا . وانتشر الشعر على الاجمال ونبغ الشعراء في بلاد اليونان باوربا وأسيا وفي الجزائر وصقلية حتى سبارطة وطيبة . وظهر فيها الشعر الغنائي أو الموسيقي وهو المعبر عن الشعور كالمدح والفخر والحماسة والغزل مثل الشعر العربي . ونبغ في كل قوم او بلد شاعر أو غير شاعر ينصر قومه او يعبر عن شعائرهم . وتكاثر الشعراء وأخذوا يتمادحون ويتهاجون ويتفاخرون كما كان العرب في الجاهلية يفعلون ولذلك سموا هذا العصر عصر الشعر الغنائي Lyric

فمن شعراء هذا العصر الهجائين ارشيلوك الفاروسي من اهل القرن السابع ق م ولم يبق من شعره الا نتف مبعثرة . وسيمونيد والامارغوسي كان معاصراً لارشيلوك ولم يبق من شعره الا ١٨ بيتاً في وصف المرأة . وهيبونكس الافسي من اهل اواسط القرن السادس ق م كان ظهوره في آخر التنازع بين الاشراف والعامة ولم يعرف عنهُ الاَّ القليل .

ومن شعراء هذا العصر الحماسين غالينوس الافسي وتيرتيه . ومن اصحاب السياسة صولون استخدم الشعر في السياسة وهو مشهور . ومن أهل الحماسة الادبية ثيوغنيس الميغاري نبغ في سنة ٣٤٠ ق م شعره ادبي حكمي ولايزال باقياً من منظومه الآن ١٢٠٠ بيت

وأقدم شعراء الشعر الغنائي عندهم تربائدر وهو الذي اخترع العود ذا السبعة الاوتار واسمه Lyr واليه ينسب هذا النوع من الشعر لانهم كانوا يغنونه . وعلم تربائدر عدة تلامذة في لسبس وانتيسا ومتلين . ومن تلامذته اريون والسي وسافو . ونبغ ايضاً شواعر من تلامذته منهن اريني . ومن قبيــل الشعر الغنائي الشعر الديني الذي كانوا يغنونه في الصلوات

وأشهر شعراء اليونان في الشعر الغنائي بندار مثل شهرة هوميروس في الشعر القصصي ولد سنة ٥٢٢ ق م وله آثار كثيرة لا تزال باقية الى الآن . ومنها قصائد مدح بها الظافرين كما كان يفعل المتنبي في مدح سيف الدولة والاخطل في مدح عبد الملك

وفي هذا العصر ظهر فيثاغورس الفيلسوف الرياضي الشهير وزينوفون و برمنيدس وامبيد كليس وطالس وانا كسميندر وانا كساغورس وقدمس وايسوب وغيرهم

٤ العصر الأتيّ او الاثيني : (سنة ٥٠٠ —٣٠٠ ق م) نسبة الى اثينا لان اكثر أدباء هذا العصر نبغوا هناك . وفيه نضج الشعر التمثيلي والفلسفة والخطابة وظهر التاريخ . وأقدم شعراء التمثيل ثسبس وفرينيكوس و براتيناس وأشهرهم اشيل وسفوكلس ويوريبيدس للتمثيل المحزن (تراجيديا) وارستوفانس . وأشهر مؤرخيه هيرودوتس ابو التاريخ وتوسيديد وزينوفون وستيسياس وفيلست . ومن الجغرافيين هانون ونيارك . ومن الخطباء بريكليس وكليون والسيبياد وكوراكس وتيسياس وبروتاغوراس وانتيفون واندوسيد وليكورغوس وهيبريد ودينارك وديموستين ودماد وفوسيون . ومن الفلاسفة سقراط وزينوفون وافلاطون وارسطو وثيوفراست

٥ العصر الاسكندري : (٣٠٠ — ١٤٦ ق م) وفيه انتقل العلم من أثينا الى الاسكندرية على عهد البطالسة فزهت هذه المدينة بالعلماء والفلاسفة . وكانت هي وحدها مرسح العلم ومبعث العلماء . ومن مشاهير هذا العصر في الرياضيات اوقليدس وارخميدس . وفي التاريخ هيكاتس ومانيثون وبروسيوس . ومن الجغرافيين ديسيارك واراتوستن . ومن الشعراء الغنائيين كليماك وابولونيوس الرودسي ويوفوريون . ومن شعراء التمثيل ليكوفون وتيمون ومنيب وثيوكريت . ومن الفلاسفة ليسيوس وابيكوروس

٦ العصر اليوناني الروماني : (١٤٦ ق م—٣٣٠ ب م) وكانت بلاد اليونان قد

سقطت وذهبت دولتها ودخلت في حوزة الرومان فذهب علمها وخملت قرائح اهلها ــ والذل يذهب بالقرائح ـ فضعفت آداب اللغة فيها . ولكن النصرانية احدثت انقلاباً في تلك الآداب فادخلت فيها بعض الاساليب الشرقية . ومن مشاهير أدباء هذا العصر في التاريخ والادب بوليبس ولوسيدونيوس ونيقولاس وسترابو ودنيس وديودورس ويوسيفوس وبلوتارخس واريان وابيان وبوسانياس وهيروديان . وفي الشعر ارخياس وابولودورس . ومن الفلاسفة فيلون اليهودي واناسيديمس وكريسوستوم وغيرهم

٧ العصر البيزانتي : (من سنة ٣٣٠ ــ ١٤٥٣ ب م) زهت فيه بيزانس (القسطنطينية) وكانت مركز الآداب اليونانية . وما زالت مرجع العالم اليوناني حتى فتحها العثمانيون سنة ١٤٥٣ م فانقضت دولة الروم وتشتت علماؤها في اوربا . وكانوا في جملة من اعانها على نهضتها في انشاء التمدن الحديث . ومن علماء هذا العصر هيمريوس وتمستس وليبانيوس وجوليان وهليودورس واشيل تايتوس وتريفيودور وجماعة كبيرة من رجال الكنيسة

هذه خلاصة تاريخ آداب اللغة اليونانية فقس عليها تواريخ آداب سائر اللغات الاوربية فانها كثيرة الشبه بها من حيث تناسق عصورها بالنظر الى نشوء العلوم فيها . فان اقدم آدابها دائماً الشعر الديني يليه الشعر القصصي والتمثيلي فالغنائي ثم ينشأ الادب والخطابة والتاريخ وتضبط اللغة وقواعدها ثم الفلسفة والعلم الطبيعي ثم تستغرق الامة في المبالغات والتفاصيل الخارجة عن المعقول ويقل فيها الاستنباط وتبلى جدة الشعر وتضعف القرائح بالذل والتقهقر

٥ ــ آداب اللغة العربية واقسامها

واذا نظرنا الى آداب اللغة العربية واخواتها الساميات رأيناها تنطبق على ما تقدم بوجه اجمالي . أما عند التفصيل فاننا نجد بين آداب هذه اللغات وتلك فرقا كالفرق بين طبائع الامتين . فالشعر عند الساميين اقدم آدابهم لكنه اكثره غنائي وليس فيه من الشعر القصصي الا نتف قليلة . أما التمثيل (درام) فيظهر لاول وهلة

انه بعيد عن آداب العرب وسترى انه موجود فيها — ولا غرو اذا امتازت اللغات الاوربية بالشعر القصصي والتمثيلي فان اللغة العربية واخواتها يمتزن بنوع من الآداب كبير الاهمية ليس فيهِ من لغات الافرنج الا تتف نعني « الامثال » فانها جزء مهمّ من آداب اللغات السامية ولا سيما العربية والعبرانية وتندر في سواها

وآداب اللغة العربية التي هي موضوع هذا الكتاب أغنى سائر الآداب الساميَّة بل هي على الاجمال أغنى آداب سائر لغات العالم . لان الذين وضعوا آدابها في اثناء التمدن الاسلامي اخلاط من امم شتى جمعهم الاسلام أو الدولة الاسلامية وفيهم العربي والفارسي والتركي والهندي والسوري والعراقي والمصري والرومي والارمني والبربري والزنجي والصقلبي وغيرهم . وكلهم تعربوا ونظموا الشعر العربي والفوا الكتب العربية في الادب والنحو والتاريخ والطب والعلم والفلسفة . فاحتوت آداب اللغة العربية بسبب ذلك على أحاسن القرائح وشتات الاخلاق والآداب والطبائع وادخلوا فيها كثيراً من اساليب السنتهم الاصلية بدون قصد أو تعمل

ونريد بتاريخ آداب اللغة العربية بسط ما تقلبت عليه اللغة وآدابها من أقدم ازمانها الى الآن . فهي بهذا الاعتبار تقسم الى اطوار لكل منها شأن يمتاز عن سواه وقد لاحظنا في تقسيم هذا التاريخ ما توالى على الامة من الانقلابات السياسية أو الادارية أو الادبية وما كان من تأثير ذلك على المواهب والقرائح

اقسام تاريخ آداب اللغة العربية

ويجوز قسمة تاريخ آداب اللغة العربية أما حسب علومها وآدابها أو حسب الاعصر التي توالت عليها . ونريد بقسمتها حسب العلوم ان نستوفي الكلام في كل علم على حدة من نشأته الى الآن . على ان نبدأ باقدمها وتندرج الى احدثها فنبدأ بآداب الجاهلية فنذكر تاريخ الشعر مثلا وتراجم الشعراء من نشأته وما تقلب عليه من الادوار في الجاهلية والاسلام في دولة الراشدين فالامويين فالعباسيين فغيرهم الى اليوم . ونفعل مثل ذلك في الخطابة وغيرها من آداب الجاهلية. وبالفقه والتفسير والادب والنحو واللغة وغيرها من الآداب الاسلامية وهكذا نفعل بالعلوم الدخيلة منذ دخولها وما تقلب عليها الى الآن

أما قسمتها حسب الاعصر فيراد بها الكلام عن العلوم كلها معاً في كل عصر على حدة • وهذا الذي اخترناه في هذا الكتاب لانه يصور حالة العصور المختلفة وما يكون من تأثير السياسة وانقلاباتها على العلم والادب . ولذلك فقد قسمنا تاريخ آداب اللغة العربية الى قسمين كبيرين يفصل بينهما أهم انقلاب اصاب العرب من اول عهد تاريخهم الى الآن ـ نعني ظهور الاسلام . فهي بهذا الاعتبار تقسم الى آداب اللغة قبل الاسلام وآدابها بعده . وقسمنا آدابها قبل الاسلام الى عصرين عصر الجاهلية الاولى وعصر الجاهلية الثانية . وقسمنا تاريخها بعد الاسلام الى اعصر أو اطوار تناسب انقلاباتها السياسية أو الاجتماعية وهي :

١ عصر الخلفاء الراشدين
٢ العصر الاموي
٣ العصر العباسي
٤ العصر المغولي
٥ العصر العثماني
٦ العصر الحديث

وقسمنا العصر العباسي الى اطوار بحسب التقلبات السياسية كما ستراهُ في مكانه



آداب اللغة العربية

قبل الاسلام

١ — العصر القديم أو الجاهلية الاولى

من قبل التاريخ الى القرن الخامس للميلاد

لم يتصدَّ أحدٌ للبحث في آداب اللغة العربية قبل زمن التاريخ لقلة المواد المساعدة على ذلك ولاعتقادهم أن العرب حتى في الجاهلية الثانية قبل الاسلام كانوا غارقين في الفوضى والجهالة لا عمل لهم الا الغزو والنهب والحرب في بادية الحجاز والشام وفي نجد وغيرها من بلاد العرب . على اننا اذا نظرنا الى لغتهم كما كانت في عصر الجاهلية نستدل على ان هذه الامة كانت من اعرق الامم في المدنية لانها من أرقى لغات العالم في أساليبها ومعانيها وتراكيبها — واللغة مرآة عقول اصحابها ومستودع آدابهم . فمتكلمو اللغة الفصحى كما جاءتنا في القرآن والشعر الجاهلي والامثال لا يمكن أن يكون اصحابها دخلوا المدنية أو العلم من قرن أو قرنين فقط . اذ لا يتأتى للغة من لغات المتوحشين ان تبلغ مبلغ لغات المتمدنين الا بتوالي الادهار فكيف باللغة العربية الدالة على سمو مدارك أصحابها وسعة تصورهم ودقة نظرهم كما سنبينه في أماكنه

على ان الاكتشافات الاثرية ايدت هذا الرأي بما اظهرته من بقايا تمدن اليمن قبل الاسلام ببضعة عشر قرناً ولم يظهر من تلك الاطلال الا الطفيف لان ما عثروا عليه من الاحافير لا يذكر في جانب ما بقي مدفوناً في الرمال . فضلاً عما ظهر من فضل العرب واعراقهم في المدنية والعلم مما قرأوه من آثار بابل وأشور . فاذا صح ان دولة حمورابي التي تولت بابل وسائر العراق في القرن الخامس والعشرين قبل الميلاد



ش ١ : حمورابي

عربية كما بينا ذلك في كتابنا « العرب قبل الاسلام » (١) ـ كان العرب من أسبق الامم الى المدنية والعلم فانهم اقدم من وصلتنا شرائعهم وقوانينهم . هذه شريعة حمورابي التي عثروا عليها في بلاد السوس منقوشة بالحرف المسماري على مسلة من الحجر الاسود الصلب سنها حمورابي في القرن الثالث والعشرين قبل الميلاد اي قبل شريعة موسى بثمانية او تسعة قرون . وهي مؤلفة من ٢٨١ مادة تبحث في طبقات الامة وحقوق المرأة وواجباتها والزواج والتبني والارث وغيره

هم أقدم من أنشأ المدارس

والحمورابيون او عمالقة العراق اقدم من أنشأ المدارس لتعليم الصغار على نحو ما هو جار الآن وقد كشفوا في اثار زيبارا انقاض مدرسة لتعليم الاطفال وهذه أول مرة سمعنا

(١) العرب قبل الاسلام صفحة ٤٩ ج ١

بمدرسة مثل هذه في التمدن القديم اي منذ اربعة آلاف سنة وكان فيها (قرميدات) عليها دروس للاطفال والاحداث في الحساب والهجاء وجداول الضرب ومعجمات ونحوها واكتشفوا كثيراً من الكتب والرسائل المنقوشة على الاحجار او القراميد واكثرها لحورابي وفيها الصكوك والعقود والمسائل الرياضية والارصاد الفلكية والنصوص التاريخية والادعية الدينية . ومن اكبر ادلة الرقي في ذلك العهد ان المرأة كانت متمتعة بحريتها واستقلالها مثل أرقى نساء هذا التمدن وكن يتعاطين المهن القلمية وانخرط جماعة منهن في خدمة الدواوين والمصالح الاميرية



ش ٢ : أنقاض مدرسة حمورابية منذ ٤٠٠٠ سنة

فاذا صح ان هذه الدولة عربية كان العرب أسبق أمم الارض الى سن الشرائع وتنشيط العلم وانهم بلغوا في نظام الاجتماع ما لم يبلغ اليه معاصروهم وادركوا من الرقي الاجتماعي ما لا يزال بعض الامم المتمدنة في هذا العصر بعيدين عنه

ونحن في غنى عن التنبيه الى ان قولنا ان الدولة الحمورابية عربية لا يتبادر منه الى ذهن القارىء انه مثل قولنا « دولة الاسلام عربية » واذا صحت عربية تلك فلا يستلزم ان تكون لغتها مثل لغة القرآن ولا ان عاداتها ودياناتها مثل ما لعرب قريش فان بين الدولتين ٢٧ قرناً والامم تتغير عاداتها ولغاتها بتغير الاقاليم وتوالي العصور

تأثير الحمورابيين في الشرائع الحاضرة

ولم يقتصر فضل الحمورابيين أو عمالقة العراق على ما شادوهُ في ما بين النهرين وماخلفوهُ هناك من آثار مدنيتهم وعلمهم ولكنهم نشروا آدابهم وديانتهم وشريعتهم في جزيرة العرب من اقصائها الى أقصائها على ايدي المعينيين جالية عمالقة العراق في اليمن[1] على أثر سقوط دولة حمورابي في مابين النهرين . فانتشرت آداب الحمورابيين وديانتهم وشريعتهم في جزيرة العرب كما سنبينه في الجزء الثاني من تاريخ العرب قبل الاسلام وخصوصاً في البقاع العامرة منها ومن جملتها اليمن ومدين والحجاز

وللحمورابيين فضلٌ على كل من استعان بشريعة موسى لان فيها كثيراً من نصوص شريعة حمورابي كما بينا ذلك في الهلال ٥ سنة ١٣ اذ اتينا بنصوص متقابلة متشابهة في الشريعتين تشابهاً كليًّا وحمورابي قبل موسى بثمانمائة سنة . فكأن صاحب شريعة موسى اقتبس من شريعة حمورابي

وتعليل ذلك في نظر نيلسن[2] ان مدين أو مديان كانت اقرب بلاد العرب العامرة الى مصر لا يفصلها عنها الا برية سينا . وكان المعينيون عرب اليمن القدماء يفدون اليها بتجاراتهم وقوافلهم أو يمرون بها في طريقهم الى الشام أو مصر . وكان للمديانيين معابد بنوها على شكل معابد الحمورابيين في العراق وفيها كهان قد حفظوا الشرائع وشادوا الهياكل والمذابح . ولا خلاف انهُ كان في مدين بالقرن الرابع عشر قبل الميلاد كاهن سمي في التوراة مرة يثرو ومرة رعوئيل فهو كاهن عربي يشهد بذلك اسمهُ المزدوج ـ وتلك كانت عادة العرب في ذلك العهد يسمون الرجل باسمين احدهما لقب فيقولون « وقه ايل يثع » و « يثع ايل ريام » ونحو ذلك[3] فالظاهر ان كاهن مديان كان اسمهُ « يثرو رعوئيل » فذكرتهُ التوراة مرة بالاسم ومرة باللقب . والصيغة العربية ظاهرة في اكثر الاسماء التي جاء ذكرها في قصة موسى في مديان وغيرها وخصوصاً اسم ابن الكاهن « حباب »

---

(١) العرب قبل الاسلام ١١١ ج ١ (٢) في كتابه عن عبادة القمر عند العرب وشريعة موسى المسمى Die altarabische Mondreligion etc.

(٣) العرب قبل الاسلام ١١٢ ج ١

وفي سفر الخروج ان موسى بعد ان قتل المصري خرج الى مديان والتقى ببنات يثرو عند بئر وهنّ سبع جئن ليستقين فتعدى الرعاة عليهن فانجدهن موسى وسقى غنمهن فعدن الى الكاهن واخبرنهُ فاستقدمهُ اليهِ واسكنهُ عندهُ وأزوجهُ صفورة احدى بناته وولدت لهُ اولاداً . وكان موسى يرعى غنم يثرو الكاهن فساق الغنم الى ما وراء البرية حتى افضى الى جبل حوريب فتجلى له ملاك الرب في لهيب نار من وسط العليقة فاذا العليقة تتوقد بالنار ولا تحترق — الى آخر ما جاء هناك

فيرى نيلسن ان حوريب مكان عبادة على نحو ما أخذه العرب عن الصابئة العراقيين من تقديس الجبال واقامة الحرم أو الحمى حول المعابد بحيث لا يطأهُ الغرباء وان الغنم التي كان موسى يرعاها هي غنم الحرم . وان النار التي رآها من رموز الصابئة عن الكواكب . فلم يستطع موسى دخول الحرم لانهُ غريب فادخلهُ حموهُ وجعلهُ كاهناً وعلمهُ قواعد الدين . وان حوريب اسم الكوكب الذي يعبد هناك . وفي أي حال فان موسى تعلم الشريعة من يترو وهي شريعة حمورابي فادخل كثيراً من احكامها في شريعته

ومهما يكن من تعليل نيلسن فلاخلاف في ان شريعة موسى فيها كثير من شريعة حمورابي وهو فضل للعرب القدماء ودليل على قدم مدنيتهم

سفر ايوب

ومما يعدُّ من قبيل آداب العرب في ذلك العصر سفر ايوب والمرجح عند أهل التحقيق ان صاحب هـذا السفر في التوراة عربي الاصل . نظم ذلك الكتاب شعراً عربيًا في نحو القرن العشرين قبل الميلاد على أثر نزوح الحوراببين من بين النهرين ثم ترجم الى العبرانية وعدَّ من الاسفار المقدسة وضاع اصلهُ العربي كما ضاع اصل كليلة ودمنة الفارسي . فاذا ثبتت عربية سفر ايوب كان العرب اسبق الامم الى قرض الشعر لانه نظم قبل الياذة هوميروس بالف سنة وقبل مهابهاراتة الهند بعدة قرون

٢ — الجاهلية الثانية

أو

العصر الجاهلي قبيل الاسلام

من القرن الخامس للميلاد الى ظهور الاسلام

ان الحكم على ما تقدم من احوال الجاهلية الاولى مبني على الحدس والتخمين لاستغراقه في القدم وضياع اخبار تلك الجزيرة بتمادي الايام . ولعلهم اذا نشطوا للحفر والتنقيب كشفوا عن حقيقة هذه الظنون الستار

الفرق بين لغة الجاهلية الاولى والثانية

وفي كل حال ان عرب ذلك العهد القديم يختلفون عن عرب عصر الجاهلية الثانية قبيل الاسلام لغةً وديناً وادباً وخلقاً . فالحمورابيون كان اكثرهم اهل حضارة وتمدن يتوطنون المنازل والمدن . واما عرب الجاهلية الثانية فاكثرهم اهل بادية ونجع وكانت لغة الحمورابيين اقرب الى الاشورية منها الى العربية — فلغة ايوب اذا كانت عربية فهي غير عربية مضر التي وصلت الينا من عرب قريش وسائر الحجاز . وقد يكون الفرق بينهما كثيراً جدًّا اكثر من الفرق بين لغة القرآن ولغة عامة مصر او الشام الآن . لان اهل هذين المصرين قيدوا انفسهم بالمحافظة على لغة القرآن واساليبه . فكلما ساقتهم طبيعة النشوء نحو التغيير اعادهم التقليد الى الاصل . ولولا ذلك لكان الفرق بين لغة عامتنا واللغة الفصحى ابعد من ذلك كثيراً

قس مقدار الفرق بين لغة مضر ولغة عمالقة العراق بالفرق الذي وجدوه بين لغة عرب الشام في اوائل القرن الرابع للميلاد مما قرأوه على قبر امرىء القيس بن عمرو ملك الحيرة و بين لغة مضر عند ظهور الاسلام — وذلك انهم عثروا في اطلال النمارة في حوران على حجر عليه كتابة عربية بالخط النبطي نقشت في اوائل القرن الرابع للميلاد اي قبل الاسلام بثلاثة قرون وهذه صورتها : (ش ٣)

١
٢
٣
٤
٥

ش ٣ : كتابة عربية بخط نبطي على قبر امرىء القيس بن عمرو سنة ٣٢٨ م

واليك نصها كما تقرأ كل سطر على حدة :

١ تي نفس مر القيس بر عمرو ملك العرب كله ذو اسر التاج
٢ وملك الاسدين ونزرو وملوكهم وهرب مذ حجو عكدي وجاء
٣ يزجو (؟) في حبج نجران مدينة شمر وملك معدو ونزل بنيه
٤ الشعوب ووكله لفرس ولروم فلم يبلغ ملك مبلغه
٥ عكدي هلك سنة ٢٢٣ يوم ٧ بكسلول بلسعد ذو ولده

هذا لسان عربي تشوبه صبغة ارامية يحتاج تفهمها الى ايضاح وهاك تفسير هذه الكتابة باللغة العربية الفصحى وهو :

١ هذا قبر امرىء القيس بن عمرو ملك العرب كلهم الذي تقلد التاج
٢ واخضع قبيلتي اسد ونزار وملوكهم وهزم مذحج الى اليوم وقاد
٣ الظفر الى اسوار نجران مدينة شمر واخضع معدًّا واستعمل بنيه
٤ على القبائل وانابهم عنه لدى الفرس والروم فلم يبلغ ملك مبلغه
٥ الى اليوم . توفي سنة ٢٢٣ في اليوم ٧ ايلول (سبتمبر) وفق بنوه للسعادة

وكان اهل الشام وحوران وما يليهما يؤرخون في ذلك العهد بالتقويم البصروي نسبة الى بصرى عاصمة حوران وهو يبدأ بدخولها في حوزة الروم سنة ١٠٥ للميلاد فاذا اضيفت الى ٢٢٣ كان المجموع ٣٢٨ للميلاد وهي السنة التي توفي فيها هذا الملك

انظر الى الفرق بين الاصل وتفسيره والمدة بين هذين العصرين ثلاثة قرون فكيف تكون وبينهما بضعة وعشرون قرناً ؟ والتغيير طبيعي في كل لغة عملاً بناموس النشوء — اعتبر ذلك في الفرق بين اللغة اللاتينية الاصلية وما تخلف عنها من الايطالية

والاسبانية وبين اللغة الانكليزية القديمة والحديثة وغير ذلك

فاداب العرب في جاهليتهم الثانية يراد بها آدابهم قبيل الاسلام وهم اهل بادية لا يقرأون ولا يكتبون . وانما جمعت هذه الآداب بعد الاسلام بالاخذ عن الافواه كما سيأتي

درجة ارتقائهم في العقول والاخلاق

وقد يتبادر الى الاذهان ان اولئك البدو وكانوا اهل جهالة وهمجية لبعدهم عن المدن وانقطاعهم للغزو والحرب . ولكن يظهر مما وصل الينا من اخبارهم انهم كانوا كبار العقول اهل ذكاء ونباهة واختبار وحنكة . وا كثر معارفهم من ثمار قرائحهم وهي تدل على صفاء اذهانهم وصدق نظرهم في الطبيعة واحوال الانسان مما لا يقل عن نظر اعظم الفلاسفة . فان قول زهير بن ابي سلمى في معلقته :

رايت المنايا خبط عشواء من تصب ... تمته ومن تخطئ يعمر فيهرم

رايت سفاه الشيخ لا حلم بعده ... وان الفتى بعد السفاهة يحلم

واعلم ما في اليوم والامس قبله ... ولكنني عن علم ما في غد عمي

ومن لم يصانع في امور كثيرة ... يضرّس بانياب ويوطأ بمنسم

ومن يجعل المعروف من دون عرضه ... يفره ومن لا يتق الشتم يشتم

ومن يصنع المعروف مع غير اهله ... يعد حمده ذما عليه ويندم

ومن لا يزل يستحمل الناس نفسه ... ولا يعفها يوماً من الدهر يسأم

ومهما تكن عند امرىء من خليقة ... وان خالها تخفى على الناس تعلم

لا يقلُّ شيئاً على احكام اكابر الفلاسفة . وانك تجد كثيراً من امثال ذلك في اشعارهم كأن الشعر وصلهم ناضجاً بعد ان عولج قروناً متطاولة ذهبت اخبارها . فهم لذلك يشكون من ان اسلافهم لم يتركوا لهم معنى لم يطرقوه كقول عنترة « هل غادر الشعراء من متردم » وقول زهير :

ما ارانا نقول الا معاراً ... او معاداً من قولنا مكرورا

ارتقاؤهم في السياسة والعمران

على انك اذا نظرت في لغتهم تبين لك ان اصحابها من أرقى الامم سياسيًا واجتماعيًا وان عرفناهم بدواً رحالة — واللغة دليل اخلاق الامة ومرآة آدابها وسائر احوالها — ومن المقرر الثابت ان اللغة لا تتولد فيها كلمة الا للتعبير عن معنى حدث في اذهان اصحابها . فاذا وجدنا في لغة من اللغات اسماً لنوع من اللباس نحكم قطعيًا ان اصحابها عرفوه أو لبسوه أو نوعاً من الاطعمة عرفنا انهم اكلوه . و بعكس ذلك خلوها من اسماء بعض الادوات فانه يدلنا على جهلهم اياها

وقس على ذلك الالفاظ المعنوية التي تدل على المعاني المجردة كالعواطف والفضائل فان وجودها في اللغة يدل على ان اصحابها عرفوا تلك العواطف والفضائل وعانوها . ولذلك كانت لغات الامم المتوحشة خالية من هذه الالفاظ وامثالها

واللغة العربية من اغنى لغات الارض بالالفاظ العمرانية والسياسية . ان فيها عشرات من الالفاظ لضروب الجماعات من الناس على اختلاف اغراض اجتماعهم كالشعب والجماعة واللجنة والزراقة والسرب والكوكبة والقوم والنفر والشرذمة والعصابة . ومثلها لاماكن الاجتماع كالمحفل والنادي والندوة والمأتم والمجلس والموسم والمدرس والمصطبة [1] وعشرة منها للتعبير عن فرق الجند كالجريدة والسرية والكتيبة وغيرها . وفيها للقلم والورق عشرات من الاسماء والالقاب كالملقاط واليراع والانبوبة والاسل والجلف للقلم. والقرطاس والطرس والمهزف والرف والطلس والمجلة والصحيفة — ولكل منها معنى خاص

ومن انواع الكتب : القمطر كتاب الاعمال . المدرس الصك . الزبور . الرقيم . والسفر الكتاب الكبير . والضبار الكتب بلا واحد . الرهنامج كتاب الطريق وهو الكتاب الذي يسلك به الربانية البحر ويهتدون بهِ في معرفة المراسي وغيرها . الوصير الصك للسجلات وقس على ذلك

وقد عالجوا الفاظ لغتهم معالجة الاستثمار فاكثروا فيها من المترادفات التي يدل عشرات اومئات منها على معنى واحد اومعان متشابه . وتوسعوا في مدلول اللفظ الواحد

---

(١) لطائف اللغة ٦٤و١٠٨

حتى تعددت معانيه. فعندهم للفظ العين بضعة وعشرون معنى ومثلها او اكثر منها للفظ العجوز . وعشرات من المعاني لالفاظ الخال والخمر والدين والركن والغرب والحر وغيرها وأقل من ذلك لكثير من الالفاظ مما لا مثيل له في ارقى لغات البشر . وهو يدل على تصرف اصحاب هذه اللغة بالمعاني والمباني لخصب عقولهم وسعة مداركهم

ارتقاؤهم في التجارة والاقتصاد

ومما يدل على توسعهم في المسائل اقتصادية كثرة الالفاظ الدالة على المال . فان منها بضعة وعشرين اسماً لكل منها معنى من المعاني الاقتصادية التي ترجع الى الاستثمار وغيره منها : التلاد المال الموروث . الركاز المال المدفون . الضمار المال لا يرجى . الطارف المال المستحدث . التالد المال القديم . ونحو ذلك العدد من اسماء النقود وانواعها من الذهب والفضة . وعندهم للذهب وحده اكثر من عشرين اسماً كل منها لنوع منه . وفي اللغة العربية مئات من الالفاظ للدلالة على انواع الارض والتربة والطين باختلاف الخصب والجدب ونحو ذلك . ومن الادلة على توسعهم في التجارة والاسفار كثرة اسماء السفن عندهم وهي عشرات لكل منها معنى خاص لشكل خاص من السفن. ويلحق بذلك اسماء الرياح وهي تزيد على المئة ولكل منها معنى يدل على نوع الريح وجهتها كقولهم «اذا وقعت الريح بين الريحين فهي النكباء فاذا هبت من جهات مختلفة فهي المتناوحة فاذا ابتدأت بشدة فهي النافجة فاذا حركت الاغصان . وقلعت الاشجار فهي الزعزاع » وقس على ذلك سائر اسمائها وهي تدل على توسعهم في معرفة الظواهر الجوية. ومن هذا القبيل اسماء الطرق وانواع البقاع وغيرها مما يطول بنا شرحه . ومن قبيل المواد التجارية الموازين فانها عديدة واعتبر ذلك بكثرة اسماء ادوات الصناعة واواني الاطعمة والرياش والاثاث واللباس مما يفوق الحصر . وتجد منه امثلة كثيرة في المخصص وفقه اللغة ولطائف اللغة وغيرها

تعقلهم وآراؤهم

ولك في امثالهم والكنايات في عباراتهم وما نشأ عندهم من الفنون العقلية التي تحتاج الى تفكير كالاحاجي والالغاز وفتيا العرب ادلة أخرى على ارتقاء اذهانهم وسمو مداركهم . واعتبر ذلك أيضاً في مذاهبهم في الوجود فانها تدل على تفكيرهم وقد كان

فيهم من ذلك العهد البعيد من يقول بمذهب اللاأدرية . فكان جندب بن عمرو يقول « ان للخلق خالقاً لا اعلم ماهو » وهو قول جماعة من فلاسفة اليونان واليهِ يذهب كثيرون من المفكرين في هذا العصر

ولا يبعد ان العرب اقتبسوا ذلك وأمثاله من مخالطة بعض العلماء الوافدين عليهم أو في اثناء وفودهم على الشام أو العراق وفيهما العلماء والفلاسفة . ومن هذا القبيل قول الاعشى وكان نصرانيًا :

استأثر الله بالوفاء و بالعد ل وولى الملامة الرجلا

وهو مذهب فلسفي يراد بهِ رفع التبعة عن الانسان . والمظنون ان الاعشى أخذ ذلك من بعض العباديين بالحيرة

وترى اقوالهم المأثورة لا تخلو من كناية وخيال شعري وصدق نظر في الامور كالاقوال المنسوبة الى اكثم بن صيفي وغيره من حكمائهم . ويؤيد ذلك ان المسلمين لما تمدنوا وانشأوا العلوم جعلوا أساس علومهم اللسانية والادبية والاجتماعية آداب العرب الجاهلية وما زالوا في كثير منها مقصرين عن ادراك الشأو الذي بلغ اليهِ أولئك البدو عشراء الجمال وسكنة الصخور والرمال . فالشعراء والخطباء والكتاب وأهل الادب في الاسلام عمدتهم في اتقان صناعتهم الرجوع الى ما كان منها قبل الاسلام . والآداب الجاهلية أساس الآداب الاسلامية في ابان التمدن الاسلامي كما كانت الآداب اليونانية والرومانية أساس الآداب العصرية في التمدن الحديث

وكان للعرب في جاهليتهم القاب يلقبون بها النابغين منهم كما كان لسائر الامم المتمدنة قديماً وحديثاً فاذا نبغ أحدهم بالشعر سموه « الشاعر » ونسبوهُ الى قبيلته فقالوا «شاعر تميم » أو عامر أو نحو ذلك فيكون هذا اللقب مميزاً لهُ عن سواه وكذلك الخطيب واذا امتاز احدهم بالحكمة والفصل في الخصومة سموه « الحكم » مثل عامر بن الظرب ونحوه . وكان لهم لقب لا يعطى الا لمن احرز كل الاداب والفضائل وهو لفظ « الكامل » فكانوا يلقبون به الرجل اذا كان شاعراً شجاعاً كاتباً سابحاً رامياً وهو يشبه لقب «علامة » اليوم ولقب «فيلسوف » عند اليونان القدماء وقد لقبوا به ارسطو ولعل العرب اقتبسوه منهم

فبناء على ذلك لا ينبغي لنا ان نستخف بآداب العرب قبل الاسلام ونحسبها قاصرة على الشعر والخطابة واللغة بل هي اكثر من ذلك . ولكن اكثرها ضاع لانها لم تدون فذهبت بذهاب الحفاظ بالحروب واشتغال الناس بالاسلام . فنستدل بما بقي على ما كان

المرأة في الجاهلية

من ارقى النساء

ومن اكبر الادلة على رقي العرب في جاهليتهم ارتقاء نسائهم . فقد كان للمرأة عندهم رأي وارادة وكانت صاحبة أنفة ورفعة وحزم. فنبغ غير واحدة منهنَّ في السياسة والحرب والادب والشعر والتجارة والصناعة ولاسيا في اوائل الاسلام على أثر ما حصل من النهضة في النفوس والعقول . فاشتهرت جماعة منهنَّ بمناقب رفيعة تضرب بها الامثال واكثرها في المدينة مقر الخلافة الاسلامية في ذلك العهد

الشهيرات في الشجاعة

فاللواتي اشتهرن في الجاهلية بالشجاعة وشدة البطش أو كبر النفس منهنَّ سلمى بنت عمر احدى نساء بني عدي بن النجار فانها كانت امرأة شريفة لا تتزوَّج الرجال الا وامرها بيدها اذا رأت من الرجل شيئاً تركتهُ . على ان الغالب في نساء الجاهلية ان يخيرن قبيل الزواج فلا يزوج الرجل ابنته الا بعد ان يشاورها . واشتهرت التيميات من نساء قريش في حظوتهنَّ عند رجالهن وكبريائهن وقسوتهن عليهم . ناهيك بمن اشتهرن منهنَّ بالبسالة في اثناء الغزوات . ففي معركة أُحد وقع لواء قريش في ساحة القتال فلم يزل صريعاً حتى اخذتهُ امرأة منهم اسمها عمرة بنت علقمة الحارثية فرفعته لهم فلاذوا بها . وفعلت هند بنت عتبة امرأة ابي سفيان في تلك المعركة ما لم يفعله الرجال وهي تنشد في تحريض قومها على الثبات . ولما انتهت الواقعة خرجت مع النسوة تمتار جثث الموتى فوجدت بينها جثة حمزة عم النبي فبقرت بطنه واخرجت كبده فلاكتها من غيظها فلم تستطع ان تسيغها فلفظتها . ثم علت صخرة وانشدت اشعاراً تفخر بالفوز على المسلمين

ونساء الجاهلية كن يصحبن الرجال الى ساحة القتال فيداوين الجرحى ويحملن

قرب الماء . وممن اشتهرن بالشجاعة أم عمارة بنت كعب الانصارية وام حكيم بنت الحرث والخنساء الشاعرة أخت صخر وغيرهنَّ

الشهيرات في الرأي والحزم

ونبغ بالرأي والحزم غير واحدة اشهرهن خديجة بنت خويلد وكانت عاقلة حازمة لبيبة ذات شرف ومال تنتقي من اشتهر من الرجال بالامانة والحزم فتستأجرهم بمالها وتضاربهم اياه بشيء تجعله لهم . ولما سمعت بشهرة النبي قبل الدعوة بالامانة وكرم الاخلاق بعثت اليهِ ان يخرج في مالها تاجراً الى الشام وتعطيهِ افضل ما كانت تعطي غيره من الرجال . فلما افلح في تجارتهِ عرضت عليهِ ان يتزوَّج بها فأجابها . وهي اول من أسلم وقد نشطته للقيام بالدعوة فكان لا يسمع شيئاً مما يكرهه من ردّ عليهِ أو تكذيب له فيحزنه ويخبرها بهِ الاثبتتهُ وخففت عنهُ وهوَّنت عليه. وما زالت على ذلك حتى ماتت[١] وهل اكبر نفساً من الخنساء عند ماحرضت اولادها على الثبات في واقعة القادسية فلما بلغها انهم قتلوا في سبيل الجهاد قالت « الحمد الله الذي شرفني بقتلهم »

الشهيرات في الشعر والادب

وكان للمرأة في الجاهلية شأن في الشعر والادب وسائر العلوم فنبغ منهن عدة شواعر أشهرهن الخنساء وخرنق ولهما اشعار مطبوعة ومنشورة على حدة . وهناك عشرات من النساء الشواعر ذهبت اشعارهنَّ الا قليلاً جاءنا عرضاً في بعض الاخبار. منهن كبشة اخت عمرو بن معدي كرب وجليلة بنت مرة اخت كليب الفارس المشهور لها فيهِ مراث لم ينظم احسن منها . وميسة بنت جابر امرأة حارثة بن بدر رثت زوجها . وأميمة امرأة ابن الدمينة فقد قالت شعراً في عتابهِ لم يقل في العتاب احسن منهُ — وسيأتي خبر ذلك في ترجمته . وغيرهن مما يطول شرحه . وكان ابو نواس يروي لستين شاعرة من العرب

وكان في الجاهلية خطيبات اشتهر منهن هند بنت الخس وهي الزرقاء وجمعة بنت حابس . وكان فيهن طبيبات اشهرهن زينب طبيبة بني أود كانت تعرف الطب وتعالج العين والجراح . غير من كن يرافقن المحاربين و يضمدن الجراح في ساحة الحرب

(١) تاريخ التمدن الاسلامي ص ٥٦ ج ٥

وهناك طبقة من النساء شغفن بالشعر وحفظنهُ للمذاكرة بهِ في المجالس فان عائشة أم المؤمنين كانت تحفظ كل شعر لبيد . ومنهن من كان الشعراء يتقاضون اليها لتحكم في ايهما اشعر كما فعلت جندب زوجة امرئ القيس اذ حكمها زوجها بينهُ و بين علقمة الفحل فحكمت حكماً يدل على ذكاء ومعرفة كما سيجيءُ في ترجمة علقمة

وهناك جماعة نبغن في صدر الاسلام وفيهن مناقب الجاهلية كنَّ يعقدن المجالس للمذاكرة في الشعر وانتقاده كما كانت تفعل سكينة بنت الحسين فانها كانت تجمع الشعراء اليها وتحادثهم وتنتقدهم واخبارها مشهورة . وكذلك عائشة بنت طلحة وكانت ادبية عاملة ولها مجالس أدب وشعر . وكان في مكة امرأة جزلة اسمها خرقاء عندها سماطان من الاعراب تحدثهم وتناشدهم بلاريب ولا سوء ظن . ومثلها عمرة امرأة ابي دهبل الشاعر فقد كانت جزلة يجتمع اليها الرجال للمحادثة وانشاد الشعر والاخبار قبل ان تزوجها ومن هناك عرفها وتزوجها

فاجتماع الرجال والنساء للمحادثة والمذاكرة على هذه الصورة بلا ريبة ولا سوء ظن لم يبلغ اليه الناس الا في الامم الراقية وفي ارقى جمعياتهم

و بالجملة فالامة التي تكون هذه حال نسائها و ينبغ فيها مثل من تقدم ذكرهن في الشجاعة والادب والشعر والرأي امة راقية



اقسام

آداب العرب قبل الاسلام

تقسم آداب العرب قبل الاسلام الى علوم عربية اصلية اقتضتها اللغة العربية واساليبها وقرائح اهلها ونسميها العلوم العربية . وعلوم رياضية وأخرى طبيعية ونحوها واكثرها دخيل على هذه الصورة :

العلوم العربية	العلوم الطبيعية	العلوم الرياضية	ماوراء الطبيعة
اللغة	الطب	الفلك	الكهانة
الشعر	البيطرة والخيل	الميثولوجيا	العيافة
الخطابة	مهاب الرياح	التوقيت	القيافة
النسب			تعبير الرؤيا
الامثال			الزجر
الاخبار			الخط في الرمل
مجالس الادب			
الاسواق			

فالعلوم العربية الاصلية اهمها كلها . وهي التي كانت مطمح طلاب الادب بعد الاسلام ولا تزال . فان بلاغة الجاهلية وشعر الجاهلية وأمثال الجاهلية لا يزال الادباء يتحدونها و ينسجون على منوالها الى اليوم . أما العلوم الطبيعية فقد حوروها بما أخذوهُ عن اليونان والفرس وكذلك الرياضيات . أما علوم ما وراء الطبيعة فبعضها انقرض كالكهانة والقيافة والزجر و بعضها تبدل وتقدم كتعبير الرؤيا وخط الرمل — فنقدم الكلام في الاهم منها

اولاً ـ اللغة العربية

هي احدى اللغات الساميّة — ويريدون باللغات السامية اللغات التي كان يتفاهم بها ابناء سام وهم في اصطلاحهم اهل ما بين النهرين وجزيرة العرب والشام . اشهرها العربية والسريانية والعبرانية والفينيقية والاشورية والبابلية والحبشية ولم يبقَ حيًّا منها الا العربية والحبشية والعبرانية والسريانية . والعربية ارقاها جميعاً

واللغات الساميّة اخوات لا يعرف لهن ام وظن بعضهم ان اللغة البابلية أو الاشورية القديمة امهن كما ان اللغة اللاتينية ام اللغات الاسبانية والايطالية والبورتغالية ولكن المحققين لا يؤيدون ذلك . والمعوَّل عليهِ ان هذه اللغات الساميّة اخوات انقرضت امهن قبل زمن التاريخ . وقد دعاها علماء اللغات « اللغة الارامية » نسبة الى آرام احد ابناء سام مما يطول الكلام فيهِ

تاريخ اللغة العربية

١ ــ ما هو تاريخ اللغة

البحث في تاريخ اللغة على العموم يتناول اولاً النظر في نشأتها منذ تكونها مع ما مر عليها من الاحوال قبل زمن التاريخ كتكون الافعال والاسماء والحروف وتولد صيغ الاشتقاق وأساليب التعبير ونحو ذلك . والبحث في هذا كله من شأن الفلسفة اللغوية وقد فصلناه في كتابنا « الفلسفة اللغوية » . ثانياً النظر في ماطرأ على اللغة من التأثيرات الخارجية بعد اختلاط اصحابها بالامم الاخرى فاكتسبت من لغاتهم الفاظاً وتعبيرات جديدة كما يقتبس أهلها من عادات تلك الامم وأخلاقهم وآدابهم وما يوافق ذلك من تنوع معاني الالفاظ بتنوع الاحوال مع حدوث صيغ جديدة والفاظ جديدة . ثالثاً النظر في تاريخ ما حوته اللغة من العلوم والآداب باختلاف العصور وهو « تاريخ آداب اللغة » وهذا التقسيم تقريبيٌّ اذ لا تجد حدًّا فاصلاً بين هذه الاقسام

واذا تدبرت تاريخ كل ظاهرة من مظاهر الامة كالاداب او اللغة او الشرائع أو غيرها باعتبار ما مرّ بها من الاحوال في أثناء نموها وارتقائها وتفرعها رأيتهــا تسير في نموها سيراً خفياً لا يشعر به الا عند انقضاء الزمن الطويل . ويتخلل ذلك السير

البطيء وثبات قوية تأتي دفعة واحدة فتغير الشؤون تغييراً ظاهراً وهو ما يعبرون عنه بالنهضة . وسبب تلك النهضات على الغالب احتكاك الافكار بالاختلاط بين الامم على اثر مهاجرة اقتضتها الطبيعة من قحط او خوف . او يكون سبب الاختلاط ظهور نبي أو متشرع او فيلسوف كبير او نبوغ قائد طماع يحمل الناس على الفتح والغزو أو امثال ذلك من الانقلابات السياسية أو الاجتماعية . فتحاك الافكار وتمازج الطباع فتتنوع العادات والاخلاق والاديان والآداب — واللغة تابعة لكل ذلك بل هي الحافظة لآثار ذلك التغيير فتذخرها قروناً بعد زوال تلك العادات او الآداب أو الشرائع واذا تبدّل شيء منها حفظت آثار تبديله

٢ ـ ماهي اللغة العربية

فاللغة العربية تعرضت لهذه الطوارىء مثل سائر اللغات الحية وتقلبت على احوال شتى فتنوعت الفاظها بالنحت والابدال والقلب ودخلها كثير من الالفاظ الاعجمية في أعصر مختلفة قبل ان تدون وتضبط في أزمنة لم يدركها التاريخ وانما نستدل على ذلك من درس الفاظها ومقابلتها باخواتها وغيرها

واللغة العربية التي نحن في صددها هي لغة الحجاز التي وصلت الينا . وكانت قبل الاسلام لغات عديدة تعرف بلغات القبائل وبينها اختلاف في اللفظ والتركيب كلغات تميم وربيعة ومضر وقيس وهذيل وقضاعة وغيرها كما هو مشهور — وأقرب هذه اللغات شبهاً باللغة السامية الاصلية ابعدها عن الاختلاط . وبعكس ذلك القبائل التي كانت تختلط بالامم الاخرى كاهل الحجاز مما يلي الشام وخصوصاً اهل مكة وبالاخص قريش فقد كانوا اهل تجارة وسفر شمالاً الى الشام والعراق ومصر وجنوباً الى بلاد اليمن وشرقاً الى خليج فارس وما وراءه وغرباً الى بلاد الحبشة

فضلاً عما كان يجتمع حول الكعبة من الامم المختلفة وفيهم الهنود والفرس والانباط واليمنية والاحباش والمصريون . غير الذين كانوا ينزحون اليها من جالية اليهود والنصارى. فدعا ذلك كله الى ارتقاء اللغة بما تولد فيها او دخلها من الاشتقاقات والتراكيب مما لا مثيل له في اللغات الاخرى

وزاد ذلك الاقتباس خصوصاً بالنهضة التي حدثت في القرنين الاول والثاني قبل

الاسلام بنزول الحبشة والفرس في اليمن والحجاز على أثر استبداد ذي نواس ملك اليمن — وكان يهودياً فاضطهد نصارى اليمن في القرن الخامس للميلاد وخصوصا أهل نجران فطلب اليهم اعتناق اليهودية فلما أبوا قتلهم حرقاً وذبحاً فاستنجد بعضهم الحبشة فحمل الاحباش على اليمن وفتحوها واستعمروها حيناً واذلوا ملوكها أعواماً . ثم انف احد ملوكها ذو يزن فاستنجد الفرس على عهد كسرى انو شروان فانجده طمعاً بالفتح فاخرج الاحباش من اليمن بعد ان ملكوها ٧٢ سنة وكان في اثناء ذلك يترددون الى الحجاز وحاولوا فتحه في أواسط القرن السادس فجاؤا مكة بافيالهم ورجالهم ولم يفلحوا واهتم اهل الحجاز بقدوم الحبشة الى مكة حتى ارخوا منه وهو عام الفيل . ولما فتح الفرس اليمن أقاموا فيها واختلطوا باهلها بالمبايعة والمزاوجة وتوطنوا وكانوا يقدمون الى الحجاز واهل الحجاز يترددون اليهم

٣ ـ مادخلها من الالفاظ الاعجمية

غير ما طرأ عليها من التغيير والتبديل قبل زمن التاريخ فتكاثرت الفاظها ومشتقاتها ودخلها كثير من الالفاظ الاجنبية . وغير ما اقتبستهُ من التراكيب الغريبة ولكن اكثره ضاع فيها وتنوع شكله ولم يعد يتميز اصله . على اننا نستدل على تكاثر الالفاظ الدخيلة في اللغة العربية بخلو اخواتها من أمثال تلك الالفاظ . فاذا رأينا لفظاً في العربية لم نر له شبيهاً في العبرانية أو السريانية أو الحبشية ترجح عندنا انه دخيل فيها . واكثر ما يكون ذلك في أسماء العقاقير اوالادوات أو المصنوعات أو المعادن او نحوها مما يحمل الى بلاد العرب من بلاد الفرس او الروم او الهند او غيرها ولم يكن للعرب معرفة به من قبل . أو في اسماء بعض المصطلحات الدينية أو الادبية واكثر هذا منقول عن العبرانية او الحبشية لان اليهود والاحباش من اهل الكتاب

الالفاظ الفارسية واليونانية

ويقال بالاجمال ان العرب اقتبسوا من لغة الفرس اكثر مما اقتبسوا من سواها ولذلك رأينا أئمة اللغة اذا أشكل عليهم اصل بعض الالفاظ الاعجمية عدوها فارسية ومن أمثلة ما ذكره صاحب المزهر من الالفاظ الفارسية « الكوز الجرة الابريق الطشت الخوان الطبق القصعة السكرجة السمور السنجاب القاقم الفنك الدلق الخز الديباج التاختج السندس الياقوت الفيروزج البلور الكعك الدرمك الجردق السميد السكباج الزيرباج

الاسفيذاج الطباهج الفالوذج اللوزينج الجوزينج البغرينج الجلاب السكنجين الخنجين الدارصيني الفلفل الكرويا الزنجبيل الخولنجان القرفة النرجس البنفسج النسرين الخيري السوسن المزنجوش الياسمين الجلنار المسك العنبر الكافور الصندل القرنفل» اه وعندنا ان بعض هذه الالفاظ غير فارسي كما سترى

ومما اقتبسوه من اليونانية واللاتينية الفردوس والقسطاس والبطاقة والقرسطون والقبان والاسطرلاب والقسطل والقنطار والبطريق والترياق والقنطرة وغيرها كثير

الالفاظ الحبشية والعبرانية

وأما ما نقلوه عن الحبشية فاكثره لا يدل على أصله لتغير شكله ولان الحبشية والعربية أختان تتشابه الالفاظ فيهما . والمشهور عند علماء العربية من الالفاظ المقتبسة من الحبشية ثلاثة : كفلين والمشكاة والهرج . لكننا لا نشك في انهم اقتبسوا كثيراً غيرها وخصوصاً ما يتعلق منها بالمصطلحات الدينية

من ذلك قولهم « المنبر » وهو عند العرب « مكان مرتفع في الجامع او الكنيسة يقف فيه الخطيب او الواعظ » وقد شقهُ صاحب القاموس من « نبر » اي ارتفع وفي ذلك الاشتقاق تكلف . وعندنا انه معرب « ومبر » في الحبشية اي كرسي أو مجلس او عرش

ومن هذا القبيل لفظ « النفاق » وهو عند العرب « ستر الكفر في القلب واظهار الايمان » وقد شقوه من « نفق » راج او رغب فيه وليس بين المعنيين تناسب فاضطروا لتعليله الى استعارة خروج اليربوع من نافقائه فقالوا « ومنه اشتقاق المنافق في الدين » وهو تكلف نحن في غنى عنه اذا عرفنا ان « نفاق » في الحبشية معناها الهرتقة او البدعة او الضلال في الدين . وهي من التعبيرات النصرانية التي شاعت في الحبشية بدخول النصرانية فيها

وكذلك لفظ « الحواري » شقه صاحب القاموس من « حار » بمعنى البياض وقال في معنى الحواريّ « انه سمي بذلك لخلوص نية الحواريين ونقاء سريرتهم او لانهم كانوا يلبسون الثياب البيض» والاظهر عندنا ان هذه اللفظة معرب حواري في الحبشية ومعناها فيها « الرسول » وهو المعنى المراد بها في العربية تماماً

وكذلك « برهان » وقد شقها صاحب القاموس من « برهن » وشقها غيره

من « بره » بمعنى القطع وان النون زائدة فيها وهي في الحبشية « برهان » أي النور أو الايضاح مشتقة من « بره » أي اتضح أو انار

وقس على ذلك كثيراً من امثاله كالمصحف فانه حبشي من «صحف» أي كتب والمصحف الكتاب . ناهيك باسماء الحيوانات أو النباتات أو نحوها فان « عنبسة » من اسماء الاسد عند العرب وهي الاسد بالحبشية

وقد اخذوا عن العبرانية كثيراً من الالفاظ الدينية كالحج والكاهن والعاشوراء وغيرها وا كثرها نقل الى الصيغ العربية لتقارب اللفظ والمعنى في اللغتين لانهما شقيقتان و يضيق هذا المقام عن ايراد الامثلة

الالفاظ السنسكريتية

ولا ريب ان العرب اقتبسوا كثيراً من الالفاظ السنسكريتية ممن كان يخالطهم من الهنود في اثناء الاسفار للتجارة أو الحج . لان جزيرة العرب كانت واسطة الاتصال بين الشرق والغرب . فكل تجارات الهند المحمولة الى مصر أو الشام أو المغرب كانت تمرُّ ببلاد العرب ويكون للعرب في حملها أو ترويجها شأن — وقد عثرنا في السنسكريتية على الفاظٍ تشبه الفاظاً عربية تغلب ان تكون سنسكريتية الاصل لخلو اخوات العربية من امثالها كقولهم « صبح » و « بهاء » فانهما في السنسكريتية بهذا اللفظ تماماً ويدلان على الاشراق أو الاضاءة . ولا يعقل انهما مأخوذان عن العربية لان السنسكريتية دوّنت قبل العربية بزمان مديد . ونظن لفظ « سفينة » سنسكريتي الاصل ايضاً وكذلك « ضياء » ولعلنا بزيادة درسنا اللغة السنسكريتية ينكشف لنا كثير من امثال ذلك

على اننا نرجح ان العرب اخذوا عن الهنود كثيراً من المصطلحات التجارية واسماء السفن وادواتها واسماء الحجارة الكريمة والعقاقير والاطياب مما يحمل من بلاد الهند . والعرب يعدُّونها عربية أو يلحقونها بالالفاظ الفارسية تساهلاً . كالمسك مثلاً فقد رأيت صاحب المزهر يعدُّه فارسيًا وهكذا يقول صاحب القاموس . وهو بالحقيقة سنسكريتي ولفظه فيها « مشكا » وذكروا « الكافور » بين الالفاظ الفارسية وهو هنديٌّ على لغة أهل ملقا ولفظه عندهم « كابور » . وقد ذكروا أيضا ان القرنفل فارسيٌّ

والغالب عندنا انهُ سنسكريتي لان اصله من الهند وقس عليه

وفي كتابنا « تاريخ اللغة العربية » فصل ضاف في هذا الموضوع بيّنا فيهِ القاعدة في تعيين اصول الالفاظ الاعجمية وأوردنا كثيراً من الالفاظ المنقولة للعربية من اللغات الفارسية والهندية واليونانية واللاتينية والحبشية وأئمة اللغة يعدونها عربية . وفصل آخر في ما لحق اللغة العربية من التغيير في الفاظها بمقابلتها باخواتها (١)

٤ ـ كيف كانت اللغة العربية لما جاء الاسلام

ليس ما قدمناه اواشرنا اليهِ من تاريخ تكوُّن اللغة العربية وترقيها الا فذلكة مثلنا بها ذلك التاريخ . ولا يستطاع تفصيله وتعيين التقلبات التي مرت بها هذه اللغة قبل الاسلام اذ ليس لدينا أمثلة مدوَّنة يرجع اليها أو يقاس عليها غير ما قدمناه مما وجدوه منقوشاً على قبر امرئ القيس وهو لا يشفي غليلاً . ولو ان اشعار ايوب كانت مدوَّنة كما دوّنت الياذة هوميروس مثلاً لاستخرجنا من المقابلة بين لغتها ولغة الجاهلية الثانية تاريخ تقلب الالفاظ والتعابير . كما فعل اليونان في بيان الفروق بين لغة الالياذة ولغات ما دوّن بعدها . وكما فعلنا في تدوين تاريخ اللغة العربية بعد الاسلام وما تقلبت عليهِ من تبديل الالفاظ وتفرعها وتنوعها ودخول الالفاظ والتراكيب الاعجمية وما أخذته من كل لغة حسب الاطوار التي مرَّت عليها (٢) وكما يفعل فلاسفة اللغة في رد اللغات الحية الاوربية الى اصولها اللاتينية والجرمانية واليونانية

ومهما يكن من تاريخ اللغة العربية القديم فقد عرفناها عند ظهور الاسلام ناضجة وقد تفرعت الى لغات باختلاف الاصقاع والقبائل فدوَّن المسلمون احدى تلك اللغات مع امثلة من سائر اللغات على ماسنبينهُ

٥ ـ البلاد التي كان اهلها يتكلمون العربية قبل الاسلام

اذا نظرت الى الخارطة اليوم رأيت الناطقين بالعربية منتشرين في غربي البحر المتوسط وجنوبيه الى الشام والعراق وما بين النهرين وفي جزيرة العرب وفي مصر

(١) راجع تاريخ اللغة العربية من صفحة ٨ — ١٩

(٢) راجع تاريخ اللغة العربية من صفحة ٢٠ — ٦٢

وطرابلس الغرب وتونس والجزائر ومراكش وعلى شواطئ البحر الاحمر وفي السودان وغيرها من اواسط افريقيا وعلى شواطئ افريقيا الشرقية وغيرها . غير الذين يتعلمون العربية للمعاملات الدينية وهم المسلمون في اكثر انحاء المعمور في فارس وخراسان وافغانستان وتركستان والهند والصين وجزائر الهند الشرقية وسائر البلاد التي دخلها الاسلام في القارات الخمس

أما قبل الاسلام فقد كانت اللغة العربية محصورة في جزيرة العرب وما يليها من مشارف الشام والعراق الى تدمر وفي بادية الجزيرة (بين النهرين) وفي جزيرة سينا وقليل بعدها في صحراء مصر الشرقية (١)

ويعسر تقدير احصاء العرب في ذلك العهد كما يعسر تقديره اليوم لاعتماد اولئك الاقوام على الرحلة والتنقل في البوادي ولكننا نحسبهم لا يزيدون على بضعة ملايين اكثرهم من اهل البادية متفرقون قبائل وعشائر وافخاذاً وبطوناً في الحجاز ونجد واليمن وتهامة وحضرموت وعمان والاحساء والبحرين وفي بادية الشام والعراق . يندر فيهم المتحضرون سكان المدن اذ لم يكن يومئذٍ من المدن العامرة في جزيرة العرب غير مكة والمدينة والطائف بالحجاز وصنعاء في اليمن و بعض المزارات في اواسط الجزيرة و بعض الفرض على الشواطئ

فالمعوَّل في احصاء العرب على اهل البادية وكانوا ينقسمون حسب قبائلهم وكانت تلك القبائل مع كونها رحالة تنحصر رحلتها غالباً في بقعة من بقاع الجزيرة مالم يطرأ عليها طارئ يبعثها على الانتقال الى بقعة أخرى كما أصاب قبائل عدنان في القرون الاولى قبيل الميلاد و بعده . اذ كانت تقيم في تهامة ثم تفرقت فيها وفي الحجاز ونجد . وكانت القبائل القحطانية في اليمن ثم انتشرت في سائر جزيرة العرب. ولكل انتقال سبب طبيعي او سياسي او غير ذلك مما يطول شرحه وقد فصلناه في كتابنا « العرب قبل الاسلام »

فلما جاء الاسلام كانت قبائل العرب البادية اكثرها في نجد وتهامة والحجاز والاحساء ومشارف الشام والعراق ومعظمها من العدنانية كما تجد ذلك مبيناً في الخريطة وبالقياس على مانشاهده اليوم من تعدد لغات (او لهجات) المتكلمين بالعربية

(١) راجع خارطة جزيرة العرب في صفحة ١٠٤ من تاريخ العرب قبل الاسلام ج ١

في الشام والعراق ومصر والمغرب وما بينها من الاختلاف لفظاً وتركيباً مع ان الاصل واحد فيها جميعاً (لغة مضر) نعتقد ان لغات تلك القبائل كانت تختلف بعضها عن بعض ويزداد الفرق بينها بزيادة البعد وباختلاف ما يجاورها من غير العرب . فلغات اواسط جزيرة العرب وان بعدت الشقة بينها كانت لغاتها اكثر تقارباً مما بينها وبين لغات اهل الشواطيء لاختلاط هؤلاء بالاعاجم على شواطيء خليج العجم والبحر الاحمر من جالية الفرس والهند والاحباش وغيرهم او عند مشارف الشام لاختلاطهم باهل المدن من السريان او الروم أو الانباط في الشام والعراق . ولما نهض المسلمون في صدر الاسلام لجمع اللغة لاحظوا هذه الاعتبارات التماساً لاختيار احسن اللغات وابعدها عن العجمة

٦ ـ فروع اللغة العربية

واذا امعنت النظر في الخارطة رأيت اكثر سكان اواسط جزيرة العرب من قبائل مضر واعظمها يومئذ تميم في شرقي نجد وشماليها . وغطفان (عبس وذبيان) وسليم وغيرهما في نجد وارقاها قريش في مكة وكان من القبائل القحطانية هناك طي في نجد ومذحج في اطراف الحجاز . واكثر سكانها في الشمال من ربيعة ومنهم بكر وتغلب في بادية العراق والجزيرة

فلغات هذه القبائل كانت تختلف بعضها عن بعض باختلاف اصولها ومساكنها وكان الاختلاف على معظمه بين لغات اليمن ولغات الحجاز ونجد اي بين جنوب الجزيرة وشمالها . واحسن مثال للغات الجنوب ما خلفه الحميريون من الآثار بالحرف المسند واحسن مثال للغة الحجاز لغة القرآن وشعر الجاهلية والفرق بين اللغتين كبير . والعرب يسمون لغة قدماء اليمنيين « المسند » . ولمن اقام حول اليمن من العرب لغات لعلها فروع من لغة اليمن . وكان لكل اقليم منها لسان يختلف عن السنة سائر الاقاليم وله اسم خاص يعرف به — وهي :

المسند	لغة حمير في اليمن
الزبور	« حضرموت و بعض اليمن
الرشق	« عدن والجند

الحويل لغة مهرة والشحر
الزقزقة « الاشعريين

هذا هو تقسيم العرب للغات اليمن ويرى العلماء اليوم ان بعضها غير عربي ولكن اكثرها ذهب ولا سبيل الى تحقيق ذلك

اما لغات اهل الحجاز ونجد وسائر الشمال وهم العدنانيون فترجع الى اصل واحد يسمونه « المبين » وهو الباقي الى الآن ومنه لغة القرآن وقد تغلب على سائر الالسنة وانتشر مع المسلمين في الارض

اللسان المبين

فاللسان المبين كان يتكلمه عرب الشمال وهم قبائل عديدة كما رأيت وبينها فروق في معاني الالفاظ ونطقها وفي اساليب التركيب . ولكن الاسلام ذهب بها جميعاً الا لغة قريش (لغة القرآن) وما اختاره علماء اللغة من الفاظ القبائل الاخرى ولم يبق من لغات هذه القبائل الى الآن الا امثلة ذكرها علماء اللغة عرضاً من باب العيوب . وا كثرها في قبائل ربيعة مثال ذلك انهم كانوا يزيدون بعد ضمير المخاطب المفرد شيئاً فيقولون عليكش وبكش بدل عليك وبك . وجاء في بعض الكتب انهم يبدلون الكاف شيناً فيقول عليش بدل عليك . وهي في الحالين غير الشين التي يدخلها عامة المصريين على الاستفهام

ومن بقايا لغات القبائل ان بني تميم كانوا يلفظون الهمزة اذا وقعت في المبدأ عيناً فيقولون في « أسلم » « عسلم » ويسمونها العنعنة وكان الهذيليون وهم قبيلة من مضر يجعلون الحاء عيناً ويسمونها العحعحة . ومنها الجعجعة في قضاعة وهي ان يجعلوا الياء المشددة جيناً فيقولون في تميمي تميمج . والاستنطاء في لغة سعد بن بكر وهي ان يقولوا انطى بدل اعطى . وعند بعض القبائل حروف لا توجد عند سواها كالحرف بين القاف والكاف في لغة تميم لعله كالكاف الفارسية . وذكر صاحب المزهر امثلة كثيرة من هذه العيوب (١)

ومن اللغات الشاذة التي تفيدنا في الرجوع الى اصل اللغة العربية استعمال الدال للموصول بدل « الذي » فان بعض العرب (طي) يقولون « فلان ذو سمعت به »

(١) المزهر ١٠٩ ج ١

اي الذي سمعت به وهو تركيب ارامي او بابلي من بقايا القرابة بين العرب والحورابيين ومن هذا القبيل كسر اول فعل المضارع كما يفعل سريان هذه الايام فانه كان عاماً في قبائل العرب الاَّ في قريش واسد [1] فلغات القبائل المشار اليها ظلت بعد الاسلام مدة ثم أخذت تنقرض بالتدريج وحلت لغة قريش محلها — ليس في جزيرة فقط بل في كل بلد دخله الاسلام

على ان ما يعده ائمة اللغة عيوباً في لغات هذه القبائل انما يصح تسميته بذلك بالنظر الى اللغة التي اختاروها ليس بالنظر الى اللغة نفسها . فان استعمال « ذو » للموصول لم يسموه عيباً الا لانه يخالف المألوف في لغة قريش ولو الفوه لفضلوه على الذي . وفي كل حال فان علماء اللغة لما قاموا لجمع اللغة تخيروا من لغات تلك القبائل احسن ما فيها بالنظر الى اذواقهم ومألوفهم. واكثر ما اخذوه من قيس وتميم واسد وسنعود الى ذلك عند الكلام عن جمع اللغة وتدوينها

مميزات اللغة العربية وخصائصها

للغة العربية كما وصلت الينا خصائص تميزها عن سواها وتدل على مبلغ عقول صحابها من الرقي وان كانوا بادية راحلين وهذه مميزاتها :

١ — الاعراب

نعني بالاعراب تغيير اواخر الكلم بتغيير العوامل عليها بالرفع والنصب والجر والسكون . واللغات الحية في العالم المتمدن الان تعد بالعشرات ليس بينها من اللغات المعربة الا ثلاث وهي العربية وابنتها الحبشية واللغة الالمانية . والظاهر ان الاعراب من خصائص التمدن القديم لان لغات ذلك التمدن كان معظمها معرباً — كذلك كانت اللغات البابلية (الاشورية) والعربية واليونانية واللاتينية والسنسكريتية . واللغات التي تخلفت عن تلك الامهات جاءت خالية من حركات الاعراب . فاللغات التي

(١) المزهر ١٢٤ و ٢٥٢ ج ١

تخلفت عن اللاتينية في اوربا وعن السنسكريتية في الهند وايران غير معربة . وكذلك اللغات التي تخلفت عن اللغة البابلية وهي السريانية والكلدانية لم يبق فيها اعراب . ومثلها اللغات التي تخلفت عن اللغة العربيـــة نعني لغات العامة في الاصقاع العربية اليوم فانها غير معربة . كان الاعراب اذا ترك لمجاري الطبيعة لا يعيش في الرخاء طويلاً وانما يعيش في البادية او نحوها من احوال الخشونة او القوة ــ الا اذا اراد اصحابه تقييد لغتهم بالقواعد كما فعل العرب والالمان . على ان اللغة العربية سارت سيرها الطبيعي على السنة العامة فذهب الاعراب منها

ومما يحسن استطراده ان اللغات السامية القديمة على كثرتها اختص منها بالاعراب لغة بابل (الاشورية) واللغة العربية ويؤخذ ذلك من الادلة على وحدة اصل العرب والحمورابيين وان الامتين كانتا امة واحدة يتكلمون لساناً واحداً معرباً فتحضر الحمورابيون وظل العرب بادية ومنهم العمالقة . فلما تمدن الحمورابيون واركنوا الى الرخاء ذهب الاعراب من لسانهم وبقي في كتاباتهم المنقوشة . كما اصاب العرب بعد قيام دولتهم وتقييد لغتهم فنشأ من بقايا البابليين امة لغتها غير معربة هم السريان والكلدان. كما نشأ من العرب اقوام لا يعربون كلامهم وهم عامة الشام ومصر وغيرهما من بلاد العرب وكان اجدادهم في البادية يعربونه

٢ ــ دقة التعبير

وتمتاز اللغة العربية بدقة التعبير بالفاظها وتراكيبها . اما الالفاظ ففيها لكل معنى لفظ خاص حتى اشباه المعاني او فروعها وجزئياتها . وقد ذكرنا أمثلة من ذلك في ما تقدم . ومن أمثلة دقة التعبير فيها وجود الالفاظ لتأدية فروع المعاني أوجزئياتها فعندهم لكل ساعة من ساعات النهار اسم خاص به . فالساعة الاولى الذرور ثم البزوغ ثم الضحى ثم الغزالة ثم الهاجرة ثم الزوال ثم العصر ثم الاصيل ثم الصبوب ثم الحدور ثم الغروب . ويقال فيها ايضاً البكور ثم الشروق فالاشراق فالرأد فالضحى فالمتوع فالهاجرة فالاصيل فالعصر فالطفل فالحدور فالغروب

وعندهم اسم لكل ليلة من ليالي القمر . وتجد للمعنى الواحد عدة الفاظ يعبر كل منها عن تنوع من تنوعات ذلك المعنى . فللشعر مثلا اسماء عديدة حسب منبته

كالفروة لشعر معظم الرأس والناصية لشعر مقدم الرأس والذوابة شعر موئخر الرأس والفرع شعر رأس المرأة والغديرة شعر ذؤابتها والدبب شعر وجهها الى غير ذلك. وهو كثير. وقس عليه اسماء المعائب فمن معائب العين الحوص والخوص والشتر والقمش والكمش والغطش والجهر. ولكل منها معنى خاص مما لا مثيل له في ارقى لغات البشر قديماً ولا حديثاً

واعتبر ذلك في تفرع معاني الافعال كتفرع فعل النظر الى رمق ولمح وحدج وشفن وتوضح ورنا واستكف واستشف. ومثلها فروع أفعال الجلوس والقيام والمشي والنوم وضروب الاصوات للحيوان والانسان وغير ذلك. وفي المخصص وفقه اللغة الوف من هذه الامثلة ولا خلاف في ان ذلك من أدلة الارتقاء. ناهيك بالمترادفات في الاوصاف وهي أكثر من أن تحصى. ولعل العربية أغنى اللغات في الالفاظ المعبرة عن المعاني المجردة وأعمال العواطف. ففيها لانواع الحب نحو عشرة الفاظ ومثلها للبغض والحسد والطمع وغيرها

ومن وسائل دقة التعبير في العربية مزيدات الافعال فان صيغ المشاركة تعبر باللفظ الواحد عن معان لا يعبر عنها في اللغات الاخرى الا بعدة الفاظ كقولنا تقاتلوا وتقاضوا وهذه الصيغة خاصة بالعربية

٣ — الاعجاز والايجاز

لكل قوم أعجاز في لغتهم فيدلون بلفظ قليل على معنى كثير ولكن العرب أقدر على ذلك من سواهم لان لغتهم تساعدهم عليه وقد تعودوه والفوه ومنه في القرآن والحديث والامثال وكتب الفقه والشرع والادب أمثلة كثيرة. ومن هذا القبيل استعمال المجاز والكناية وسائر أساليب البديع فانها في العربية أرقى مما في سواها لانها لغة شعرية كثيرة الكنايات والاشارات يسهل فيها التعمية والالغاز. ولذلك رأيت في أخبار أهل البادية أمثلة كثيرة من هذا القبيل تدل على الذكاء وامتلاك ناصية اللغة. كقول جاسوس منهم وقع في أيدي الاعداء فحبسوه وألزموه أن يكتب كتاباً الى ملكه يحمله فيه على مداهمتهم ويوهمه بقلة عددهم وعددهم غشاً وتغريراً. فكتب الى الملك كتاباً قال فيه: «أما بعد فقد أحطت علماً بالقوم وأصبحت مستريحاً من السعي في تعريف

أحوالهم واني قد استضعفتهم بالنسبة اليكم وقد كنت أعهد في أخلاق الملك المهلة بالامور والنظر في العاقبة فقد تحققت أنكم الفئة الغالبة باذن الله.. ولقد رأيت من أحوال القوم مايطيب به قلب الملك نصحت فدع ريبك ودع مهلك والسلام »

وسلم الكتاب الى العدوّ فارسلوه الى الملك بعد ما اطلعوا عليه . فتفطن الملك لما أراد الكاتب وقال لحاشيته « ان الجاسوس وقع فى الاسر فأصبح مستريحاً من السعي وانه رآهم أضعافنا واننا قليل بالنسبة لهم اذ لمح بآية « كم من فئة قليلة » ولفتني الى الاناة اذ جعلها عادة لي . وأراد قلب حروف الجملة الاخيرة فتكون « كلهم عدو كبير عد فتحصن »

٤ ـ المترادفات والاضداد

في كل لغة مرادفات أي عدة ألفاظ للمعنى الواحد ولكن العرب فاقوا بها سائر امم الارض . ففيها للسنة ٢٤ اسماً وللنور ٢١ اسماً وللظلام ٥٢ اسماً وللشمس ٢٩ اسماً وللسحاب ٥٠ وللمطر ٦٤ وللبئر ٨٨ اسماً وللماء ١٧٠ اسماً وللبن ١٣ اسماً وللعسل نحو ذلك وللخمر مئة اسم وللاسد ٣٥٠ اسماً وللحية مئة اسم ومثل ذلك للجمل . أما الناقة فاسماؤها ٢٥٥ اسما . وقس على ذلك اسماء الثور والفرس والحمار وغيرها من الحيوانات التي كانت مألوفة عند العرب واسماء الاسلحة كالسيف والرمح وغيرهما . ناهيك بترادف الصفات فعندهم للطويل ٩١ لفظاً وللقصير ١٦٠ لفظاً ونحو ذلك للشجاع والكريم والبخيل مما يضيق المقام عن استيفائه

وأسباب كثرة المترادفات في العربية عديدة منها أن كثيراً من أسماء الحيوان أصلها نعوت ثم صارت أسماء و بعضها مأخوذ عن لغة اخرى . فمن اسماء الاسد مثلاً الحطّام والخطّار والاصيد والشديد والراهب والمرهوب والمهوب والاغلب والاصهب والمجرب والباسل والميّاس ونحوها وهي نعوت لطبائع الاسد وظواهره . ومن اسمائه عنبسة وهو اسمه بالحبشية . وقد يكون السبب في زيادة المترادفات استعارة اسماء حيوانات اخرى للدلالة على هذا الحيوان يتكنون بها عن بعض طبائعه

ومن خصائص اللغة العربية أسماء الاضداد فان فيها مئات من الالفاظ يدل كل منها على معنيين متضادين مثل قولهم « قعد » للقيام والجلوس و « نضح » للعطش

والري و « ذاب » للسيولة والجمود و « أفند » للاسراع والابطاء و « أقوى » للافتقار والاستغناء

٥ ـ المعاني الكثيرة للفظ الواحد

ومن خصائصها أيضاً دلالة اللفظ الواحد على معان كثيرة فمن الفاظها نيف ومئتا لفظ يدل كل منها على ثلاثة معان . ونيف ومئة لفظ يدل الواحد منها على أربعة ومثلها التي تدل على خمسة معان . وقس على ذلك ما يدل على ستة معان فسبعة فثمانية فتسعة الى خمسة وعشرين معنى كالحميم والفن والطيس . ومما تزيد مدلولاته على ذلك « الخال » فانها تدل على ٢٧ معنى واللفظ « العين » ٣٥ معنى واللفظ « العجوز » ٦٠ معنى

٦ ـ السجع وغيره من اسباب سعة اللغة

ان كثرة المترادفات في اللغة العربية وتعداد المعاني للفظ الواحد جعلتها واسعة التعبير وسهلت على اصحابها التسجيع . وكان التسجيع شائعاً في الجاهلية بلغة الكهان على اساليب يستقبحها اهل اللغة لغرابة الفاظها وركاكة تركيبها

ومن نتائج سعتها اقتدار اصحابها على كتابة المعنى الواحد بعدة تراكيب بين عاطل ومهمل ومنقط او مشترك . وقد علمنا ان بعضهم كتب تفسير القرآن بالفاظ ليس فيها حرف منقط . وهناك تراكيب يشترط فيها اذا قرأها الالثغ لاتظهر لثغته لخلوها من الراء . وقد خطب واصل بن عطاء خطبة طويلة لم يرد فيها حرف الراء وكان اذا قال شعراً لم يورد فيه حرف الراء على الاطلاق (١) وذلك لايتيسر في اللغات الافرنجية وقد جرب بعضهم كتابة اسطر بالالمانية بدون راء (r) فلم يستطع ذلك الا بعد شق النفس

٧ ـ حكاية الاصوات

من خصائص اللغة العربية ان لالفاظها وقعاً على الاذن يكون له تأثير موسيقي يختلف شدة ولطافة باختلاف التراكيب فيؤثر في النفس تأثيراً خاصاً سواء كان نثراً أو نظماً . من امثلة الوقع الشديد وصف الاسد لابي زبيد الطائي بين يدي عثمان بن عفان فقد قال وهو يصف خروج الاسد عليهم في واد « فضرب بيده فارهج وكشر فافرج

(١) البيان والتبين ١١ ج ١

عن انياب كالمعاول مصقولة غير مغلولة وفم اشدق كالغار الاخرق . ثم تمطى فاسرع بيديه وحفز وركيه برجليه حتى صار ظله مثليه . ثم اقعى فاقشعر ثم مثل فاكفهر ثم تجهم فازبأر فلا وذو[1] بيته في السماء ما اتقيناه الا باخ لنا من فزارة كان ضخم الجزارة فوقصه ثم نفضه نفضة فقضقض متنيه فجعل يلغ في دمه . فذمرت لاصحابي فبعد ما استقدموا فهجهجنا به فكرَّ مقشعرًّا كان به شمماً حوليًّا فاختلج رجلاً اعجر ذا حوايا فنفضه نفضة تزايلت مفاصله . ثم نهم ففرفر ثم زفر فبربر ثم زأر فجرجر ثم لحظ فوالله لخلت البرق يتطاير من تحت جفونه من شماله ويمينه فارعشت الايدي واصطكت الارجل واطّت الاضلاع وارتجت الاسماع وشخصت العيون وتحققت الظنون وانخزلت المتون ... »

فصاح به عثمان « اسكت قطع الله لسانك فقد ارعبت قلوب المسلمين »

وحكايات الاصوات موجودة في سائر اللغات



(١) « ذو » يعني « الذي » في لغة طي والرجل منهم

ثانياً – الامثال

الامثال من آداب العرب العامة لانها تجري على السنتهم مجرى الشعر. وهي عظات بالغة من ثمار الاختبار الطويل والعقل الراجح . قال ابو عبيد « الامثال من حكمة العرب في الجاهلية والاسلام وبها كانت تعارض كلامها فتبلغ بها ما حاولت من حاجاتها في النطق بكناية غير تصريح فيجتمع لها بذلك ثلاث خلال ايجاز اللفظ واصابة المعنى وحسن التشبيه »(١) والعرب تضمن اشعارها واقوالها الامثال والحكم فتزينها كقول ابي ذؤيب من قصيدة :

فلا تك كالثور الذي دفنت له حديدة حتف ثم امسى يثيرها (٢)

و بعضهم نظم القصائد كلها من الامثال كارجوزة ابي العتاهية التي سماها ذات الامثال(٤)

ولا تخلو امة من الامثال المتوارثة في الاعقاب لكن العرب يمتازون بامثالهم المبنية على الحوادث . لان الامثال عندهم نوعان :

١ : امثال حكمية كقولهم الجار قبل الدار والحرب خدعة والخطأ زاد العجول والعتاب قبل العقاب ونحوها مما يتناقله الناس في الاعقاب وترويها الامم بعضها عن بعض . واقدم مجموع لها امثال سليمان واكثر الامم اخذت عنها وهي عند العرب مقتبسة من التوراة وامثال الهند والفرس والروم فضلاً عما يروونه عن اسلافهم وحكمائهم كاكثم بن صيفي وغيره وينسبون امثالا كثيرة الى لقمان . وهو من قدماء الحكماء يشبه شاعراً حكيماً بنحو هذا الاسم عند اليونان (Alcman) من اهل القرن السابع قبل الميلاد وهو اقدم من نظم الشعر الغنائي عندهم

٢ : الامثال المبنية على الحوادث وهي خاصة بهم لان الحوادث جرت لهم كقولهم وافق شنٌّ طبقة وقطعت جهيزة قول كل خطيب و بالصيف ضيعت اللبن وسبق السيف العزل وهم يؤثرون تلك الامثال عن قائلها وقد يروون عشرات من الامثال قالها الواحد في حادثة واحدة كما رووا في حادثة الزباء وقصير وجذيمة الابرش (١) فذكروا في اثناء هذه الحادثة عشرات من الاقوال ذهبت مثلاً منها قول قصير «رأي فاتر

---

(١) المزهر ٢٣٤ ج ١ (٢) الاغاني ٦٣ ج ٦
(٣) الاغاني ١٤٣ ج ٣ (٤) ابن الاثير ١٤٩ جزء ١

وعدو حاضر » وقوله «رأيك في الكن لا في الضح » و« ما ضلّ من تجري به العصا » وقول الزباء « لامر ما جدع قصير انفه » و« بيدي لا بيد عمرو » ونحو ذلك وهذه الامثال واشباهها كثيرة في اقوال الجاهلية

كتب الامثال

وقد عني العرب في جمع الامثال لانها من جملة ما احتاجوا اليه في تحقيق الفاظ اللغة — ذكر ابن النديم ان عبيد بن شرية من اهل اليمن الف كتاباً في الامثال في خمسين ورقة باواخر القرن الاول للهجرة وهو اول من فعل ذلك وقد ضاع هذا الكتاب . واشتغل كثيرون من ادباء البصرة والكوفة في ابان التمدن الاسلامي بجمع امثال العرب منهم صحار العبدي كان معاصراً لابن شرية [1] ويونس النحوي المتوفى سنة ١٨٢ ﻫ وابو عبيدة سنة ٢١١ ﻫ وثعلب سنة ٢٩١ ﻫ وابو عبيد القاسم بن سلام سنة ٢٢٣ والمفضل الضبي وابو هلال العسكري ومحمد بن زياد الاعرابي ومحمد بن حبيب البغدادي وحمزة الاصفهاني وغيرهم

وقد شرح هذه الكتب كثيرون واضافوا اليها من الامثال الحادثة في الاسلام . واهم هذه الكتب الباقية الى الآن كتاب المستقصى للزمخشري (توفي سنة ٥٣٨ ﻫ) ومجمع الامثال للميداني (توفي سنة ٥١٨ ﻫ) . وفي مجمع الامثال نخبة ما احتوته كتب المتقدمين جمعه مؤلفه من نحو خمسين كتاباً في الامثال ورتبه على حروف المعجم بعد ان اضاف اليه امثال المولدين . وهو اجمع كتاب في الامثال العربية وفيه شروح لطيفة وقد طبع مراراً بمصر والشام وغيرهما . اما المستقصى للزمخشري فمنه نسخ خطية في مكتبة ليدن وفينا والمتحف البريطاني وكوبرلي بالاستانة والمكتبة الخديوية بمصر

اما كتب الامثال الاصلية التي اخذ عنها الميداني والزمخشري فالباقي منها قليل اهمها كتاب الامثال لابي عبيد القاسم بن سلام طبع في غوتنجن سنة ١٨٣٦ وامثال العرب للضبي طبع في الاستانة سنة ١٣٠٠ ﻫ وجمهرة الامثال لابي هلال العسكري طبعت في الهند سنة ١٣٠٧ ﻫ وأمثال لقمان طبعت مراراً في اوربا ومصر منها طبعة في باريس سنة ١٨٤٧ مع ترجمة فرنساوية . وتجد كثيراً من امثال العرب في كتب الامالي وكتب اللغة وكتب الادب ونحوها

(١) الفهرست ٩٠

ثالثاً — الشعر في العصر الجاهلي

١ — ما هو الشعر

الشعر من الفنون الجميلة التي يسميها العرب الاداب الرفيعة وهي الحفر والرسم والموسيقى والشعر . ومرجعها الى تصوير جمال الطبيعة — فالحفر يصورها بارزة والرسم يصورها مسطحة بالاشكال والخطوط والالوان . والشعر يصورها بالخيال ويعبر عن اعجابنا بها وارتياحنا اليها بالالفاظ . فهو لغة النفس او هو صور ظاهرة لحقائق غير ظاهرة . والموسيقى كالشعر — هو يعبر عن جمال الطبيعة بالالفاظ والمعاني وهي تعبر عنه بالانغام والالحان وكلاهما في الاصل شيء واحد

هذا هو تعريف الشعر في حقيقته ولكن علماء العروض من العرب يريدون بالشعر الكلام المقفى الموزون فيحصرون حدوده بالالفاظ وهو تعريف النظم لا الشعر وبينهما فرق كبير اذ قد يكون الرجل شاعراً ولا يحسن النظم وقد يكون ناظماً وليس في نظمه شعر — وان كان الوزن والقافية يزيدان الشعر طلاوة ووقعاً في النفس فالنظم هو القالب الذي يسبك فيه الشعر. ويجوز سبكه في النثر

وقد تقدم ابن خلدون خطوة اخرى في تعريف الشعر فقال « الشعر هو الكلام المبني على الاستعارة والاوصاف المفصل باجزاء متفقة في الوزن والروي مستقل كل جزء منها في غرضه ومقصده عما قبله و بعده الجاري على اساليب العرب المخصوصة به » فهو يجعل التقفية والوزن من شروط الشعر ويشترط ايضاً استقلال كل بيت منها بغرضه . وهو تقييد لا باعث له اذ قد ترى في الكلام المنثور معاني تؤثر في نفسك تأثير الشعر وذلك كثير في كلامهم والحكم فيه للذوق . ومن اصعب الامور ان نعرّف الشعر ونجعل له حدوداً جامعة مانعة كما نعرف الصرف أو النحو او الفلك او غيرها من العلوم والآداب . ولكنك اذا قرأت قولاً فيه خيال شعري تعرفت الشاعرية فيه وشعرت بلذة ذلك التعرف وطربت له وقد يكون ذلك القول نثراً وانما أطربك ما فيه من اساليب الكناية او الاستعارة . فاذا سبكته في قالب شعري زاد رونقا وطلاوة فاذا غنيته على

توقيع الالحان زدت طرباً به . فالوزن يزيد الشعر طلاوة من قبيل التوقيع الموسيقي في الالفاظ والحركات لا من قبيل المعنى

فاذا قرأنا لبعضهم نثراً يصف به ذهوله بالحب فيقول « اذا جئت دار الحبيب ليلاً لحاجة لي التمسها فلا ادخل الدار حتى انسى ماجئت له » فهذا معنى شعري غزلي ترتاح اليه النفس لكن ارتياحها يكون اكثر اذا نظم ذلك المعنى شعراً كقول المجنون :

فيا ليلي كم من حاجة لي مهمة اذا جئتكم بالليل لاادري ما هيا

ويكون وقعه في النفس اشد اذا غني على لحن مطرب

وعلى ذلك فيدخل في الشعر كثير من اقوال العرب التي نعدّها من قبيل الامثال أو الحكم المأثورة المبنية على الكناية كقولهم : المرء باصغريه لا ببرديه . وعاد الامر الى نصابه . وصاحت عصافير بطنه ونحو ذلك

فالشعر بالمعنى لا بالوزن والقافية . وقد رأينا بعض متقدمي العرب يرون هذا الرأي في تعريف الشعر فقد قال بعضهم « الشعر كلام واجوده اشعره » [١] ولم يقيده بالوزن ولا القافية وقال آخر « الشعر شيء تجيش به صدورنا فتقذفه على السنتنا » [٢]

٢- انواع الشعر

العرب يقسمون الشعر الى الفخر والحماسة والمدح والرثاء والعتاب والغزل والتشبيب وغيرها من الاغراض وهذه كلها في نظر الشاعر غير العربي نوع من انواع الشعر يسمونه الشعر الغنائي او الموسيقي لان مرجعه الى التأثير على النفس تأثير الموسيقى

ويقسم الشعر عند الافرنج الى ثلاثة انواع ١ الشعر القصصي (Epique) ٢ الشعر الغنائي (Lyrique) ٣ الشعر التمثيلي (Dramatique)

الشعر القصصي

فالشعر القصصي اقدمها وهو عبارة عن سرد الوقائع او الحوادث في الشعر (موزون أو غير موزون) على سبيل القصة واكثرها دينية وابطالها الالهة ومعظم حوادثها

(١) الاغاني ١٢٤ ج ١٨ و٦٠ ج ٢١

(٢) البيان والتبيين ١٧٢ ج ٢

عنهم وبهم . واذا تدبرت الشعر عند سائر الامم وجدته اقدم آدابها واقدمه الديني المتعلق بالالهة واعمالهم كما في الياذة هوميروس عند اليونان ومهابهارتة الهند . ومن هذا القبيل بعض الاشعار العبرانية كسفر داود ونشيد الاناشيد والنبوات فانها شعر ديني لكنها ليست من النوع القصصي بل من الموسيقي . لان الشعر القصصي نادر في اشعار الساميين على الاجمال الا السريان فان انقديس افرام نظم شيئاً منه ولعله اقتبسه من اليونان (١)

اما العرب فيخالفون العبرانيين من حيث الشعر الديني لانه لم يكن عندهم في الجاهلية كما كان عند العبرانيين . ولا يعقل انهم خالفوا اخوانهم فيه ولا بد من انهم نظموا الاشعار خاطبوا بها هبل واللات والعزى وغيرها واستعطفوها وصلوا اليها وتخشعوا لها ولكن منظوماتهم في هذا الموضوع ضاعت في ثنايا الاجيال لعدم تدوينها ولاشتغالهم عنها بالحماسة والفخر بسبب الحروب التي قامت بينهم قبيل الاسلام . فلما جاء الاسلام اغضى الرواة عن حفظها لانها وثنية والاسلام يمحو ما كان قبله ـ كما ابادوا مكاتب الفرس ومصر وكما ارادوا هدم ايوان كسرى واهرام مصر . فا كتفوا بتدوين اشعار الحماسة والفخر ولكن بقي من الاشعار الدينية أمثلة قليلة جاء ذكرها عرضاً في تراجم بعض الشعراء كامية ابن ابي الصلت وغيره

الشعر الغنائي

قضى اليونان بضعة قرون وليس عندهم غير الشعر القصصي وفيه اخبار الهتهم وحروبها وعلاقاتها بالبشر. ثم قالوا الشعر الموسيقي وقد نضج عندهم نحو القرن الخامس قبل الميلاد على أثر الحوادث السياسية والحروب التي قامت بين الاحزاب اليونانية وتغلب بهـا الشعب على الاشراف كما تقدم . فهاج الظفر قرائحهم وعقب ذلك التنازع بين الاسبارطيين والمسينيين و بين يونان اسيا الصغرى وجيرانهم فذاقوا لذة التغلب فجاش في صدور الشعراء احساس لم يتعودوه من قبل كما اصاب العرب الحجازيين على أثر خروجهم من سلطة الحيريين ثم بما قام بينهم من النزاع والحروب في القرون الاولى قبل الاسلام فانها انطقتهم وحركت نفوسهم كما سيجيء

(١) Lit. Syr. 20

فاصبح اليونان من القرن الخامس قبل الميلاد اهل دولة وتمدن ورخاء فصاروا في حاجة الى شعراء يحرضونهم على الثبات في الحرب او يمدحون بسالتهم ويطرون اعمالهم ويصفون حضارتهم فظهر الشعر الغنائي او الموسيقي وفيه المدح والهجاء والحماسة والفخر والرثاء ووضعوا الاوزان الجديدة له . وطبيعي ان الظفر يبعث على المدح والموت يولد الرثاء والحب يستدعي النسيب والغزل . فصار ملوك اليونان وكبراؤهم يقربون الشعراء الغنائيين لسماع المدح كما فعل العرب في ابان دولتهم فكثر الشعراء الغنائيون عندهم واستاذهم بندار . وشاع الشعر الغنائي فيهم فاشتغلوا به عن الشعر القصصي — كانهم اشتغلوا باثارة العواطف والحث على الفضائل عن تقرير الحقائق وسرد الحوادث

الشعر التمثيلي

ثم رأوا الكلام وحده لا يكفي لتحريك العواطف وتمثيل الفضائل فعمدوا الى تمثيلها للعيان بحوادث اخترعوها يؤدي سردها او تمثيلها الى مغزى ما يريدون . فبدلاً من ان يمدح شاعرهم الشجاعة مثلاً ويحببها الى الابطال ببلاغة البيان الشعري عمدوا الى نظم قصة تظهر فضل هذه المنقبة يمثلونها على مشهد من الناس لتكون اوقع في النفس واثبت في الذهن وسموا هذا النوع من الشعر الشعر التمثيلي (Dram)

ويراد بالشعر التمثيلي في اصل وضعه تمثيل الوقائع التي ترمي الى الموعظة او الحكمة سواء مثلت على المرسح او لم تمثل [١] وفي الشعر القصصي شيء منه لان الياذة هوميروس لا تخلو من مشاهد تمثيلية . ولكن الشعراء بدأوا في نظمهم اولاً بالشعر الخيالي التصويري المحض اذهاج شاعريتهم التخشع للالهة وكانوا يغنونه لهم ويرقصون في غنائهم على توقيع الالحان فتصوروا الوزن من حركات الرقص — وذلك اصل النظم عندهم . وكان اول منظوماتهم اقاصيص الالهة واعمالهم ثم تدرجوا الى وصف الواقع فبدأوا بالعواطف يعبرون عنها بالشعر الغنائي . ثم عمدوا الى تمثيل الفضائل على المراسح للاستفادة منها وهو الشعر التمثيلي

(١) Enc. Brit. XIX 263و Lit. Anc. 56

٣ — هل عند العرب شعر تمثيلي ؟

قد رأيت ان الشعر التمثيلي او الدرام هو الوجهة العملية من الشعر اي يراد بها تمثيل الفضائل او المناقب للعين . والعرب مثل سائر الساميين اكثر ميلاً الى الخيال والتصور فلم يلتفتوا الى التمثيل او على الاقل لم نعثر بين ما وصلنا من آدابهم قبل الاسلام على شيء من الشعر التمثيلي على سبيل المحاورة او التمثيل كما هو الحال عند اليونان او من اخذ عنهم — فهل كان عندهم وفقد ؟

اذا امعنا النظر في ما خلفه العرب من اخبارهم وآدابهم وجدناه لا يخلو من التمثيل باعم معانيه وان لم يكن شعراً مجرداً بل هو مزيج من الشعر والنثر . وقد وصل الينا في قالب القصص والحقائق التاريخية لكن اكثرها في نظرنا موضوع او كان له اصل فوسعوه وطولوه ونمقوه ليكون عبرة او قدوة في الموقف المطلوب . وا كثر تلك القصص (او الروايات التمثيلية) ترمي الى تمثيل الفضائل البدوية التي يقدسها العرب كالوفاء والضيافة والشجاعة والجوار والعفة والفروسية ونحوها تمثيلاً يحببها الى الناس ويرغبهم فيها وجعلوا ابطالها رجالاً من مشاهيرهم في تلك المناقب

فقصة حاتم الطائي التي ذبح بها فرسه لضيفه وابناؤه جياع اقرب ان تكون موضوعة او مبالغاً فيها للتحريض على السخاء . وقصة السموأل التي قتل فيها ابنه ولم يسلم بالامانة المودعة عنده موضوعة او موسع بها لتمثيل الوفاء . واخبار العذريين في العفة اكثرها موضوع لترغيب الناس في العفة . وقد اجمع الرواة تقريباً على ان اخبار مجنون ليلى موضوعة ويراد بها تمثيل العفة مع الثبات على الحب وهي تشبه من هذا القبيل رواية روميو وجوليت لشكسبير . وقس على ذلك اكثر ما يروونه من هذا النوع مثل حكاية حنظلة والنعمان بن المنذر وهم يروونها عن عبيد بن الابرص ايضاً كأن المراد المغزى وهو الترغيب في الوفاء . ونسبة هذه الحوادث الى اشخاص معروفين في التاريخ لا يطعن في ان المراد بها التمثيل وهذه قصة عنترة فان صاحبها شاعر شجاع معروف فوسعوا قصته واضافوا اليها ما يرغب في الشجاعة والفروسية

اما السريانيون فالدرام غير اصلي في آدابهم وانما اتخذوه من جملة آدابهم

الدينية من اليونان وكانت منظوماتهم في اول امرها بغير قافية ثم قفوها بعد الاسلام فلعلهم اقتبسوا ذلك من العرب

وبالجملة ان الشعر العربي اكثره من الشعر الغنائي وهو ارقى في العربية مما في سائر اللغات وليس في الدنيا امة تضاهي العرب في كثرة الشعر والشعراء

اقدم منظومات العالم

المشهور ان الياذة هوميروس اقدم كتاب شعري لانه نظم نحو القرن التاسع قبل الميلاد وهي نحو ١٤٠٠٠ بيت . ولكن هناك كتابين نظما نحو ذلك الزمن او قبله احدهما الفيدا كتاب البراهمة وهو من قبيل الشعر الموسيقي ويقال انه نظم نحو القرن الثاني عشر قبل الميلاد . وزبور داود نظم نحو القرن العاشر ولعله عاصر صاحب الالياذة . وللمصريين القدماء منظومات ترتقي الى عهد رعمسيس الثاني نحو القرن الرابع عشر قبل الميلاد . ولكن سفر ايوب اقدم من ذلك ببضعة قرون فاذا صح انه عربي الاصل كان اقدم الآثار الشعرية الباقية الى الآن عربي الاصل

٤ — كيف بدأ العرب ينظمون الشعر

الشعر والغناء

يظهر ان الشعر والغناء من اصل واحد عند جميع الامم والشعر وضع اولاً للتغني به وانشاده للآلهة او الملوك ولذلك فاليونان والرومان يقولون حتى الآن « غنى شعراً » وليس نظم شعراً او صنع شعراً والعرب يقولون « انشد شعراً » او انشد الشعر الفلاني اي غناه .وقضى اليونان اجيالا لا يقولون الشعر الا انشاداً ولعل العرب كانوا كذلك في اقدم احوالهم فنبغ منهم جماعة يغنون شعرهم كما فعل الاعشى قبيل الاسلام فقد كان ينظم الشعر ويغنيه ولذلك سموه صناجة العرب . وما زال ذلك شأنهم بعد الاسلام فان الشاعر اذا جاء الخليفة او الامير بقصيدة انشدها في حضرته وهو قائم فاذا لم يكن صوته رخيماً او مسموعاً اقتنى غلاماً رخيم الصوت ينشد اشعاره . وللانشاد لحن مطرب وكان الرشيد يطرب للانشاد اكثر مما للغناء . واشتهر بعد الاسلام جماعة من الشعراء المغنين كالدارمي والحطيئة واسحق الموصلي وغيرهم

والغالب أنهم بدأوا اولاً بالسجع بلا وزن نحو ما وصل الينا من سجع الكهان وربما كان الكهان يغنونه توقيعاً على القافية . ومن امثلة سجعهم قولهم في الانواء « اذا طلع السرطان استوى الزمان وحضرت الاوطان وتهادت الجيران . اذا طلع البطين اقتضى الدين وظهر الزين واقتفى بالعطار والقين . اذا طلع النجم يعني الثريا فالحر في حدم والشعب في حطم . اذا طلع الدبران توقدت الحزان وكرهت النيران واستغرب الزيان ويبست الغدران ورمت بانفسها حيث شاءت الصبيان . اذا طلعت الهقعة تقوض الناس للقلعة ورجعوا عن النجعة واردفتها الهنعة . اذا طلعت الجوزاء توقدت المعزاء وكنست الظباء وعرقت العلباء وطاب الخباء اذا طلعت الذراع حسرت الشمس القناع واشعلت في الافق الشعاع وترقرق السراب بكل قاع . . » وهي طويلة

هذا هو السجع بقافية بلا وزن . وكان العرب يتساجعون اي يتذاكرون بالسجع ولعلهم وضعوا السجع اولاً لتقييد علومهم أو ما يريدون حفظه كما في المثل المتقدم ذكره

اما النظم اي القياس الشعري بالمقاطع وهو الوزن فابسطه الرجز وهو اقدم اوزان الشعر كل بيت منه منفرد بقافية خاصة وهو كالسجع لكنه موزون . والرجز قديم عندهم يزعم العرب ان اول من قاله مضر بن نزار اذ سقط عن جمل فانكسرت يده فحملوه وهو يقول « وايداه وايداه » وكان من احسن خلق الله صوتاً فاصغت الابل اليه وجدّت في السير فجعلت العرب مثالاً لقوله « هايدا هايدا » يحدون بها الابل . وقال آخرون ان الاصل في وضع الشعر للغناء قالوا «وكان الكلام كله منثوراً فاحتاجت العرب الى الغناء بمكارم اخلاقها وطيب اعراقها وذكر ايامها الصالحة واوطانها النازحة وفرسانها الانجاد وسمحائها الاجواد لتهز نفوسها الى الكرم وتدل ابناءها على حسن الشيم فتوهموا اعاريض فعملوها موازين للكلام فلما تم لهم وزنه سموه شعراً لانهم شعروا به أي فطنوا له »

اصل وزن الشعر

والغالب في اعتقادنا ان الوزن مأخوذ في الاصل من توقيع سير الجمال في الصحراء وتقطيعه يوافق وقع خطاها . ويؤيد ذلك ان الرجز اول ما استعمله العرب لسوق الجمال وهو الحداء في اصطلاحهم وكأنه وضع لهذا الغرض لان العربي يقضي اكثر اوقاته في معاشرة جمله اوناقته . وعندهم ضربان من الرجز المشطور والمنهوك والمشطور هذا وزنه :

دع المطايا تنسم الجنوبا ان لها لنبأً عجيبا
حنينها وما اشتكت لغوبا يشهد أن قدفارقت حبيبا
ما حملت الا فتى كئيباً يسرُّ مما اعلنت نصيبا
لو ترك الشوق لنا قلوبا اذا لآثرنا بهن النيبا
ان الغريب يسعد الغريبا

وهو يشبه بتوقيعه على مقاطعه مشي الجمال الهوينا . ولو ركبت ناقة ومشت بك الهوينا لرأيت مشيها يشبه وزن هذا الشعر تماماً . فكان العرب يحدونها به اذا ارادوا سيرها وئيداً. وربما كان شاعرهم عاشقاً فيتذكر حبيبته وهو يسوق ناقته فيحدوها بابيات على وزن الرجز . كذلك فعل جميل بثينة وكان في سفر الى الحج مع مروان بن الحكم فطلب اليه مروان ان يسوق الجمال اي يحدوها فقال :

بابثن حيي اوعدينا او صلي وهوِّني الامر فزوري واعجلي
بثين اياً ما اردت فافعلي اني لآتي ما اشأت مقتلي

فلم يقبل مروان منه ان يتغزل بالحدو وانما يطلب الخلفاء والامراء اذا ركبوا الابل ان يحدوها الحادي برجز في مدحهم . خرج عبد الملك يوماً رائحاً على نجيب ومعهُ حاد يحدوه بقوله :

يا أيها البكر الذي اراكا عليك سهل الارض في ممشاكا
ويحك هل تعلم من علاكا ان ابن مروان على ذراكا
خليفة الله الذي امتطاكا لم يعل بكراً مثل ما علاكا

أما اذا اراد الحادي ان تسرع الجمال في السير حدا لها بالرجز المنهوك وهذا وزنهُ :

اعطيتهُ ما سألا حكمته لو عدلا
قلبي به في شغل لاملَّ ذاك الشغلا
قيدهُ الحب كما قيد راع جملا [1]

واعتبر ذلك في بحر الخبب من الشعر فانه يوافق في توقيعه خبب الفرس اي ركضه وهذا وزنه :

ابكيت على طلل طرباً فشجاك واحزنك الطللُ

---

(١) العقد الفريد ١٦١ ج ٣

اوزان الشعر

ثم وضعوا الاوزان والبحور حسب الاقتضاء كل منها لحال من الاحوال بعضها يوافق الشعر الحماسي والبعض الآخر يوافق الفخر وآخر للغزل . فالبحر الطويل يوافق لنظم الشعر الحماسي والوافر للفخر والرمل للحزن أو الفرح والسريع لتمثيل العواطف (١) وقس على ذلك

فالرجز اقدم ابحر الشعر وكان الشاعر يقول منه البيتين والثلاثة ونحو ذلك اذا حارب أو فاخر . ثم صاروا يطيلون النظم فيه . ويقال ان أول من اطاله الاغلب العجلي على عهد النبي ثم رؤبة بن العجاج وتفننوا في بحر الرجز فتعددت واخترعوا ابحراً غيرها وصاروا ينظمون الاراجيز الطوال ويريدون بها ما زادت ابياتها على عشرة

أما غير الرجز من ابحر الشعر فكانوا أولا ينظمون منه المقاطيع القصيرة عند الحاجة . حتى اذا تحركت نفوس العرب بالحروب بعد استقلالها من اليمن كما سيجيء وظهر فيها الابطال والفرسان احتاجوا الى الشعر فاطالوا فيه وهي القصائد واول من اطالها المهلهل اخو كليب وأول قصيدة قالها في قتل اخيه المذكور فهو لم يفعل ذلك الا بعد ان حركه طلب الثأر وهو أول شاعر بلغت قصائده ثلاثين بيتاً من الشعر . واقتدى به سواه ثم كان للنظم تاريخ بعد الاسلام

الالحان

ولما وضعوا الاوزان صار الغناء عندهم الحاناً معينة فجعلوا لكل غناء أو لحن وزناً مخصوصاً فصار عندهم للرثاء وزن وللحماسة آخر . فالنصب غناء الركبان والفتيان ويقال له الجنابي اشتقه رجل من كلب يقال له جناب وهو يخرج من اصل الطويل في العروض . والسناد هو الغناء الثقيل ذو الترجيع الكثير النغمات . والهزج هو الغناء الخفيف الذي يرقصون عليه فيطرب ويستخف الحليم (٢) وظلوا بعد الاسلام يختصون كل لحن بوزن (٣)

---

(١) الالياذة العربية ٩٠ (٢) العمدة ٢٤١ ج ٢
(٣) الاغاني ١٠٥ ج ١

٥ — شاعرية العرب

تلك كانت بداية النظم عند العرب على ما نظن . وكان ذلك طبعاً في زمن بعيد لا يدرك اوله التاريخ ومهما يكن من سبب النظم فان العرب اقوى الامم شاعرية واقدرهم على النظم في الشعر الموسيقي بلا خلاف — يدلك على ذلك عدد شعرائهم وضروب شعرهم في قرن واحد وبعض القرن قبيل الهجرة ولذلك اسباب طبيعية اهمها :

اولا : ان العربي من فطرته ذو نفس حساسة وشعور راقٍ واريحية وانفة سريع الطرب سريع الغضب فيه بديهة وارتجال . ومن كان هذا شأنه لا يلبث ان يجيش صدره بمعنى حتى يلفظهُ لسانه . ولذلك كان اكثر شعرهم غنائياً او موسيقيا يعبرون به عن احساسهم ويصورون به شعورهم وهو يصدر عن احد اربعة فواعل : الرغبة والرهبة والطرب والغضب

ثانياً : ان لغتهم شعرية لما فيها من اساليب الكناية او الاستعارة ودقة التعبير وكثرة المترادفات مما يسهل وجود القافية . فالعربي من انطق الامم ولغته اوسع اللغات ولفظها ادل من سائر الالفاظ وفيها الامثال والحكم . وللغة شأن كبير في تسهيل النظم حتى على ابناء البلد الواحد والنسب الواحد . فالعرب مع اشتراكهم في الطبائع والحساسة ودقة الشعور والشاعرية فان الذين كانوا منهم يتكلمون غير لسان مضر (المبين) لم ينظموا الشعر — فان هذا اللسان ويقال له لسان معد كان شائعاً في معظم بلاد العرب الا مهرة وعمان لان معدًّا لم ينزل احد منهم هناك . فظهر الشعراء قبل الاسلام في كل جزيرة العرب الا هذين البلدين . ويؤيد ذلك ان الشاعرية انتشرت بين المتكلمين بهذه اللغة وان لم يكونوا عرباً حتى اليهود والعبيد من الزنج والنوبة . واعتبر ذلك بعد الاسلام بانتشار اللغة العربية في الاقطار فنبغ فيها شعراء اصلهم من الروم والفرس والترك والبربر وغيرهم — وذلك من تأثير اللسان

ثالثاً : صفاء جوهم وتفرغهم للتأمل في الطبيعة فان اهل الجو الصافي تكون اذهانهم صافية وخصوصاً اذا كانوا اهل خيال وتصور مثل العرب فيزيدهم الصفاء شاعرية ولا سيما اذا كانوا متفرغين للنظر في الوجود ومراقبة احوال الطبيعة كما كان

العرب في بداوتهم — غير ما بعثهم على قول الشعر من المنافسات والحروب في ايامهم وغيرها كما سنفصله في ما يلي

٦ — نهضة الشعر في الجاهلية واسبابها

اسباب النهضة بوجه عام

قضى العرب اجيالا لا يعرف مقدارها الا الله وهم يقولون الشعر عند الحاجة مما لم يصل الينا خبره وانما وصل الينا بعض ما نظموه في النهضة الاخيرة قبيل الاسلام. والنهضة في الشعر او الادب او العلم تحدث على اثر انقلاب سياسي من فتح او حرب او نصر. او تغيير اجتماعي على اثر نكبة او نازلة اوكل ما يثير العواطف. وهي قاعدة تشمل طبائع البشر في كل زمان ومكان. فالهنود القدماء لم ينظموا اناشيدهم السنسكريتية الا بعد ما لاقوه من الحروب والتنازع في اثناء نزولهم الهند قبل الميلاد باجيال. واليونان ما زالوا على الشعر القصصي وشعراؤهم قليلون حتى قامت الفتن بينهم وتحاربوا ثم حاربوا الفرس وغيرهم فنبغ فيهم الشعراء الموسيقيون. وظلَّ الرومان بعد تأسيس دولتهم ٢٤٠ سنة في جمود ادبي لم يظهر فيهم شاعر حتى كانت الحروب الفونية مع القرطاجيين فتفتقت قرائحهم وظهر فيهم الشعر. وقضت امم اوربا اجيالاً في القرون الوسطى وقرائحهم خامدة فلما خرجوا للحروب الصليبية وقاسوا ما قاسوه فيها ظهرت مواهبهم في الشعر ونبغ فيهم شكسبير ودانتي وغيرهما. وترى اشعار الامة في نهضتها صورة من صور احوالها على أثر ذلك الانقلاب. فان كانت هي الظافرة فيه كثر شعرها الحماسي والفخري واذا كانت المغلوبة كان شعرها اكثره في الرثاء كما فعل اليهود بعد اسرهم في بابل بمراثي ارمياء وغيره. والشعر يوحيه الحب والحرب والموت

استقلال عرب الحجاز عن اليمن

والعرب شأنهم في نهضتهم الشعرية قبل الاسلام مثل شؤون سائر الامم. ونريد بالعرب هنا بدو الحجاز ونجد وما جاورها فكانوا قبل هذه النهضة ينظمون على قلة ولا

نظنهم كانوا يجيدون وهم تحت سيطرة الحميريين ملوك اليمن يخدمونهم في نقل تجارتهم او رعي ماشيتهم . وكانت دولة اليمن تستأجرهم في حروبها كما يفعل اهل المدن اليوم بأهل البادية . وكانوا يؤدون لها الاتاوة (الخراج) وقد رسخ في اعتقادهم عظمة تلك الدولة لما فيها من اسباب الحضارة فاصبحوا بتوالي الاجيال يعدون الاذعان لها فرضاً . فلما رأوا ما اصابها في حروبها مع الحبشة في اواسط القرن الرابع للميلاد اذ فتحها الاحباش بمساعدة قيصر الروم سنة ٣٤٥ [1] تبين لهم عجزها عن حفظ سيادتها وذهبت هيبتها من قلوبهم فأخذوا يفكرون في الخروج من سيطرتها والامساك عن دفع الاتاوة واحسوا بالحاجة الى الاتحاد .

واول من كسر هذا القيد من قبائل العرب قبيلة ربيعة على يد فارسها كليب الشجاع المشهور وكان معاصراً لزهير بن جناب الذي ولاه صاحب اليمن على بكر وتغلب اكبر قبائل ربيعة . وكان زهير يتقاضى الاتاوة او الخراج منهم في مقابل النجعة والكلأ والمرعى وكان يخرج في حاشيته لجمع الاتاوة . فاصابهم في اثناء امارته ضيق واحلت ارضهم فتأخروا عن الدفع فجاءهم زهير والح في مطالبتهم فشكوا عجزهم واباتوا عذرهم فلم يصغ لشكواهم . ومنعهم النجعة والمرعى او يؤدوا ماعليهم فصبروا حتى كادت مواشيهم تهلك . وكانت هيبة الدولة قد ذهبت من نفوسهم — فلما اصابهم ذلك الظلم شقوا عصا الطاعة ونقموا على زهير ورجاله فدسوا رجلاً منهم اسمه زيابة من بني تيم الله وكان فاتكاً واوعزوا اليه ان يقتل زهيراً غدراً ولم يقدموا على مناوأته جهاراً لئلا يستنجد جنده . فاتاه زيابة وهو نائم وطعنه ورجع الى قومه واخبرهم انه قتله والحقيقة ان السيف مر بجانب البطن ولم يصب من زهير مقتلاً . وعلم هذا انه سالم فلم يتحرك لئلا يجهز عليه . فلما انصرف زيابة اوعز زهير لمن معه ان يظهروا موته ويستأذنوا بكراً وتغلب في دفنه فلما اذنوا دفنوا ثياباً ملفوفة وفروا به مجدين الى قومهم . فجمع زهير الجموع وفي ذلك يقول ابن زيابة :

طعنة ما طعنت في غلس اللي ... ل زهيراً وقد توافى الخصوم
حين يحمي له المواسم بكر ... ابن بكر واين منها الحلوم

(١) العرب قبل الاسلام ١٢٧ ج ١

خانني السيف اذ طعنت زهيراً وهو سيف مضلل مشؤوم

وجمع زهير من قدر عليه من اهل اليمن وغزا بكراً وتغلب وقاتلهم قتالاً شديداً انهزمت به بكر وقاتلت تغلب بعدها ثم انهزمت واسر كليب ومهلهل ابنا ربيعة واخذت الاموال وكثرت القتلى في بني تغلب واسر جماعة من وجوههم وفرسانهم

فعظم ذلك على قبائل ربيعة وتجمهروا وولوا عليهم ربيعة والد كليب ومهلهل وخرجوا على زهير وانقذوا الاسيرين منه . ودالت الايام وعاد زهير الى سطوته فوضع الاتاوة او الخراج على بني معد جميعاً

وفي اواخر القرن الخامس توفي ربيعة امير ربيعة فخلفه ابنه كليب وفي نفسه على اليمن ضغائن لما قاساه في اسرهم فجمع معدًّا تحت لوائه اي ربيعة وقضاعة ومضر واياد ونزار وحاربوا اليمن في معركة عرفت بيوم خزاز وهزموهم واستقلوا من سيطرتهم . ولم يدفعوا اليهم اتاوة او خراجاً من ذلك الحين . ونظرت معد الى كليب نظرها الى منقذ عظيم فولوه الملك عليهم وجعلوا له قسم الملك وتاجه وطاعته . وكان ذلك آخر عهدهم بسلطة اليمن

حروبهم فيما بينهم

فاستقلال عرب الحجاز ونجد من سيطرة اليمن انقلابٌ سياسيٌّ هاج شاعريتهم وايقظ مافطروا عليهِ من عزة النفس واباءة الضيم فاخذوا يختلفون فيما بينهم لان سيطرة اليمن كانت قد جمعتهم قيودها . فلما اطلق سراحهم تنازعوا فجرت بينهم حروب تعرف بايام العرب قد فصلناها في كتابنا (العرب قبل الاسلام ج ١) واكثرها حدَّة واطولها مدة الوقائع بين بكر وتغلب وكلاهما من ربيعة وهي حرب البسوس بين كليب وجساس دام النزاع فيها اربعين سنة مات في اثنائها الشيوخ وشاخ الشبان وشبَّ الولدان وفي اثنائها نبغ مهلهل اخو كليب وشهد تلك الحروب . وكان شاعراً مطبوعاً فتوسط في المصالحة بين القبيلتين وله شأن في تاريخ الشعر. ناهيك بالحروب التي جرت بين قبائل مضر أشهرها ايام داحس والغبراء وغيرها

نهضة قريش : وقد انهض قريش على الخصوص واثارت شاعريتهم وشحذت قرائحهم حروبهم مع الاحباش في عام الفيل باواسط القرن الاول قبل الهجرة فان

الاحباش لما فتحوا اليمن حملوا على مكة للاستيلاء على الكعبة . وكانت سدانتها يومئذٍ الى عبد المطلب جد النبي فجاء الاحباش بافيالهم ورجالهم وعدتهم واهل مكة لم يتعوَّدوا شيئاً من ذلك لما للكعبة من المنزلة الرفيعة في انفس القبائل وغيرهم . فلما رأوا الاحباش قادمين شعروا بما يهددهم من الخطر واحسوا بافتقارهم الى الاتحاد لدفع الاجانب فدفعوا الاحباش وقد تنبهت اذهانهم واخذت مواهبهم في الظهور . ومما يدلُّ على شدة تأثير ذلك الهجوم في نفوسهم انهم جعلوا يؤَرخون منهُ وهو عام الفيل

وبعد عام الفيل حدثت حرب الفجار بين قريش وكنانة وقيس وكان لها تأثير كبير في نفوس القرشيين ساعدتهما على تلك النهضة

فهذه الحروب والفتن اظهرت مواهب الرجال فتولدت طبقة من الحكماء وأخرى من الاسخياء وأخرى من الفرسان والشجعان وايقظت الشاعرية الحماسية والفخرية فنبغ منهم الشعراء على اختلاف القبائل والبطون لمدح الظافرين أو وصف بسالتهم أو التفاخر بالقبائل . ورافق ذلك تحالف القبائل وتقاربها أو تباعدها وتنبهت عاطفة الحب فظهر العشاق من الشعراء . ولذلك كانت منظومات هذه النهضة اكثرها في الفخر والحماسة على اثر واقعة من تلك الوقائع أو في وصف شوق أو حكمة أو موعظة أو مدح ظافر أو كريم كما ستراهُ في مكانه

اقدم الشعراء

فكل ما وصل الينا من منظومات شعراء الجاهلية نظم بعد استقلال الحجازيين من سيطرة اليمن وماوصل الينا من الشعر قبل ذلك قليل وهو لغير الحجازيين . واقدم ماوصلنا خبرهم من الشعراء ابو دؤَاد الايادي ولقيط الايادى وكلاهما من اياد وكانت تقيم في العراق تعمل للمناذرة . فابن ابي دؤَاد كان على خيل النعمان ولقيط شاعرجاهلي قديم . وعلس بن جدن من حمير وخذيمة بن نهد وزهير بن جناب الكلبي من قضاعة — وقد ظهرت قضاعة قبل سائر قبائل عدنان . ويقال أيضاً ان حزين بن لوزان وربيع بن زياد والاصبع العدواني من اقدم الشعراء [١] ويقولون ان اول من قال الشعر في نزار (وهي تشمل مضر وقضاعة) عمرو بن قميئة من ربيعة [٢]

(١) المزهر ٢٣٧ ج ٢ والاغاني ٢٢ ج ١٦ (٢) الاغاني ١٦٣ ج ١٦

وللعلماء في اقدم الشعر العربي اقوال لا فائدة من ايرادها لان اكثرها مبني على الوهم ولا سيما في ما يروونه للآباء الاولين من الشعر — حتى روى بعضهم اشعاراً نسبها الى آدم ! وارفق منه حالاً من روى للتابعة . ويطعن في صحتها ان لغة التابعة حميرية تختلف عن لغتنا كثيراً . وقد يردُّ على ذلك بان الحميري قد يعرف العربية وينظم فيها ولكن الغالب انهم لم يفعلوا

٧ — تنقل الشعر في الاقاليم والقبائل

١ — في الاقاليم

من القواعد الثابتة في علم الطبيعة ان للاقليم تأثيراً في اخلاق الناس وأبدانهم فيختلفون صحة ونشاطاً و بديهة وذكاء باختلاف الاقليم . ويقال على الاجمال ان اهل البادية اصفى ذهناً من سكان المدن واهل البلاد الباردة اسرع حركة واكثر نشاطاً من اهل البلاد الحارة . وفي البلد الواحد يفضل اهل الجبال على اهل السهول نشاطاً وصفاء ذهن

شعراء نجد

وعلى هذا القياس فان سكان نجد اقوى بنية واصفى ذهناً من سائر سكان جزيرة العرب لانها بلاد جبلية هواؤها نشيط ونسيمها عليل وقد تغزل بها العرب فقال قيس ابن الملوح :

تمتع من شميم عرار نجد   فما بعد العشية من عرار

وقال آخر :

سقى الله نجداً والسلام على نجد   ويا حبذا نجد على القرب والبعد

وفيها الارض التي حماها كليب وائل وافضى ذلك الى قتله وانتشاب حرب البسوس . وفيها جبل عكاد الذي لم تثبت العربية الفصيحة بعد تمادي الاجيال الا بين اهله . وعندهم ان افصح العرب اهل السروات وهي ثلاثة جبال مطلة على تهامة — فاهل نجد اقوى شاعرية من سائر بلاد العرب

وبناء على اختلاف الامزجة باختلاف الاقاليم فقد امتاز اهل كل اقليم من بلاد العرب بباب من ابواب الشعر — فاشتهر اهل الحجاز بالرقة واكثر شعرهم الغزل [١] كما اشتهر شعر اهل نجد بالبلاغة [٢] وقد ذهبوا في الشعر كل مذهب . واذا احصيت شعراء الجاهلية الذين بلغ الينا خبرهم بالنظر الى المواطن رأيت نحو خمسيهم من نجد والخمس الثالث من الحجاز والرابع من اليمن والباقي من العراق فيه بضعة قليلة من البحرين واليمامة وتهامة

٢ — في القبائل

ربيعة : اما من حيث القبائل فقد علمت مما تقدم أن ربيعة اول من نهض للاستقلال وهم اول من نبغ في الشعر . وأهم قبائلهم وبطونهم بكر وتغلب وعبد القيس ونمر بن قاسط ويشكر وعجل وضبيعة وشيبان وذهل وسدوس . وكانوا يقيمون قديماً في اليمن ثم في نجد ثم نزحت بكر وتغلب وغيرهما نحو العراق فاقاموا في باديتها وفي ما بين النهرين . ونبغ منهم وهم في نجد المهلهل بن ربيعة

ومن شعراء ربيعة المرقّش الاكبر وابن اخيه المرقّش الاصغر . والاكبر شاعر قديم يقال انه من ربيعة قبل خروجها من اليمن [٣] والمرقش الاصغر عم طَرَفة بن العبد ومنهم سعد بن مالك وطرفة وعمرو بن قُمِيئة المتقدم انه اقدم من قال الشعر من نزار والحارث بن حلّزه والمتلمّس خال طرفة والاعشى والمسيب بن علس وغيرهم جماعة من فحول شعراء الجاهلية . ولما انتقلت ربيعة الى العراق زادتها مناظر ذلك الوادي سعة في الخيال

قيس : وتحوّل الشعر بعد ربيعة الى قيس عيلان وكلاهما من مضر . وقيس قبيلة كبيرة من بطونها عبس وذبيان وغطفان وعدوان وهوازن وسليم وثقيف وعامر ابن صعصعة ونمير وجعدة وقشير وعقيل . وتقيم هذه البطون او القبائل في نجد واعالي الحجاز وقد نبغ منهم جماعة من فحول الشعراء فمنهم النابغتان وزهير بن ابي سُلمى وكعب ابنه ولبيد والحُطيئة والشمّاخ وخِداش بن زهير وغيرهم. وعندهم ان اشعر قيس

(١) الاغاني ٤٢ ج ٧ (٢) الاغاني ٧٢ ج ١ (٣) الاغاني ١٩٠ ج ٥

الملقبون من بني عامر والمنسوبون الى امهاتهم من غطفان [١]

تميم : ثم ظهر الشعر في تميم وهي قبيلة كبيرة من مضر اشهر بطونها وقبائلها مازن ومالك وسعد ودارم ويربوع وكعب ومجاشع وزرارة . وكانت تميم قديماً تقيم في تهامة ثم نزحت في اواسط القرن الثاني قبل الهجرة نحو العراق واستقرت في باديته وما يليها جنوباً . ومن شعرائها المشاهير اوس بن حجَر شاعر مضر في الجاهلية لم يتقدمه احد حتى نشأ النابغة وزهير فاخملاه وكلاهما من قيس

وظهر الشعر بعد ذلك في بطون مدركة من مضر وهي هُذيل وقريش واسد وكنانة والدئل وغيرهم

كل هؤلاء من اهل البادية . اما المدن فانها قليلة في جزيرة العرب واهمها مكة والمدينة والطائف وقلما نبغ منها شعراء فحول واشعر اهل المدن في الجاهلية على الاجمال حسَّان بن ثابت [٢]

عدد الشعراء بالنظر الى القبائل

واذا اعتبرت عدد شعراء الجاهلية بالنظر الى القبائل كانت قيس اكثرها شعراء تليها اليمن فربيعة فمضر فتميم فقريش فقضاعة فاليهود فاياد . وعدد الشعراء في الجاهلية لا يمكن حصره لاسباب سيأتي بيانها ولكن الذين وصلتنا اخبارهم وامثلة من اشعارهم يبلغون نحو ١٢٥ شاعراً يقسمون على هذه الصورة بالنظر الى القبائل :

عدد شعرائها	اسم القبيلة	عدد شعرائها	اسم القبيلة
٣٠	قيس	٢	اياد
٢٣	اليمن (القحطانية)	١	موالي غير عرب
٢١	ربيعة		
١٦	مضر		
١٢	تميم		
١٠	قريش		
٤	قضاعة		
٤	يهود		

(١) الاغاني ٩٢ ج ٢ (٢) العمدة ٥٦ ج ١

ولزيادة الايضاح نذكر اشهر البطون التي تدخل تحت كل من هذه القبائل لتسهل المراجعة على الباحث :

يدخل في قيس	في ربيعة	في القحطانية	في تميم	في مدركة	في قضاعة
غطفان	نمر بن قاسط	طي	مازن	هذيل	جهينة
ذبيان	عبد القيس	الاشعر	سعد	اسد	ضجعم
عبس	بكر بن وائل	جذام	دارم	كنانة	تنوخ
هوازن	تغلب	الازد	يربوع	قريش	كلب
سعد	يشكر	كندة	مجاشع	الدئل	
سليم	جشم	لخم	بهدلة		في قريش
ثقيف	حنيفة	مذحج	مالك		هاشم
عامر	عجل	خزاعة			امية
كلاب	شيبان	همدان			مخزوم
جعدة	سدوس	مازن			محارب
نمير	ذهل	غسان			كلاب
عقيل	ضبيعة	الاوس والخزرج			غالب
قشير					جمح

٨ — كثرة الشعر وتعدد الشعراء

قد رأيت في ما تقدم استعداد العرب الفطري للشعر واقتدارهم على النظم لان لغتهم شعرية بالفاظها واساليبها ومعانيها فلا عجب اذا تعدد شعراؤها وكثرت اشعارهم وان عسر علينا تقدير ذلك بالضبط لضياع اكثر ما خلفوه وذهاب اكثر الشعراء لعدم تدوين ذلك في الجاهلية واشتغال العرب عنهُ بالفتوح في صدر الاسلام . على اننا نكتفي بالاستدلال على كثرة ذلك بما وصل الينا من اخبارهم . ويؤخذ منها ان العرب الجاهلية نظموا في نهضتهم الاخيرة قبيل الاسلام ما لم يجتمع عند سواهم من الامم في عدة قرون وخصوصاً في العصر الجاهلي . فالياذة هوميروس واوذيسته هما معظم شعر جاهلية اليونان ولا يزيد عدد ابياتها على ٣٠٠٠٠ بيت وكذلك مهابهاراتة الهنود ٢٠٠٠٠ بيت وراماياناتهم ٤٨٠٠٠ بيت . واما العرب فيؤخذ مما بلغنا من

اخبارهم عما نظموه في نهضتهم الاخيرة قبل الاسلام انه يربو على اضعاف ذلك .فهم يعدون منظوماتهم بالقصائد وليس بالابيات فقد ذكروا ان ابا تمام صاحب كتاب الحماسة كان يحفظ من اشعار العرب (الجاهلية) ١٤٠٠٠ ارجوزة غير القصائد والمقاطيع [١] وكان حماد الراوية يحفظ ٢٧٠٠٠ قصيدة [٢] على كل حرف من حروف الهجاء الف قصيدة . وكان الاصمعي يحفظ ١٦٠٠٠ ارجوزة [٣] وكان ابو ضمضم يروي اشعاراً لمائة شاعر كل منهم اسمه عمرو [٤]— ومع ما يظن في ذلك من المبالغة فانه يدل على كثرة ما خلفه العرب من المنظومات . وخصوصاً اذا اعتبرنا ان ما وصل الى رواة الشعر في الاسلام انما هو بعض اشعار الجاهلية لان كثيرين من رواة الشعر الجاهلي قتلوا في الفتوح الاسلامية فضاع ماكان في محفوظهم من الاشعار — قال ابو عمرو ابن العلاء « ما انتهى اليكم مما قالت العرب الا اقله ولو جاءكم وافراً لجاءكم علمٌ وشعر كثير » [٥]

وزد على ذلك ان العرب نظموا الشعر الكثير وابدعوا فيه وهم يكادون يكونون فوضى لا دولة لهم ولا جامعة ولا دين ولا شيء مما حمل اليونان أو الهنود أو غيرهم على النظم وانما اندفعوا اليه بفطرتهم . ولولا ذلك لتأخروا في النظم حتى قامت دولتهم ونضجت قرائحهم كما حدث للرومانيين فان الشعر لم ينظم بلسانهم الا بعد تأسيس دولتهم ببضعة قرون . ولم يبلغ الشعر اللاتيني عصره الذهبي الا في ايام اوغسطس وطيباريوس نحو القرن الثامن من تأسيس رومية (القرن الاول للميلاد) ثم اخذ في التقهقر . ويقال نحو ذلك في دول اوربا الحالية فان الشعر لم ينضج عندهم الا بعد نشوء دولهم وتقدمهم في العلم والادب

واذا تدبرت اولئك الجاهليين رأيت الشعر داخلاً في كل عمل من اعمالهم مرافقاً لكل حركة من حركاتهم حتى يخيل لك انهم كانوا لا ينطقون الا بالشعر وكأن كل واحد منهم شاعر او يقول الشعر ولو قليلاً حتى الملوك والامراء والفرسان والرجال

---

(١) ابن خلكان ١٢١ ج ١ (٢) النجوم الزاهرة ٤٢٠ ج ١
(٣) ابن خلكان ١٢١ ج ١ وطبقات الادباء ١٥١
(٤) الشعر والشعراء ٤ (٥) المزهر ٢٣٧ ج ٢

والنساء والوجهاء والحكماء والصعاليك والعبيد واللصوص والمجانين من النصارى واليهود والوثنيين وقد تسلسلت القريحة الشعرية في كثير من بيوتهم بالتوارث عدة اجيال . فالنعمان بن بشير الانصاري من العريقين في الشعر خلفاً عن سلف جده شاعر وابوه وعمه شاعران وهو شاعر واولاده شعراء (١) وكذلك كعب بن مالك من شعراء الصحابة كان ابوه شاعراً وعمه قيس شاعر وابناه كعب واحفاده كلهم شعراء (٢) وهكذا الكميت بن معروف وعبد يغوث بن صلاءة . وعندهم من بيوتات الشعر في الجاهلية عدد كبير منهم بيت ابي سُلمى فقد كان ابو سلمى شاعراً وابنه زهير المشهور شاعر وله خؤولة في الشعر خاله بسامة بن الغدير شاعر . وكان ابناه كعب بن زهير وبجير شاعرين وجماعة من ابنائهما شعراء . وحسان بن ثابت تسلسل الشعر في ابنائه بضعة اجيال . ومن العريقين في الشعر القاسم بن امية . وقس على ذلك شعراء العرب بعد الاسلام فمن بيوتاتهم بيت جرير فكان هو وابوه وجده شعراء وكذلك بنوه واحفاده . ومنهم بيت عطية بن رؤبة بن العجاج وبيت ابي حفصة وبيت ابي عيينة (٣) وغيرهم

على ان ما بلغ الينا من اسماء الشعراء هودون الطفيف اذ لم ينقل الرواة من اخبار شعراء العشائر الا الاشهر فضلاً عمن ضاع خبره . اما الشعراء المعروفون بالشعر عند عشائرهم وقبائلهم فاكثر من ان يحيط بهم الحصر او يقف من وراء عددهم واقف ولو انفد عمره في التنقيب عنهم واستفرغ مجهوده في البحث والسؤال . ولم يستطع احد من رواة الشعر ان يستوفي جمع اشعار قبيلة واحدة لم يفته منها شاعر لم يذكره (٤)

ثم ان الشعراء الذين وصلت الينا اخبارهم على قلتهم لم يصلنا من اشعارهم الا بعضها وضاع سائرها في اثناء الفتوح الاسلامية لاشتغال الناس بالاسلام والحرب عن روايته وذهاب اكثر الرواة والحفاظ في الجهاد فلما عادوا بعد الفتوح الى الاشتغال بالادب اخذوا في جمع الشعر فلم يجدوا منه الا القليل . ويؤيد ذلك انك تسمع بالشاعر الفحل من شعرائهم وما له من الشهرة ثم لا تجد له من المنظوم ما يلائم تلك الشهرة . فطرَفَة بن العبد وعبيد بن الابرص مع ما لهما من الشهرة الواسعة في الشعر لا نجد بين ما وجده الرواة من اشعارهما ما يوازي تلك المنزلة (٥)

(١) الاغاني ١٢٥ ج ١٤ (٢) الاغاني ٢٧ ج ١٥
(٣) العمدة ٢٣٥ ج ٢ (٤) الشعر والشعراء ٣ (٥) المزهر ٢٣٧ ج ٢

٩ — طبقات شعراء الجاهلية

ومع ما قدمناه من ضياع اكثر اخبار الشعراء الجاهليين ومعظم اشعارهم فان الذين عرفناهم يزيدون على مئة شاعر نبغوا في القرنين الاولين قبل الهجرة او في الخامس والسادس للميلاد واكثرهم من اهل القرن السادس. وبعضهم عاش اعواماً بعد الاسلام وهم المخضرمون . وقد تقدم احصاؤهم الاجمالي بالنظر الى مواطنهم وقبائلهم وبقي ان ننظر فيهم باعتبار طبقاتهم وباعتبار مناحيهم واغراضهم واخلاقهم ومراتبهم

اما تقسيمهم الى طبقات فمن اصعب الامور وقد حاول ذلك غير واحد من ادباء المسلمين في ابان التمدن الاسلامي وتفاوتوا في تعيين الطبقات فاعتبرها بعضهم بالنظر الى الاجادة فقالوا : الشعراء اربع طبقات (١) شاعر خنذيذ وهو الذي يجمع الى جودة شعره رواية الجيد من شعر غيره (٢) شاعر مفلق وهو الذي لا رواية له لكنه مجيد كالخنذيذ (٣) شاعر (فقط) وهو فوق الرديء بدرجة (٤) شعرور وهو لا شيء

وقسمهم آخرون الى شاعر مفلق وشاعر مطبق وشويعر وشعرور . وقال بعضهم :

الشعراء فاعلمنَّ اربعة فشاعر يجري ولا يجرى معه
وشاعر يخوض وسط المعمعة وشاعر لا تشتهي ان تسمعه
وشاعر لا تستحي ان تصفعه

ورويت هذه الابيات هكذا ايضاً :

الشعراء فاعلمن اربعة فشاعر لا يرتجى لمنفعه
وشاعر ينشد وسط المعمعة وشاعر آخر لا يجرى معه
وشاعر يقال خمر في دعه (١)

وقسمهم آخرون الى طبقات بما اشتهر من قصائدهم المنتقاة فاستفردوا سبع طبقات اهل كل منها سبعة شعراء (تقريباً) في مجموع واحد وفيهم بضعة من شعراء صدر الاسلام . اولهم اصحاب المعلقات يليهم اصحاب المجمهرات فالمنتقيات فالمذهبات فالمراثي فالمشوبات فالملحمات . وهذه اسماء الشعراء مرتبة حسب ذلك مع الاشارة الى قبيلة الشاعر وبلده وبعضهم من شعراء العصر الاموي :

(١) المزهر ٢٤٦ ج ٢

١ — اصحاب المعلقات

اسم الشاعر	قبيلته	بلده
امرؤ القيس	كندة	نجد
زهير بن ابي سلمى	مازن	نجد
النابغة الذبياني	ذبيان	الحجاز
الاعشى	بكر	نجد
لبيد بن ربيعة	عامر	العراق
عمرو بن كلثوم	تغلب	»
طرَفة بن العبد	بكر	البحرين
عنترة العبسي	عبس	نجد

٢ — اصحاب المجمهرات

اسم الشاعر	قبيلته	بلده
عَبيد بن الابرص	اسد	نجد
عدي بن زيد	عبادي	الحيرة
بشر بن ابي حازم	اسد	نجد
امية بن ابي الصلت	ثقيف	الطائف
خِداش بن زهير	عامر	نجد
النمر بن تولب	عكل	»

٣ — اصحاب المنتقيات

اسم الشاعر	قبيلته	بلده
المسيب بن علس	بكر	العراق
المرقش الاصغر	ضبيعة	نجد
المتلمس	»	البحرين
عروة بن الورد	عبس	نجد
مهلهل بن ربيعة	تغلب	نجد
دريد بن الصمة	جشم	»
المتنخل الهذلي	هذيل	الحجاز

٤ — اصحاب المذهبات

اسم الشاعر	قبيلته	بلده
حسان بن ثابت	الانصار	يثرب
عبد الله بن رواحة	»	»
مالك بن العجلان	»	»
قيس بن الخطيم	الانصار	يثرب
احيحة بن الجلاح	»	»
ابو قيس بن الاسلت	»	»
عمرو بن امرىء القيس		

٥ — اصحاب المراثي

اسم الشاعر	قبيلته	بلده
ابو ذؤيب الهذلي	هذيل	الحجاز
محمد بن كعب الغنوي	غني	
اعشى باهلة	باهلة	نجد
علقمة الحميري	حمير	
ابو زبيد الطائي	طي	نجد
متمم بن نويرة	يربوع	اليمن
مالك بن الريب	تميم	العراق

٦ — المشوبات

اسم الشاعر	قبيلته	بلده
نابغة جعدة	جعدة	نجد
كعب بن زهير	مازن	نجد
القطامي	تغلب	العراق
الحطيئة	عبس	نجد
الشماخ بن ضرار	ذبيان	الحجاز
عمرو بن احمر	باهلة	نجد
تميم بن مقبل		

٧ — اصحاب الملحمات

اسم الشاعر	قبيلته	بلده
الفرزدق	تميم	العراق
جرير	»	»
الاخطل	تغلب	»
عبيد الراعي	هوازن	الحجاز
ذو الرمة	عدي	»
الكميت	مضر	»
الطرماح بن حكيم	طي	نجد

جملة هذه القصائد ٤٩ قصيدة هي نخبة قصائد العرب في الجاهلية والاسلام وقد جمعها على هذا الترتيب ابو زيد القرشي في كتاب جمهرة اشعار العرب وقد طبع بمصر مشروحاً . ولمحمد بن سلام كتاب في طبقات الشعراء قد ضاع . ويظهر مما نقل عنه في الاغاني والمزهر وغيرهما انه اوفى كتاب في هذا الموضوع وقد رأينا في ما نقل عنه ذكر طبقة خامسة وسادسة ولا نعلم عمدته في ذلك التقسيم

تقسيمهم من حيث طبقاتهم

اما تقسيم الشعراء الى طبقات باعتبار الاجادة على الاجمال فامر غير ميسور لان نقدة الشعر لم يتفقوا في بعض هذا الموضوع فضلاً عن كله كما سيأتي . على اننا وقفنا على تقسيم لشعراء الجاهلية استخرجناه من كتاب طبقات الشعراء لاسكندر ابكاريوس المطبوع في بيروت ولم يذكر على من كان معوّله فيه . واليك ذلك في جدول وذكرنا بجانب كل شاعر اسم قبيلته وبلده وسنة وفاته على التقريب :

١ — شعراء الطبقة الاولى

اسم الشاعر	نسبه	وطنه	سنة الوفاة
امرء القيس الكندي	كندي	من اهل نجد	٥٣٩ م
امية بن ابي الصلت	الثقفي	« الطائف	٢ هـ
بشر بن ابي حازم	الاسدي	« نجد	٥٣٠ م
الحارث بن حلّزه	اليشكري	« العراق	٥٦٠ «
زهير بن ابي سُلمى	المزني	« نجد	٩ هـ
النابغة الذّبياني	الذبياني	« الحجاز	...
طرَفة بن العبد	البكري	« البحرين	٥٥٢ م
عبيد بن الابرص	الاسدي	« نجد	٦٠٥ «
المهلهل عدي بن ربيعة	التغلبي	« نجد	٥٠٠ «
عدي بن زيد	العبادي	« الحيرة	٥٩٧ «
عمرو بن كلثوم	التغلبي	« الجزيرة	٥٧٠ «
عنترة بن شداد	العبسي	« نجد	٦١٥ «
لبيد بن ربيعة	العامري	« العراق	٤١ هـ
أعشى قيس	الاسدي	« اليمامة	٧ هـ

٢ــ شعراء الطبقة الثانية

احيحة بن الجلاح	الاوسي	من اهل يثرب	٥٦١ م
أوس بن حجر	التميمي	« اليمن	٦١٠ «
الاسود بن يعفر	الدارمي	« العراق	٦٠٠ «
البراق بن روحان	التميمي	« اليمن	٥٢٥ «
تماضر بنت عمر الخنساء	السلمية	« نجد	...
تميم بن ابي مقبل	العامري	« نجد	ادرك الاسلام
تأبط شرًّا	الفهمي	« تهامة	٥٣٠ م
الشنفرى	الازدي	« اليمن	٥١٠ «
الحطيئة	العبسي	« نجد	...
المتلمس	الضبعي	« البحرين	٥٥٠ «
حاتم	الطائي	« نجد	٦٩ ﻫ
الحارث بن عباد	البكري	« العراق	٥٧٠ م
حسان بن ثابت	الانصاري	« يثرب	٥٤ ﻫ
ابو دؤاد	الايادي	« العراق	٥٢٠ م
خداش بن زهير	العامري	« نجد	٥٧٠ «
خفاف بن ندبة	السلمي	« نجد	٥٩٥ «
خوَيلد بن خالد	الهذلي	« الحجاز	٢٦ ﻫ
دريد بن الصمة	الجشمي	« نجد	٨ ﻫ
الربيع بن زياد	العبسي	« نجد	٥٩٠ م
المرقش الاصغر	الضبعي	« نجد	٥٠٠ «
المخبَّل ربيعة بن مالك	السعدي	« اليمن	...
ربيعة بن مقروم	الضبي	« نجد	٢٨ ﻫ
السموال بن غريض	الاوسي	« الحجاز	٥٦٠ م
سلامة بن جندل	التميمي	« اليمن	٥٢٠ «
ابو قيس بن الاسلت	الاوسي	« يثرب	...
عامر بن حليس	الهذلي	« الحجاز	٥٠٠ «

عبد الله بن رواحة	الانصاري	من اهل يثرب	٨ هـ
النابغة الجعدي	الجعدي	« نجد	...
عروة الصعاليك	العبسي	« نجد	٥٩٦ م
علقمة بن عبدة	التميمي	« نجد	٥٦١ «
عمرو بن احمر	الباهلي	« نجد	٤١ هـ
عمرو بن الاهتم	التميمي	« نجد	٥٧ هـ
عمرو بن قميئة	البكري	« العراق	٥٣٨ م
قيس بن الخطيم	الاوسي	« يثرب	٦١٢ «
كعب بن زهير	المزني	« نجد	٢٤ هـ
متمم بن نويرة	اليربوعي	« اليمن	...
المتنخل بن عويمر	الهذلي	« الحجاز	٦٠٠ م
المثقب العبدي	العبدي	« العراق	٥٢٠ «
المسيب بن علس	البكري	« العراق	٥٨٠ «
الشماخ بن ضرار	السعدي	« نجد	١٨ هـ
معن بن اوس	المزني	« تهامة	٢٩ هـ
المنخل بن الحارث	اليشكري	« العراق	...
النمر بن تولب	العكلي	« نجد	٢٥هـ

٣ـــ شعراء الطبقة الثالثة

امية بن الاسكر	البكري	« الحجاز	...
اياس بن قبيصة	الطائي	« العراق	٦١٠ م
حاجز بن عوف	الازدي	« الحجاز	٥٩٠ «
الحارث بن ظالم	المري	« نجد	٦٠٠ «
سليك بن السلكة	السعدي	« اليمن	٦٠٥ «
زهير بن جناب	الكلبي	« «	٥٦٠ ؟
زيد الخيل	النبهاني	« نجد	...
الممزق العبدي	العبدي	« العراق	٤٨٠ م
الفند الزماني	الزماني	« اليمامة	٥٣٠ «
عامر بن الطفيل	العامري	« نجد	١١ هـ

العباس بن مرداس	السلمي	من اهل نجد		١٩ هـ
عبد الله بن العجلان	النهدي	«	اليمن	٥٦٦ م
عمرو بن معدي كرب	الزبيدي	«	اليمن	٢١هـ
قيس بن زهير	العبسي	«	نجد	...
لقيط بن زرارة	الدارمي	«	اليمن	٥٨٢ م
مالك بن نويرة	اليربوعي	«	اليمن	...
المستوغر بن ربيعة	السعدي	«	اليمن	٥٧٠ «
يزيد بن ورقاء	اليربوعي	«	اليمن	١٧ هـ

ومجموع هؤلاء ٧٥ شاعراً وقد فات المؤلف نحو هذا العدد ذكرهم الاغاني وغيره

١٠ – خصائص الشعر الجاهلي على الاجمال

١ – تمثيل الطبيعة

فطر العرب الجاهلية على البساطة والبعد عن التصنع او التعمل في كل شيء شأن اهل البادية لبعدهم عن شوائب المدنية فهم على الفطرة الطبيعية وعنوانها الصدق بكل معانيه ويدخل فيه استقلال الفكر والشجاعة الادبية والصراحة في القول والعمل . فلا يتكلفون في لباسهم ولا طعامهم او شرابهم ولا يتصنعون في كلامهم وانما يقولون ما يخطر لهم ويصورونه كما يتمثل لمخيلتهم بلا تنميق او تأنق — يدلك على ذلك ما ظهر من حريتهم في اقوالهم في صدر الاسلام يوم كان احدهم يخاطب الخليفة كما يخاطب سائر الناس واذا رأى فيه عوجاً انتقده بوجهه والخليفة لا يرى غرابة في انتقاده

اضف الى ذلك تعودهم الاستقلال في شؤونهم الشخصية والادارية ونفورهم من التقييد بشيء حتى المكان فانهم لا يتوطنون صقعاً بل يحملون منازلهم على ظهورهم لا يحملون ضيماً ولا يصبرون على ظلم . فتمكنت الحرية من طباعهم حتى ظهرت في اقوالهم وافكارهم وفي اشعارهم . فاذا طرأ لهم خيال شعري صوروه كما يتخيل لهم خلافاً لما تقتضيه الحضارة من التكلف وغيره من ثمار الذل والانكسار مما تراه في اقوال الشعراء بعد ان استبحر عمران الدولة وكثر المتملقون والمتكسبون بالنجعة والزلفى —

اما الجاهليون فالقاعدة في النظم عندهم بيت شاعرهم وحكيمهم زهير بن ابي سلمى وهو

وان أشعر بيت انك قائله بيت يقال اذا انشدته صدقا [١]

وصف الحب

فالبدوي اذا تيمه الحب واراد التعبير عن شوقه وهيامه يصف ما يشعر به تماماً فاذا سمعه متيمٌ شعرَ مثل شعوره . فهو لا يبالغ بضعفه من الوجد حتى يزعم انه صار خيالاً او طيفاً كقول المتنبي « لولا مخاطبتي اياك لم ترني » او قول الفارض « ماله مما براه الشوق فيّ » ولا يبالغ ببكائه وزفيره حتى يزعم انه غرق في بحر دمعه او احترق بنار زفيره ولكنه يقول قول مجنون بني عامر — وهو معدود من شعراء صدر الاسلام لكنه بدوي في طباعه . وان لم يصح ان المجنون اسم على مسمى كما سيأتي ــ فالشعر يعبر عن تصور اهل البادية . ومما ينسب اليه قوله :

تذكرت ليلى والسنين الخواليا وايام لا اعدى على الدهر عاديا
فما اشرف الايفاع الا صبابة ولا انشد الاشعار الا تداويا
وعهدى بليلى وهي ذات موصد تردُّ علينا بالعشي المواشيا
فشب بنو ليلى وشب بنو ابنها واعلاق ليلى في فؤادي كما هيا
اذا ما جلسنا مجلساً نستلذه تواشوا بنا حتى امل مكانيا
خليلي لا والله لا املك الذى قضى الله في ليلى ولا ماقضى ليا
قضاها لغيري وابتلاني بحبها فهلاً بشيء غير ليلى ابتلانيا
وخبرتماني ان تيماء منزل لليلى اذا ما الصيف القى المراسيا
فهذي شهور الصيف عنا قد انقضت فما للنوى ترمي بليلى المراميا
فيارب سوّ الحب بيني وبينها يكون كفافاً لا عليّ ولا ليا
فما سميت عندي لها من سمية من الناس الا بل دمعي ردائيا
ولا هبت الريح الجنوب لارضها من الليل الا بتُّ للريح حانيا
فاشهد عند الله اني احبها فهذا لها عندي فما عندها ليا
اعد الليالي ليلة بعد ليلة وقد عشت دهراً لا اعدُّ اللياليا
واخرج من بين البيوت لعلني احدث عنك النفس بالليل خاليا

ومثل ذلك قول ابن الدمينة :

فديتك اعدائي كثير وشقتي بعيد واشياعي اليك قليلُ

(١) العقد الفريد ٩٣ ج ٣

وكنت اذا ما جئت جئت بعلةٍ فافنيت علاَّتي فماذا اقول
فما كل يوم لي بارضك حاجة ولا كل يوم لي اليك وصول

فلا يسمع محب هذه الابيات وامثالها الا رأى الشاعر يعبر عن شعور صحيح

في الرثاء

ويقال نحو ذلك في سائر اغراضهم من الشعرفاذا رثى الجاهليُّ ميتاً لايوهم القارىء ان السماء طبقت على الارض وان الشمس كسفت والدنيا لبست الحداد ونحو ذلك ولكنه يقول قول جليلة زوجة كليب ترثيه وقد قتله اخوها جساس :

ياقتيلاً قوَّض الدهرُ بهِ سقفَ بيتيَّ جميعاً من علِ
ورماني فقده من كثب رمية المصمى به المستأصل
هدمَ البيتَ الذي استحدثته وسعى في هدم بيتي الاول
مسَّني فقدُ كليب بلظىً من ورائي ولظى مستقبلي
ليس من يبكي ليومين كمن انما يبكي ليوم ينجلي
دركُ الثائرِ شافيه وفي دركي ثأريَ ثكل المثكل
ليته كان دمي فاحتلبوا دركاً منه دمي من اكحلي

في الهجو

واذا اراد ان يهجوفهجوه معقول بعيد عن البذاء والفحش وعندهم اشدَّ الهجاء اعفُّه واصدقه وما خرج عن ذلك فهو قذف والخاش . ومن اشد الهجاء عندهم قول زهير بن ابي سلمي في آل حصن على سبيل التشكك والتجاهل :

وما ادري وسوف اخال ادري اقوم آل حصن ام نساء
فان تكن النساء مخبئات فحقٌّ لكل محصنة هداء (١)

وذكروا ان النابغة سأل قومه بني ذبيان بعد واقعة حسي عما قالوه في عامر بن الطفيل فانشدوه . فقال الخشتم على الرجل وهو شريف لا يقال له مثل ذلك ولكنني ساقول — ثم قال :

فان يك عامرٌ قد قال جهلاً فان مطية الجهل السبابُ
فكن كابيك اوكابي براء تصادفك الحكومةوالصوابُ
فلا يذهب بلبك طائشاتٌ من الخيلاء ليس لهن باب

(١) العمدة ١٣٩ ج ٢

فانك سوف تحكم او تناهى اذا ماشبت او شاب الغراب
فان تكن الفوارس يوم حسي اصابوا من لقائك ما اصابوا
فما ان كان من سبب بعيد ولكن ادركوك وهم غضابُ

فلما بلغ عامراً ما قال النابغة شق عليه وقال « ما هجاني احد حتى هجاني النابغة جعلني القوم رئيساً وجعلني النابغة سفيهاً جاهلاً وتهكم بي »

ومن لطيف تجافيهم عن الهجو ما قاله صخر بن عمرو اخو الخنساء وقد اراد رثاء اخيه معاوية فقالوا له اهج قتلته فتعفف وقال :

وقالوا الا تهجو فوارس هاشم ومالي واهداء الخنى من شماليا

فعبر عن الهجو باهداء الخنى وهو تعبير جميل

واذا تحمس الجاهليُّ او تفاخر فلا يجعل قومه آلهة وسواهم ابالسة وانما يقول قول قريط بن انيف من شعراء بلعنبر :

لو كنت من مازن لم تستبح ابلي بنو اللقيطة من ذهل بن شيبانا
اذاً لقام بنصري معشرٌ خشنٌ عند الحفيظة ان ذو لوثة لانا
قوم اذا الشرُّ ابدى ناجذيه لهم طاروا اليه زرافات ووحدانا
لايسألون اخاهم حين يندبهم في النائبات على ما قال برهانا
لكن قومي وان كانوا ذوي عدد ليسوا من الشر في شيء وان هانا
يجزون من ظلم اهل الظلم مغفرةً ومن اساءة اهل السوء احسانا
كأنَّ ربك لم يخلق لخشيته سواهمُ من جميع الناس انسانا
فليت لي بهم قوماً اذا ركبوا شدوا الاغارة فرساناً وركبانا

في الوصف

وكانوا اذا وصفوا حادثة مثلوها بلا مغالاة في المجاز والكناية كما يفعل المتأخرون وهذا وصف ابي ذؤيب لحمر الوحش وصائدها كيف ترد الحمر وكيف يحتال الصياد في صيدها قال :

فوردن والعيوق مقعد رابىء الـ ضرباء خلف النجم لايتتلعُ
فشرعن في حجرات عذب بارد حصب البطاح تغيب فيه الاكرع
فشربن ثم سمعن حساً دونه شرف الحجاب وريب قرع يقرع
فنكرنه فنفرن فامترست له هوجاء هادية وهاد جُرشعُ

فرمى فأنفذ من نحوص عائط سهماً فخر وريشه متصمع
فبدا له اقراب هاد رائعاً عنه فعيّث في الكنانة يرجعُ
فرمى فألحق صاعديا مطحراً بالكشح فاستملت عليه الاضلع
فأبدّهنّ حتوفهن فهارب بدمائه او بارك متجعجع

واذا وصف احدهم حيوانا أو مكاناً او امرأة تحدى تصوير الطبيعة كما هي ولو اضطر الى ذكر بعض الاعضاء التي يعدُّ ذكرها من قبيل البذاء — يفعل ذلك لا تهتكاً وانما هو يصف الطبيعة كما هي على عادته في سائر الامور . واحسن الامثلة في وصف المرأة على النحو الذي تقدم قصيدة النابغة في المتجردة التي مطلعها :

امن آل مية رائح او مغتدي عجلان ذا زاد وغير مزوَّدِ

وقصيدة اليتيمة في دعد ومطلعها :

هل بالطلول لسائل ردُّ ام هل لها بتكلم عهدُ [1]

وهما مثل قصيدة سليمان الحكيم في وصف ملكة سبا المعروفة بنشيد الاناشيد — وهو مذهب جماعة من شعراء عصرنا وكتابه في اوربا يمثلون الطبيعة كما هي و يعرفون باصحاب الحقيقة Réalistes ومنهم زولا وطولستوي

على ان الجاهليين لا تخلو اشعارهم من التشبيه والمجاز أو الكناية ولكنهم يفعلون ذلك بلباقة كقول عنترة يصف ذباب الروض :

وخلا الذباب بها فليس ببارح غرداً كفعل الشارب المترنم
هزجاً يحكُّ ذراعه بذراعه قدح المكب على الزناد الاجذم

٢ — البلاغة في التركيب

ان لغة الجاهلية على الاجمال لا تزال مثال البلاغة حتى الآن لبعدها عن مفاسد العجمة وهي معروفة بخلوها من الحشو وليس فيها من زخارف المدنية كالبديع والجناس ولا المجاز او الكناية الا بقدر الملح من الطعام . أما ما نجده في بعض اشعار الجاهلية من التعقيد فسببه غرابة بعض الالفاظ على مفهومنا وبعد بعض التراكيب عن مألوفنا ولا بد لمن يطالع تلك الاشعار من تفهم الالفاظ والتعود على اساليبها فاذا فعل ذلك

(١) نشرت هذه القصيدة في السنة ١٤ من الهلال صفحة ١٧٤ مع سبب نظمها

هان عليه فهمها . فمن يقرأ قول امرىء القيس في قصيدته التي يصف بها الفراق وناقته وفرسه فيصل الى قوله :

وانك لم تقطع لبانة طالبٍ بمثل غدوٍّ او رواح مؤوَّبِ
بادماء حُرجوج كان قتودها على ابلق الكشحين ليس بمغرب

يجد غرابة في تركيب الالفاظ ولا يفهم المراد لكنهُ متى علم ان الادماء الناقة البيضاء والحرجوج الطويلة على الارض وأبيض الكشحين حمار الوحش . والمغرب الابيض الوجه والاشفار وذلك عيب في اصطلاحهم أدرك مراد الشاعر من البيت الثاني وقس عليه سائر التفسير

ان البلاغة فطرية في عرب البادية شعراً ونثراً . وكان العرب في صدر الاسلام يتمثلون باقوال الاعراب المعاصرين لهم لما فيها من البلاغة والايجاز من السهل الممتنع . وقد نقل ابن عبد ربه طائفة حسنة منها في عدة صفحات بباب كلام الاعراب في الجزء الثاني من كتابه العقد الفريد فليراجع هناك وفي سائر كتب الادب . فاذا طالعتها رأيت نفوساً كبيرة وعقولاً راجحة لما فيها من الحكمة والموعظة وصدق النظر

على انك تجد في كلام الاعرابي جفاء واغراباً وخشونة في اللفظ لتعوده مخاطبة الابل [1] وليست الخشونة في شعراء الجاهلية على الاجمال وانما هي تكثر في اهل الجبال والبادية الوعرة الذين لم يخالطوا اهل الحضارة مطلقاً فيكون ذلك من تأثير البيئة . فان شعر عدي بن زيد وهو جاهلي اسلس من شعر الفرزدق وجرير وهما اسلاميان لملازمة عدي الحضارة وايطانه الريف وبعده عن جلافة البادية وجفاء الاعراب [2]

على ان الشعر تختلف رقته وخشونته باختلاف الغرض منه فشعر العاشق ارق من شعر الفارس وشعر الحضارة الطف من شعر البداوة

٣— مذاهبهم و اساليبهم

لا يتقيد الجاهلي في نظمه بمقدمة أو تمهيد كما يفعل غيره من شعراء المدنية بعد الاسلام من استهلال القصائد بالنسيب والغزل ونحوهما . لكنه يصدر القصائد الطويلة غالباً بذكر المنازل والاطلال ويبكي على الطلول وذلك طبيعي عندهم لانهم اهل رحلة لا

(١) البيان والتبيين ٥٢ ج ٢ (٢) يتيمة الدهر ٢٤١ ج ٣

يقيمون في المكان حيناً حتى ينزحوا عنه أما فراراً من عدو أو التماساً للمرعى أو الماء أو نحو ذلك كقول امرىء القيس :

قفانبك من ذكرى حبيب ومنزل

وقوله :

الا عم صباحاً ايها الطلل البالي

أما المولدون أو المحدثون فانهم يصدرون قصائد المدح أو غيرها بذكر الحبيب والشوق والوجد والوصل وليس هناك حبيب ولا وجد كما سنبين ذلك

والجاهلي اذا عمد الى النظم في الفخر بدأ به أو ذكر المنازل وتخلص له . ويندر فيهم من يفعل غير ذلك كقصيدة عنترة الفخرية التي يبدأ فيها بذكر الصبا واللهو والغزل والاعين النجل في بيتين ثم يتخلص الى الفخر كقوله :

من لي برد الصبا واللهو والغزل   هيهات ما فات من ايامك الاول
طوى الجديدان ماقدكنت انشره   وانكرتني ذوات الاعين النجل
وما ثنى الدهر عزمي عن مهاجة   وخوض معمعة في السهل والجبل

ولكن هذه القصيدة يغلب انها موضوعة بعد الاسلام لواضع القصة

وقد يستهل الجاهلي شعره بمخاطبة خليله في بيت او شطر ثم يستطرد الى الموضوع الذي يريده . أو يبدأ بطلب الاخبار بدون ان يذكر الخليل كقول امرىء القيس قبيل وفاته في سفح جبل عسيب :

الا ابلغ بني حجر بن عمرو   وابلغ ذلك الحي الحديدا
باني قد هلكت بارض قوم   سحيقاً من دياركم بعيدا (١)

وقوله بمكان آخر :

الم يخبرك ان الدهر غول   ختور العهد يلتهم الرجالا (٢)

وقد يتكلم بالمثنى كانه يخاطب اثنين كقول عبد يغوث :

ألالا تلوماني كفى اللوم ما بي   فما لكما في اللوم نفع ولا لي
الم تعلما ان الملامة نفعها   قليل وما لومي اخي من شمالي

ومن مذاهبهم طرد الخيال وهو مذهب كثيرين منهم ولكن طرفة بن العبد اول من طرقه فقال :

(١) شعراء النصرانية ٣٤   (٢) شعراء النصرانية ٦١

فقل لخيال الحنظلية ينقلب اليها فاني واصلٌ حبل من وصل [١]

وفي مقدمة ابن خلدون امثلة كثيرة من بدايات الجاهلية في النظم من اراد التوسع بالامثلة فليراجعها هناك (صفحة ٥٠١)

ولكن الغالب في نظمهم ان يبدأوا بالغرض المراد رأساً فان كان فخراً فبالفخر او حماسة فبالحماسة او غزلاً فبالغزل او رثاء فبالرثاء . ومن مراثي المُهَلهِل لاخيهِ كليب قصيدة مطلعها :

كليب لاخير في الدنيا ومن فيها ان انت خليتها في من يخليها [٢]

ومرثاة أخرى مطلعها :

انَّ تحت الاحجار حزماً وعزماً وقتيلاً من الاراقم كهلا

قتلته ذهـل فلستُ براض او نبيد الحيين قيساً وذهلا

وقس عليه غيره من الاغراض . على أن بعضهم يستهل بالحكم ليتخلص للمدح او الرثاءو بعضهم يتغزل او يشبب وهم قليلون ولهم اسماء اناث يتغزلون بها يسمونها عرائس الشعر كقطام وهند ودعد وغيرهن

٤ — ابواب الشعر عندهم

ان ابواب الشعر اليوم تعد بالعشرات لم يكن منها في الجاهلية الا الفخر والحماسة والتشبيب والمديح والهجاء . وتفرع من المديح الرثاء وهو مدح الميت . والاصل في المديح والهجاء الدفاع عن القبيلة والطعن في اعدائها ـ ذلك كان غرض الجاهليين من المديح والهجاء فاكثر مدحهم في قبائلهم ورؤَسائها وفرسانها ليس على سبيل الاستجداء الا قليلاً وكانت قصائدهم في ذلك قصيرة . وقلما رثوا غير اخوتهم واخواتهم او ابنائهم او بعض اهلهم مدفوعين بالشعور الطبيعي ولذلك كان لرثائهم وقع في النفس كقول تلك الاعرابية في رثاء ابنها :

من شاء بعدك فليمتْ فعليك كنت احاذرُ

كنتَ السواد لناظري فعمي عليك الناظرُ

ليت المنازل والديا ر حفائرٌ ومقـابرُ

اني وغـيري لا محـا لة حيث صرت لصائرُ

(١) العمدة ١٠١ ج ٢ (٢) شعراء النصرانية ١٦٦

اما المدح فامدح الجاهليين زهير والاعشى فمن امثلة مدح زهير بالكرم قوله :

اخي ثقــة لايهلك الخمر ماله ولكنه قد يهلك المال نائلهُ

تراه اذا ما جئتــه متهللاً كانك تعطيه الذي انت سائله

فمن مثل حصن للحروب ومثله لانكار ضيم او لخصم يجادلهُ

وقد يغالون ولكنهم لا يخرجون عن المعقول كقول زهير :

لو كان يقعد فوق النجم من كرم قوم بأولهم او مجدهم قعدوا

قومٌ سنانٌ ابوهم حين تنسبهم طابوا وطاب من الاولاد ما ولدوا

انسٌ اذا امنوا جنٌ اذا فزعوا مرزَّؤن بهاليلٌ اذا جهدوا

محسَّدون على ما كان من نعم لاينزع الله عنهم ما له حسدوا

وقس على ذلك سائر الاغراض

على ان في منظوماتهم كثيراً من الشعر الوصفي واكثره في وصف حيواناتهم ومنازلهم وادواتهم وفي وصف اخلاقهم ومناقبهم ومثالبهم ومفاخرهم ووقائعهم . وفيهم طبقة من الوصافين اشتهروا بوصف الخيل خاصة وآخرون بوصف الناقة أو حمار الوحش أو القطا أو غيرها وسنعود الى تفصيل ذلك في مكانه

٥ – التمثل بحيواناتهم وعاداتهم

قد صور العرب الجاهلية عاداتهم وحيواناتهم وادواتهم في اشعارهم كما صورها المصريون والاشوريون واليونان والرومان على قصورهم ومعابدهم . وكما استخرج علماء الآثار عادات تلك الامم واخلاقها من آثارها المنقوشة أو المحفورة فالباحث في شعر الجاهلية يستخرج منه عادات العرب وآدابهم واخلاقهم وطبائعهم وسائر احوالهم . ولذلك قال ابن خلدون « ان الشعر ديوان علوم العرب واخبارهم وشاهد صوابهم وخطاهم واصل يرجعون اليه في الكثير من علومهم وحكمهم » ونزيد على ذلك « انه مستودع عاداتهم واخلاقهم وادواتهم وصنائعهم » وقد درس هذا الموضوع جرجي افندي يني الطرابلسي صاحب المباحث ونشر فيه مقالة ضافية في المقتطف سنة ١٣ و١٥ بعنوان « العرب قبل التاريخ » ودرسه ايضاً محمد بك المويلحي وله مقالة في « رموز العرب وتخيلاتهم » نشرت في المقتطف سنة ١٩ استخرج فيها عاداتهم ومعتقداتهم من اشعارهم

والعرب يتغزلون بحيواناتهم ويتمثلون بها وخصوصاً الناقة والفرس والقطا والحمام ويغلب فيهم أن يذكروا الحمام في الغزل والناقة في السفر والخيل في الحرب

٦ — المفاخرة والمعاظلة والمقارعة

كان العرب في جاهليتهم اهل اباء واستقلال وفخر فقامت المفاخرة بين قبائلهم واحيائهم واصبحوا يتنافسون بكل شيء حتى في المصائب وهي المعاظلة . اشهرها معاظلة الخنساء وهند بنت عتبة فكانت الخنساء تأتي الموسم وتبكي اباها واخويها وقد سوّمت هودجها براية وتقول « انا اعظم العرب مصيبة » فاصيبت هند بنت عتبة المذكورة في واقعة بدر فقتل ابوها وعمها واخوها فلما بلغها ما قالته الخنساء قالت « انا اعظم العرب مصيبة » وامرت بهودجها فسوّم براية وشهدت الموسم بعكاظ وقالت « اقرنوا جملي بجمل الخنساء » ففعلوا فلما تقاربتا تعارفتا وتعاظلتا نظماً ونثراً (١)

فاذا كان هذا شأن التنافس بين عامة الناس فاحر به ان يكون بين الشعراء . ومن انواعه المقارعة على الاحساب كالتي جرت بين عامر ولبيد والاعشى من جهة وعلقمة والحُطيئة وفتيان من بني الاحوص من جهة أخرى واخذوا يتناشدون في المقارعة في حديث طويل (٢)

ومن هذا القبيل المنازعة بين قبيلتين ايهما اشعر كما جرى بين عمر بن أبي ربيعة والفضل بن العباس اللهبي في المسجد الحرام فاخذ كل منهما يورد اشعاراً لابناء قبيلته ويبرهن انها احسن مما قاله الشعراء من تلك القبيلة (٣)

ولما جاء الاسلام ذهبت عصبية القبائل وصارت المفاخرة بين المهاجرين والانصار (٤) وعندهم ايضاً المراجزة (٥) وهي المقارعة بالرجز ومنها المناشدة بالاشعار

٧ — الانفة والعفة

كان العربي في الجاهلية صاحب انفة وشرف يأبى الضيم ويغار على العرض اذا قال فعل واذا وعد وفى واذا اضطر الى رهن في امر عظيم رهن قوسه — ولا قيمة للقوس بنفسها ولكنها عندهم شرف الرجل فهو قائم بما رهن له مهما كلفه (٦)

ولم يكن اشد منهم غيرة على العرض وفي اخبارهم ما لا يحصى من الدفاع عن المرأة وعرضها وكثيراً ما انتشبت الحرب في هذا السبيل . وقد كان سبب الحرب التي

(١) الاغاني ٣٥ ج ٤ (٢) طالعه في الاغاني ٥٥ ج ١٥ (٣) الاغاني ٨ ج ١٥
(٤) الاغاني ١١٣ ج ١٥ (٥) الاغاني ١٠٠ ج ٧
(٦) العقد الفريد ٥٢ ج ٣

قتل فيها زهير بن جذيمة العبسي ان ابنه شأساً اغتسل بجانب ابيات لبني غني بماء لبني عامر فناداه رجل غنوي ان يستتر فلم يحفل به فرماه بسهم فقتله وجرَّ ذلك الى حرب قتل بها زهير المذكور وغيره

وكانوا يفتخرون بالعفة خلافاً لما صارت اليه طبائعهم بعد ان استبحر عمرانهم من التهتك والقصف . وتمثيلاً للفرق بين الحالين قابل ما قاله عنترة بما قاله ابو نواس — قال عنترة :

واغض طرفي ان بدت لي جارتي حتى يواري جارتي مأواها

وقال أبو نواس :

كان الشباب مطية الجهل ومحسن الضحكات والهزل
والباعثي والناسُ قد رقدوا حتى اتيت حليلة البعل

ولذلك قلَّ التهتك في تغزلهم . و بعض القبائل تعد الغزل رذيلة [1] وتجد ذلك ظاهراً في اشعارهم فالجاهلي متعفف بالفاظة واخلاقه بعيد عن الفحش في القول او السباب الا ما يرى به تمثيل الطبيعة كما تقدم

٨ — لا يستجدون

الجاهلي لا ينظم التماساً للعطاء وانما هو ينظم لداع يحركه اما دفاعاً عن عرض او تحمساً لحرب او تشكياً من الفراق او بكاء على فقيد او نحو ذلك . وقد يمدح ولكن مدحه يكون على الغالب شكراً على صنيع لا استدراراً لجائزة كما صار اليه الشعراء في الاسلام بالتقرب والتزلف . وكان موضوع مدائح الجاهليين حكماءهم وامراءهم كهرم بن سنان وعامر بن الظرب والاقرع بن حابس و ربيعة بن مخاشن وغيرهم

فقد مدح زهير هرم بن سنان ومدح غيره ليس للاستجداء . على ان بعضهم انتجع بشعره واول من فعل ذلك الاعشى وتمثل به بعض الجاهليين في مدح المناذرة او الغساسنة او بعض امرائهم واشهر المداحين في الجاهلية الاعشى والربيع بن زياد والنابغة الذبياني والمنخل اليشكري وابو زبيد الطائي ومعن بن اوس وزهير بن ابي سلمى والحُطيئة وسناتي على اخبارهم في اما كنها

(١) الاغاني ١١١ ج ٧

٩ ــ منزلة الشاعر في الجاهلية

كان للقبيلة عدة شعراء تقدم واحداً منهم تسميه شاعر القبيلة . وهي تهتم باعداد الشاعر لها كما تهتم باعداد القائد والخطيب . فيقال ان قائد القبيلة الفلانية فلان وفارسها فلان وشاعرها فلان [١] لان الشعراء حماة الاعراض وحفظة الآثار ونقلة الاخبار . وربما فضلوا نبوغ الشاعر فيهم على نبوغ الفارس ولذلك كانوا اذا نبغ فيهم شاعرٌ من قبيلة اتت القبائل الاخرى فهنأتها به وصنعت الاطعمة واجتمع النساء يلعبن بالمزاهر كما يصنعنَ في الاعراس وتتباشر الرجال والولدان لاعتقادهم انه حماية لاعراضهم ودفاع عن احسابهم وتخليد لمآثرهم واشادة لذكرهم [٢] وفي الواقع ان ما بقي لنا من اخبار العرب الجاهلية وآدابهم وعلومهم واخلاقهم انما هو منقول عن اشعارهم

وكانوا يوسطون الشعراء في الاسترضاء أو الاستعطاف أو يجعلونهم وسيلة لاثارة الحروب فيكون الشاعر لسان حال القبيلة يعبر عن غرضها وينطق بلسانها شأن الصحف الرسمية اليوم . فان الصحيفة الرسمية اذا قالت قولاً علم الناس ان الحكومة تريده . وهذا هو سبب ما كان يظهر من تأثير الشعر في السياسة . ولذلك فالقبيلة مطالبة برعاية شاعرها والقيام بما يحتاج اليه واكرامه وتقديمه

ولم يكونوا يقدمون الشاعر لانه يدافع عنهم فقط ولكنهم كانوا يجلون الشعر نفسه لما كان له من الوقع في نفوسهم يدلك على ذلك تعليق المعلقات باستار الكعبة اجلالاً لها [٣] وسنعود الى ذلك

١٠ ــ تاثير الشعر في نفوس العرب

قد علمت مما تقدم ان طبيعة العرب شعرية لانهم ذوو نفوس حساسة وشعور دقيق تقعدهم الكلمة وتقيمهم شأن اهل الفروسية والنجدة المعبر عنها عند الافرنج بالشفاليري . وكان العرب على الاجمال اهل حافظة اذا اعجبهم البيت حفظوه وتناقلوه فيشيع على السنتهم كباراً وصغاراً ويتحدثون به في انديتهم ومجتمعاتهم . فاذا كان هجواً سقط المقول فيه واذا كان مدحاً رفع . ولكن الهجو كان غالباً في محفوظهم وقد وفق بعض الشعراء بشيوع اشعارهم لخفتها وشاعريتها . وكان الاعشى من اسير الناس شعراً وكذلك زهير والنابغة وامرؤ القيس

(١) الاغاني ١٤٦ ج ٤ (٢) المزهر ٢٣٦ ج ٢ (٣) العقد الفريد ٩٣ ج ٣

فالقبيلة اذا هجاها شاعر فحلٌ حط الهجو منها خصوصاً اذا كان الهجو مطابقاً للواقع والا ردَّ شاعرها عنها فتعود الى مقامها . وليس في العرب قبيلة الا هجيت فمن التي لم يؤثر الهجو فيها قبائل تميم وبكر وائل واسد بن خزيمة وامثالها . ومن القبائل التي أثر فيها الهجاء مع مقامها من الشجاعة احياء من قيس منهم غني وباهلة ومحارب واحياء من اد بن طابخة منهم تيم وعكل وغيرهما . وهناك قبائل كان حظها من الشعراء الربح كبني مخزوم من قريش

وكانت القبيلة اذا مُدحت فاخرت سائر القبائل لا سيما اذا كان مادحها من غير ابنائها . ويحكى أن شعراء تميم كانوا يذكرون قيساً بالمدح والاعجاب فافتخرت قيس على تميم . وما زالت تميم منكسة رؤوسها حتى قام لبيد العامري وهو من قيس فذكر تميم في شعره واطراها وفعل ذلك شاعر آخر من قيس فتكلمت عند ذاك تميم وافتخرت (١)

ومن امثلة تأثير هجو الشعراء في القبائل شعر حط من قدر الحبطات وهم بطن من تميم فقال الشاعر فيهم :

رايت الحمر من شر المطايا كما الحبطات شر بني تميم

وهل أهلك ظليم البراجم الا قول الشاعر :

ان اباناً فقحة لدارم كما الظليم فقحة البراجم

وقد أهلك بني العجلان قول الشاعر :

اذا الله عادى اهل لؤم ودقة فعادى بني العجلان رهط ابن مقبل
قبيلتهُ لايغدرون بذمة ولا يظلمون الناس حبة خردل
ولا يردون الماء الا عشية اذا صدر الوراد عن كل منهل (٢)

ويشبه ذلك شعر جرير في بني نمير من عامر بن صعصعة في الدولة الاموية فانه جعل كل نميري اذا سئل عن نسبه قال انه عامري وهذا هو البيت :

فغض الطرف انك من نميرٍ فلا كعباً بلغت ولا كلابا

وبعكس ذلك ما اصاب بني انف الناقة من الرفعة فقد كان الرجل منهم اذا سئل عن نسبه قال من بني قريع وهو نسب آخر لهم حتى قال الحطيئة فيهم :

(١) العمدة ١٤٩ ج ٢ (٢) البيان والتبيين ١٦٩ ج ٢

قوم هم الانف والاذناب غيرهم ومن يساوي بانف الناقة الذنبا

فاصبحوا يفاخرون بقبيلتهم

على ان الشعراء لم يكونوا يتعمدون هجاء غير القبائل الظاهرة النابهة فسلمت القبائل الخاملة من هجوهم . وشأنهم في ذلك مثل شأن الصحف السياسية في البلاد الحية . فان الاحزاب يهمها انحياز احدى الصحف المهمة الى جانبها كما كان يهمّ القبيلة او الجماعة في الجاهلية ان ينصرها شاعرٌ مشهور فتبذل له ما يريد في سبيل نصرتها . ولذلك فان الاعشى لما وفد على النبي ومدحه فبلغ ابا سفيان عدوَّهُ ذلك فجمع رجال قريش وقال لهم « والله لئن اتى محمداً واتبعه ليضرمنَّ عليكم نيران العرب بشعره فاجمعوا له مائة من الابل » ففعلوا فاخذها وانطلق الى بلده [١]

وكان لشعر الاعشى تأثير كبير في النفوس ويحكى من هذا القبيل ان رجلاً من مكة اسمه المحلق كان له ثلاث بنات لم يزوجهن وهو معسر . وجاء الاعشى مكة فسمعت امرأة المحلق به فحثّت زوجها ان يدعوه للضيافة قبل سواه ويذبح له لانه اذا قال شعراً شاع . فدعاه المحلق ونحر له الناقة وبالغت المرأة في اكرامه واكرام رفاقه وكان في عصابة قيسية . فلما جرى الشراب في عروقه سأل المحلق عن عياله فشكا له حال بناته . فاصبح في اليوم التالي وهو ينشد في عكاظ قصيدة مطلعها :

ارقت وما هذا السهاد المؤرق وما بي من سقم وما بي معشق

ثم تخلص الى مدح المحلق واطرائه في السخاء وكرم الاخلاق والناس يسمعون فلما فرغ من الانشاد انسلَّ الناس الى المحلق يهنئونه وهرع الاشراف من كل قبيلة يتسابقون اليه يخطبون بناته فلم تمس منهن واحدة الا في عصمة رجل افضل من ابيها الف ضعف [٢] وكذلك فعل مسكين الدارمي في انفاق الخمر السود [٣] ومن شدة تأثرهم من الشعر ان الشاعر ربما لقب بلفظ ورد في بيت من اشعاره كما لقب المرقش والنابغة والمخرق وافنون وغيرهم [٤] حتى في الغناء فان السامع ربما تأثر من معنى الشعر اكثر من نغمه

---

(١) الاغاني ٨٦ ج ٨ (٢) العمدة ٢٥ ج ١
(٣) تاريخ التمدن الاسلامي ٢٨ ج ٣ (٤) لطائف المعارف ١٧

١١ — اشعر شعراء الجاهلية

ما برح العرب من صدر الاسلام مختلفين في من هو أشعر شعرائهم ولهم في ذلك اقوال كثيرة . على ان تقسيم الشعراء الى طبقات قد يعدُّ حكماً اجماليًا على نظرهم فيهم . ويستدل منه ان اصحاب المعلقات هم أشعر الشعراء في حكمهم واشعر هؤلاء ثلاثة امرؤُ القيس وزُهير بن ابي سُلمى والنابغة . وقد اجمعوا تقريباً على تفضيلهم وانما اختلفوا في من هو أشعرهم اختلافاً كثيراً : قال ابو عبيدة « أشعر الناس اهل الوبر خاصة وهم امرؤُ القيس وزهير والنابغة فان قال قائل ان امرأ القيس ليس من اهل نجد فلعمري ان هذه الديار التي ذكرها في شعره ديار بني اسد بن خزيمة . وفي الطبقة الثانية الاعشى ولبيد وطرفة » وقيل ان الفرزدق قال أمرؤُ القيس أشعر الناس وقال جرير النابغة أشعر الناس وقال الاخطل الاعشى أشعر الناس وقال ابن أحمر زهير أشعر الناس . وقال ذو الرمة لبيد أشعر الناس وقال ابن مقبل طرَفة أشعر الناس وقال الكُميت عمرو بن كُلثوم أشعر الناس . والقول الراجح ما قال أبو عبيدة : امرؤ القيس ثم زهير والنابغة والاعشى ولبيد وعمرو وطَرَفة

على اننا نرى في الحكم على شاعر انه اشعر اهل زمانه على الاطلاق حيفاً اذ قد يتفرد كل شاعر بمزية تفضله على سواه فيجيد احدهم في الحماسة وآخر في المديح او الغزل او الفخر او غير ذلك من اغراض الشعر. وعلى ذلك قالوا « اشعر الشعراء اربعة زهير اذا طرب والنابغة اذا رهب والاعشى اذا غضب وعنترة اذا كلب [1] (اي غضب)

والذي عليه الاكثرون في وصف اصحاب المعلقات ان امرأ القيس صاحب النصيب الاوفر في الشعر لان الشعر في تعبيرهم كان جملاً فنحر فاخذ امرؤُ القيس رأسه . وان زهيراً يمتاز بانه لايعاظل بين كلامين ولايتبع وحشي الكلام ولايمدح احداً بغير ما فيه ولشعره ديباجة ان شئت قلت شهد ان مسسته ذاب [2] وان النابغة اوضح الشعراء معنى وابعدهم غاية واكثرهم فائدة . وان الاعشى امدحهم للملوك واوصفهم

(١) جمهرة اشعار العرب ٢٦ (٢) جمهرة اشعار العرب ٢٥

للخمر واقدرهم شعراً واحسنهم قريضاً . وان لبيد اقلهم لغواً وعمرو بن كلثوم اعزهم نفساً واكثرهم امتناعاً واجودهم واحدة . وطرفة اشعرهم اذ بلغ مع حداثة سنهِ ما بلغ القوم في طول اعمارهم

١٢ــ رواة الشعر

من عادة العرب في رواية الشعر انهم كانوا في ايام الجاهلية اذا نبغ الشاعر صحبه رجل يروي له اشعاره ويتلوها أو يروي له اشعار غيره للشاهد أو نحوه . ويغلب في الراوية ان يكون مرشحاً للشاعرية كانه تلميذ يتدرب على يد استاذه يأخذ عنه . وكان عمدتهم في الجاهلية على الحفظ لانهم لم يكونوا يكتبون فكان كثيّر عزة راوية جميل بثينة وجميل راوية هدبة بن خشرم وهدبة كان راوية الحطيئة والحُطيئة راوية زُهير وابنه[1] وكان الراوية في الجاهلية واوائل الاسلام يروي للشاعر الواحد ويصحبه وينشد له ويعجب به اعجاب التلميذ باستاذه ويناضل عنه ويفضله على سواه

وليست هذه العادة خاصة بالعرب فان اليونان القدماء كان عندهم اناس يروون الشعر وغيره ويسمونهم Rhapsodist . اشهرهم في القديم رواة الالياذة وتاريخ هيرودوتس . على أن بعض الادباء واهل الذكاء من العرب كان يروي الشعر بغير التخصيص لشاعر دون آخر . وانما كان يفعل ذلك رغبة في الادب والعلم . فقد كان في الجاهلية اربعة من قريش كانوا رواة الناس للاشعار وعلماءهم بالانساب والاخبار وهم مخرمة بن نوفل بن وهيب بن عبد مناف بن زهرة . وابو الجهم بن حذيفة بن غانم بن عامر بن عبد الله بن عوف . وحويطب بن عبد العزي . وعقيل بن ابي طالب . وكان عقيل أكثرهم ذكرًا لمثالب الناس فعادوه لذلك وقالوا فيه وحمقوه حتى الف بعض الاعداء فيه الاحاديث

١٣ ــ شعراء الجاهلية من حيث اغراضهم

قد تقدم ما للشعر الجاهلي من الخصائص التي يمتاز بها على الاجمال ولكن هذه الخصائص تختلف باختلاف اغراض الشعراء . فينقسم الشعراء من هذا القبيل الى

(١) الاغاني ٧٨ ج ٧

مجاميع لكل منها غرض او اسلوب أو منحى خاص . وسنتوخى في تقسيمهم غير ما نراه في كتب القدماء فنقسم الشعراء بالنظر الى اغراضهم في النظم

قد علمت أن الشعراء الجاهليين الذين بلغت الينا اخبارهم نحو مئة شاعر و بعض المئة من القبائل على اختلاف اصولها . وكلهم عرب الا واحداً كان عبداً لبني الحسحاس وهو اعجمي . فلا عجب اذا خلص الشعر الجاهلي من العجمة لفظاً وتركيباً خلافاً لما آلت اليه حال الشعراء بعد الاسلام اذ نبغ فيهم طبقة من الموالي غير العرب كما سيجيء . فالشعراء الجاهليون كلهم عرب واكثرهم من عدنان كما تقدم فمعظمهم أهل بادية ورحلة متشابهون باخلاقهم واغراضهم واهمها في القرنين الاخيرين قبل الاسلام الحرب فيما بينهم يوم كان البدوي يبيت وسيفه او رمحه ضجيعه كانهُ يتحفز للنهوض في الصباح للغزو التماساً للرزق او الفخر او للثأر . فيقضي ايامه في الحرب أو يتأهب للحرب والشاعر لسان حال قبيلته او مرآة اخلاقها وآدابها . فلذلك كان اكثر شعراء الجاهلية من اهل الحرب الفرسان الشجعان وقد اشتهر جماعة منهم في وقائع مشهورة نظموا فيها قصائد الحماسة او الفخر . واذا اعتبرنا عدد شعراء الجاهلية مئة كان نصفهم من الفرسان واهل الحرب واكثر اشعارهم في الحماسة والفخر . و بينهم طائفة من الملوك والامراء اي كانت لهم الرئاسة في قبائلهم وهي اكبر المناصب السياسية في ذلك العصر . ومنهم طائفة من الحكماء واهل التعقل والعلم والحكمة . وطائفة اخرى من العشاق المتيمين الذين هاج العشق شاعريتهم . وآخرون يدخلون في صف الفرسان لكنهم يختصون بصفة مشتركة هي العدو والغزو و يسمونهم الصعاليك . ومنهم طائفة تجمعها طبيعة الهجو فيهم ميل الى المهاجاة والمعاظلة . وآخرون اختصوا بوصف الخيل وغيرهم بالغناء . ومن الشعراء من يجمعهم المذهب واخيراً النساء الشواعر وهنالك طائفة لا تدخل في احدى هذه الطبقات

فهذا تقسيم الشعر من حيث اغراض الناظمين وطبائعهم ومراتبهم لكن علماء الشعر تعودوا تقديم اصحاب المعلقات على سواهم وهم مختلفون غرضاً ووجهة متشابهون قوة وشاعرية فنجعلهم في باب على حدة . وعليه فتكون طبقات الشعراء الجاهليين من حيث اغراضهم ومراتبهم ١٣ طبقة وهذه هي مع عدد الشعراء من كل طبقة :

عدد الشعراء		عدد الشعراء	
١٠	اصحاب المعلقات	١	المغنون
١٤	الشعراء الامراء	٤	النساء الشواعر
٢٨	الشعراء الفرسان	٤	الهجاؤون
٤	الشعراء الحكماء	٤	الوصاف للخيل
٨	العشاق	١	الموالي
٧	الصعاليك	٣٦	سائر الشعراء
٤	اليهود	١٢٥	(الجملة)

هؤلاء شعراء الجاهلية وعددهم ١٢٥ شاعراً وليس هم كل من قال شعراً في الجاهلية اذ لم ينبغ ذكي لم يقل الشعر لانه كان سجية في العرب كما تقدم . وانما وصلنا من اخبار اولئك نخبتهم واشعرهم ولم نذكر كل من وصلنا اخبارهم وانما اخترنا اكثرهم شعراً واقواهم شاعرية . والا ففي ديوان الحماسة وجمهرة العرب والمفضليات واشعار الهذليين والاغاني وسائر كتب الادب واللغة اسماء مئات من الشعراء لم يصلنا من اقوالهم الا بيت او بضعة ابيات

ومن الذين اخترنا ذكرهم من ادرك الاسلام وعاش في ايام الراشدين وقد عددناه جاهليًّا لانه نشأ على طبائع الجاهلية واما المؤرخون فيسمونهم مخضرمين

لكل طبقة مزية

ولكل طائفة من هؤلاء الشعراء صبغة في اشعارهم حسب غرضها — فالشعراء الامراء او الملوك تمتاز اشعارهم بانفة الملك وعزه فيفتخرون بالسيادة اكثر مما بالسيف والرمح والقبيلة فمن اقوال أحدهم الافوه الاودي :

معاشر ما بنوا مجداً لقومهم   وان بنى غيرهم ما افسدوا عادوا

ويعدُّ هذا البيت من حكمة العرب . واذا مدحوا لا نجد في مدحهم تزلفاً او استجداء وانما يكون في سبيل الشكر على خدمة سلفت كقول امرئ القيس يمدح بني ثعل :

فابلغ معداً والعباد وطيئاً   وكندة اني شاكر لبني ثعل

وترى في تشابيهم عند الوصف ذكر آنية الترف التي يألفها الملوك والامراء فامرؤ

القيس لما اراد وصف عين فرسه شبهها بالمرآة وهي من آنية الترف عندهم قال :

وعين كمرآة الصناع تديرها   بمحجرها من النصيف المنقب

ووصف بعض حمر الوحش فشبه الوانها بانواع الوشي الجميلة . ولما وصف قروحه شبهها بنقش الخواتم

ولا يخلو شعر الامراء من ذكر المجد السالف والبقاء فيه ويشيرون الى مواليهم واعوانهم وغير ذلك مما ستراه في مكانه

ويقال نحو ذلك في شعراء سائر الطبقات فان كلاً منها تختص باسلوب او بشيء يميزها عن الطبقات الاخرى . فشعر العشاق المتيمين اكثره في التشبيب وشكوى الغرام والهجران . وشعر الحكماء اكثره حكم وعظات وعبر . ولا يمنع ذلك ان يشترك الشاعر بغير غرض من هذه الاغراض اي ان يكون متحمساً وحكيماً وعاشقاً وغير ذلك فان كثيرين من الفرسان عشقوا وهاموا وانما جعلناهم من طبقة الفرسان لتغلب ذلك عليهم

وقد آن لنا ان نصف اشهر هؤلاء الشعراء واشعرهم وفيهم كثير الشعر وقليله وبعضهم نظموا كثيراً لم يصلنا من اشعارهم الا القليل فلا فائدة لطالب تاريخ آداب اللغة من ايراد تراجم هؤلاء وانما نختص بالوصف الشعراء الذين كانوا قدوة لسواهم او خلفوا آثاراً يمكن الحصول عليها ومطالعتها . ونكتفي في الآخرين بذكر المآخذ التي يمكن الرجوع اليها في مطالعة اخبارهم لمن اراد



اشهر شعراء الجاهلية

١ — اصحاب المعلقات

اختلف الرواة في عدد المعلقات واصحابها فابو زيد القرشي صاحب جمهرة اشعار العرب يجعلهم ثمانية كما رأيت . وهم امرؤ القيس وزهير والنابغة والاعشى ولبيد وعمرو بن كلثوم وطرفة وعنترة . ولكن الزوزني جعل المعلقات سبعاً ليس بين اصحابها النابغة ولا الاعشى واضاف الحارث بن حلزة . واضاف ابو زكريا التبريزي فوق ذلك قصيدة عَبِيد بن الأبرص فصارت المعلقات وملحقاتها عشراً هذه اسماء اصحابها :

امرؤ القيس	عنترة
النابغة	عمرو بن كُلثوم
زُهير	الحارث بن حلّزة
طرَفة بن العبد	الاعشى
لبيد	عَبيد بن الابرص

وذكر ابو جعفر النحاس المتوفى سنة ٣٣٨ هـ وهو شارح المعلقات انها سبع وان بعضهم اضاف اليها قصيدتي النابغة والاعشى وان لم يعدهما من المعلقات . وذكر ابن خلدون سبعة من اصحاب المعلقات فيهم علقمة بن عبدة [١] لكنه لم يعين معلقته . وسنأتي هنا على ترجمة كل من نسبت اليه معلقة معينة فان الشاعرية تجمعهم جميعاً

هل علقت المعلقات بالكعبة ؟

واختلف اصحاب الاخبار في شأن هذه المعلقات في الجاهلية : فقال بعضهم ان العرب بلغ من تعظيمهم اياها حتى علقوها باستار الكعبة وانكر بعضهم ذلك وأكبروه. واقدم من انكره ابو جعفر النحاس النحوي المتقدم ذكره فقد قال في شرحه المعلقات بالنسخة الخطية الموجودة منه في مكتبة برلين ما نصه : « واختلفوا في جمع هذه القصائد السبع وقيل ان العرب كان اكثرهم يجتمع بعكاظ ويتناشدون الاشعار فاذا استحسن الملك قصيدة قال علقوها واثبتوها في خزائني . فاما قول من قال انها علقت في الكعبة فلا يعرفه احد من الرواة . واصح ما قيل في هذا ان حماداً الراوية لما رأى

(١) ابن خلدون ٥٠٩ ج ١

زهد الناس في الشعر جمع هذه السبع وحضهم عليها وقال لهم هـذه هي المشهورات فسميت القصائد المشهورة » ونقل ذلك عنه الانباري فقال « وهو (حماد) الذي جمع السبع الطوال هكذا ذكره ابو جعفر احمد بن محمد النحاس ولم يثبت ما ذكره الناس من انها كانت معلقة على الكعبة » فهو يستغرب مخالفة النحاس لما ذكره الناس

والاكثرون يذهبون الى انها علقت في الكعبة وهذا ابن عبد ربه كان معاصراً للنحاس المذكور وتوفي قبـله (سنة ٣٢٨ هـ) قال « وقد بلغ من كلف العرب به (بالشعر) وتفضيلها له ان عمدت الى سبع قصائد خيرتها من الشعر القديم فكتبتها بماء الذهب في القباطي المدرجة وعلقتها في استار الكعبة فمنه يقال مذهبة امرىء القيس ومذهبة زهير والمذهبات سبع وقد يقال لها المعلقات » [1] وايد ذلك كثيرون في اعصر مختلفة منهم ابن رشيق صاحب كتاب العمدة وهو من اكبر نقدة الشعر قال: « وكانت المعلقات تسمى المذهبات وذلك لانها اختيرت من سائر الشعر فكتبت في القباطي بماء الذهب وعلقت على الكعبة فلذلك يقال مذهبة فلان اذا كانت اجود شعره . ذكر ذلك غير واحد من العلماء وقيل بل كان الملك اذا استجيدت قصيدة الشاعر يقول علقوا لنا هذه لتكون في خزانته » [2] فترى ان ابن رشيق اميل الى القول بتعليقها لانه ينسب القول بذلك الى « غير واحد من العلماء » ويضعف الرأي الاخر بقوله « وقيل »

اما ابن خلدون فانه يقطع بتعليقها ولا يذكر سواه وهذا قوله « حتى انتهوا (اي العرب) الى المناغاة في تعليق اشعارهم باركان البيت الحرام موضع حجهم وبيت ابراهيم كما فعل امرؤ القيس بن حُجر والنابغة الذبياني وزهير بن ابي سُلمى وعنترة بن شداد وطرَفة بن العبد وعلقمة بن عبدة والاعشى وغيرهم من اصحاب المعلقات السبع » [3]

وقد وافقهم اكثر العلماء والباحثين في هذا الموضوع ـ وانما استأنف انكار ذلك بعض المستشرقين من الافرنج ووافقهم بعض كتابنا رغبة في الجديد من كل شيء

واي غرابة في تعليقها وتعظيمها بعد ما علمناه من تأثير الشعر في نفوس العرب

(١) العقد الفريد ٩٣ ج ٣ (٢) العمدة ٦١ ج ١
(٣) ابن خلدون ٥٠٩ ج ١

وتعظيمهم لاصحابه ؟ أما الحجة التي اراد النحاس أن يضعف بها القول بتعليقها فهي غير وجيهة لانهُ قال « ان حماداً رأى زهد الناس بالشعر الخ » والحقيقة ان الناس لم يكونوا راغبين في الشعر مثل رغبتهم في ايامه . ألم يكن الخلفاء يستقدمون حماداً هذا من العراق الى الشام ليسألوه عن بيتٍ من قاله او في ما قيل ؟ واليك تراجم اصحاب المعلقات ومن يلحق بهم

١ــ امرؤُ القَيْس بن حُجْر

توفي نحو سنة ٥٦٠ م

هو اشهر شعراء الجاهلية واشرفهم اصلاً وارفعهم منزلة يتصل نسبه بملوك كِندة وهم في قول العرب بطن من كهلان . وكانوا يقيمون في البحرين والمشقَّر ثم اجلوا عنهما الى كِندة في حضرموت واليه ينسبون . اقاموا هناك دهراً يتولون بعض مناصب الدولة على عهد التبابعة الحميريين وقد ضاع اكثر اخبارهم . واقدم من عرفت اخباره منهم حُجر بن عمرو آكل المرار جد جد امرىء القيس الشاعر . ونزح حُجر الى نجد ونزل بطن عاقل في اوائل القرن الخامس للميلاد وكان اللخميون (المناذرة) قد ملكوا كثيراً من تلك البلاد ولا سيما بلاد بكر بن وائل وهم يومئذ بنجد فنهض البكريون معه لمحاربة اللخميين واستقلوا عن سلطانهم . فاجتمعت كلمتهم على تعظيمه وملكوه عليهم حتى توفي باواسط القرن الخامس للميلاد فخلفه ابنه عمرو بن حُجر . فلما مات خلفه ابنه الحارث بن عمرو وفي ايامه فتح الاحباش اليمن فضعف شأن دولته فوجه مطامعه نحو اللخميين في الحيرة وكان يحسدهم لتقربهم من الاكاسرة فاغتنم تغير كسرى قباذ على المنذر بن ماء السماء لسبب المزدكية وتقرب اليه فوافقه وولاه الحيرة مكان المنذر . فعظم الحارث في نظر القبائل وجعلوا يتقربون اليه بالطاعة وسألوه أن يولي عليهم من اراد . وكان له اربعة اولاد اقام كلاً منهم حاكماً على بعض القبائل ومنهم حُجر بن الحارث والد امرىء القيس تولى على بني اسد وغطفان .

ثم انقلب الامر على الحارث بعد موت قباذ لان انو شروان ابنه وافق المنذر واخرج الحارث ففرَّ . وطمع فيه المنذر فطارده حتى قتله وجعل يفسد بين اولاده بالتحاسد حتى تحاربوا فقتل اثنان منهم و بقي اثنان هما حجر والد امرئ القيس ومعدي

كرب أمير قيس . ورأى بنو اسد تضعضع دولة كندة فاجتمعوا على خلاف ملكهم حُجر وامسكوا عن اداء الاتاوة فحاربهم فقتلوه

وكان امرؤُ القيس عندمقتل ابيه غائباً فلما علم بقتله رجع وهو يعتقد عجزه عن الاخذ بثاره لان عدوه قوي . وعلم ايضاً ان ذلك العدو اذا عرف مقرّه قبض عليه فقضى برهة من الدهر وهو يتجول متنكراً في اليمن ونجد والحجاز يستجير القبائل فلم يجره احدٌ حتى اتى السموأل صاحب حصن الابلق فاستجاره فاجاره . فاستودعه ادراعه وامتعته وهو لا يرى من يستنصره على اعدائه الا قيصر الروم . لان ملوك الحيرة عمال الفرس نصروا اعداءهُ على جاري عادة العرب في ذلك العهد — اذا تظلموا من احدى هاتين الدولتين استنصروا الاخرى . ولم يكن لامرىء القيس سبيل الى القيصر فوسط الحارث بن ابي شمر الغساني صاحب النفوذ عند قيصر الروم يومئذ وطلب اليه ان يوصله اليه ففعل فسار امرؤُ القيس الى القيصر . ويقول العرب ان القيصر بعد ان اجاب دعوته وسمع مدائحه وشى به احد بني اسد اعدائه وقال للقيصر « ان امرأ القيس شتمك » فصدق الوشاية والبس الشاعر حلة مسمومة قتلته . ولا نعرف لما يفعل هذا الفعل . وفي كل حال ان امرأ القيس قتل ولم ينل ارباً

وجاء في شعراء النصرانية بعد ذكرموت امرىء القيس بالجدري ما نصهُ : « وذكر في كتاب قديم مخطوط ان ملك قسطنطينية لما بلغه وفاة امرىء القيس أمر بان ينحت له تمثال وينصب على ضريحه . ففعلوا وكان تمثال امرىء القيس هناك الى ايام المأمون وقد شاهده هذا الخليفة عند مروره هناك لما دخل بلاد الروم ليغزو الصائفة »

شعر امرىء القيس

وكان امرؤُ القيس قويَّ الشاعرية ولولا ذلك لم يقل الشعر لان الملوك كانوا قبله يأنفون من قوله . ولكنه كان مطبوعاً عليه يقوله وابوه حيٌّ وكثيراً ما زجره وهو يعصاه حتى اضطر ابوهُ ان يبعده عنه . فلم يبال بل جعل يجول في الاحياء مع بعض الاخلاط من شذاذ العرب من طيء وكلب وبكر بن وائل فاذا صادف غديراً او روضة او موضع صيد اقام فذبح لمن معه في كل يوم وخرج الى الصيد فتصيد ثم عاد فأكل وأكلوا معه وشرب الخمر وسقاهم وغنته قيانه . ولا يزال كذلك حتى ينفد

ماء ذلك الغدير ثم ينتقل عنه الى غيره

فلما اتاه نعيُ ابيه كان بدمون من ارض اليمن فغضب غضباً شديداً وغضبه هاج شاعريته واسفاره في البلاد زادت اختباره . ولعله جاء بلاد الروم قبل سفرته الاخيرة والاسفار توسع الخيال الشعري . واذا عاشر الناس وخالطهم اطلع على ادابهم واستفاد معاني جديدة أو تتفتق قريحته فتستنبط صوراً جديدة . وذلك من الاسباب التي جعلت امرأ القيس يسبق الى اشياء في الشعر لم تكن معروفة قبله وتبعته الشعراء بها

واذا امعنت النظر في ما استنبطه من المعاني او الاساليب رأيتها من ثمار الاسفار وسعة الاطلاع فمنها استيقاف الصحب في الديار كقوله « قفا نبك الخ » فانه طبيعي في من قضى معظم حياته في توديع ديار واستقبال ديار . وقد كان الوفاً دقيق الشعور اذا اقام في المكان الفه واذا عاشر الرجل كلف به

ومنها دقة وصفه واجادته على الخصوص في وصف الفرس والناقة وهذا طبعاً من ثمار الاسفار لانه كان يقضي الساعات والايام على فرسه لا شيء يشغله عنه مع تعلقه به لانه اكبر مساعد له على النجاة في فراره من اعدائه . ولذلك فلا تكاد تقرأ له قصيدة الا وجدت فيها اياتاً يصف بها فرسه أو ناقته . وقد فتقت الاسفار والمعاشرة قريحته لاستنباط المعاني او اقتباسها — فمن ذلك قوله في قصيدته البائية التي يصف بها الفراق وناقته وفرسه مطلعها :

تبصر خليلي هل ترى من ظعائن سلكن ضحيًّا بين حزمي شعبعب

ولكن القارئ لا يستأنس بالمعنى الا بعد أن يتعرف الالفاظ الغريبة وعند ذلك يرى وصفاً بديعا لم يأت الشعراء باحسن منه كقوله في وصف الفرس :

وقد اغتدي قبل الشروق بسابحٍ اقبَّ كيعفور الفلاة محنَّب
بمنجرد قيد الاوابد لاحه طراد الهوادي كل شأوٍ مغرِّب
له ايطلا ظبي وساقا نعامة وصهوة عَير قائم فوق مرقبِ
ويخطو على صم صلاب كأنها حجارة غيل وارسات بطحلب
له كفل كالدعص لبَّده الندى الى حارك مثل الغبيط المذأب
وعينٌ كمرآة الصناع تديرها لمحجرها من النصيف المنقب
له اذنان تعرف العتق فيهما كسامعتي مذعورة وسط ربرب

ووصف الفرس كثير في شعره فليراجع في ديوانه . وقد أجاد في سائر ضروب الوصف وله قصيدة في وصف المطر واخرى في الوصف على الاجمال مطلعها :

الا انعم صباحاً ايها الربع فانطق   وحدث حديث الركب ان شئت واصدق

ومع ما في شعره وسائر اشعار الجاهلية من اللفظ الغريب فقد امتاز امرؤ القيس برقة الالفاظ ولطف التشبيه كقوله :

كأن قلوب الطير رطباً ويابساً   لدى وكرها العناب والحشف البالي

وقوله : كأن عيون الوحش حول قبابنا   وارحلنا الجزع الذي لم يثقب

وقوله

كأني غداة البين لما تحملوا   لدى سمرات الحي ناقف حنظل

وقد اجاد في صفة الفرس بقوله :

مكرٍّ مفرٍّ مُقبلٍ مدبرٍ معاً   كجلمود صخر حطَّه السيل من علِ

وله ابيات كثيرة جرت مجرى الامثال على السنة الناس واتخذ الشعراء بعضها قواعد لنظمهم . وهو اول من لطف المعاني . ومما بلغ حد النهاية في الرقة واللطف قوله :

وما ذرفت عيناك الا لتضربي   بسهميك في اعشار قلب مقتلِ

وهو اول من وصف النساء بالظباء والمهى وشبه الخيل بالعقبان والعصي وفرق بين النسيب وسواه في القصيدة وقرب مآخذ الكلام فقيَّد الاوابد واجاد الاستعارة والتشبيه[1] ومن تشبيهه قوله وهو مما يتغنى به :

وثغراغر شنيب النبات   لذيذ المقبل والمبتسم
وماذقته غير ظن به   وبالظن يقضي عليك الحكم

ويقال ان امرأ القيس اول من شبب بالنساء بابيات مطلعها :

عهدتني ناشئاً ذا غرَّة   رجل الجمة ذا بطن اقب[2]

وله محاورة شعرية في اوابد العرب مع عَبيد بن الابرص اولها قول عَبيد :

ما حيَّة ميتة قامت بميتتها   درداء ما انبتت سناً واضراسا

فاجابه امرء القيس

تلك الشعيرة تسقى في سنابلها   فاخرجت بعد طول المكث اكداسا

وهي طويلة

(١) المزهر ٢٣٩ ج ٢   (٢) الاغاني ٦٧ ج ٢

معلقته وسبب نظمها

اما معلقته فقد نظمها في وصف واقعة جرت له مع حبيبته وابنة عمه عنيزة بنت شرحبيل وخظر عليه لقاءها ولعلهم منعوه منها لما كان من رغبته في الشعر . اما هو فكان يسترق الفرص لملاقاتها . فاغتنم فرصة ظعن الحي وكانوا اذا ظعنوا مشى الرجال اولاً ثم النساء فتخلف امرؤ القيس عن الرجال وتربص حتى ظعنت النساء . وكان في طريق الظاعنين غديرٌ يسمى دارة جلجل في منازل كندة بنجد . فسبقهن امرؤ القيس الى الغدير وفيهن عنيزة فنزعن ثيابهن ونزلن في الماء فبرز هو من مخبأه وجمع الثياب وجلس عليها وحلف انه لا يعطي الواحدة منهن ثيابها الا اذا خرجت اليه عارية

فخرجن وبقيت عنيزة واقسمت عليه أن يعدل عن شرطه فابى والح عليها بالخروج فخرجت ثم دفع اليها ثيابها فلبستها واجتمع النسوة عليه واخذن يعنفنه وقلن له « انك اخرتنا عن الحي وجوعتنا » فقال « ساعقر لكنَّ راحلتي تأكلن منها » فعقرها واتين بالحطب وجعلن يشوين اللحم ويأكلن حتى شبعن . وكان معه ركوة فيها خمر فسقاهن منها . فلما ارتحلن احتملن امتعته على رواحلهن وبقي هو لامركب له فقال لعنيزة « لا بدَّ لك من ان تحمليني » وساعده صواحبها على طلبه فحملته على مقدم هودجها فجعل يدخل رأسه من الهودج يقبلها ويحادثها ثم نظم معلقته ومطلعها :

قفانبك من ذكرى حبيب ومنزل بسقط اللوى بين الدخول فحوملِ

وصف بها ما تقدم احسن وصف وهي مدرجة مع سائر المعلقات في كتاب شرح عدة شروح

اما سائر اشعاره فانها جمعت في ديوان منه نسخة خطية في المكتبة الخديوية وقد طبع في باريس سنة ١٨٣٧ وفي غيرها . وقد شرحه البطليوسي النحوي المتوفى سنة ٤٩٤ هـ وطبع الشرح بمصر سنة ١٢٨٢ هـ وللنحاس شرح للمعلقة طبع في هال سنة ١٨٧٦

وقد ترجمت معلقته الى اللغة الروسية وطبعت مع الاصل العربي في بطرسبورج سنة ١٨٨٥ بعناية موركوس

وتجد كثيراً من اشعار امرىء القيس واخباره في كتاب الاغاني ٦٢ ج ٨ و١٩ ج ٢ والشعر والشعراء (طبقات الشعراء) لابن قتيبة ص ٣٧ وفي شرح المعلقات. وفي كتاب الشعراء الستة الجاهليين طبع لندن سنة ١٨٧٠ وخزانة الادب ٥٣٢ ج٣ وفي شعراء النصرانية صفحة ٦ وفي جمهرة اشعار العرب ٣٩ وفي اكثر كتب الادب والتاريخ

٢ـ زُهير بن أبي سُلْمى

توفي سنة ٦٣١ م

هو أحد الثلاثة المقدمين على سائر الشعراء وهم امرؤ القيس وزُهير والنابغة وانما اختلفوا في تقديم احد الثلاثة على صاحبيه . وكما امتاز امرؤ القيس باستنباط الافكار والاساليب وتلطيف المعاني فقد امتاز زهير بما في نظمه من الحكمة البالغة وكثرة الامثال مع القدرة على المدح وهو لا يعاظل في الكلام ويتجنب وحشيه ولا يمدح احداً الاّ بما فيه وكثيرون يفضلونه على صاحبيه ويقولون انه احسنهم شعراً وابعدهم عن سخف واجمعهم لكثير من المعاني في قليل من الالفاظ

وهو من مزينة احدى قبائل مضر وكان يقيم هو وابوه وولده في منازل بني عبدالله بن غطفان بالحاجز من نجد . واول من نزل هناك منهم ابوه ابو سُلمى لانه تزوج امرأة من بني فهر بن مرة من ذبيان بن غطفان فولدت له زهيراً واوساً وتزوج زهير امرأة من سحيم بن مرة ولذلك كان زهير يذكر في شعره بني مرة وغطفان ويمدحهم . وكان لزهير اخلاق عالية ونفس كبيرة مع سعة صدر وحلم وورع . فرفع القوم منزلته وجعلوه سيداً . وكثر ماله واتسعت ثروته وكان مع ذلك عريقاً في الشاعرية فكان ابوه شاعراً وكذلك خاله واختاه وابناه . وكان لشعره تأثير كبير في نفوس العرب وكان مقرباً من امراء ذبيان وخصوصاً هرم بن سنان والحرث بن عوف . واول قصيدة نظمها في مدحهما معلقته المشهورة التي مطلعها :

امن امّ اوفى دمنة لم تكلم   بحومانة الدرّاج فالمتثلم

قالها على أثر مكرمة اتياها بحجب الدماء بين عبس وذبيان (١)

ثم مدح هرماً بقصائد كثيرة حتى حلف هرم ان لا يمدحه زهير الاّ اعطاه ولا يسأله الاّ اعطاه ولا سلم عليه الا اعطاه عبداً أو وليدة أو فرساً. فاستحيا زهير من كثرة ما كان يقبل منه فاصبح اذا رآه في ملاء من الناس قال «عموا صباحاً غير هرم. وخيركم استثنيت» وقال عمر بن الخطاب لبعض ولد هرم «انشدني بعض مدح زهير اباك» فانشده

(١) الاغاني ١٤٩ ج ٩

فقال عمر « انه كان ليحسن فيكم القول » فقال « ونحن والله كنا نحسن له العطاء » فقال عمر « قد ذهب ما اعطيتموه وبقي ما اعطاكم » ومدح زهير ايضاً سنان بن ابي حارثة المري وحصن بن حذيفة بن بدر وغيرهم

ومما قاله في مدح هرم ولم يسبقه اليه احد قولهُ :

قد جعل المبتغون الخير من هرمٍ والسائلون الى ابوابه طُرُقا
من يلقَ يوماً على علاتهِ هرماً يلقَ السماحة منه والندى خُلقا
يطلب شأو امرأين قدَّما حسباً بذَّا الملوك وبذَّا هذه السوقا
هو الجواد فان يلحق بشأوهما على تكاليفه فمثله لحقا
او يسبقاه على ما كان من مهل فمثل ما قدَّما من صالحٍ سبقا

ومن بليغ مدحه قوله في مدح حصن بن حذيفة بعد ان استهل بوصف الصيد ثم تخلص الى المدح في قصيدة طويلة جئنا بمثال منها في صفحة ٨١ من هذا الكتاب وتجد امثلة من نظمه في اماكن اخرى منه

ويؤخذ من بعض اقواله انه كان مؤمناً بالبعث كقوله :

يؤخر فيودع في كتاب فيدَّخر ليوم الحساب او يعجَّل فينقم

ومما يدل على تعقله وحنكته وسعة صدره قوله في معلقته التي نقلنا بعضها صفحة ٢٩ من هذا الكتاب . وقد جمع خلاصة التقاضي في بيت واحد وهو :

فان الحقَّ مقطعهُ ثلاثٌ اداءٌ او نفارٌ او جلاء (١)

فزهير يمتاز بمدحياته وحكمياته وبلاغته . وقد جمعت اشعاره في ديوان شرحه ثعلب المتوفى سنة ٢٩١هـ ومنه نسخة خطية في المكتبة الخديوية وقد طبع سنة ١٣٢٣هـ وشرحه الشنتمري المعروف بالاعلم المتوفى سنة ٤٧٦ وقد طبع هذا الشرح في ليدن سنة ١٣٠٦ هـ وله شروح اخرى ضاعت او لم نقف عليها . وكتب ديروف Dyroff الالماني كتاباً بالالمانية في زهير واشعاره . وما لم ينشر منها طبع في منشن سنة ١٨٩٢

وقد جمعت اخباره واقواله في كتاب الاغاني ٤٨ و١٤٦ج ٩ وفي ديوان الشعراء الستة الجاهليين . وخزانة الادب ٣٧٥ ج ١ والشعر والشعراء ٥٧ وجمعت معلقته الى سائر المعلقات وفي الجمهرة ص ٤٧ وقد شرحها كثيرون منهم النحاس المتقدم ذكره وهوامش شروحها وقد نشره الدكتور هوسهير الالماني سنه ١٩٠٥ في برلين مع مقدمة المانية مقيدة

(١) العمدة ٣٠ ج ١

٣ ــ النابغة الذُّبياني

توفي سنة ٦٠٤م

هو احد الثلاثة المقدمين على سائر الشعراء واسمه زياد بن معاوية من ذُبيان من قيس . وهو من الاشراف الذين غضَّ الشعر منهم كما غض من امرئ القيس . وكان يفد على النعمان صاحب الحيرة فيمدحه فوقعت العداوة بينه وبين المنخل الشاعر فوشى به الى النعمان فهرب النابغة الى بني غسان ونزل بعمرو بن الحارث الاصغر ملك الغساسنة فمدحه . وما زال مقيماً عنده حتى مات عمرو وخلفه النعمان اخوه فصار معه حتى اصطلح مع النعمان صاحب الحيرة فعاد اليه

وكان يفد على صاحب الحيرة ايضاً حسان بن ثابت الانصاري ولكن النابغة كان مقدماً على الجميع . فجمع من عطايا النعمان صاحب الحيرة ثروة طائلة وصار يأكل ويشرب في آنية الفضة والذهب . وله منزلة كبرى عند شعراء عصره فاذا جاء عكاظ ضربوا له في سوقها قبة من جلد وجاء الشعراء ينشدون اشعارهم . واول من انشده الاعشى ثم حسان ثم الخنساء وهذا شرف لم ينله احد من الشعراء سواه .

ويمتاز النابغة عن صاحبيه بانه احسنهم ديباجة شعر واكثرهم رونق كلام واجزلهم بيتاً فكأن شعره كلام ليس فيه تكلف . وذلك ظاهر في كل اقواله حتى جرى كثير منها مجرى الامثال واقتبس الشعراء كثيراً من اقواله منها :

نبئت ان ابا قابوس اوعدني ولا قرار على زأر من الاسدِ

تمثل به الحجاج بن يوسف حين سخط عليه عبد الملك بن مروان وقوله :

فلو كفّي اليمين بغتك خوناً لأفردت اليمين من الشمالِ

اخذه المثقب العبدي فقال :

ولو اني تخالفني شمالي بنصر لم تصاحبها يميني

وقوله

فحملتني ذنب امرئ وتركته كذي العرّ يكوى غيره وهو راتع

اخذه الكميت فقال :

ولا اكوي الصحاح براتعات بهن العرّ قبلي ما كوينا

وقوله :

واستبقِ ودّك للصديق ولاتكنْ قتباً يعضُّ بغاربٍ ملحاحا

اخذه ابن ميادة فقال :

ما ان أُلح على الاخوان اسألهم كما يلح بعضّ الغارب القتبُ

ومما يتمثل به من شعره قوله :

لو أنها عرضت لاشمط راهب عبد الاله صرورة متعبّد

لرنا لبهجتها وحسن حديثها ولخاله رشداً وان لم يرشد

اخذه ربيعة بن مقروم الضبي فقال :

لو انها عرضت لاشمط راهب في راس مشرفة الذرى يتبتلُ

لرنا لبهجتها وحسن حديثها ولهمَّ من ناموسه يتنزل

ومما يتمثل به ايضاً من شعره :

ومن عصاك فعاقبه معاقبة تنهى الظلوم ولاتقعد على ضمدِ

وقال في العفة وهو احسن ما قيل فيه :

رقاق النعال طيب حجزاتهم يحيَّون بالريحان يوم السباسب

اخذه عدي بن زيد فقال :

اجل ان الله قد فضلكم فوق من احكي بصلب وازار

فالصلب الحسب والازار العفاف وفي امثالهم اصدق من قطاة ـ قال النابغة :

تدعو القطا وبها تدعى اذا نسبت ياحسنها حين تدعوها فتنتسبُ

وذلك لانها تلفظ باسمها . اخذه ابو نواس فقال :

اصدق من قول قطاة قطا

وقد مدح النابغة النعمان وعمرو بن هند من اصحاب الحيرة . وعمرو بن الحارث الغساني واخاه النعمان و وائل بن الحلاج الكلبي وهجا ابن زرعة ورثى واعتذر وفاخر . ولكن الشعر الوصفي قليل في منظومه الاالقصيدة التي نظمها في وصف المتجردة زوجة النعمان صاحب الحيرة وقد تقدم مطلعها . ومن قوله في وصفها :

نظرت بمقلة شادن متربب احوى احم المقلتين مقلدِ

والنظم في سلك يزيّن نحرها ذهب توقّد كالشهاب الموقَد .

صفراء كالسيراء أُكمل خلقها كالغصن في غلوائه المتاوّد

قامت تراءى بين سجفي كلة … كالشمس يوم طلوعها بالاسعدِ
او درة صدَفية غوّاصُها … بهج متى يرها يُهِلَّ ويسجدِ
او دميةٍ من مرمر مرفوعة … بنيت بآجرٍّ تشادُ وقرمدِ
سقط النصيف ولم ترد اسقاطه … فتناولته واتّقتنا باليدِ
بمخضّب رخص كأن بنانه … عنمٌ يكاد من اللطافة يعقدِ

وهي طويلة وفيها ابيات لا يليق نشرها ولـكنه وصف فيها الطبيعة كما هي عادة الجاهليين بتمثيل الواقع وكما فعل سليمان الحكيم في نشيد الاناشيد . ومن احسن شعره معلقته التي مطلعها :

عوجوا فحيوا لنعمٍ دمنة الدار … ماذا تحيون من نؤي واحجارِ

وهي ستون بيتاً ذكرها صاحب جمهرة اشعار العرب من جملة المعلقات فصاروا ثمانية واما الزوزني فلم يذكرها

وللنابغة ديوان مطبوع غير مرة منها مع الشعراء الستة . وشرحٌ منه نسخة خطية في المكتبة الخديوية وقد ترجمه الى الفرنساوية وطبعه مع الاصل العربي المسيو ديرنبرج في المجلة الاسيوية الفرنساوية سنة١٨٦٨ وصدر بالامس كتاب اسمه التوضيح والبيان لاشعار نابغة ذبيان طبع بمصر

واخباره متفرقة في الاغاني ١٦٢ج ٩ والشعر والشعراء ٧٠ و١٢٦ والجمهرة ٥٢ وفي دواوين الشعراء الستة الجاهليين وفي شرح المعلقات وسائر كتب الادب

٤ — أَعْشَى قَيس

توفي سنة٦٢٩ م

اسمه ميمون بن قيس بن جندل من بكر بن وائل من ربيعة وهو احد الاعلام من شعراء الجاهلية وفحولهم . والبعض يقدمونه على سائرهم اذا طرب كما يتقدم امرؤ القيس اذا غضب والنابغة اذا رهب وزهير اذا رغب[1] ويحتج الذين يقدمونه بكثرة طواله الجياد وتصرفه في المديح والهجاء وسائر فنون الشعر مما ليس لسواه . ويقال انه اول من سأل بشعره وانتجع به اقاصي البلاد وكان يغني به فسموه صناجة العرب وقد تقدم

(١) الاغاني ٧٧ ج ٨

انه قدري المذهب لقوله :

استأثر الله بالوفاء وبالـ ـعدل وولى الملامة الرجلا

ويظن انه اخذ ذلك من نصارى الحيرة . وهو الذي زوج بنات المحلق بابيات قالها فيه . ولم يكن يمدح قوماً الا رفعهم ولم يهج قوماً الا وضعهم لانه من اسير الناس شعراً واعظمهم فيه حظاً [1] وله منافرة مع علقمة الفحل . ويمتاز الاعشى عن معظم شعراء الجاهلية بوصف الخمر اذ قلّ فيهم من ذكرها واما هو فقد وصفها بقوله :

وادكن عاتق جحل ربحل صبحت براحه شربا كراما

من اللائي حملن على المطايا كريح المسك تستلّ الزكاما

وقوله : من خمر عانة قد اتى لختامها حول تسلّ غمامة المزكوم

وقد ادرك النبي ووفد عليه فمدحه بقصيدة مطلعها :

الم تغتمض عيناك ليلة ارمدا وعادك ماعاد السليم المسهدا

وما ذاك من عشق النساء وانما تناسيت قبل اليوم خلة مهددا

وفيها يقول لناقته :

فآليت لا ارثي لها من كلالة ولا من حفًى حتى تزور محمدا

نبيٌّ يرى مالا ترون وذكره اغار لعمري في البلاد وانجدا

متى ماتناخي عند باب ابن هاشم تراحي وتلقي من فواضله يدا

فلما علم ابو سفيان بذلك حرض قومهُ على ارضائه بالرجوع خوفاً من ان يسلم فينصره بشعره عليه فجعلوا له مائة من الابل فاخذها ورجع — وله معلقة مطلعها :

ما بكاء الكبير في الاطلال وسؤالي وما تردُّ سؤالي [2]

وللاعشى ديوان خط في المكتبة الخديوية . ولهُ قصيدتان ترجمتا الى الالمانية ترجمها المستشرق الالماني غاير Geyer الأولى الملعقة المتقدم ذكرها والثانية اولها « ودع هريرة ان الركب مرتحل » وقد عني بشرحها مطولاً حتى بلغت صفحات شرح الاولى وحدها ٢٢٣ صفحة . وللمستشرق المذكور ولع خاص في شعر الاعشى وهو يطبع ديوانه عن النسخة الوحيدة الكاملة الموجودة في الاسكوريال

وتجد اخبار الاعشى واشعاره في الاغاني ٥٢ ج ١٥ و ١٦٠ ج ١٦ و ٧٧ ج ٨ و١٤٣ ج ١٠ والشعر والشعراء ١٣٥ والجمهرة ٥٦ وغيرها وفي سيرة الرسول ومعجم البلدان وفي سائر كتب الادب

---

(١) العمدة ١٤٦ ج ٢ (٢) جمهرة اشعار العرب ٥٦

٥ — لَبيد بن رَبيعة

توفي سنة ٦٧٥ م

هو لبيد بن ربيعة العامري (من قيس) وكان من اشراف الشعراء المجيدين والفرسان المعمرين . يقال انه عمره ١٤٥ سنة عاش معظمها في الجاهلية وقد ادرك الاسلام واسلم وهاجر وحسن اسلامه ونزل الكوفة ايام عمر بن الخطاب فاقام بها حتى مات في اواخر خلافة معاوية . فكان عمره ١٤٥ سنة منها ٩٠ في الجاهلية . وكانت الشاعرية ظاهرة في عينيه منذ صباه — ذكروا ان النابغة رآه وهو غلام جاء مع اعمامه الى النعمان بن المنذر فتوسم فيه الشاعرية فسأل عنه فنسبوه فقال له « يا غلام ان عينيك لعينا شاعر افتقرض من الشعر شيئاً » قال « نعم ياعم » قال « فانشدني » فانشده قوله « الم ترجع على الدمن الخوالي الخ » . فقال له « يا غلام انت اشعر بني عامر زدني » فانشده قوله « طلل لخولة في الرسيس قديم » . فضرب يده على جنبيه وقال « اذهب فانت اشعر من قيس كلها »

واكثر شعره في الجاهلية لان الخلفاء الراشدين شغلوا الناس عن الشعر بالقرآن . وذكروا ان عمر بن الخطاب بعث الى المغيرة بن شعبة وهو على الكوفة يقول له « استنشد من قبلك من شعراء مصرك ما قالوا في الاسلام » فارسل الى الاغلب الراجز العجلي فقال له انشدني فقال :

ارجزاً تريد ام قصيداً   لقد طلبت هيناً موجوداً

ثم ارسل الى لبيد فقال « انشدني ما قلته في الاسلام » فكتب سورة البقرة في صحيفة ثم اتى بها وقال « ابدلني الله هذا في الاسلام مكان الشعر » فكتب المغيرة بذلك الى عمر فنقص من عطاء الاغلب خمسماية وجعلها في عطاء لبيد [١]

فمعظم ما يروونه من شعره قيل في الجاهلية . وكان من اجواد العرب وقد آلى على نفسه في الجاهلية ان تهب صبا الا اطعم وكان له جفنتان يغدو بهما ويروح في كل يوم على مسجد قومه فيطعمهم . فهبت الصبا يوما والوليد بن عقبة في الكوفة فصعد الوليد المنبر فخطب الناس ثم قال « ان اخاكم لبيد بن ربيعة قد نذر في الجاهلية ان لا تهب

(١) الاغاني ٩٧ ج ١٤

صبا الا اطعم وهذا يوم من ايامه وقد هبت صبا فاعينوه وانا اول من فعل» ثم نزل عن المنبر فارسل اليه بمائة بكرة وكتب اليه بابيات قالها :

اری الجزار يشحذ شفرتيه اذا هبت رياح ابي عقيل
اشمّ الانف اصيد عامري طويل الباع كالسيف الصقيل
وفى ابن الجعفريّ بحلفتيه على العلات والمال القليل
بنحر الكوم اذ سحبت عليه ذيول صبا تجاذب بالاصيل

فلما بلغت اياته لبيد قال لابنته اجيبيه فلعمري لقد عشت برهة وما اعيا بجواب شاعر فقالت ابنته :

اذا هبت رياح ابي عقيل دعونا عند هبتها الوليدا
اشم الانف اروع عبشميًّا اعان على مروأته لبيدا
بامثال الهضاب كان ركباً عليها من بني حام قعودا
ابا وهب جزاك الله خيراً نحرناها فاطعمنا الثريدا
فعد ان الكريم له معاد وظني لا ابا لك ان تعودا

فقال لها لبيد قد احسنت لولا انك استطعمته فقالت « ان الملوك لا يستحى من مسئلتهم» فقال « وانت يابنية في هذه اشعر »

ومما يستجاد من قوله قصيدة مطلعها :

الا كل شيء ما خلا الله باطل وكل نعيم لامحالة زائل

ويقال انه لم يقل في الاسلام الا بيتاً واحداً هو :

الحمد لله لما ينتهي اجلي حتى كساني من الاسلام سربالا

اما معلقته فطلعها :

عفت الديار محلها فقامها بمنى تأبّد غولها فرجامها

وقد جمعت اشعاره في ديوان طبع في فينا للمرة الاولى سنة ١٨٨٠ بعناية يوسف ضياء الدين الخالدي ثم ترجمت هذه الطبعة الى الالمانية مع تعليقات بالمقابلة على نسخ خطية في ستراسبورج وليدن مع ترجمة حياة الشاعر بعناية هوبر Huber وطبع في ليدن سنة ١٨٩١ . وله سيرة بالالمانية بقلم المستشرق هوبر المذكور طبعت في ليدن سنة ١٨٨٧ واخرى لكريمر Kremer طبعت في فينا سنة ١٨٨١ واخباره في الاغاني ٩٣ ج١٤ و١٣٧ ج١٥ والشعر والشعراء ١٤٨ والمستطرف ٤٣ ج ٢ والجمهرة ٦٣ وغيرها من كتب الادب

٦- عَمْرو بن كُلْثُوم

توفي سنة ٦٠٠ م

هو من قبيلة تغلب وامه ليلى بنت مُهلهِل اخي كليب المشهور فهو حفيد مُهلهِل واشتهرت امه ليلى بالانفة وعظم النفس تفاخراً بابيها . وسادعمرو بن كلثوم قومه تغلب وهو في الخامسة عشرة وقد عمَّر طويلا وكان اعز الناس نفساً وا كثرهم امتناعاً وانفة وكان شاعراً مطبوعاً اشتهر بمعلقته التي مطلعها :

الا هبي بصحنك فاصبحينا ولا تبقي خمور الاندرينا

وهي حماسية فخرية يقال انها كانت تزيد على الف بيت وانما وصل الينا بعضها . وقد نظمها غضباً لامه وقبيلته من عمرو بن هند صاحب الحيرة . وكان عمرو هذا معجباً بنفسه فقال يوماً للندماء « هل تعلمون احداً من العرب تأنف امه من خدمة امي » فقالوا « نعم ام عمرو بن كُلثوم » قال « ولِمَ » قالوا « لان اباها مهلهل بن ربيعة وعمها كليب بن وائل اعزُّ العرب وبعلها كلثوم بن مالك افرس العرب وابنها عمرو وهو سيد قومه »

فارسل عمرو بن هند صاحب الحيرة الى عمرو بن كُلثوم يستزيره ويسأله ان يزير أمَّهُ امه . فاقبل ابن كُلثوم من الجزيرة الى الحيرة في جماعة بني تغلب واقبلت ليلى بنت مهلهل في ظعن من بني تغلب . وأمر عمرو بن هند برواقه فضرب فيما بين الحيرة والفرات وارسل الى وجوه اهل مملكته فحضروا في وجوه بني تغلب . فدخل عمرو ابن كلثوم على عمرو بن هند في رواقه ودخلت ليلى وهند في قبة من جانب الرواق وقد كان عمرو بن هند امر امه ان تنحي الخدم اذا دعا بالطرف وتستخدم ليلى . فدعا عمرو بمائدة ثم دعا بالطرف . فقالت هند « ناوليني يا ليلى ذلك الطبق » فقالت ليلى « لتقم صاحبة الحاجة الى حاجتها » فاعادت عليها وألحت فصاحت ليلى « وأذلاه يا لتغلب » فسمعها عمرو بن كلثوم فثار الدم في وجهه ونظر اليه عمرو بن هند فعرف الشر في عينيه . فوثب عمرو بن كلثوم الى سيف لعمرو بن هند معلق بالرواق ليس هناك سيف غيره فضرب به راس عمرو بن هند ونادى في بني تغلب فانتهبوا ما في الرواق وساقوا نجائبهُ وساروا نحو الجزيرة

فجاشت نفس ابن كلثوم وحمي غضبه واخذته الانفة والنخوة فنظم معلقته اوامله نظم بعضها في ذلك الحين ثم اتمها في حادثة اخرى جرت له مع عمرو بن هند المذكور على اثر خلاف جرى بين قومه التغلبين واخوانهم البكريين وتقاضوا الى عمرو هذا . وكان قد اصلح بينهما بعد حرب البسوس وشرط عليهما شروطاً اذا اختصما . فلما جاؤوه للمقاضاة كان ابن كلثوم سيد تغلب والنعمان بن هرم سيد بكر . وجرى بين الاميرين جدال بين يدي صاحب الحيرة . وكان هذا يؤثر تغلب على بكر فطرد ابن هرم فنهض ابن كلثوم وانشد معلقته وكان حاضراً هناك الحارث بن حلّزة من بكر وائل فانشد معلقته كما سيجيء . فالغالب ان ابن كلثوم نظم معلقته على مرتين في حادثة امه وهذه الحادثة . ولذلك رأيت فيها اشارة الى كليهما وقد وقف عمرو بن كلثوم بهذه المعلقة في سوق عكاظ فانشدها في موسم مكة وكان بنو تغلب يعظمونها ويرويها صغارهم وكبارهم لما حوته من الفخر والحماسة مع جزالتها وسهولة حفظها . فقد استهلها بذكر الخمر ووصف شاربها وتأثيرها وهذا قليل في شعر الجاهلية كما تقدم . ثم وصف ليلى بنحو وصف النابغة المتجردة ثم خاطب عمرو بن هند وافتخر بنفسه واهله واشار الى ما اراده ابن هند من احتقار والدته وذكر واقعة لهم في ذي اراط فازوا بها وابدعوا ثم تخلص الى الفخر في ابيات هذا بعضها :

وقد علم القبائل غير فخر	اذا قُببٌ بابطحها بنينا
بانّا العاصمون اذا اطعنا	وانا العازمون اذا عُصينا
وانا المنعمون اذا قدرنا	وانا المهلكون اذا أُتينا
وانا الحاكمون بما اردنا	وانا النازلون بحيث شينا
وانا التاركون لما سخطنا	وانا الآخذون لما هوينا
وانا الطالبون اذا نقمنا	وانا الضاربون اذا ابتلينا
وانا النازلون بكل ثغر	يخاف النازلون به المنونا
ونشرب ان وردن الماء صفواً	ويشرب غيرنا كدراً وطينا

وليس لعمرو بن كلثوم ديوان معروف . ولكن اشعاره متفرقة في الاغاني ١٨١ ج ٩ وفي الشعر والشعراء ١١٧ والجمهرة ٧٤ وشعراء النصرانية ١٩٧ وشرح القصائد العشر ١٠٨ وفي معجم البلدان وديوان الحماسة وغيرها

٧ - الحَارِثُ بن حِلِّزَة اليَشْكُرِي

توفي سنة ٥٨٠ م

هو من بكر وائل وقد اشتهر بين اهل العراق وكان به وضح أي برص وهو قليل النظم وانما اشتهر بمعلقته وهي قصيدة واحدة كما اشتهر بمثلها عمرو بن كلثوم وطرفة بن العبد الآتي ذكره . وقد تقدم ان الحارث كان في الوفد البكريين الذين اتوا عمرو بن هند وخطيبهم النعمان بن هرم . فلما غضب ابن هند عليه واوشك ان يقضي لبني تغلب قال الحارث بن حلزة لقومه « اني قد قلت خطبة فمن قام بها ظفر بحجته وفلج على خصمه . فروّاها اناساً منهم فلما قاموا بين يدي الملك لم يرضه انشادهم فقال اني لا ارى احداً يقوم بها مقامي لكني اكره ان اكلم الملك من وراء سبعة ستور وينضح اثري بالماء اذا انصرفت عنه . وكانوا يفعلون ذلك بمن فيه برص وقيل بل كان ابن هند يفعل ذلك لعظم سلطانه ولا ينظر الى احد به سوء . ثم خاف ابن حلّزة على قومه وقال «انا محتمل ذلك واقرب من الملك » فقيل لعمرو بن هند « ان به وضحاً » فامر ان تمدّ بينه وبين الحارث سبعة ستور . فجعلت . فلما نظر عمرو بن كلثوم قال للملك « أهذا يناطقني وهو لا يطيق صدر راحلته » فاجابه الملك حتى افحمه . وانشد الحارث قصيدته التي مطلعها :

آذنتنا ببينها اسماء ربّ ثاوٍ يُملّ منه الثواء

وكانت هند ام عمرو صاحب الحيرة تسمع فقالت « تالله ما رأيت كاليوم قط رجلا يقول مثل هذا القول يكلم من وراء سبعة ستور » فقال الملك « ارفعوا ستراً وادنوا الحارث » حتى اذا ازيلت الستور السبعة اقعده الملك قريباً منه وبالغ في اكرامه وضرب بالحارث المثل بالفخر فقيل « افخر من الحارث بن حلزة » وخصوصاً لانهم يزعمون انه قالها ارتجالاً وذلك بعيد لانه ذكر فيها عدة من ايام العرب عيّر ببعضها بني تغلب تصريحاً وعرض ببعضها لعمرو بن هند فهي من قبيل الملاحم في وصف الوقائع

وللحارث غير معلقته ابيات قليلة منشورة مع اخباره في الأغاني ١٧٧ ج ٩ وشرح القصائد العشر ١٢٥ والشعر والشعراء ٩٦ وشعراء النصرانية ٤١٦ وفي سائر كتب الادب

٨ — طَرَفَةُ بن العبْدِ

توفي سنة ٥٥٠ م

هو ابوعمرو طَرَفة بن العبد من بكر وائل من ربيعة ابن اخت جرير بن عبد المسيح المعروف بالمتلمس وقد نبغ في الشعر من حداثته حتى صار يعدُّ من الطبقة الاولى وتوفي صغير السن . ومع كونه من المقلين فان اشعاره كانت معول اصحاب اللغة في الاستشهاد وكان في صباه عاكفاً على الملاهي يعاقر الخمر وينفق ماله عليها ولكن حبه في قومه جعله جريئاً على الهجاء ومات ابوه وهو صغير فابى اعمامه ان يقسموا ماله وظلموا حقا لامه وردة فنظم في هجائهم قصيدة ابدع فيها مطلعها :

ما تنظرون بحق وردة فيكم صُغر البنون ورهط وردة غيَّب

واشتهر بالاكثر بمعلقته . ويقال في سبب نظمها ان اخاه معبداً كانت له ابل ضلت فذهب اخوه طرَفة الى ابن عمه مالك ان يعينه في طلبها فلامه وانتهره وقال « فرطت فيها ثم اقبلت تتعب في طلبها » فهاجت قريحة طرفة فقال معلقته التي مطلعها :

لخولةَ اطلالٌ ببرقة ثهمدِ تلوح كباقي الوشم في ظاهر اليدِ

وفيها يشبه حدوج حبيبته بالسفن السابحة في الماء ثم يصف ناقته وصفاً جميلاً يوهمك لاول وهلة انه يصف حبيبته ولكنك لا تلبث ان ترى وصفه الدقيق لكل عضو من اعضائها حتى ذيلها وقلبها ثم ينتقل الى الحكم والموعظة ثم العتاب يعاتب عمه على تعنيفه ويأسف لانه لا يقدر ان يرد تعنيفه لمقامه عنده

ولطرَفة حديث مع عمرو بن هند صاحب الحيرة والمتلمس الشاعر كان سبباً لقتله . وذلك : ان طرفة كان في صباه معجباً بنفسه يتخلج في مشيته فمشى تلك المشية مرة بين يدي عمرو بن هند فنظر اليه نظرة كادت تبتلعه من مجلسه . وكان المتلمس حاضراً فلما قاما قال له المتلمس « يا طرفة اني اخاف عليك من نظرته اليك» فقال طرفة «كلاَّ» ثم انه كتب لهما كتابين الى المكعبر وكان عامله على البحرين وعمان فخرجا من عنده وسارا حتى اذا هبطا بارض قريبة من الحيرة رأيا فيها شيخاً دار بينهما وبينه كلام نبه المتلمس لى ما قد يكون في الكتاب الذي يحمله من الاذى . ولم يكن يعرف القراءة فاذا هو

بغلام من اهل الحيرة يسقي غنيمة له من نهر الحيرة فقال له المتلمس يا غلام اقرأ قال نعم قال اقرأ هذه فاذا فيها « باسمك اللهم من عمرو بن هند الى المكعبر اذا اتاك كتابي هذا من المتلمس فاقطع يديه ورجليه وادفنه حياً » فالقى المتلمس الصحيفة في النهر وقال « ياطرَفة معك والله مثلها » فقال « كلاّ ما كان ليكتب لي مثل ذلك » ثم اتى طرفة الى المكعبر فقطع يديه ورجليه ودفنه حياً فضرب المثل بصحيفة المتلمس لمن يسعى في حتفه بنفسه

وقد جمعت اشعار طرَفة في ديوان طبع بشالون بفرنسا سنة ١٩٠٠ مع ترجمة فرنساوية بعناية الموسيو سلكسن . وتجد اخبار طرفة مع بعض اقواله متفرقة في الاغاني وفي شرح المعلقات وامثال الميداني وحياة الحيوان للدميري ٢٠٩ج ٢ والجمهرة ٨٣ وفي ديوان الشعراء الستة الجاهليين وخزانة الادب ٤١٤ ج ١ والشعر والشعراء ٨٨ وفي شرح القصائد العشر ٣٠ وفي الحماسة وغيرها . وفي المجلة الاسيوية الفرنساوية Journal Asiatique لسنة ١٨٤١ مقالة عنه وعن المتلمس

٩ – عَنتَرَة بن شدَّاد العَبْسي

توفي سنة ٦١٥م

هو عنترة بن شداد من قبيلة عبس من قيس وهو من الشعراء الفرسان الشجعان وعشق فهاجت شاعريته واتسع خياله . واخباره مدونة في قصته المشهورة لكن اكثرها موضوع من قبيل القصص الروائية . أما عنترة فلا شك في وجوده وله حروب واشعار. والصحيح من خبره أن أمه زبيبة كانت حبشية فلما انجب ابنها وظهرت مواهبه اعترف به ابوه والحقه بنسبه على اصطلاحهم في ذلك العصر

وهو احد اغربة العرب وامهاتهم اماء وهم ثلاثة عنترة وخفاف بن عمير والسليك بن السلكة . وشهد عنترة حرب داحس والغبراء وهو شاب ووقعت ملاحاة بينه وبين بني عبس في ابل اخذها من حليف لهم اقتتلوا عليها . وحدثت حروب بين جديله وثعل وكان عنترة مع جديلة فنصرهم فانتصروا فشكاه الثعليون الى غطفان . ووقائعه كثيرة يشتبه فيها الصحيح بالموضوع وهم في اختلاف في سبب قتله . والاصح

عبلة بنت عمه وهو يذكرها في اكثر اشعاره

ولعنترة اشعار كثيرة تدخل في ديوان كبير والرواة مختلفون في ما هو له وما هو موضوع . ومما هو ثابت له المعلقة التي مطلعها :

هل غادر الشعراء من متردم ام هل عرفت الدار بعد توهم

ويقال في سبب نظمها انه جلس يوماً في مجلس بعد ما كان قد ابلى واعترف به ابوه واعتقه فسابَّه رجل من بني عبس ذكر سواده وامه واخوته . فسبه عنترة وفخر عليه وقال فيما قال له « اني لاحضر البأس واوفي المغنم واعف عند المسئلة واجود بما ملكت يدي وافصل الخطة الصماء» قال له الرجل « انا اشعر منك » . قال « ستعلم ذلك » فقال عنترة يذكر قتل معاوية بن نزال وهي اول كلمة قالها

فبدأ بذكر الديار ديار عبلة وخاطبها يشكو البعد والغرام ثم استأنف الى الفخر والحماسة . واكثر الرواة ينكرون ان يكون مطلع المعلقة له ومنهم الاصمعي وابن الاعرابي وكلهم يقولون ان اول المعلقة الحقيقي :

يا دار عبلة بالجواء تكلمي وعمي صباحاً دار عبلة واسلمي

ومن غرر القصائد المنسوبة اليه قصيدة يذكر فيها واقعة يوم الفروق مطلعها :

الا قاتل الله الطلول البواليا وقاتل ذكراك السنين الخواليا

وصف فيها الواقعة وافتخر . وله قصيدة فخيمة يتوعد بها النعمان ويفتخر بقومه كلها حكم وحماسة مطلعها :

لا يحمل الحقد من تعلو به الرتب ولا ينال العلى من طبعه الغضبُ

وفي هذا البيت من الحكمة البالغة ما ليس بعده غاية . ومن اقواله قصيدة يهدد بها عمارة والربيع بن زياد العبسي معرضاً بذكر قومهما مطلعها :

لغير العلى مني القلا والتجنب ولولا العلى ما كنت للعيش ارغب

وغير هذه شيء كثير تراجع في ديوانه وفيه معانٍ لم يسبق اليها منها قوله في التشبيه :

وخلا الذباب بها فليس ببارح غرداً كفعل الشارب المترنم

هزجاً يحك ذراعه بذراعه فعل المنكبّ على الزناد الاجذم

وقوله :

واذا شربت فانني مستهلك مالي وعرضي وافرٌ لم يكلم
واذا صحوت فما اقصر عن ندى وكما علمت شمائلي وتكرمي

ومن ذلك قوله :

اني امرؤ من خير عبس منصبا شطري واحمي سائري بالمنصل
واذا الكتيبة احجمت وتلاحظت ألفيت خيراً من معمٍّ مخول

يقول النصف من نسبي في خير عبس واحمي النصف الآخر وهو نسبه في السودان بالسيف فاشرفه ايضاً ومن احسن شعره قوله :

بكرت تخوفني الحتوف كانني اصبحت عن عرض الحتوف بمعزل
فاجبتها ان المنية منهل لابد ان اسقى بذاك المنهل
فاقني حياءك لا ابا لك واعلمي اني امرؤ سأموت ان لم اقتل
ان المنية لو تمثل مثلت مثلي اذا نزلوا بضنك المنزل

ومن افراطه قوله :

وانا المنية في المواطن كلها والطعن مني سابق الآجال

وفي هذه يفخر باخواله من السودان اذ يقول :

اني لتعرف في الحروب مواطني في آل عبس مشهدي وفعالي
منهم ابي حقاً فهم لي والد والام من حام فهم اخوالي

واشعار عنترة كلها واردة في قصته وقد افردها بعضهم في ديوان على حدة وطبع في بيروت بغير تحقيق مما هو له وما ليس له . وقد وردت اخباره في الاغاني ١٤٨ ج٧ والشعر والشعراء ١٣٠ وشعراء النصرانية ٧٩٤ والجمهرة ٩٢ وخزانة الادب ٦٢ ج ١ والعقد الفريد ٣٤ ج ١ وشرح القصائد العشر ٩٠ وترجمناه في السنة الخامسة من الهلال . وللمستشرق الالماني توربكي Thorbecke كتاب بشأنه طبع في هيدلبرج سنة ١٨٦٨

قصة عنتر

اما قصته فقد اختلفوا في واضعها . ويظهر لنا انها وضعت بالتدريج ومعنى ذلك انها توسعوا بها واضافوا اليها رويداً رويداً حتى بلغت ماهي عليه الآن . وكان من عادة المسلمين في صدر الاسلام ان يستنهضوا همم الجند للحرب بتلاوة اخبار الشجعان فرسانهم الجاهليين وقد رايناهم يفعلون ذلك في القرن الاول للهجرة في زمن الحجاج ابن يوسف سنة ٧٧ في الواقعة التي قتل فيها شبيب عتاب بن ورقاء وزهر بن حوية

ذكر ابن الاثير ان عتاباً سار في اصحابه قبل المعركة يحرضهم على القتال ويقص عليهم ثم قال « ابن القصاص » فلم يجبه احد فقال «اين من يروي شعر عنتر» فلم يجبه احد الخ

فكانو اولاً يروون اشعار عنترة للتحميس ثم صاروا يجمعون اخباره واحاديثه ويتناقلونها رواية عن الاصمعي وهي تتسع حتى جمعت بمصر في اواخر القرن الرابع للهجرة في زمن الخليفة العزيز بالله الفاطمي وقد جاء في سبب جمعها وتدوينها ان رجلاً اسمه الشيخ يوسف بن اسماعيل كان يتصل بباب العزيز بالله فاتفق ان حدثت ريبة في دار العزيز لهجت الناس بها في المنازل والاسواق فساء العزيز ذلك واشار الى الشيخ يوسف المذكور ان يطرف الناس بما عساه ان يشغلهم عن هذا الحديث وكان الشيخ يوسف هذا واسع الرواية في اخبار العرب كثير النوادر والاحاديث وكان قد اخذ روايات شتى عن ابي عبيدة ومحمد بن هشام وجهينة الاخبار والاصمعي وغيرهم من الرواة فأخذ يكتب قصة عنتر ويوزعها في الناس فاعجبوا بها واشتغلوا عن سواها ومن تلطفه في الحيلة انه قسمها الى ٧٢ كتاباً والتزم في آخر كل كتاب ان يقطع الكلام عند معظم الامر الذي يشتاق القارىء والسامع الى الوقوف على تمامه . فلا يفتر عن طلب الكتاب الذي يليه فاذا وقف عليه انتهى به مثل ما انتهى في الاول وهكذا الى نهاية القصة . وقد اثبت في هذه الكتب ماورد من اشعار العرب المذكورين فيها ولكن تداول الناسخين افسد روايتها والقصة مشهورة ومطبوعة مراراً

١٠ـ عَبِيد بن ألأَبْرَص الأَسَدِي

توفي سنة ٥٥٥ م

هو من بني أسَد من مضر من شعراء الطبقة الاولى قديم الذكر عظيم الشهرة لكن الباقي من شعره اقل من شهرته وكان عَبيد لا يقول الشعر في صباه . وذكروا في سبب ما بعثه على النظم انه كان ضيق الرزق قليل المال فاقبل ذات يوم بغُنيمة له ومعه اخته ماوية ليوردا غنمهما فمنعه رجل من مالك وجبهه فانطلق حزيناً مهموماً ثم ابتهل الى الله ان كان فلاناً ظلمني ورماني بالبهتان فادلني منه وانصرني عليه . ووضع رأسه فنام فرأى في المنام ان رجلاً اتاه بكبة من شعر القاها في فيه ثم قال « قم فقام وهو يرتجز. واستمر بعد ذلك على قول الشعر حتى صار شاعر بني أسد غير مدافع فنظم قصيدته البائية وهي التي تعد من المعلقات مطلعها

اقفر من اهله ملحوب فالقطَـبيـاتُ فالذنوب

وهي ٤٨ بيتاً نشرها التبريزي ملحقة بالمعلقات السبع مع قصيدتي الاعشى والنابغة في شرح القصائد العشر . وهو معدود من اصحاب المجمهرات عند صاحب جمهرة اشعار العرب وجمهرته عنده هي نفس هذه المعلقة مع بعض التغيير [١]

وفي ايامه حكم حُجر بن الحارث الكندي والد امرىء القيس على بني اسَد كما تقدم وكان عَبيد ينادمه فنظم فيه قصائد من جملتها قصيدة يغنَّى بها مطلعها :

طاف الخيال علينا ليلة الوادي من أُم عمرو ولم يلمم بميعاد

وابى بنو اسد مرة ان يدفعوا الاتاوة لحجر وقتلوا رسله فغضب وحاربهم واباح اموالهم واخرجهم الى تهامة وحبس بعض سادتهم وفيهم عبيد بن الابرص . فذهب منهم وفدٌ اليه وجاء عَبيد فوقف وانشد قصيدة جاء فيها :

ومنعتهمْ نجداً فقـد حلوا على وجل تهامهْ
برمت بنو اسد كما برمت ببيضتها الحمامه
جعلت لها عودين من نشم وآخر من ثمامه
مهما تركت تركت عفواً او قتلت فلا ملامه
انت المليكُ عليهـم وهم العبيد الى القيامه
ذلوا لسوطك مثل ما ذل الاشيقر ذو الخزامه

فاطلق حُجر سبيلهم . ثم ثارت أسَد ثانية عليه وقتلوه كما ذكرناه في ترجمة امرىء القيس . وغضب امرؤُ القيس ولم يقبل منهم دية ابيه وتوعدهم فقال عَبيد قصيدة مطلعها :

يا ذا المخوّفنـا بقتـ ـل ابيه اذلالاً وجبنـا
وزعمت انك قد قتلـ ـت سراتنـا كذباً ومينا

وعمر عبيد طويلاً حتى قتله المنذر بن ماء السماء في حديث خلاصته ان المنذر قتل نديمين له من بني اسد وهو غضبان فلما اصبح ندم فبنى على قبريهما ضريحين سماهما الغريين وجعل لنفسه يومين في السنة يجلس فيهما هناك احدهما يوم نعيم والاخر يوم بؤس . فاول من يطلع عليه في يوم النعيم يعطيه مئة من الابل واول من يطلع عليه في يوم البؤس يقتله و يطلي بدمه الغريين . فاتفق لعبيد انه اتاه في يوم بؤسه فقتله . وهذا

(١) الجمهرة ١٠٠

الحديث يشبه ما ذكروه عن حنظلة والنعمان لكن في حادثة حنظلة يمثل الوفاء احسن تمثيل اذ يطلق النعمان حنظلة بضمانةٍ على ان يغيب سنة ثم يعود ليقتل فلما حان الوقت جاء وسأله النعمان عما حمله على المجيء بعد ان نجا بنفسه فقال الوفاء

فلعلّ الاصل فيها قصة عبيد فزاد عليها العرب وعد حنظلة ووفاءه ليمثلوا بها الوفاء على نحو ما كان يفعل اليونان في الروايات التمثيلية (درام) وقد اشرنا الى ذلك قبلا

ومن احاسن شعر عبيد قصيدته الدالية التي مطلعها :

امن دمنة اقوت بجوة صرغد   تلوح كعنوان الكتاب المجدَّد

وفيها حكم وحماسة وفخر

ولعبيد ديوان تحت الطبع على يد لجنة تذكار جيب بانكلترا مع ديوان عامر بن الطفيل بتصحيح المستشرق لايل Lyall

وتجد اخبار عبيد في الاغاني ٨٤ ج ١٩ والشعر والشعراء ١٤٣ وشعراء النصرانية ٥٩٦ والجمهرة ١٠٠ وفي مجمع الامثال للميداني ومعجم البلدان والعمدة ومعجم البكري وغيرها

المعلقات والمستشرقون

وقد عني غير واحد في شرح المعلقات وان اختلفوا في عددها كما تقدم . وعني جماعة من علماء اوربا المستشرقين في ترجمتها وشرحها . اشهر من فعل ذلك منهم وليم جونس W. Jones الانكليزي فقد نشرها مع ترجمة وشرح في لندن سنة ١٧٨٣ وأبل Abel النمساوي ترجمها الى النمساوية ونشرها مع الاصل العربي في برلين سنة ١٨٩١ . ثم جنسن Johnson الانكليزي ترجمها الى الانكليزية ونشرها في لندن سنة ١٨٩٤ مع مقدمة للشيخ فيض الابهى . وقد كتب عنها وعن غيرها من شعر الجاهلية لايل Lyall المذكور كتاباً طبع في لندن سنة ١٨٨٥ ونولدكي Nœldeke الالماني وغيرهما

اشهر شعراء الجاهلية بعد اصحاب المعلقات

١ — الشعراء الامراء

ان الشعراء من الملوك والامراء بضعة عشر شاعراً منهم اثنان من اصحاب المعلقات هما امرؤ القيس وعمرو بن كلثوم وقد ترجمناهما واليك من بقي :

١ — الأَفوَهْ الأَوْدِي

توفي سنة ٥٧٠ م

هو صلاءة بن عمرو من أود وينتهي نسبه الى مذحج من قبائل اليمن . وكان سيد قومه وقائدهم وكانوا يصدرون عن رأيه والعرب تعده من حكمائها وله قصيدة دالية تدل على حكمة وصدق نظر منها قوله :

ان النجاء اذا ما كنت في نفر — من اجنّة الغي ابعاد فابعادُ
والخير تزداد منه ما لقيت به — والشر يكفيك منه قلَّ ما زادُ
والبيت لا يبتنى الا له عمد — ولا عماد اذا لم ترس اوتادُ
فان تجمَّع اوتادٌ واعمـدة — وساكنٌ بلغوا الامر الذي كادوا
لا يصلح الناس فوضى لا سراة لهم — ولا سراة اذا جهّالهم سادوا
تهدا الامور باهل الرأي ماصلحت — فان تولت فبالاشرار تنقاد
اذا تولى سراة الناس امرهم — نما على ذاك امر القوم فازدادوا

ومن حماسياته قوله :

نقاتل اقواماً فنسبي نساءهم — ولم يردوا غيراً لنسوتنا حِجلا
نقود ونأبى ان نقاد ولا ترى — لقوم علينا في مكارمة فضلا
وانا بطاء المشي عند نسائنا — كما قيّدت بالصيف نجدية بزلا

وقد جمعت اقواله في الاغاني ٤٤ ج ١١ وشعراء النصرانية ٧٠ والشعر والشعراء ١١٠ وله ابيات متفرقة في كتب الادب ونحوها وليس له ديوان مجموع

٢ — المُهَلهِل بن ربيعة

توفي سنة ٥٣١ م

هو عدي بن ربيعة التغلبي اخو كليب من مجد من الطبقة الاولى وهو خال امرئ

القيس الشاعر الملك . وكان المُهلهل فصيحاً شديد البأس في الحروب وقد شهد حرب يوم السلان مع اخيه كليب وابلى بلاءً حسناً . وكان المهلهل في اول امره صاحب لهو كثير المحادثة للنساء فسماه اخوه كليب « زير النساء » اي جليسهن ولم يكن يرجو منه خيراً . فلما قتل كليب في امر البسوس المشهور (١) كان المهلهل يعاقر الخمر فهاجه مقتل اخيه وذهب الى قومه واستحثهم على الاخذ بالثار وجزّ شعره وقصّر ثوبه وهجر النساء وترك الغزل وحرم القمار والشراب ونهض للحرب — وما اشبه عمله هذا بعمل ابن اخته امرىء القيس. ولعل هذا ورث الشاعرية من خاله لان كليهما وصاف ومستنبط . وطالت الحروب بين بكر وتغلب نحو اربعين سنة كان النصر فيها سجالاً ثم تصافوا واصطلحوا

وكان المُهلْهل في اثناء ذلك يقول الشعر على مقتضيات الاحوال بين فخر وحماسة وغيرهما . فمن ذلك قوله يوم علم بمقتل اخيه وجاء الى قومه فرأى النساء يبكين فقال « استبقين للبكاء عيوناً الى آخر الابد » وقال وهو اول شعره :

كنّـا نغار على العواتق اذ ترى ... بالامس خارجة عن الاوطانِ
فخرجن حين ثوى كليبٌ حسَّراً ... مستيقنات بعـدهُ بهـوانِ
فترى الكواعب كالظباء عواطلاً ... اذ حان مصرعهُ من الاكفان
يخمشن من ادم الوجوه حواسراً ... من بعده ويعدن بالازمان
متسلبات نكدهن وقد ورى ... اجوافهن بحرقة وروانِ

ثم تخلص الى الرثاء والوعيد بالايثار . ومن مراثيه باخيه قوله من قصيدة :

كليب لاخير في الدنيا ومن فيها ... ان انت خليتها في من يخليها
كليب ايُّ فتى عزٍّ ومكرمة ... تحت السفاسف اذ يعلوك سافيها
نعى النعاة كليباً لي فقلت لهم ... مادت بنا الارض ام مادت رواسيها
ليت السماء على من تحتها وقعت ... وحالت الارض فانجابت بمن فيها

ومن اقواله قصيدته المعدودة من المنتقيات ومطلعها :

حلّت ركابُ البغي من وائلٍ ... في رهط جساس ثقال الوثوق

والعرب تسميها الداهية . وقد وضع القصاصون قصة حماسية بطلها المهلهل وتعرف

(١) اقرأ تفصيله في كتابنا « العرب قبل الاسلام » ٢٢٣ ج ١

بقصة الزير كما وضعوا قصة عنترة ولكنها متأخرة وعبارتها اقرب الى العامية . وللمهلهل ذكر في تاريخ الشعر العربي فانه اول من طوَّل قصائده كما تقدم

وقد جمعت اشعاره في ديوان وهو اقدم شاعر جمع له ديوان ولم يصل الينا هذا الديوان . ولكن بعض المعاصرين جمع لهُ ديواناً اخذهُ من اقواله في كتب الادب وغيرها ولم نقف عليه . ولكنك تجد معظم اشعاره في الاغاني ١٤٨ج ٤ وخزانة الادب ٣٠٠ ج ١ والشعر والشعراء ١٦٤ والجمهرة ١٦٥ وفي تاريخ ابن الاثير ومعجم ياقوت ومعجم البكري وشعراء النصرانية ١٦٠ وفي ديوان الحماسة وغيرها

٣ — عبد يغوث

توفي سنة ٥٨٠م

هو عبد يغوث بن صلاءة من بني الحارث بن كعب من كهلان . كان فارساً سيداً لقومه وكان قائدهم في يوم الكلاب الثاني الى بني تميم وقد اسر يومئذ وقتل . وهو عريق في الشاعرية ونبغ من اهله غير شاعر وكلهم فحول . واحسن شعره قصيدة قالها وهو يتأهب للموت وكان قد أسر وشد لسانه بنسعة وخيروه في الطريقة التي يريد ان يقتل عليها فقال « اسقوني الخمر ودعوني انح على نفسي » فسقره وقطعوا له عرق الاكحل وتركوه ودمه ينزف ومعه ابناه فجعلا يلومانه على ما اركبهما من المشاق فنظم هذه القصيدة ومطلعها :

الا لا تلوماني كفى اللوم ما بيا ... فما لكما في اللوم نفعٌ ولا ليا

ومنها قوله :

اقول وقد شدُّوا لساني بنسعة ... امعشر تيم اطلقوا لي لسانيا
امعشر تيم قد ملكتم فاسجحوا ... فان اخاكم لم يكن من بوائيا
فان تقتلوني تقتلونيَ سيداً ... وان تطلقوني تحربوني بما ليا
احقا عباد الله ان لست سامعاً ... نشيد الرعاء المعزبين المتاليا
وقد كنت نحَّار الجزور ومعمل الـ ... ـمطيّ وامضي حيث لا حيَّ ماضيا
وانحر للشَّرْب الكرام مطيتي ... واصدع بين القينتين ردائيا
وعادية سوم الجراد وزعتها ... بكفي وقد انحوا اليَّ العواليا
كأني لم اركب جواداً ولم اقل ... لخيلي كرّي نفّسي عن رجاليا
ولم اسبأ الزقَّ الرَّويَّ ولم اقل ... لايسار صدق اعظموا ضوء ناريا

واخباره في الاغاني ٧٣ ج ١٥ وخزانة الادب ٣١٧ ج١ وفي شعراء النصرانية ٧٥ والكامل لابن الاثير ومعجم البلدان وغيرها

٤ — زُهَيْر بن جَنَاب

توفي سنة ٥٠٠ م

هو زهير جناب الكلبي من قضاعة وهو من مشاهير امراء العرب في الجاهلية ولد في آخر القرن الرابع للميلاد وعمر طويلاً ربما بلغ عمره ١٥٠ سنة وله حروب كثيرة مع قبائل العرب وتولى الامارة على بكر وتغلب لصاحب اليمن وما زال عليهم حتى حاولوا الاستقلال من اليمن كما تقدم

ولما كبر زهير وشاخ ثقلت همته وكف بصره وظل مع ذلك مقدماً عند ملوك اليمن والشام . وكان الغساسنة يستشيرونه حتى توفي نحو سنة ٥٠٠ وهو من اقدم الشعراء واجودهم ولم يصلنا من شعره الا القليل هذه امثلة منه في الحماسة :

ابى قومنا ان يقبلوا الحق فانتهوا اليه وانيابٌ من الحرب تحرقُ
فجاؤا الى رجراجة مستميرة يكادُ المرنيُّ نحوَها الطرْفَ يصعقُ
دروعٌ وارْماحٌ بأيدي أعزَّة ومَوضونةٌ مما افاد مخرّقُ
وخيلٌ جعلناها دخيلَ كرامةٍ عقاراً ليوم الحرْب تحفى وتغبقُ
فما برحوا حتى تركنا رئيسهم يعفّرُ فيه المضرحيُّ المذلّقُ

ويقال انه صاحب البيت المشهور

اذا قالت حزام فصدقوها فان القول ما قالت حزام

وجاءت اخباره في الاغاني ١٧ ج ٣ والشعر والشعراء ٢٢٣ وشعراء النصرانية ٢٠٥ وامثال الميداني وغيرها

٥ — عامر بن الطُفَيل العامري

توفي سنة ٦٣٣ م

هو ابن عم لبيد الشاعر وكان فارس قيس وسيدهم . وكان عقيماً لا يولد له ومن جيد شعره في الحماسة قوله :

وما الارضُ الا قيسُ عيلانَ اهلها لهم ساحتاها سهلها وحزُومها
وقد نال آفاقَ السموات مجدنا لنا الصحو من آفاقها وغيومها

ومن قوله في الفخر :

فاني وان كنت ابن فارس عامر وسيدها المشهور في كل موكبِ
فما سودتني عامر من وراثة ابى الله ان اسمو بام ولا ابِ
ولكنني احمي حماها واتقي اذاها وارمي من رماها بمنكب

ولعامر المذكور ديوان اخذت في نشره لجنة تذكار جيب الانكليزية مع ديوان عبيد بن الابرص بعناية المستشرق لايل Lyall • ولهُ اخبار في الشعر والشعراء ١٩١ والاغاني ٤٦ ج ١٠ وخزانة الادب ٤٩٢ ج ٣

٦ — ابو قيس بن الأَسلَت

هو عامر بن جشم من الاوس وهو سيدهم اسندوا اليه حربهم وجعلوه رئيساً عليهم في حرب يوم بعاث فقام بها خير قيام . ومن شعره قوله في امرأة خفرة :

ويكرمها جاراتها فيزرنها وتعتلُّ عن اتيانهنَّ فتعذر
وليس لها ان تستهين بجارة ولكنها منهن تحيا وتخفر

وهو من اصحاب المذهبات ومطلع مذهبته :

قالت ولم تقصد لقول الخنى مهلاً فقد ابلغت اسماعي

واخباره في الاغاني ١٦٠ ج ١٥ والجمهرة ١٢٦

٧ — الحُصَين بن الحُمام

توفي سنة ٦٢١ م

هو الحُصين بن الحُمام بن ربيعة سيد بني سهم بن مرة من قيس وكان يعرف بمانع الضيم . واحسن ما وصل الينا من اقواله قصيدة حماسية فخرية قالها على أثر نصر في موضع يقال لهُ دارة موضوع مطلعها :

جزى الله افناء العشيرة كلها بدارةِ موضوع عقوقاً ومأثما

وهي من جملة المفضليات التي اختارها المفضل الضبي . اخباره في الاغاني ١٢٣ ج ١٢ والشعر والشعراء ٤١٠ وشعراء النصرانية ٧٣٣ والسيرة النبوية لابن هشام والحماسة والعمدة

٨ — قَيس بن عاصِم

من تميم ويكنى ابا علي وهو شاعر فارس شجاع حكيم كثير الغارات مظفر في

غزواته ادرك الجاهلية والاسلام وساد فيهما . وهو احد من وأد بناته في الجاهلية وله حديث عن احدى بناته يؤثر في النفس [١] وكان مشهوراً بالكرم لا يستطيع الا كل وحده ومن نظمه في ذلك قوله وقد جاءته امرأته بالطعام :

ايا ابنة عبد الله وابنة مالك ويا ابنة ذي البردين والفرس والورد
اذا ما صنعت الزاد فالتمسي لهُ اكيلاً فاني لست آكلهُ وحدي
اخاً طارقاً او جار بيت فانني اخاف ملامات الاحاديث من بعدي
واني لعبد الضيف من غير ذلة وما بي الا تلك من شيم العبد

وعنه يروون وصية اوصى بها اولاده وضرب لهم مثل الاتحاد ان الاسهم اذا ضمت معاً يعسر كسرها واذا تفرقت كسرت

واخبارقيس في الاغاني ١٤٩ ج ١٢ وخزانة الادب ٤٢٨ ج ٣ والمستطرف ٩٧ ج ١ والعقد الفريد ١٦٤ ج ١

ومن الشعراء الامراء ايضاً :

٩ ورقاء بن زهير الغطفاني سيد بني عبس ترجمته في الاغاني ٨ ج ١٠
١٠ حُجر بن عمرو والد امرئ القيس « شعراء النصرانية ص ١
١١ امية بن الاسكر التيمي (مضر) « الاغاني ١٥٦ ج ١٨
١٢ منظور بن زبان سيد فزارة وقائدهم « الاغاني ٥٥ ج ١١
١٣ الاخنس بن شهاب من سادات تغلب « شعراء النصرانية ١٨٤
١٤ دُريد بن الصِّمَّة (توفي سنة ٦٣٠) من هوازن سيد جشم وهو من اصحاب المنتقيات . ترجمته في الاغاني ٢ ج ٩ والشعر والشعراء ٤٧٠ وشعراء النصرانية ٧٥٢ والجمهرة ١١٧

وقد ذكرنا بجانب كل واحد من هؤلاء المأخذ الذي يمكن الرجوع اليه في مطالعة خبره او امثلة من شعره ولهم اخبار وأشعار ايضاً في سائر كتب الادب . وخصوصاً الشعر والشعراء والحماسة

---

(١) اقرأه في الاغاني ١٥٠ ج ١٢

٢ ــ الشعراء الفرسان

هم اكثر شعراء الجاهلية لان الفروسية والحرب من طبائع اهل البادية وقلَّ من الشعراء من لم يركب او يغزو . ولكننا اختصصنا في هذا الفصل من غلبت عليهم الفروسية وفيهم الفرسان المشهورون وغير المشهورين وهم نحو ٤٠ فارساً لو اردنا ايراد تراجمهم لاستغرق ذلك مكاناً كبيراً مع قلة الحاجة الى التفصيل في هذا المقام فنكتفي بذكر الاشهر منهم او من كان له ديوان محفوظ يمكن الرجوع اليه . ونكتفي في من بقي منهم بذكر المآخذ التي يمكن الرجوع اليها في مطالعة اخبارهم وهاك تراجم الاشهر

١ ــ ابو مِحْجَن الثَّقَفي

توفي سنة ٦٥٠ م

هو فارس شجاع ينسب الى ثقيف وكان مولعاً بالشراب وقد أدرك الاسلام فهو مخضرم وحبسه سعد بن ابي وقاص لشرب الخمر . واتفق بعد قليل ان المسلمين اصابهم جهد في القادسية وكان عند ام ولد لسعد المذكور فهاجت حماسته ونظم هذه الابيات :

كفى حزناً ان تطعن الخيل بالقنا ... وأُترك مشدوداً عليَّ وثاقيا
اذا قمت عنَّاني الحديدُ وغُلِّقت ... مغاليق من دوني تُصمُّ المُناديا
وقد كنت ذا اهل كثير واخوة ... فقد تركوني واحداً لا اخا ليا
هلمَّ سلاحي لا ابا لكَ انني ... ارى الحرب لا تزداد الا تماديا

ثم احتالت ام ولد سعد المذكورة في اطلاق سراحه . ومن قوله في حب الخمر :

اذا متُّ فادفني الى جنب كرمةٍ ... تُروِّي عظامي بعد موتي عروقها
ولا تدفنَنِّي بالفلاة فانني ... اخاف اذا ما متُّ ان لا اذوقها

ولابي محجن ديوان شعر مطبوع في ليدن سنة ١٨٨٧ ومنه نسخة خطية في المكتبة الخديوية . واخباره متفرقة في الشعر والشعراء ٢٥١ وخزانة الادب ٥٥٣ ج ٣ وفي الاغاني وغيره

٢ - الأَغْلَبُ العِجْلِيُّ

توفي سنة ٦٤٣ م

هو الاغلب بن عمرو من جشم من بني عِجل من ربيعة . وهو احد المعمرين في الجاهلية وادرك الاسلام واسلم . وكان في جملة من توجه الى الكوفة مع سعد بن ابي وقاص ومات في واقعة نهاوند سنة ٢١ هـ وهو اول من رجز الاراجيز الطوال فقد كان العرب ينشدون الرجز في الحرب والحداء والمفاخرة فتأتي منه بابيات يسيرة فالاغلب اول من قصد الرجز واطاله ثم سلك الناس طريقته والاسلام لم يمنعه من النظم كما منع لبيداً وقد تقدم خبر ذلك في ترجمة لبيد . ولم تقف له على شعر او خبر غير ما في الاغاني ١٦٤ ج ١٨ والشعر والشعراء ٣٨٩ وخزانة الادب ٣٣٣ ج ١

٣ — حَاتِمُ الطَّائِيُّ

توفي سنة ٦٠٥

هو حاتم بن عبد الله من قبيلة طي ويكنى ابا سفَّانة . وهو من اجواد العرب وله اخبار في السخاء مشهورة حتى جرى ذكره مجرى الامثال فيقال « اجود من حاتم طي » وكانت والدته من اسخى الناس حتى اضطر اخوتها ان يحجروا على اموالها خوفاً من تبذيرها . وكانت ابنته سُفَّانة سخية ايضاً فكان ابوها يعطيها القطعة بعد القطعة من ابله فتهبها للناس. وكان حاتم مع ذلك شاعراً وشجاعاً ويشبه جوده شعره . واذا قاتل غلب واذا غنم انهب واذا سابق سبق . وكان اذا هلَّ الشهر الاصم الذي كانت مضر تعظمه بالجاهلية وتنحر له ينحر في كل يوم عشرة من الابل فيطعم الناس . وكانت الشعراء تفد عليه كالحُطيئة و بشر بن ابي خازم . ويروون عن سخاء حاتم وقائع اشبه ان تكون موضوعة او مبالغاً فيها لتمثيل فضيلة السخاء وتحبيبها الى الناس من قبيل الشعر التمثيلي وقد اشرنا الى ذلك في كلامنا عن اقسام الشعر عند اليونان — ومن اقواله في السخاء :

اماوي قد طال التجنبُ والهجرُ	وقد عذرتني في طلابكم العذر
اماوي ان المال غادٍ ورائحٌ	ويبقى من المال الاحاديث والذكر
اماوي اني لا اقولُ لسائل	اذا جاء يوماً حلَّ في مالنا النذر
اماوي اما مانعٌ فبينٌ	واما عطاءٌ لا ينهنهُ الزجرُ

اماوي ما يغني الثراء عن الفتى   اذا حشرجت يوماً وضاق بها الصدر

وقوله :

اذا كان بعض المال ربا لاهله   فاني بحمد الله مالي معبَّدُ

اخذه حطائط بن يعفر فقال:

ذريني اكن المال رباً ولا يكن   ليَ المال رباً تحمدي غبَّه غدا

اريني جواداً مات هزلاً لعلني   ارى ما ترين او بخيلاً مخلدا

ويستحسن له قوله :

الا ابلغا وهمَ بن عمرو رسالة   فانك انت المرء بالخير اجدرُ

رايتك ادنى من اناس قرابة   وغيرك منهم كنت احبو وانصر

اذا ما اتى يوم يفرق بيننا   بموت فكن انت الذي يتأخر

ولحاتم ديوان مطبوع في لندن سنة ١٨٧٢ بعناية المرحوم رزق الله حسون وطبع ايضاً في بيروت . واخباره منشورة في الاغاني ٩٦ج ١٦ والشعر والشعراء ١٢٣ وخزانة الادب ٤٩٤ج ١ والمستطرف ١٣٧ ج ١ والعقد الفريد ٨١ ج ١ وشعراء النصرانية ٩٨

٤ — زَيْدُ الخَيْل

هو زيد بن مهلهل من طي وكان رجلاً جسيماً طويلاً جميلاً فارساً مغواراً مظفراً شجاعاً بعيد الصوت في الجاهلية وادرك الاسلام ووفد على النبي فسرَّ به ولقبه وقرظه وسماه زيد الخير . وهو شاعر مقلٌّ لانه انما كان يقول الشعر في مفاخراته ومغازيه واياديه عند من مرَّ عليه واحسن في قراه اليه . وقد سمي زيد الخيل لكثرة خيله يوم لم يكن لسواه من العرب الا الفرس والفرسان فكانت له خيل كثيرة . منها المسماة المعروفة التي ذكرها في شعره وهي ستة الهطال والكميت والورد وكامل ودوول ولاحق . وله في كل منها شعر . وكان له ثلاثة بنين كلهم شاعر واكثر اشعاره في الحماسة والفخر وذكر المواقع والطعن والضرب كقوله :

انا لنكثر في قيس وقائعنا   وفي تميم وهذا الحي من اسدِ

وعامر بن طفيل قد نحوت له   صدر القناة بماضي الحد مطردِ

لما احس بان الورد مدركه   وصارماً وربيط الجأس ذا لبدِ

نادي الحيَّ يسلم بعد ما اخذت منهُ المنية بالحيزوم واللغد
ولو تصبر لي حتى اخالطهُ اسعرتهُ طعنة كالنار بالزند

وجرت بينه و بين بعض القبائل معركة أسر فيها الحطيئة الشاعر فحبسه وضيق عليه وقال في ذلك :

اقول لعبدي جرول اذ اسرته أثبني ولا يغررك انك شاعرُ
انا الفارس الحامي الحقيقة والذي له المكرمات واللهى والمآثرُ
وقومي رؤوس الناس والراس قائد اذا الحرب شبتها الاكف المساعر
فلست اذا ما الموت حوذر ورده واترع حوضاه وحمّج ناظر
بوقافة يخشى الحتوف تهيباً يباعدني عنها من القبّ ضامرُ
ولكنني اغشى الحتوف بصعدتي مجاهرةً ان الكريم يجاهر
واروي سناني من دماء عزيزة على اهلها اذ لا ترجّى الاياصر

ولا نعرف لزيد الخيل ديواناً مجموعاً ولكن اخباره منشورة في الاغاني ٤٧ ج ١٦ والشعر والشعراء ١٥٦ والدميري ٢٠١ ج ١ وخزانة الادب ٤٤٨ ج ٢

٥ — سَلَامَةُ بْنُ جَنْدَلٍ التميمي

توفي سنة ٦٠٨ م

هو شاعر جليل من قدماء الشعراء وكان من فرسان تميم المعدودين واخوه احمر مثله . شعره سلس يستشهد به اهل اللغة لمتانته وكان معاصراً لعمرو بن هند صاحب الحيرة والنعمان ابي قابوس وله فيهما اشعار ومن احسن شعره قصيدته التي مطلعها :

يا دار اسماء بالعلياء من إضم بين الدكادك من قوّ فمعصوب
كانت لنا مرّة داراً فغيرها مرّ الرياح بسافي الترب مجلوب

وترى امثلة من شعره في كتاب الشعر والشعراء ١٤٧ وشعراء النصرانية ٤٨٦ وخزانة الادب ٨٦ ج ٢ ومعجم البلدان

٦ — عَلْقَمَةُ الفَحْل

توفي سنة ٥٦١ م

هو علقمة بن عَبَدة من تميم وكان معاصراً لامرىء القيس وينازعه الشعر وتحاكما الى ام جندب زوجة امرىء القيس فقالت لهما انظما قصيدتين من وزن واحد وقافية

واحدة تصفان بها الخيل . فنظم امرىء القيس قصيدته التي مطلعها :

خليليَّ مرَّا بي على ام جندب لنقضي لبانات الفؤاد المعذبِ

ونظم علقمة قصيدة مطلعها :

ذهبت من الهجران في كل مذهب ولم يك حقاً كل هذا التجنب

وانشداها القصيدتين فحكمت لعلقمة لان امرأ القيس قال في وصف سرعة الفرس :

فللسوط الهوب وللساق درَّة وللزجر منهُ وقع اهوج منعب

وقال علقمة :

فادركهنَّ ثانياً من عنانه يمرُّ كمرّ الرائح المتحلّبِ

وحكمها ان امرأ القيس اجهد فرسه بسوطه وساقه اما علقمة فان فرسه ادرك طريدته وهو ثانٍ عنانه . فغضب امرؤُ القيس وطلق امرأته فتزوجها علقمة

ومن جيد شعره قوله :

فان تسألوني بالنساء فانني بصيرٌ بادواء النساء طبيبُ

اذا شاب راس المرء اوقل ماله فليس له في ودّهن نصيبُ

يردن ثراء المال حيث علمنه وشرخ الشباب عندهن عجيبُ

ولعلقمة ديوان مطبوع في ليبسك سنة ١٨٦٧ مع تعاليق بعناية البرت سوسين Socin وطبع في بيروت في بضع عشرة صفحة . وله اخبار متفرقة في خزانة الادب ٥٦٥ ج ١ والاغاني ١٢٨ ج ٧ وشعراء النصرانية ٤٩٨ والشعر والشعراء ١٠٧ والعمدة وسائر كتب الادب

٧ — عَمرو بن مَعْدي كَرِب

توفي سنة ٦٤٣ م

هو من زبيد من مذحج (كهلان) فارس من فرسان اليمن او هو فارس اليمن ويقدمونه على زيد الخيل في البأس وقد أدرك الاسلام وأسلم وجاهد حتى مات في آخر خلافة عمر بن الخطاب وهو ممن يصدق عن نفسه في شعره فلا يفاخر بالمحال ومن ذلك قوله :

ولقد اجمع رجليَّ بهـا حذر الموت واني لفرورُ
ولقـد اعطفها كارهة حين للنفس من الموت هرير
كل ما ذلك مني خلق وبكل انا في الروع جدير

ومن أشعاره الذاهبة مذهب الامثال قوله :

اذا لم تستطع شيئاً فدعهُ وجاوزه الى ما تستطيعُ
وصله بالزماع فكل امر سما لك اوسموت له ولوعُ

واخباره في الاغاني ٢٥ ج ١٤ والشعر والشعراء ٢١٩ وخزانة الادب ٤٢٥ ج ١ والمستطرف ١٧٩ ج ١

٨ — قَيْس بن الخَطِيم

توفي سنة ٦١٢ م

هو شاعر فارس من الأوس اعتدى رجل من الخزرج على ابيه وهو غلام فقتله وعلم ان جده قتله رجل من عبد القيس فلما عرف موضع ثأره لم يزل يلتمس غرة من قاتل ابيه وجده في المواسم فظفر بقاتل ابيه في يثرب فقتله وظفر بقاتل جده في ذي المجاز ولكنه رآه في ركب عظيم فاستنجد خراش بن زهير فنهض معه ببني عامر حتى اتوا القاتل فطعنه قيس بحربة قتلته وفرَّ فاراد رهط الرجل ان يتبعوه فمنعهم بنو عامر وبذلك يقول قيس :

ثأرت عدياً والخطيم فلم اضع ولاية اشياخ جعلت ازاءها
ضربت بذي الزجين ربقة مالك فأبتُ بنفس قد اصبت شفاءها
وساعني فيها ابن عمرو بن عامر خراش فأدى نعمة وافادها
طعنت ابن عبد القيس طعنة ثائر لها نفذٌ لولا الشعاع اضاءها
ملكت بها كفي فانهرت فتقها يرى قائم من دونها ما وراءها

وهو معدود من اصحاب المذهبات ومطلع مذهبته :

اتعرف رسماً كالطراز المذهب لعمرة وحشاً غير موقف راكب
تبدت لنا كالشمس تحت غمامةٍ بدا حاجب منها وضنت بحاجب

ومن اقواله في الفخر :

ونحن الفوارس يوم الربيـ ـع قد علموا كيف فرسانها
حسان الوجوه حداد السيو ف يبتدر المجد شبانها

ولقيس بن الخطيم ديوان منهُ نسخة خطية في المكتبة الخديوية . ولهُ اخبار متفرقة في كتب الادب وخصوصاً الاغاني ١٥٩ ج٢ والجمهرة ١٢٣

سائر الشعراء الفرسان

ومن الشعراء الفرسان ايضاً طائفة اخبارهم قليلة او ليس لهم دواوين محفوظة فنكتفي بذكر المآخذ التي يمكن الرجوع اليها في تراجمهم واخبارهم :

اسم الشاعر	اسماء المآخذ
٩ احيحة بن الجلاح (توفي سنة ٥٦١م) من الاوس ومن اصحاب المذهبات	الاغاني ١١٩ ج ١٣
١٠ جحدر بن ضبيعة من بكر وائل (٥٣٠)	شعراء النصرانية ٢٦٨
١١ افنون هو صريم بن معشر من تغلب	« « ١٩٢ والشعر والشعراء ٢٤٨
١٢ بسطام بن قيس الشيباني من بكر	« « ٢٥٦
١٣ جابر بن حُنَيّ التغلبي (٥٦٤)	« « ١٨٨
١٤ الحارث بن الطفيل وفد على كسرى	الاغاني ٥٣ ج ١٢
١٥ خُفاف بن نَدْبَة السُلَمي من قيس	الاغاني ١٣٩ ج ١٦ وخزانة الادب ٨١ ج٢
١٦ ذو الإصبع العدواني (٦٠٢)	الاغاني ٢ ج ٣ وخزانة الادب ٤٠٨ ج ٢ وشعراء النصرانية ٦٢٥
١٧ الربيع بن زياد العبسي (٥٩٠)	الاغاني ٢٠ ج ١٦ وشعراء النصرانية ٧٨٧
١٨ زهير التميمي من اشراف مازن	الاغاني ١٥٦ ج ١٩
١٩ الحارث بن عباد من بكر بن وائل	شعراء النصرانية ٢٧٠
٢٠ صخر بن عبد الله من هذيل	الاغاني ٢٠ ج ٢٠
٢١ العباس بن مرداس واخوه سراقة	الشعر والشعراء ١٦٦ و٤٦٧ والاغاني ٦٤ ج ١٣ وخزانة الادب ٧٣ ج ١
٢٢ عَبْدَة بن الطبيب تميم	الاغاني ١٦٣ ج ١٨ والشعر والشعراء ٤٥٦
٢٣ سُوَيْد بن ابي كاهل يشكر	الاغاني ١٧١ ج ١١ وشعراء النصرانية ٤٢٥ والشعر والشعراء ٢٥٠

٢٤ عمرو بن العجلان	هذيل	الاغاني ٢٢ ج ٢٠
٢٥ الفند الزِّماني (٥٣٠)	بكر	الاغاني و١٤٣ ج ٢٠ وخزانة الادب ٥٨ ج ٢ وشعراء النصرانية ٢٤١
٢٦ مُتمّم بن نُوَيرَة	من اصحاب المراثي	الاغاني ٦٦ج١٤وابن خلكان ١٧٢ ج ٢ والشعر والشعراء ١٩٢ وخزانة الادب ٢٣٦ ج ١ والجمهرة ١٤١
٢٧ نبيه بن الحجاج	قريش	خزانة الادب ١٠١ج ٣
٢٨ كعب بن سعد الغنوي	قيس	الخزانة ٦٢١ج٣ وشعراء النصرانية ٧٤٦

٣ ـ الشعراء الحكماء

نريد بالحكماء من الشعراء الذين كان لهم علم غير الشعر وكانت لهم حكمة وقد دخل بعضهم في طبقة الشعراء الامراء وفي اصحاب المعلقات كالافوه الاودي وزهير بن ابي سلمى ونحن ذاكرون في ما يلي من غلبت فيه الحكمة على سواها مع الشاعرية :

١ ـ أُمَيَّة بن ابي الصَّلْت

توفي سنة ٦٢٤م

يتصل نسبه بثقيف وكان عالماً بغير العربية على ما يظهر فاطلع على كتب القدماء وخصوصاً التوراة وقد اورد في شعره الفاظاً غريبة لم تكن العرب تعرفها . وكان يسمي الله في بعض اشعاره « السلطيط » وفي بعضها « التغرور » فربما اقتبسهما من الحبشية أو صاغهما على صيغ تلك اللغة . فالاحباش يسمون الله في اللغة الاعجمية « اغزابهر » فلعلها كانت قبلاً اقرب الى لفظ التغرور . والسلطيط نظنها صيغة من تلك اللغة صاغ عليها اسماً من السلطة (١)

وكان امية مفطوراً على التدين فلقي في تجارته الى الشام بعض اهل الدين فزهد

---

(١) راجع ترجمة اميه بن ابي الصلت مطولة في الهلال السنة التاسعة

في الدنيا ولبس المسوح وتعبد . وقد ذكر ابراهيم واسماعيل والحنيفية ووصف الجنة والنار في شعره وحرَّم الخمر وشك في الاوثان وطمع في النبوة . وكان العرب ينتظرون نبياً يهديهم فكان يرجو ان يكون هو . فلما ظهر النبي اسقط في يده وقال « انا كنت ارجو ان اكونه » ولكنه ما انفك يختلف الى الديور والكنائس يجالس الرهبان والقسوس حتى غلب على ظن البعض انه مسيحي ومن قوله وفيه فلسفة :

الحمد لله ممسانا ومصبحنا ... بالخير صبحنا ربي ومسانا
رب الحنيفة لم تنفد خزائنها ... مملوءة طبَّق الآفاق سلطانا
ألا نبيٌّ لنا منا فيخبرنا ... ما بعد غايتنا من رأس محيانا
بينا يربّينا آباؤنا هلكوا ... وبينما نقتني الاولاد افنانا
وقد علمنا لو ان العلم ينفعنا ... ان سوف يلحق اخرانا باولانا

وله قصيدة يصف بها الله وملائكته مطلعها :

لك الحمد والنعماء والملك ربنا ... فلا شيءٌ اعلى منك مجداً وامجدُ

و بعد ان يصف العزة الالهية ومجلسها يصف الملائكة بقوله :

ملائكة اقدامهم تحت عرشهِ ... بكفيه لولا الله كلُّوا وابلدوا
قيامٌ على الاقدام عانين تحتهُ ... فرائصهم من شدة الخوف ترعد
وسبط صفوفٌ ينظرون قضاءه ... يصيخون بالاسماع للوحي رُكَّد
امين لوحي القدس جبريل فيهم ... وميكال ذو الروح القوي المسدد
وحراس ابواب السماوات دونهم ... قيامٌ عليها بالمقاليد رصَّدُ

وله عدة قصائد في حوادث التوراة كخراب سدوم وقصة اسحق وابراهيم . وله قصيدة معدودة من المجمهرات مطلعها :

عرفت الدار قد أقوت سنينا ... لزينب اذ تحلُّ بها قطينا

وفي اشعاره معان واساليب لم تكن العرب تعرفها اخذها من كتب غيره وادخلها في شعره [1]

واخباره في الاغاني ١٨٦ ج ٣ و٣ ج ٨ و ٧١ ج ١٦ والدميري ١٥٤ ج ٢ وخزانة الادب ١١٩ ج ١ وشعراء النصرانية ٢١٩ والعمدة وغيرها

(١) الاغاني ١٨٧ ج ٣

٢ — وَرَقَةُ بن نَوْفل

توفي سنة ٥٩٢ م

هو ورقة بن نوفل بن اسد بن عبد العزى من قريش . وهو احد من اعتزل الاوثان في الجاهلية وقرا الكتب وامتنع عن اكل ذبائح الاوثان . وكان يكتب اللغة العربية بالحرف العبراني وقد شاخ وكف بصره . وله ذكر في السيرة النبوية عند ما سمع النبي جبريل يكلمهُ وجاء خديجة امرأته خائفاً فسألت ورقة وهو ابن عمها[1] عما رآه النبي فقال « انه الناموس الاكبر الذي كان يأتي موسى وانهُ لنبي هذه الامة » وله اشعار كان يغني بها المغنون في صدر الاسلام منها قوله :

ولقد غزوت الحي يخشى اهلهُ بعد الهدوّ وبعدما سقط الندى

فلتلك لذّات الشباب قضيتها عني فسائل بعضهم ما قد قضى

ومن شعره في التوحيد والدين قصيدة مطلعها :

لقد نصحت لاقوام وقلت لهم انا النـذير فلا يغرركم احد

وقصيدة أخرى مطلعها :

رشدتَ وانعمتَ ابن عمرو وانما تجنَّبتَ تنوراً من الله حاميا

وتجد شيئاً من اخباره في السيرة النبوية لابن هشام ٧٦و٨٠ ج ١ والاغاني ١٣ج ٣ وشعراء النصرانية ٦١٦ والسيرة الحلبية ٢٥٦ ج ١ ومعجم البلدان

٣ — زَيْدُ بن عمْرو

توفي سنة ٦٢٠ م

هو أيضاً من عبد العزى من قريش وقد اعتزل الاوثان مثل ورقة وكان يقول « يا معشر قريش ايرسل الله قطر السماء وينبت بقل الارض ويخلق السائمة فترعى فيه وتذبحونها لغير الله ؟ » فاخرجه القرشيون من مكة ومنعوه ان يدخلها . وكان اشدهم عليه الخطاب بن نفيل والد عمر . وكان قد تخلف عن عبادة الاوثان اربعة من قريش هم ورقة وزيد المذكوران وعبيد الله بن جحش وعثمان بن الحويرث فاجتمع هؤلاء وتواطأوا على رفض الوثنية وعلى ان يضربوا في البلدان يلتمسون الحنيفية دين ابراهيم فلما اجمع زيد على الخروج منعه الخطاب عمه وعاتبه على فراق دين آبائه . وكان قد

---

(١) ابن هشام ٨١ ج ١

وكل صفية به فقال زيد عند ذلك قصيدة مطلعها :

لا تحسبيني في الهوا ن صفي مادأبي ودأبه

ثم خرج سائحاً ويقال انه قتل في الشام وله اشعار في التدين منها :

واسلمتُ وجهي لمن اسلمتْ له الارض تحمل صخراً ثقالا
دحاها فلما رآها استوت على الماء ارسى عليها الجبالا
واسلمت وجهي لمن اسلمت لهُ المزن تحمل عذباً زلالا
اذا هي سيقت الى بلدة اطاعت فصبَّت عليها سجالا

وتجد اخباره في الاغاني ١٥ ج ٣ والسيرة النبوية لابن هشام ٧٦ ج ١ وشعراء النصرانية ٦١٩ وخزانة الادب ٩٩ ج ٣

٤ — قسّ بن ساعدة

توفي سنة ٦٠٠ م

هو من اياد يعدونهُ من الخطباء ولكنه كان خطيب العرب وشاعرها وحكمها في عصره . وهو اسقف من نجران والمشهور انه اول من علا على شرف وخطب عليه واول من قال « اما بعد » وينسبون اليه قوله « البينة على المدعي واليمين على من انكر » وقد ادركه الرسول ورآه في عكاظ فكان يأثر عنه كلاماً سمعهُ . وكان فصيحاً يضرب المثل بفصاحته . وكان يفد على قيصر زائراً فيكرمهُ ويعظمه ولكنه كان زاهداً في الدنيا ينظر اليها نظر الفلاسفة فلا يرغب في البقاء فيها كما يؤخذ من خطبته التي قالها في عكاظ ورواها ابو بكر الصديق وهي مشهورة ثم ختمها بقوله :

في الذاهبينَ الاول ين من القرون لنا بصائر
لما رأيت موارداً للموت ليس لها مصادر
ورأيت قومي نحوها تمضي الاصاغر والاكابر
لا يرجع الماضي ولا يبقى من الباقين غابر
ايقنت اني لا محا لة حيث صار القوم صائر

ولعلَّ الذي زهدهُ في الدنيا وكرَّهها اليهِ المصيبة التي انتابتــه بفقد اخوين كانا يعبدان الله معهُ فماتا ودفنهما معاً وشقَّ عليه مصابه بهما فكان يتردد الى قبريهما ويندبهما . ومن قوله في قصيدة :

خليليَّ هبَّا طالما قد رقدتما اجدَّكما لا تقضيان كَرَاكما

ألم تعلما أني بسمعانَ مفردٌ وما ليَ فيها من خليل سواكما
أقيم على قبريكما لست بارحاً طوال الليالي أو يجيب صداكما
جرى الموت مجرى اللحم والعظم منكما كأن الذي يسقي العقار سقاكما

وله اشعار كثيرة ضاع معظمها وله اقوال جرت مجرى الامثال وجمعت في كتاب شعراء النصرانية ٢١١ وفي الاغاني ٤١ ج ١٤ وخزانة الادب ٢٦٧ ج ١ وغيرها من كتب الادب والتاريخ والبيان

٤ — الشعراء العشاق

قلَّ من الشعراء من لم يحرك قلبه الحب واذا لم يحركه كان شعره قاسياً جافياً ولذلك فالعشاق من الشعراء كثيرون ومنهم في الجاهلية طائفة كبيرة فعنترة عشق عبلة والمخبل السعدي عشق الميلاء وحاتم الطائي عشق ماوية والمرقّش الاكبر عشق اسماء والنمر بن تولب عشق ممزة وسحيم عبد بني الحسحاس عشق عميرة (١) غير الذين اشتهروا في صدر الاسلام من آل عذرة وغيرهم وسيأتي ذكرهم عند كلامنا عن الشعر والشعراء في ايام الامويين

والحب يحرك الشاعرية ويشحذ القريحة وخصوصاً مع الغيرة ليس للشعر فقط بل في كل ما يفتقر الى خيال او شعر . فبين الشعراء الفرسان الذين ترجمناهم غير واحد من المحبين وكذلك في سائر الطبقات . لكننا خصصنا هذا الباب في من لم يكن له باعث على النظم غير العشق وكان اكثر شعره او كله في معشوقه . وهذه الطبقة كانت قليلة قبل الاسلام لاشتغال القوم بالحرب عن سواها . ولان بعض القبائل كانت تحرم الغزل على الاطلاق

ثم تكاثر الشعراء العشاق بعد الاسلام لانتشار التسري واركان القوم الى الرخاء حتى اذا نضج التمدن الاسلامي تحول ذلك الى التهتك والتخنث كما سيجي . اما في الجاهلية فالشعراء المتيمون يعدون على الاصابع اشهرهم :

---

(١) الموشى ٤٣

١ — المُرقِّشُ الأكبر

توفي سنة ٥٥٢ م

اسمه عوف بن سعد بن مالك من بكر وائل وهو من الشعراء المقدمين ويمتاز عن اكثر شعراء الجاهلية انه كان يعرف الكتابة لان اباه دفعه واخاه حرملة الى نصراني من اهل الحيرة علمها الخط ويندر في اهل الجاهلية من فعل ذلك وخصوصاً الشعراء فان معولهم في حفظ اشعارهم على الرواة . ويختلف عن اكثر شعراء الجاهلية انه مات متيماً . وسبب موته انه كان يهوى ابنة عم له اسمها اسماء عشقها وهو غلام فقال له عمه « لا ازوجك حتى تعرف بالبأس » فسافر المرقش في طلب العلى واصيب عمه في اثناء غيابه بضيق فاتاه رجل من بني مراد اطمعه بالمال فزوجه اسماء على مائة من الابل . فلما عاد المرقش اخفوا خبر الزواج عنه . ثم اكتشف خبره فركب في طلب ذلك المرادي مع صديق له من عقيلة فمرض في الطريق فنزلا كهفاً في اسفل نجران وهي ارض مراد ومعه صديقه العقيلي وامرأته . وسمعها يتآمران على تركه يأساً من شفائه فاختلس فرصة كتب فيها على مؤخر الرحل هذه الابيات :

يا صاحبيَّ تلبَّثا لا تعجلا ... ان الرَّواح رهين ان لا تفعلا
يا راكباً اما عرضت فبلغنْ ... انَسَ بن سعد ان لقيت وحرملا
لله دركما ودرُّ ابيكما ... ان افلت العبدان حتى يقتلا
من مبلغ الاقوام ان مرقِّشاً ... اضحى على الاصحاب عبأً مثقلا
وكانما تردُ السباعُ بشلوهِ ... اذ غاب جمع بني ضُبيعة منهلا

ورأينا بعض هذه الابيات ينسب الى المهلهل ايضاً . وانطلق العقيلي حتى اتى اهله واخبرهم ان المرقش مات ولكن اخاه حرملة قرا ما على الرحل فشك في صدق الرجل واستنطقه فاعترف له بالحقيقة فركب في طلبه فلما بلغ الكهف اخبر ان المرقش علم وهو هناك بوجود اسماء وزوجها فاحتال حتى حمل اليهما في حديث طويل ولم يطل مكثه فمات عندهما . وقال في موته شعراً مطلعهُ :

سرى ليلاً خيالٌ من سليمى ... فارقني واصحابي هجود

وهو من اصحاب المنتقيات . وله اقوال في الحماسة يصف بها بعض المعارك وأخرى في الفخر ومن احسن شعره في الحماسة قصيدته التي استهلها بذكر حبيبته :

امن آل اسماء الطلول الدوارس ... تخطط فيها الطير قفر بسابس

ثم تخلص الى وصف خروجه وسفره . وقصيدة أخرى في وصف الطلول ونجائب الابل وغيرها . واتصل المرقش الاكبر بالحارث ابي شمر الغساني ونادمه سنة ٥٢٤ ومدحه

وترى اشعاره واخباره في الاغاني ١٨٩ ج ٥ والشعر والشعراء ١٠٢ وشعراء النصرانية ٢٨٢ وخزانة الادب ٥١٤ ج٣ والجمهرة ١١٢ وغيرها من كتب الادب

٢ — عبد الله بن العَجْلان

توفي سنة ٥٦٦ م

هو من نهد من قضاعة شاعر متيم قتله الحب وكان له زوجة يقال لها هند طلقها لانها لم تلد له فتزوجها غيره ثم ندم عَلَى ذلك ومات أسفاً عليها وكان سيداً في قومه وابن سيد من ساداتهم وكان ابوه اكثر بني نهد مالاً وكان يجدر بنا ادخاله في جملة الشعراء الامراء لولا تغلب العشق عليه . ومن اقواله فيها :

فارقت هنداً طائعاً ... فندمت عند فراقها
بالعين تذري دمعة ... كالدر من آماقها
متحلياً فوق الردا ... ء يجول من رقراقها
خود رداح طفلة ... ما الفحش من اخلاقها
ولقد ألذ حديثها ... وأمر عند عناقها

وله اخبار واشعار جمعت في الاغاني ١٠٢ ج ١٩ والشعر والشعراء ٤٤٩

٣ — عُرْوَة بن حِزَام العُذْري

توفي سنة ٣٠ هـ (١)

هو من الشعراء المتيمين الذين ادركوا الاسلام وقد قتلهم الهوى لا يعرف له شعر الاّ في عفراء بنت عمه وتشبيبه بها وكان قد خطبها من ابيها فوعده ثم زوجها لغيره فأثر ذلك في مزاجه فضعف واضطرب حتى ظنوا فيه الخبل واصابه هزال فرآه ابن مكحول عراف اليمامة فجالسه وسأله عما به وهل هو خبل او جنون فقال له عروة « هل لك علم بالاوجاع » قال « نعم » فانشأ يقول :

ما بي من خبل ولا بي جنة ... ولكن عمي يا اخيّ كذوب

(١) فوات الوفيات ٣٣ ج ١

اقول لعراف اليمامة داوني ... فانك ان داويتني لطبيب
فوا كبدا امست رفاتاً كانما ... يلذعها بالموقدات طبيب
عشية لاعفراء منك بعيدة ... فتسلو ولا عفراء منك قريب
فوالله لا أنساكِ ماهبت الصبا ... وما عقبتها في الرياح جنوب
واني لتغشاني لذكراك هزة ... لها بين جلدي والعظام دبيب

وقال يخاطب صديقين له رافقاه :

متى تكشفا عني القميص تبينا ... بي الضر من عفراء يافتيان
اذاً تريا لحماً قليلاً وأعظماً ... بلين وقلباً دائم الخفقان
جعلت لعراف اليمامة حكمهُ ... وعراف حجر ان هما شفياني
فما تركا من حيلة يعرفانها ... ولا شربة الا وقد سقياني
ورشّا عليّ وجهي من الماء ساعة ... وقاما مع العوّاد يبتدراني
وقالا شفاك الله والله ما لنا ... بما ضمنت منك الضلوع يدان

وتجد اخباره في الاغاني ١٥٢ ج ٢٠ وفوات الوفيات ٣٣ ج ٢ والشعر والشعراء ٣٩٤ وخزانة الادب ٥٣٤ ج ١

٤ — مالك بن الصمصامة

هو من جعدة كان يهوى جنوب بنت محصن الجعدي فمنعه اخوها منها وكان مالك شاعراً فارساً شجاعاً جميلاً فبلغه ان اخاها اقسم اذا تعرض مالك لاخته جزّ ناصيته فقال :

اذا شئت فاقرني الى جنب عيهب ... أجب ونضوي للقلوص نجيب
فما الحلق بعد الامر شرّ بقية ... من الصد والهجران وهي قريب
ألا أيها الساقي الذي بلّ دلوه ... بقريان يسقي هل عليك رقيب
اذا أنت لم تشرب بقريان شربة ... وجانبة الجدران ظلت تلوب

وله اشعار أُخرى في الاغاني ٨٣ ج ١٩

٥ — مسافر بن ابي عمرو

هو من قريش كان سيداً جواداً احب هند بنت عتبة التي تزوجها ابو سفيان بعد ذلك وهي ام معاوية واخوته فخطبها مسافر وهو ذو ثروة فلم تقبله فلما بلغه تزوجها بابي سفيان اعتل ومات وله فيها اشعار . واخباره في الاغاني ٤٨ ج ٨

ومن الشعراء الجاهليين المتيمين :
منظور بن زبان من فزارة كان عاشقاً وهو من الامراء ايضاً تقدم ذكره
ومسعود بن خراشة من تميم وهو من المخضرمين
وعنترة العبسي وقد تقدمت ترجمته

٥ — الشعراء الصعاليك

هم طائفة من الشعراء اشتهروا بالعدو والغارة على القبائل للنهب اشهرهم :

١ — الشَّنْفَرَى

توفي سنة ٥١٠ م

هو من الاواس بن الحجر من الازد شاعر من اهل اليمن معدود في المدائين الذين لا تلحقهم الخيل منهم هذا وسليك بن السلكة وعمرو بن براق واسيد بن جابر وتأبط شراً. ويقال ان الشنفرى حلف ليقتلن مئة رجل من بني سلامان فقتل ٩٩ فاحتالوا عليه فامسكه رجل منهم عداء هو اسيد بن جابر ثم قتلوه فمر به رجل منهم فرفس جمجمته فدخلت شظية منها برجله فمات فتمت القتلى مئة . وللشنفرى اشعار في الفخر والحماسة اشهرها لاميته المعروفة بلامية العرب ومطلعها :

اقيموا بني أُمي صدور مطيكم فاني الى قوم سواكم لأَميلُ

وقصيدة اختارها صاحب المفضليات مطلعها :

الا ام عمرو اجمعت واستقلت وما ودعت جيرانها اذ تولت

وقد عني الاستاذ المستشرق ردهوس Redhouse في ترتيب لامية العرب وترجمتها الى الانكليزية وقد طبعت في المجلة الاسيوية الانكليزية سنة ١٨٨١ وترجمها الى الالمانية ريس Reuss في المجلة الالمانية الشرقية سنة ١٨٥٣

واخبار الشنفرى مفرقة في الاغاني ٨٧ ج ٢١ والشعر والشعراء ١٨ وخزانة الادب ١٦ ج ٢ والمفضليات وغيرها

٢ — تأبَّطَ شرًّا

توفي سنة ٥٣٠ م

هو ثابت بن جابر من فهم من قيس كان اسمع العرب وابصرهم واكيدهم وكان اعدى رجل ينظر الى الظباء فينتقي على نظره اسمنها ثم يعدو خلفه فلا يفوته . وله اخبار كثيرة يضيق عنها هذا المكان ومن شعره في وصف الغول :

الا من مبلغ فتيان فهم ... بما لاقيت عند رحى بطان
باني قد لقيت الغول تهوي ... بسهب كالصحيفة صحصحان
فقلت لها كلانا نضو أين ... اخو سفر فخلي لي مكاني
فشدت شدّة نحوي فاهوى ... لها كفي بمصقول يماني
فاضربها بلا دهش فخرّت ... صريعاً لليدين وللجران
فقالت عُد فقلت لها رويداً ... مكانك انني ثبت الجنان
فلم انفك متكئاً عليها ... لانظر مصبحاً ماذا اتاني
اذا عينان في رأس قبيح ... كرأس الهرّ مشقوق اللسان
وساقا مخدج وشواة كلب ... وثوب من عباء او شنان

واخباره في الاغاني ٢٠٩ ج ١٨ والشعر والشعراء ١٧٤ وخزانة الادب ٦٦ ج ١ وكتب عنه بور Baur بالالمانية مقالة في سيرة حياته وشعره في المجلة الشرقية الالمانية سنة ١٨٥٦

٣ — السُلَيك بن السُلَكة

توفي سنة ٦٥٠ م

هو من تميم امه امة سوداء وكان من عاداته اذا كان الشتاء استودع ببيض النعام ماء السماء ثم دفنه . فاذا كان الصيف وانقطعت اغارة الخيل اغار . وكان ادلّ من قطاة يجيء حتى يقف على البيضة . وكان لا يغير على مضر وانما يغير على اليمن فاذا لم يمكنه ذلك اغار على ربيعة . ويعدّه المفضل الضبي من اشد رجال العرب وانكرهم واشعرهم . وكان ادل الناس بالارض واعلمهم بمسالكها . وله اخبار كثيرة مدهشة . ومن شعره على اثر غزوة رابحة :

بكى صرد لما رأى الحي اعرضت ... مهامه رمل دونهم وسهوبُ

فقلت له لا تبك عينك انها قضية ما يقضى لها فتنوب
سيكفيك فقد الحي لحم مغرض وماء قدور في الجفان مشوبُ
ألم ترَ ان الدهر لونان لونه وطوان بشر مرّة وكذوبُ
فما ذرّ قرن الشمس حتى رايته مضاد المنايا والغبار يثوبُ

واخباره في الاغاني ١٣٣ ج ١٨ والشعر والشعراء ٢١٣

٤ — عُرْوَة بن الوَرْد

توفي سنة ٥٩٦م

هو من عبس وكان شاعراً فارساً وصعلوكاً مقدماً وكان يلقب عروة الصعاليك لانه كان كالرئيس عليهم يجمعهم ويقوم بامرهم اذا اخفقوا في غزواتهم ويعولهم اذا لم يكن عندهم معاش . وكان لشعره تأثير في نفوس قبيلته . سئل الحطيئة كيف كنتم في حربكم قال «كنا الف حازم» فقيل وكيف ذلك قال «كان فينا قيس بن زهير وكان حازماً وكنا لا نعصيه وكنا نقدم اقدام عنترة ونأتم بشعر عروة بن الورد وننقاد لامر الربيع بن زياد» ومن شعر عروة قوله :

واني امرؤٌ عافي انائيَ شركة وانت امرو عافي انائك واحدُ
اتهزأ مني ان سمنتَ وان ترى بجسمي شحوب الحقّ والحقُّ جاهد
افرّق جسمي في جسوم كثيرة واحسو قراح الماء والماء بارد

ومن قوله في الاقدام :

دعيني للغنى اسعى فاني رأيت الناس شرهم الفقيرُ

ومن ذلك قوله :

لعل ارتيادي في البلاد وبغيتي وشدّي حيازيم المطية بالرجل
سيدفعني يوماً الى ربّ هجمة يدافع عنها بالعقوق وبالبخل

ولهُ قصيدة تعدُّ من المنتقيات مطلعها :

اقلي عليَّ اللوم يا ابنة منذر ونامي فان لم تشتهي النوم فاسهري
ذريني اطوّف في البلاد لعلني اخليك أو اغنيك عن سوء محضري

فترى الهمة والنشاط والاقدام ظاهرة في كل اقواله

ولعروة ديوان طبع في غوتنجن سنة ١٨٦٤ مع ترجمة المانية وشروح لنولدكي وطبع ايضاً في بيروت . ولهُ اشعار متفرقة في الاغاني ١٩٠ ج ٢ والشعر والشعراء

٤٢٥ وشعراء النصرانية ٨٨٣ والجمهرة ١١٤ وكتب بوشر Boucher الفرنساوي مقالة عنهُ وعن ذي الاصبع العدواني في المجلة الاسيوية الفرنساوية سنة ١٨٦٧

ومن الشعراء الصعاليك :

٥ حاجز الازدي (٥٧٠) كان يسبق الخيل ترجمته في الاغاني ٤٩ ج ١٢

٦ قيس بن الحدادية الازدي « « « ٢ ج ١٣

٧ ابو الطمحان القيني من قضاعة مخضرم « « « ١٣٠ ج ١١ والشعر والشعراء ٢٢٩ وخزانة الادب ٤٢٦ ج ٣

٦ — الشعراء اليهود

لا يتجاوز الشعراء اليهود في الجاهلية عدد اصابع اليد الواحدة اشهرهم :

١ — السَمَوْأَل بن غريض بن عاديا

توفي سنة ٥٦٠ م

ويلحقون نسبه بالكاهن هرون اخي موسى . وهو صاحب حصن الابلق بتيماء يضرب المثل بوفائه . وحديثه مع امرئ القيس الشاعر والادراع اشهر من ان يذكر حتى يتبادر الى الذهن ان العرب وضعوا ذلك الحديث او بالغوا فيه على سبيل التمثيل ترغيباً في الوفاء فان الطبيعة تأبى على الرجل ان يضحي ابنه في سبيل الوفاء . ولا نقول ان ذلك مستحيل لكنه بعيد الحدوث وقد اشرنا الى ذلك قبلاً . وكانت العرب تنزل بالسموال فيضيفها واشتهر بقصيدته الفخرية التي مطلعها :

اذا المرء لم يدنس من اللؤم عرضهُ فكلُّ رداءٍ يرتديه جميلُ

وقد خمسها غير واحد اشهرهم صفي الدين الحلي

وللسموأل ديوان شعر طبع في بيروت سنة ١٩٠٩ ولهُ اخبار في الاغاني ٩٨ ج ١٩ و١٢ ج ٣ و٨٧ ج ٦ و٣٧ ج ٩ والمستطرف ١٦٢ ج ١ والشعر والشعراء ٤٥ والمشرق مجلد ٩ و١٠ و١٢

ومن الشعراء اليهود ايضاً :

٢ اوس بن دني من قريظة ترجمته في الاغاني ٩٤ ج ١٩

٣ الربيع بن الحقيق من رؤساء قريظة ترجمته في الاغاني ٦١ ج ٢١
٤ كعب بن الاشرف من النضير له مناقضات « « « ١٠٦ ج ١٩

٧ — الشعراء المغنون

قلنا في صدر هذا الكتاب ان الشعر والغناء ولدا معاً او لعل الغناء بعث على الشعر ولذلك كان اكثر الشعراء القدماء في الامم الاخرى مغنين . اما العرب فلم يصلنا من اخبار امثال هؤلاء الا قليل واحسن مثال لذلك الاعشى وقد ترجمناه في جملة اصحاب المعلقات . ومنهم علس ذي جدن من حمير ترجمته في الاغاني ٣٧ج ٤

٨ — النساء الشواعر

قد ذكرنا ما كان من رقي المرأة في الجاهلية وعزة نفسها وذكائها والشعر لا ينمو ويزهو الا في ظل العز والارتقاء ويندر نبوغ الشعراء البلغاء في أمة ذليلة . فظهر في الجاهلية عدة شواعر جاء ذكر عشرات منهن في الحماسة وغيرها وذكرنا اسماء بعضهن في ما تقدم وهاك تراجم اشهرهن :

١ — الخَنْسَاءُ

توفيت سنة ٦٤٦ هـ

هي تماضر بنت عمرو بن الشريد من سراة سليم (قيس) من اهل نجد . وقد اجمع رواة الشعر على انه لم تقم امرأة في العرب قبلها ولا بعدها اشعر منها . وقد انشدت شعرها على النابغة في عكاظ فأعجب به وقال لها « لولا ان هذا الاعمى انشدني قبلك (يعني الاعشى) لفضلتك على شعراء هذا الموسم » على ان اكثر قولها في رثاء اخيها صخر وكان قد قتل في واقعة يوم الكلاب من ايام العرب ودفن في ارض سليم فاخذت تنظم فيه المراثي كأن الحزن أثار شاعريتها . وقد ادركت الخنساء الاسلام وهي عجوز ولها اربعة اولاد فشهدت حرب القادسية وحرضت اولادها على الثبات في القتال فلما حمي الوطيس تقدموا واحداً واحداً ينشدون الرجز يذكرون فيه وصية والدتهم حتى قتلوا عن آخرهم . فلما بلغها الخبر قالت « الحمد لله الذي شرفني بقتلهم »

ومن اشعارها في رثاء صخر اخيها قولها :

الا اما لعينيك أم مالها	لقد اخضل الدمع سربالها
ابعد ابن عمرو من آل الشـ	ـريد حلت به الارض اثقالها
فان تك مرة اودت به	فقد كان يكثر تقتالها
سأحمل نفسي على خطة	فاما عليها واما لها
فان تصبرالنفس تلق السرور	وان تجزع النفس اشقى لها

وللخنساء ديوان شعر كبير طبع في بيروت مشروحاً سنة ١٨٨٨ وفيهِ مراثٍ لستين شاعرة . وترجم الى الفرنساوية وطبع سنة ١٨٨٩ ولها اخبار كثيرة متفرقة بالاغاني ٦٤ و ١٣٦ ج ١٣ و ٣٤ ج ٤ وخزانة الادب ٢٠٨ ج ١ والشعر والشعراء ١٩٧

٢ — خِرْنِق بنت بدر بن هفَّان

توفيت سنة ٥٧٠ م

هي اخت طَرفة بن العبد لامه ولها اشعار كثيرة في أخيها وزوجها لم يصلنا منها الا بضعة وخمسون بيتاً جمعت في ديوان منه نسخة خطية في المكتبة الخديوية . وقد طبعت اخبارها واشعارها في شعراء النصرانية ٣٢١ وافردت في ديوان على حدة طبع في بيروت . ولها اخبار في خزانة الادب ٣٠٦ ج ٢

٣ — ليلى العفيفة

توفيت سنة ٤٨٣ م

هي بنت لُكيز من ربيعة من اقدم الشعراء وكانت تامة الحسن كثيرة الادب ولها شعر حسن نشر بعضه في كتاب شعراء النصرانية ١٤٨

٤ — جليلة بنت مرة

توفيت سنة ٥٣٨ م

هي اخت جساس الشيباني قاتل كليب بن ربيعة . وهي ايضاً زوجة كليب المقتول فلما قتل زوجها رحلت من بيته وشمتت بها اخت كليب فاجابتها بشعر مطلعهُ :

يا ابنة الاقوام ان لمتِ فلا تعجلي باللوم حتى تسألي

وتجد اخبارها في شعراء النصرانية ٢٥٢ والاغاني ١٥١ ج ٤

٩ – الشعراء الهجاؤون

لاتكاد تجد في شعراء الجاهلية شاعراً يتوخّى الهجو فيفرد له قولاً وانما كان هجوهم يأتي في اثناء مفاخراتهم وحماسياتهم . ولكن ظهرت طبقة من الهجائين في اواخر عصر الجاهلية واكثرهم من المخضرمين الذين ادركوا الاسلام . منهم الحُطيئة العبسي وحسّان ابن ثابت وابنه عبد الرحمن وعبد الرحمن بن الحكم وعبد الله بن الزبعري السهمي وكعب بن الاشرف اليهودي فافردنا لهم هذا الفصل

١ – الحُطَيْئة

مخضرم ادرك معاوية

هو جرول بن اوس من بني عبس من فحول الشعراء ومتقدميهم وفصحائهم متين الشعر شرود القافية متصرف في جميع الفنون من المديح والهجاء والفخر والنسيب مجيد في ذلك كله . ولكنه كان ذا شرّ وسفه دنيء النفس لا رأي له وانما يساق الى ما يرجو منه مصلحة فينتمي الى كل واحدة من القبائل اذا غضب من غيرها . فاذا غضب من بني عبس قال انه من بني ذهل والعكس بالعكس . لكنه كان شديد الهجاء يخاف العرب لسانه ويسترضونه بالمال خوفاً من شرّه . وكان يتعمد تخويف الناس بالهجو استدراراً لاموالهم بما يعبرعنه الافرنج اليوم بقولهم Chantage وذلك نادر في طباع اهل الجاهلية

وكان اذا نزل مدينة او نجعاً دبّ الخوف في اهله وارصدوا له العطايا خوفاً من لسانه وهو يبالغ في الطمع كثيراً . ذكروا انه نزل المدينة مرة فمشى اشرافها بعضهم الى بعض فقالوا «قد قدم علينا هذا الرجل وهو شاعر والشاعر يظن فيحقق وهو يأتي الرجل من اشرافكم يسأله فان اعطاه جهد نفسه بهرها وان حرمه هجاه» فأجمع رأيهم على ان يجعلوا له شيئاً معدًّا يجمعونه بينهم . فكان اهل البيت من قريش والانصار يجمعون له العشرة والعشرين والثلاثين من الدنانير حتى جمعوا له اربعمائة دينار وظنوا انهم قد اغنوه فأتوه فقالوا له «هذه صلة آل فلان وهذه صلة آل فلان وهذه صلة آل فلان» فأخذها فظنوا انهم قد كفوه عن المسئلة فاذا هو يوم الجمعة قد استقبل الامام ماثلاً ينادي «من يحماني على بغلين» – هكذا كان يفعل مع كل قوم ينزل فيهم والاسلقهم بهجوه

واكثر هجوه الذي وصل الينا في الزبرقان وبغيض . وكان الزبرقان من عمال عمر بن الخطاب وقد عرف شدة وطأة الحطيئة فاحب ان يقربه فدعاه اليه وانزله في قومه

وضمن له مؤونة عياله على ان يستصفي له مدحه . وكان بغيض بن عامر من بني انف الناقة واخوته واهله ينازعون الزبرقان الشرف . فاغتنموا استهانة ام حرزة امراة الزبرقان مرة بالحُطيئة ودعوه اليهم وفي مقدمتهم بغيض هذا وعلقمة بن هوذة . فسار معهم وضربوا له قبة بكل طنب من اطنابها حلة هجرية واراحوا عليه ابلهم وا كثروا من التمر واللبن وبالغوا في ا كرامه فمدحهم بالبيت المشهور الذي رفع رؤوسهم وهو :

قوم هم الانف والاذناب غيرهم ومن يساوي بأنف الناقة الذنبا

ثم جاء الزبرقان يطلب الحُطيئة منهم لانه جاره فابوا وتنازعوا . ثم اتفقوا على ان يخيروه في الذهاب الى احد الحيين فاختار بغيضاً فرجع الزبرقان غضباً فحرض بغيض الحطيئة على هجوه ففعل. ومن قوله يهجو الزبرقان ويناضل عن بغيض :

والله ما معشر لاموا امرأً جنباً في آل لاي بن شماس با كياس
ما كان ذنب بغيض لا اباً لكم في بائس جاء يحدو آخر الناس
وقد مدحتكم عمداً لارشدكم كيما يكون لكم متحي وامراسي
لما بدا لي منكم عيب انفسكم ولم يكن لجراحي فيكم آسي
ازمعت يأساً مبيناً من نوالكم ولن يرى طارداً للحر كالياس
جار لقوم اطالوا هون منزله وغادروه مقيماً بين ارماس
ملوا قراه وهرّته كلابهم وجرّحوه بأنياب واضراس
دع المكارم لا ترحل لبغيتها واقعد فانك انت الطاعم الكاسي
من يفعل الخير لا يعدم جوازيه لا يذهب العرف بين الله والناس

وشكاه الناس لعمر بن الخطاب فسجنه فكتب اليه من السجن ابياتاً يشكو اليه حال اهله بسبب سجنه منها :

ماذا أردت لافراخ بذي مرخ حمر الحواصل لا ماء ولا شجر
القيتَ كاسبهم في قعر مظلمة فاغفر عليك سلام الله يا عمرُ

ثم اخرجه من السجن وهدده بقطع لسانه واذيته فتوسط له بعض الصحابة فاطلقه واوصاه ان يكف لسانه عن الهجو . وبلغ من شغف الحطيئة بالهجو حتى هجا امه واباه وهجا نفسه — فما هجا به امه قوله :

اغربالاً اذا استودعتِ سرّاً وكانوناً على المتحدثينا
جزاكِ الله شرّاً من عجوزٍ ولقاكِ العقوقَ من البنينا

وقال لابيه :

لحاك الله ثم لحاك حقاً ابا ولحاك من عمٍ وخالِ
فنعم الشيخ انت لدى المخازي وبئس الشيخ انت لدى المعالي
جمعت اللؤم لا حياك ربي وابواب السفاهة والضلال

وقال لنفسه :

ابت شفتاي اليوم الا تكلما بسوء فما ادري لمن انا قائلُه
ارى لي وجهاً شوّه الله خلقه فقبّح من وجه وقبّح حامله

وهو من اصحاب المشوبات ومطلع مشوبتهِ :

نأتك امامة الا سؤالا وابصرت منها بعين خيالا

وللحطيئة اشعار كثيرة جمعت في ديوان طبع في ليبسك سنة ١٨٩٣ وفي مصر وبيروت مع شروح . وله شرح خطي في المكتبة الخديوية . واخباره في الشعر والشعراء ١٨٠ وفي الاغاني ٤٣ ج ٢ و٣٩ ج ١٦ وفي العقد الفريد ٨٠ ج ١ و ١١١ ج ٣ وفي المستطرف ١٣٩ ج ١ وخزانة الادب ٤٠٩ ج ١ والجمهرة ١٥٣

٢ — حَسَّان بن ثابت

توفي سنة ٥٤ ه

هو من الخزرج اهل المدينة وقد عاصر الجاهلية والاسلام فهو من المخضرمين واشتهر في الجاهلية بمدح ملوك غسان وملوك الحيرة وله مع النابغة الذبياني احاديث . واختص بعد الاسلام بمدح النبي والدفاع عنه وهو يُعدُّ اشعر اهل المدن في ذلك العصر وكان شديد الهجاء حتى قيل لو مزج البحر بشعره لمزجه . قال ابو عبيدة « فضل حسان الشعراء بثلاثة كان شاعر الانصار في الجاهلية وشاعر النبي (صلعم) في النبوة وشاعر اليمن كلها في الاسلام » . ومن شعره في الجاهلية قوله يمدح جبلة بن الايهم الغساني :

اولاد جفنة عند قبر ابيهم قبر ابن مارية الكريم المفضل
يسقون من ورد البريص عليهم بردى يصفق بالرحيق السلسل
يغشون حتى ما تهرُّ كلابهم لا يسألون عن السواد المقبل
بيض الوجوه كريمة احسابهم شمُّ الانوف من الطراز الاول

أما في الاسلام فكان حسان في جملة من اسلم واخذ بناصر المهاجرين . ولم يكن

هو رجل حرب فنصرهم بلسانه وكان النبي يسرُّ به ويستنشده الاشعار في الدفاع عن اعراض المسلمين اذا هجاهم هاجٍ من المشركين أو غيرهم . وقد حمله النبي على ذلك ليرد عنه هجو الهاجين — فقد كان يهجو النبي ثلاثة من قريش هم عبد الله بن الزبعري وابو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب وعمرو بن العاصي . فقال قائل لعلي بن ابي طالب « اهج عنا القوم الذين قد هجونا » فقال علي « ان اذن لي رسول الله فعلت » فقال رجل « يا رسول الله ائذن لعلي كي يهجو عنا هؤلاء القوم الذين قد هجونا » قال « ليس هناك أو ليس عنده ذلك » ثم قال « ما يمنع القوم الذين نصروا رسول الله بسلاحهم ان ينصروه بالسنتهم » فقال حسان بن ثابت « انا لها » واخذ بطرف لسانه وقال « والله ما يسرُّني به مقول بين بصرى وصنعاء » قال « كيف تهجوهم وانا منهم » فقال « اني اسلُّك منهم كما تسلُّ الشعرة من العجين » فكان يهجوهم ثلاثة من الانصار حسان بن ثابت وكعب بن مالك وعبد الله بن رواحة . فكان حسان وكعب يعارضانهم بمثل قولهم بالوقائع والايام والمآثر ويعيرانهم بالمثالب . وكان عبد الله بن رواحة يعيرهم بالكفر . فكان في ذلك الزمان اشد القول عليهم قول حسان وكعب واهون القول عليهم قول ابن رواحة فلما اسلموا وفقهوا الاسلام كان اشد القول عليهم قول ابن رواحة

ومن امثلة دفاعه عن النبي ان وفداً من تميم جاؤا النبي وهم سبعون أو ثمانون رجلاً فيهم خيرة الشعراء من تميم . وفيهم الزبرقان بن بدر فانشد الزبرقان قصيدة فخرية فامر الرسول حساناً ان يجيبهم فقال :

ان الذوائب من فهر واخوتهم قد بينوا سنّة للناس تتبعُ
يرضى بها كل من كانت سريرته تقوى الاله وبالامر الذي شرعوا
قومٌ اذا حاربوا ضرُّوا عدوَّهم أو حاولوا النفع في اشياعهم نفعوا
سجية تلك منهم غير محدثة ان الخلائق فاعلم شرُّها البدع
لا يرفع الناس ما اوهت اكفهم عند الرقاع ولا يوهون ما رقعوا
ان كان في الناس سبّاقون بعدهم فكل سبق لادنى سبقهم تبع
اعفة ذكرت في الوحي عفتهم لا يطمعون ولا يزري بهم طمع
يسمون للحرب تبدو وهي كالحة اذا الزعانف من اظفارها خشع
لا يفرحون اذا نالوا عدوهم وان اصيبوا فلا فرٌّ ولا جزع

الى ان قال :

اكرم بقوم رسول الله قائدهم اذا تفرّقت الاهواء والشيع

وانهم افضل الاحياء كلهم ان جدّ بالناس جدّ القول او سمعوا

وهو من اصحاب المذهبات ومطلع مذهبته :

لعمر ابيك الخير حقاً لما نبا عليّ لساني في الخطوب ولايدي

وقد جمعت اشعاره في ديوان وطبع في الهند وتونس ثم طبعته لجنة تذكار جيب في انكلترا سنة ١٩١٠ وضبطته على النسخ الخطية الموجودة في مكاتب لندن وبرلين وباريس و بطرسبورج بعد الاطلاع على النسخ المطبوعة المتقدم ذكرها

وتجد اخباره في الشعر والشعراء ١٧٠ والاغاني ٢ ج ٤ و١٦٩ ج ٨ و١٦٩ ج ١٠ و١٥٠ ج ١٣ و٢ ج ١٤ وخزانة الادب ١١١ ج ١ والجمهرة ١٢١ وفي السنة السادسة من الهلال ٤٨٢

٣ — عبد الرحمن بن الحكم

هو اخو مروان بن الحكم الذي تولى الخلافة في الدولة الاموية وافضت بعده الى اولاده واحفاده — وكان عبد الرحمن هذا يهاجي عبد الرحمن بن حسان بن ثابت . الاول يدافع عن قريش و بني امية والثاني عن الانصار . وقد هجا ابن الحكم اخاه الحرث لانه ذهب في غزوة ولم يفلح فقال فيه ابياتاً منها :

كفاك الغزو اذ احجمت عنه حديث السن مقتبل الشباب

فليتك حيضة ذهبت ضلالاً وليتك عند منقطع السحاب

وهجا اخاه مروان فضلاً عن هجوه الانصار وغيرهم

وتجد اخباره في ذلك مدوّنة في الاغاني ٧٢ ج ١٢ و١٥٠ ج ١٣

٤ — عبد الله بن الزبعري

هو احد شعراء قريش المعدودين لكنه كان هجّاء فاكثر من هجو المسلمين وحرض عليهم كفار قريش . ثم اسلم فقبل اسلامه وتجد اخباره في الاغاني ١١ ج ١٤

٥ — كعب بن الاشرف اليهودي

كان شاعراً فارساً وانما كان همه هجو النبي عند ظهوره بالدعوة فبعث النبي اليه نفراً قتلوه في داره وقد تقدم ذكره بين الشعراء اليهود واخباره في الاغاني ١٠٦ ج ١٩

---

١٠ — الشعراء الوصافون للخيل

قد رأيت وصفاً كثيراً في اشعار من تقدم ذكرهم وخصوصاً اصحاب المعلقات ولا سيما امرؤ القيس . ولكننا نريد بهذا الباب الشعراء الذين اشتهروا بوصف الخيل دون سواها وهم ثلاثة نضيف اليهم شاعراً اشتهر بوصف الحمير وهم :

١ — ابو دُؤَاد الإِيادي

هو من أقدم شعراء الجاهلية واكثر اشعاره في وصف الخيل وله اشعار في المدح والفخر ومن قوله في وصف الفرس :

ولقد اغتدي يدافع ركني ... احوذي ذو ميعة اضريجُ

مخلط مزيلٌ مكرٌّ مفرٌّ ... منفحٌ مطرح سبوح خروج

سلهبٌ سرحب كأنّ رماحاً ... حملتهُ وفي السراة دموج

وليس له ديوان معروف ولكن اخباره في الاغاني ٩٥ ج ١٥ و ٤٧ ج ٢ والشعر والشعراء ١٢٠

٢ — الطُّفَيْل الغَنَوِيّ

هو الطفيل بن عوف شاعر جاهلي من الفحول المعدودين ومن اشعر شعراء قيس ومن اوصف العرب للخيل حتى سموه طفيل الخيل لكثرة وصفه اياها وهو يدخل وصفها في كل باب من شعره ومن قوله :

بخيل اذا قيل اركبوا لم يقل لهم ... عواوير يخشون الردى اين نركب

ولكن يجاب المستغيث وخيلهم　　عليها حُماة بالمنيّة تضربُ

ومن قوله في وصف بيته :

واطنابه ارسان جردٍ كأنها　　صدور القنى من بادئ ومعقبِ

نصبت على قوم تدرُّ رماحهم　　عروق الاعادي من عرين واشيب

وللطفيل الغنوي ديوان تحت الطبع بنفقة لجنة تذكار جيب الانكليزية مع ديوان الطرماح بن حكيم بعناية المستشرق كرنكو Krenkow واخباره في الاغاني ٨٨ ج ١٤ والشعر والشعراء ٢٧٥

٣ — النّابغة الجعْدي

هو غير النابغة الذبياني وهو من جَعدة (قيس) مخضرم قال الشعر في الجاهلية وسكت دهراً ثم نبغ في الاسلام . ويقال مع ذلك انه كان اسن من الذبياني . وهو ممن فكر في الجاهلية وانكر الخمر والمسكر وهجر الازلام والاوثان . وكان مغلباً اذا هوجي غلب وله مهاجاة مع ليلى الاخيلية وغيرها ويقول علماء الشعر في وصف شعره « خمارٌ بوافٍ ومطرفٌ بآلاف » يريدون ان بين اشعاره تفاوتاً كبيراً ومن قوله في وصف الفرس

كأنّ مقطّ شراسيفه　　الى طرف القنب فالمنقب

لُطمن بترس شديد الصفا　　ق من خشب الجوز لم يُثقبِ

وله قصيدة جمعها ابو زيد مع المشوبات في جمهرة اشعار العرب يصف بها حاله منذ كان عند المنذر وكيف سار الى النبي واسلم ووصف ناقته وفرسه وبعض المواقع وغير ذلك مطلعها :

خليليّ عوجا ساعة وتهجرا　　ولوما على ما احدث الدهر اوذرا

وللنابغة الجعدي اخبار متفرقة في الاغاني ١٢٨ ج ٤ والشعر والشعراء ١٥٨ وجمهرة اشعار العرب ١٤٥ وفي خزانة الادب ٥١٢ ج ١

٤ — الشمّاخ بن ضِرار

ويدخل في هذا الباب الشماخ بن ضِرار الذبياني فانه وصاف للحمير وهو مخضرم ويقولون ان الحُطيئة كتب في وصيته « ابلغوا الشماخ انه اشعر غطفان كلها » وقد اجمع علماء الشعر على انه اوصف الشعراء للحمير واوصفهم للقوس وارجزهم على البديهة .

وكان فيه ميل الى الهجاء حتى انه كان يهجو اهله وضيفه . وقد يصح عدّه من الشعراء الهجائين ولكن الوصف غالب عليه . ومن وصفه للقوس قوله :

وذاق فاعطته من اللين جانباً   كفى ولها ان يغرق السهم حاجز
اذا انبض الرامون عنها ترنمت   ترنم ثكلى اوجعتها الجنائز

وهذان البيتان من قصيدة عدّها ابو زيد من المشوبات ومطلعها :

عفا بطن قوّ من سليمى فعالز   فذات الصفا فالمشرفات النواشز

وقد جمعت اشعار الشماخ في ديوان منه نسخة خطية في المكتبة الخديوية وله اخبار متفرقة في الاغاني ١٠١ ج ٨ والشعر والشعراء ١٧٧ وخزانة الادب ٥٢٦ ج ١ والجمهرة ١٥٤

ومن وصّاف الخيل ايضاً سلامة بن جندل وقد ترجمناه مع الشعراء الفرسان وفاتنا ان نذكر هنالك ان له ديواناً طبع في بيروت

١١ — الشعراء الموالي

عَبْد بني الحسحاس

ليس في من وصلنا خبرهم من الجاهليين شاعر من الموالي او العبيد الا عبد بني الحسحاس وهو حبشيٌّ واسمه سُحيم كان مطبوعاً على الشعر اشتراه بنو الحسحاس وهم بطن من اسد ومن نظمه قوله :

اشعار عبد بني الحسحاس قمن له   عند الفخار مقام الاصل والورق
ان كنتُ عبداً فنفسي حرة كرماً   أو اسود اللون اني ابيض الخلق

وذكروا ان صاحبه كان اسمه مالكاً جاء به ليبيعه لعثمان بن عفان فقال « لا حاجة لي به اذ الشاعر لا حريم له ان شبع تشبب بنساء اهله وان جاع هجاهم » فاشتراه غيره فلما رحل قال في طريقه :

اشوقاً ولم تمض لي غير ليلة   فكيف اذا سار المطيُّ بنا شهرا
وما كنت اخشى مالكاً ان يبيعني   بشيء ولو امست انامله صفرا

اخوكم ومولى مالكم وحليفكم ومن قد ثوى فيكم وعاشركم دهرا

فلما بلغهم شعره هذا رثوا له فاستردوه فكان يشبب بنسائهم حتى قال :

ولقد تحدر من كريمة بعضكم عرق على متن الفراش وطيبُ

فقتلوه . واخباره في الاغاني ٢ ج ٢٠ والشعر والشعراء ٢٤١

١٢ — سائر الشعراء الجاهليين

بقيت طائفة من شعراء الجاهلية لايدخلون في باب من الابواب التي تقدمت — وان كانت تلك الابواب كثيراً ما تختلط اغراضها اذ لا يتفق ان يستقلَّ شاعر او بضعة شعراء بالحِكَم او الفخر او الوصف او الهجاء دون سواه . ولكننا جمعنا المتقاربين في بعض تلك الاغراض ليسهل تعليقهم بالذاكرة . وبقي جماعة منهم لايجتمعون في باب وهم كثيرون نكتفي بذكر اشهرهم وخصوصاً الذين لهم آثار باقية يمكن الحصول عليها وهم :

١ — ابن الدُّمَيْنة

هو عبد الله بن عبيد الله احد بني عامر من خثعم وامه الدُّمينة من سلول . اشتهر بحديث امرأته حمادة — وذلك انه بلغه ان بعض اخواله من سلول يأتيها خلسة فرصده حتى اتاها فقتله وقتلها . على انهُ قبل ان يقتل الرجل منعه عن المجيء اليها فغضب واراد ان ينتقم منه فنظم قصيدة يصف بها المرأة وصف من تفحص بدنها فذهب ابن الدمينة الى امرأته وسألها « كيف عرف ذلك فيك » قالت « وصفتِه له النساء » فغضب وقال « والله ان لم تمكنيني منه لاقتلنك » فبعثت اليه وواعدته وكان زوجها كامناً له فقام وقتله ضغطاً على كبده حتى يخفي جريمته . لكن اهله تحققوا فعلته فاخذوا يراقبونه . وعشق في اثناء ذلك امرأة من قومه اسمها اميمة وهام بها فلما وصلته تجنى عليها وجعل ينقطع عنها ثم زارها فقالت هذه الابيات :

وانت الذي اخلفتني ما وعدتني وأشمتَّ بي من كان فيك يلومُ

وابرزتني للناس ثم تركتني لهم غرضاً أرمى وأنت سليم

فلو ان قولاً يكلم الجسم قد بدا بجسميَ من قول الوشاة كلوم

فاجابها بمثل عتابها وهو من الطف اساليب العتاب :

وانتِ التي قطعت قلبي حرارة ومزقتِ قرح القلب فهو كليمُ
وانت التي كلفتني دلج السرى وجون القطا بالجهلتين جثوم
وانت التي أحفظت قومي فكلهم بعيد الرضى داني الصدود كظيم

ثم تزوجها بعد ذلك وقُتل وهي عنده . وهذه الابيات تغنى بها المسلمون اجيالا واليه تنسب الابيات المشهورة :

ولي كبد مقروحة من يبيعني بها كبداً ليست بذات قروح

ولابن الدمينة ديوان شعر منه نسخة خطية في المكتبة الخديوية . وله اخبار في الاغاني ١٥١ج ١٥ والشعر والشعراء ٤٥٨

٢ — أَوْس بن حجر

هو من نمير احد بطون تميم من فحول الشعراء الجاهليين يقرنه بعضهم بالحطيئة و بنابغة جعدة — قالوا كان اوس شاعر مضر كلها حتى حل مكانه النابغة وزهير فاصبح شاعر تميم في الجاهلية غير مدافع . وكان غزلاً مغرماً بالنساء فخرج في سفر و بينما هو في ارض بني اسد يسير على ناقته ليلاً صرعته فاندقت فخذه فظل في مكانه لا يستطيع انتقالاً حتى خرجت بنات الحي يجتنين الكماة فبصرن بالناقة ورأين حجراً ملقًى ففزعن فنادى احداهن وسألها عمن هي فقالت « حليمة بنت فضالة » وهو يعرفه فدفع اليها حجراً وقال « اعطي هذا الى ابيك وقولي له ابن هذا يقريك السلام » فمضت وبلغت ما قاله فأتى فضالة فاحتمله الى بيته وعالجه فنظم فيه اوس مدائح كثيرة واحب ابنته ونظم فيها ثم توفي فضالة فرثاه احسن الرثاء منه قوله :

ايتها النفس اجملي جزعاً ان الذي تكرهين قد وقعا
ان الذي جمع السماحة والنـ ـجدة والحزم والقوى جمعا
المخلف المتلف المرزَّأ لم يمتع بضعف ولم يمت طبعا
اودى وهل تنفع الاشاحة من شيءٍ قد يحاول النزعا

ولاوس بن حجر ديوان طبع في فينا مع ترجمة المانية سنة ١٨٩٢ بعناية المستشرق جاير Geyer وعليه تعليقات . واخباره في الاغاني ٦ ج ١٠ والشعر والشعراء ٩٩ وخزانة الادب ٢٣٥ ج ٢

٣ — المتلمّس

توفي سنة ٥٨٠ م

هو جرير بن عبد المسيح من ضبيعة (ربيعة) وهو خال طرَفة بن العبد واليهِ تنسب صحيفة المتلمس كما مرَّ في حديثه مع طرفة وعمرو بن هند صاحب الحيرة. ولهذه الحكاية مثال في تاريخ قدماء اليونان تعزى الى بيلروفنت [١] فلما علم المتلمس بفحوى الصحيفة كما تقدم في ترجمة طرفة رماها في النهر قرب الحيرة وهرب الى الشام ولحق بملوك آل غسان ونظم في ذلك قصيدة ذكر فيها نجاته وكان قد استحث طرفة على رمي ورقته بقوله :

الق الصحيفة لا ابا لك انه يخشى عليك من الحباء النقرس

فلما بلغه انه قتل بها قال :

عصاني فما لاقى الرشاد وانما تبين من امر الغوي عواقبه

فاصبح محمولاً على آلة الردى تمج نجيع الجوف منه ترائبه

ونظم يهجو عمرو بن هند بقصيدة طويلة هي من خيرة شعره مطلعها :

يا آل بكر الا لله امكم طال الثواء وثوب الصخر ملبوس

واقام المتلمس في حوران عند الغساسنة الى وفاته . ومن قوله وفيه افراط في الفخر من قصيدة هجا بها عمراً المذكور :

احارث انا لو تساط دماؤنا تزايلن حتى لا يمسَّ دمٌ دما

يريد ان دماءهم تمتاز عن دماء غيرهم أو تأبى الامتزاج بها — ومنها :

وكنا اذا الجبار صعَّرَ خدهُ اقمنا لهُ من ميلهِ فتقوما

لذي الحلم قبل اليوم ماتقرع العصا وما علّم الانسان الا ليعلما

ولو غير اخوالي ارادوا نقيصتي جعلت لهم فوق العرانين ميسما

ومما يتمثل به من شعره قوله :

وأعلم علمُ حق غير ظنّ وتقوى الله من خير العتاد

لحفظ المال ايسر من بغاهُ وضرب في البلاد بغير زاد

(١) شعراء النصرانية ٣٣٠

واصلاح القليل يزيد فيه ولا يبقى الكثير على الفساد

وهو من اصحاب المنتقيات ومطلع منتقيته :

كم دون مية من مستعمل قذف ومن فلاة بها تستودع العيس

وقد جمع شعر المتلمس في ديوان منه نسختان خطيتان في المكتبة الخديوية واخباره في الاغاني ١٢٠ ج ٢١ والشعر والشعراء ٨٥ وحياة الحيوان للدميري ٢٠٩ ج ٢ وابن خلكان ١٩٩ ج ٢ والجمهرة ١١٣ وشعراء النصرانية ٣٣٠ والحماسة وشرحها ومعجم البلدان ولسان العرب وغيرها

٤ – المُثَقِّبُ العَبْدِيُّ

توفي سنة ٥٨٧ م

هو محصن بن ثعلبة من ربيعة وكان في جملة الذين كانوا يترددون على عمرو بن هند ويمدحونه وله فيه قصائد . وله في وصف راحلته قصيدة مطلعها :

هل عند غان لفؤاد صدِ من نهلة في اليوم او في غد

وله قصيدة يمدح بها عمراً المذكور مطلعها :

افاطم قبل بينك ودعيني ومنعك ما سألتك ان تبيني

ومما سبق اليه وأخذ عنه قوله من هذه القصيدة في وصف ناقته :

كأنَّ مواقع الثفنات منها معرَّس باكرات الوِرد جونِ

الباكرات القطا . فاخذ هذا المعنى عنه ذو الرمة والطرماح

وله قصيدة منها البيت المشهور :

حسَنٌ قول نعم من بعد لا وقبيحٌ قول لا بعد نعم

وللمثقب ديوان حوى شعره مع شروح منه نسخة خطية في المكتبة الخديوية .واخباره في الشعر والشعراء ٢٣٣ وخزانة الادب ٤٣١ ج ٤ وشعراء النصرانية ٤٠٠

٥ – المُنَخَّلُ اليَشْكُرِيُّ

توفي سنة ٥٩٧ م

هو المنخل بن عُبيد من يشكر من بكر وائل (ربيعة) شاعر مقلٌّ كان ينادم النعمان مع النابغة الذبياني ولكن النعمان كان يؤثر شعر النابغة على شعره فسعى المنخل بالنابغة واوغر صدر النعمان عليه حتى هم بقتله فهرب النابغة وخلا المنخل بمجالسته . ثم

اتهمه النعمان بامرأته وأمر بقتله فقتل ويقال انه دفن حيًّا . والعرب تضرب المثل به كما تضرب بابن هلك منهم ولم يعلم خبره . ومن مشهور شعره ابيات من قصيدة له في الفخر مطلعها :

ان كنت عاذلتي فسيري ‏ ‏ نحو العراق ولا تحوري

الى ان يقول : ولقد شربت من المدا ‏ ‏ مة بالصغير وبالكبير

فاذا انتشيت فانني ‏ ‏ رب الخورنق والسدير

واذا صحوت فانني ‏ ‏ رب الشويهة والبعير

واخبار المنخّل في الاغاني ١٥٢ ج ١٨ و ١٦٦ ج ٩ والشعر والشعراء ٢٣٨ وشعراء النصرانية ٤٢١

٦ — كَعْب بن زُهير

توفي سنة ٢٤ هـ .

هو كعب بن زهير بن ابي سلمى ولكعب ذكر خاص عند ظهور الاسلام لانه من المخضرمين وكان من اكثر الشعراء هجواً للنبي ثم جاءه واسلم ومدحه بقصيدته المشهورة التي مطلعها :

بانت سعاد فقلبي اليوم متبولُ ‏ ‏ متيمٌ عندها لم يجزَ مكبولُ

وهي من المشوبات . ولما اقبل على النبي وطلب الامان انشده اياها والمجلس حافل بالصحابة من قريش وغيرهم فلما وصل الى قوله :

ان الرسول لسيف يستضاء به ‏ ‏ مهند من سيوف الله مسلولُ

في فتية من قريش قال قائلهم ‏ ‏ ببطن مكة لما اسلموا زولوا

زالوا فما زال انكاس ولا كشف ‏ ‏ عند اللقاء ولا خور معازيل

اشار النبي الى الخلق ان يسمعوا شعر ابن زهير . ولما فرغ من الانشاد خلع النبي عليه بردته وهي التي تداول الخلفاء لبسها [١]

وقد طبعت مشوبة كعب مراراً بمصر واوربا وشرحها كثيرون منهم ابن دريد والتبريزي وغيرهما في العصور المختلفة الى الآن . ومن الاصل والشروح نسخ كثيرة

---

(١) راجع تاريخ البردة النبوية في تاريخ التمدن الاسلامي ٩٣ ج ١

في مكاتب برلين ولندن والاسكوريال ومصر وغيرها . وشطرها غير واحد مما يطول شرحه . واخبار كعب في الاغاني١٤٧ ج١٥والشعر والشعراء ٥٨و٦٧والجمهرة ١٤٨ والحماسة وغيرها

٧ — معن بن أوس

توفي سنة ٢٩ هـ

هو معن بن اوس بن نصر من مزينة (مضر) شاعر مجيد فحل من المخضرمين وله مدائح في جماعة من الصحابة ووفد على عمر بن الخطاب مستعيناً به على امره وخاطبه بقصيدته التي اولها :

تأوبهُ طيفٌ بذات الجرائم فنام رفيقاهُ وليس بنائمِ

ويقال انه لقي معاوية ايضاً وكان معاوية يفضل مزينة في الشعر ويقول كان اشعر اهل الجاهلية منهم وهو زهير . واشعر اهل الاسلام منهم وهما ابنه كعب ومعن بن اوس . وكان معن مئناثاً ويحسن صحبة بناته وتربيتهن . ومن شعره قوله :

وذي رحمٍ قلمتُ اظفار ضغنهِ بحلميَ عنهُ وهو ليس لهُ حلمُ
اذا سمتهُ وصل القرابة سامني قطيعتها تلك السفاهة والظلمُ
فأسعى لكي ابني ويهدم صالحي وليس الذي يبني كمن شأنه الهدم
يحاول رغمي لا يحاول رغمهُ وكالموت عندي ان ينال له رغمُ
فما زلت في لين لهُ وتعطفٍ عليه كما تحنو على الولد الأمُّ
لاستلَّ منه الضغن حتى سللتهُ وان كان ذا ضغن يضيق به الحلم

وله ديوان مطبوع في ليبسك سنة ١٩٠٣ واخباره في الاغاني ١٦٤ج ١٠وخزانة الادب ٢٥٨ ج ٣

الباقي من هذه الطبقة

وفي هذه الطبقة من الجاهليين والمخضرمين جماعة ضاق المقام عن تراجمهم وفيهم بضعة من الفحول . ولكن اكثرهم مقلّون فنكتفي باسمائهم مرتبة على الابجدية مع الاشارة الى المآخذ التي يمكن الرجوع اليها في معرفة اخبارهم :

اسم الشاعر	المآخذ
٨ ابن الغريرة من تميم شاعر مخضرم	الاغاني ٩٧ ج ١٠
٩ ابو خراش الهذلي هذيل	« ٣٨ ج ٢١
١٠ ابو ذؤيب « « من اصحاب المراثي	« ٥٨ ج ٦ والشعر والشعراء ٤١٣
١١ ابو زبيد الطائي كان يزور الملوك ايام عثمان	« ٢٤ ج ١١ « « ١٦٧
١٢ ابو العيال من هذيل شاعر فصيح أدرك معاوية	« ١٦٧ ج ٢٠
١٣ الأسود بن يعفر من تميم شاعر فصيح	الشعر والشعراء ١٣٤ والاغاني ١٣٤ ج ١١ والخزانة ١٩٥ ج ١ وشعراء النصرانية ٤٧٥
١٤ جران العود [1]	الشعر والشعراء ٤٥٠
١٥ الحادرة المازني [2] شاعر مقل	الاغاني ٨٢ ج ٣
١٦ حنظلة الطائي صاحب الوفاء	شعراء النصرانية ٨٩ والمستطرف ١٦١ ج ١
١٧ خزيمة بن نهد من قضاعة شاعر قديم	الاغاني ١٥٩ ج ١١
١٨ ربيعة بن مقروم من ضبة	« ٩٠ ج ١٩ والشعر والشعراء ١٨٠ وخزانة الادب ٥٦٦ ج ٣
١٩ سويد بن ابي كاهل من يشكر	« ١٧١ ج ١١ والشعر والشعراء ٢٥٠
٢٠ عديّ بن زيد العباديّ من تميم من اصحاب المجمهرات شاعر كاتب كسرى	« ١٨ ج ٢ والشعر والشعراء ١١١ والجمهرة ١٠٢
٢١ عديّ بن نوفل من قريش شاعر مقل	« ١٣٥ ج ١٣
٢٢ عمرو بن شاس من أسد	« ٦٣ ج ١٠ والشعر والشعراء ٢٥٤
٢٣ عمرو بن سعيد من قريش	« ٨٧ ج ٨
٢٤ عمرو بن براق شاعر قديم	« ١٣٠ ج ٢١
٢٥ عمرو بن قميئة من ربيعة	« ١٦٣ ج ١٦ والخزانة ٢٤٩ ج ٢ والشعر والشعراء ٢٢٢
٢٦ عيينة بن مرداس شاعر مقل	« ١٤٣ ج ١٩

(١) له ديوان مشروح في المكتبة الخديوية
(٢) له ديوان خط في المكتبة الخديوية وفي المتحف البريطاني وطبع شيء منه في ليدن سنة ١٨٥٨

٢٧ غيلان الثقفي من اهل الطائف	الاغاني ٤٥ ج ١٢	
٢٨ فضالة بن شريك من مضر وفد على ابن الزبير	« ١٧١ ج ١٠	
٢٩ كعب بن مالك من الخزرج مخضرم	« ٢٦ ج ١٥ والخزانة ٢٠٠ ج ١	
٣٠ لقيط بن معمّر الايادي شاعر جاهلي قديم(١)	« ٢٣ ج ٢٠ والشعر والشعراء ٩٧	
٣١ المتنخل من هذيل شاعر فحل	« ١٤٥ ج ٢٠ وخزانة الادب ١٣٧ ج ٢	
٣٢ المخبّل السعدي من تميم مات ايام عمر	« ٤٠ ج ١٢ والشعر والشعراء ٢٥٠ وخزانة الادب ٥٣٥ ج ٢	
٣٣ الممزّق العبدي (٤٨٠) شاعر قديم	الشعر والشعراء ٢٣٥	
٣٤ النمر بن تولب من عكل من اصحاب المجمهرات	الاغاني ١٥٧ ج ١٩ والشعر والشعراء ١٧٣ والجمهرة ١٠٩	
٣٥ هدبة بن الخشرم(٢) من بادية الحجاز كان راوية الحطيئة	الاغاني ١٦٩ ج ٢١ والشعر والشعراء ٤٣٤ وخزانة الادب ٨٤ ج ٤	
٣٦ يزيد بن عبد المدان	شعراء النصرانية ٨٠	

هؤلاء شعراء الجاهلية والمخضرمون ممن وقفنا لهم على تراجم مستقلة مع بيان اغراضهم ومراتبهم . وهناك طائفة كبيرة عرفوا بابيات أو قصائد ومنهم كثيرون في كتب الادب والحماسة والجمهرات والمفضليات وغيرها

مآخذ الشعراء الجاهليين

يحسن بنا ان نأتي على ذكر الكتب التي يمكن لطلاب الشعر التوسع بها في معرفة الشعراء الجاهليين أو المخضرمين غير الدواوين التي تقدم ذكرها وغير المعاجم اللغوية . وهذه اهمها مما طبع ويقرب تناوله . ونذكر هنا الطبعات التي عولنا عليها في المآخذ التي بين ايدينا مرتبة على الابجدية لتسهل المراجعة على المطالع :

(١) له ديوان في مكتبة ايا صوفيا

(٢) عنه مقالة بالفرنساوية لدوجات في المجلة الاسيوية الفرنساوية سنة ١٨٥٥

اسم الكتاب	سنة الطبع ومكانه
١ اشعار الهذليين رواية السكري	لندن سنة ١٨٥٤
٢ الاصمعيات	ليبسك « ١٩٠٢
٣ الاغاني لأبي الفرج الاصبهاني ٢١ جزءا	بولاق « ١٢٨٥
٤ امالي القالي	مصر « ١٣٢٦
٥ امثال العرب للضبي	الاستانة « ١٣٠٠
٦ البيان والتبيين للجاحظ جزآن	مصر « ١٣١٣
٧ جمهرة اشعار العرب لابي زيد ابن ابى الخطاب	بولاق « ١٣٠٨
٨ جمهرة الامثال لابي الحسن العسكري	بمباي « ١٣٠٧
٩ الحماسة لابي تمام وشرحها للتبريزي ٤ اجزاء	بولاق « ١٢٩٦
١٠ « للبحتري	بيروت « ١٩٠٩
١١ خزانة الادب ولب لباب لسان العرب ٤ اجزاء	بولاق « ١٢٩٩
١٢ سيرة الرسول لابن هشام ٣ اجزاء	بولاق « ١٢٩٥
١٣ شرح القصائد العشر للتبريزي	كلكتة « ١٨٩٤
١٤ شرح المقامات الحريرية للشريشي	بولاق « ١٢٨٤
١٥ الشعر والشعراء لابن قتيبة	ليدن « ١٩٠٢
١٦ شعراء النصرانية للاب شيخو ٦ اجزاء	بيروت « ١٨٩٠
١٧ طبقات الشعراء للاسكندر ابكاريوس	بيروت « ١٨٥٨
١٨ العقد الثمين في الشعراء الستة الجاهليين	لندن « ١٨٧٠
١٩ العقد الفريد لابن عبد ربه ٣ اجزاء	مصر « ١٣٠٥
٢٠ العمدة لابن رشيق جزءان	مصر « ١٣٢٥
٢١ قواعد الشعر لثعلب	ليدن « ١٨٩٠
٢٢ الكامل لابن الاثير ١٢ جزءا	مصر « ١٣٠٢
٢٣ الكامل للمبرد	مصر « ١٢٨٦
٢٤ الكشكول وعلى هامشه أدب الدنيا والدين	« « ١٣٠٥
٢٥ مجمع الامثال للميداني مشروح	بيروت « ١٣١٢
٢٦ مصارع العشاق للسراج	الاستانة « ١٣٠١
٢٧ معجم البلدان لياقوت الحموي ٦ اجزاء	ليبسيك « ١٨٧٠

٢٨ معجم ما استعجم للبكري جزءان	غوتنجن سنة	١٨٧٧
٢٩ المعلقات وشروحها	مصر «	١٣١٩
٣٠ المفضليات للمفضل الضبي	ليبسيك «	١٨٨٥
٣١ نقد الشعر لقدامة بن جعفر	الاستانة «	١٣٠٢

ولا يخفى ان للمستشرقين عناية كبرى في الشعر العربي ولهم فيه ابحاث وانتقادات واليك اشهر ما كتبوه بهذا الشأن لعل القارئ يحب الاطلاع عليها نذكرها باللغات التي كتبت فيها مع مكان طبعها وسنته :

Ahlwardt., Ueber Pœsie und Pœtik der Araber; Gotha, 1856
Clouston, Arabian Pœtry for English readers, Glasgow, 1881
Guyard, Théorie nouvelle de la métrique arabe précédée de consideration gen.sur le rhyme natural du langue, J. A. 1876
Muir, Ancient Arabic Pœtry; its genuinness & its Authentity, J. R. A. S. 1879
Nœldeke, Beiträge Zur Kenntness der Pœsie der alten Araber, Hanover; 1864
Slane, Le diwan d'Amrou'l'Kais précédé de la vie de ce poète, Paris, 1837
Lyall, Translation of Ancient Arabic pœtry, London, 1885

وهناك شرح للمعلقات بالعربية والفارسية والهندية اسمه رياض الفيض طبع في لاهور (الهند) سنة ١٢٩٩



رابعاً — الخطابة

في الجاهلية

الخطابة تحتاج الى خيال و بلاغة ولذلك عددناها من قبيل الشعر او هي شعرٌ منثور وهو شعرٌ منظوم وان كان لكل منهما موقف . فالخطابة تحتاج الى الحماسة و يغلب تأثيرها في ابناء عصر الفروسية واصحاب النفوس الابية طلاب الاستقلال والحرية مما لا يشترط في الشعر . ولذلك تشابهت جاهلية العرب وجاهلية اليونان من هذا الوجه لان كليهما اهل شعر وخطابة واهل اباء واستقلال • ولذلك ايضاً كانت الخطابة رائجة عند الرومان مع تأخر الشعر عندهم . ولنفس هذا السبب قصر العبرانيون في الخطابة مع تقدمهم في الشعر لغلبة الذل والضعف على طباعهم فتحول خيالهم الشعري الى الشكوى والتضرع وانصرفت قرائحهم الى نظم المراثي والحكم

اما العرب فقد قضى عليهم الاقليم بالحرية والحماسة وهم ذوو نفوس حساسة مثل سائر اهل الخيال الشعري فاصبح للبلاغة وقع شديد في نفوسهم فالعبارة البليغة تقعدهم او تقيمهم بما تثيره في خواطرهم من النخوة . واقتضت المنازعات بينهم ان يتفاخروا و يتنافروا فاحتاجوا الى الخطابة في الاقناع وتأليف الاحزاب — وان غلب في مواضيع خطبهم المفاخرة بالاحساب والآداب في المجالس والاندية العمومية والخصوصية وكانوا يخطبون وعليهم العمائم وهم وقوف في ايديهم المخاصر ويعتمدون على الارض بالقسي و يشيرون بالعصي والقنا وقد يخطبون وهم جلوس على رواحلهم (١) . ومما يدل على تشابه الشعر والخطابة ان الغالب في الشعراء ان يخطبوا والخطباء ان ينظموا فيكون الواحد شاعراً وخطيباً فاذا غلب عليه الشعر سموه شاعراً او الخطابة سموه خطيباً . والقبائل التي كثر خطباؤها هي غالباً التي كثر شعراؤها . ومن اقوالهم في تاريخ الشعر والخطابة ان عبد القيس بعد محاربة اياد تفرقوا فرقتين فمرقة وقعت بعمان وشق عمان وفيهم خطباء العرب وفرقة وقعت الى البحرين وشق البحرين وهم من اشعر القبائل ولم يكونوا كذلك حين كانوا في سرة البادية وفي معدن الفصاحة (٢) ويدل ذلك على نتائج احتكاك الافكار عند الاختلاط بالاعاجم . ولهذا السبب كثر الخطباء

(١) البيان والتبيين ٢٠ ج ٢ و ١٣٩ ج ١ (٢) البيان ٤٢ ج ١

ايضاً في اليمن لاختلاطهم بالفرس وكان الفرس اهل خطابة مثل العرب

﴿ مواضيع الخطب ﴾ وكان العرب يخطبون بعبارة بليغة فصيحة وهم أميون لا يقرأون ولا يكتبون وانما كانت الخطابة فيهم قريحة مثل الشعر وكانوا يدربون فتيانهم عليها من حداثتهم[1] لاحتياجهم الى الخطباء في ايفاد الوفود مثل حاجتهم الى الشعراء في حفظ الانساب والدفاع عن الاعراض . ولكنهم كانوا يقدمون الشاعر على الخطيب في الجاهلية فلما جاء الاسلام صار الخطيب مقدماً لحاجتهم اليه في الاقناع وجمع كلمة الاحزاب . ولكن نظراً لحاجة العرب الى الخطباء في ارسال الوفود فقد كان خطيب القبيلة عندهم عميدها وزعيمها وهو واحدٌ يعدل قبيلة ولسانٌ يعرب عن ألسنة

أما ايفاد الوفود فقد كان شائعاً في تلك العصور فكانت دول الروم والهند والصين والفرس يتبادلون الوفود لمبادلة العلائق او للمفاخرة . ولم يكن للعرب دولة تستوفد من قبلها ولكن المناذرة ملوك العرب في العراق كانوا يذكرون فصاحة العرب بين يدي الاكاسرة وخصوصاً كسرى انو شروان فكان يميل الى مشاهدتهم . فاتفق مرة ان النعمان خاطبه في ذلك فطلب اليه ان يريه واحداً منهم فاستقدم جماعة من خطباء العرب اختار من كل قبيلة اثنين او ثلاثة هم بالحقيقة حكماؤها ووجهاؤها ومنهم اكثم ابن صيفي وحاجب بن زرارة من قبيلة تميم والحارث بن ظالم وقيس بن مسعود من قبيلة بكر وخالد بن جعفر وعلقمة بن علاثة وعامر بن الطفيل من بني عامر وغيرهم . فقدموا على كسرى وخطب كل منهم بين يديه خطاباً ذكره ابن عبد ربه مفصلاً في الجزء الثالث من العقد الفريد

على ان عرب اليمن وشرقي جزيرة العرب كانوا يقدمون على كسرى للشكوى من عماله هناك وكان غيرهم من العرب يفدون عليه بالهدايا من الخيل ونحوها على سبيل الاستجداء كما فعل أبو سفيان والد معاوية

وكانوا يفدون على الامراء من العرب وغيرهم كوفود حسان بن ثابت على النعمان ابن المنذر بالحيرة وعلى آل جفنة في البلقاء . ووفود وجهاء قريش على سيف بن ذي يزن في اليمن بعد قتله الحبشة ـ وفدوا عليه للتهنئة بالنصر وكان في جملة خطباء ذلك الوفد

(١) البيان والتبيين ٥٨ و ٩٨ ج ١

عبد المطلب جد النبي . ومن هذا القبيل وفود القبائل على النبي بعد ان استتبَّ له الامر فقد جاءه من كل قبيلة وجهاؤُها وخيرة بلغائها للدخول في الاسلام او للاستفهام اوغير ذلك . ومن هذا القبيل أيضاً وفود العرب على الخلفاء للتسليم والتهنئة كوفود جبلة بن الايهم وعمرو بن معدي كرب على عمر بن الخطاب ووفود اهل اليمامة على ابي بكر وغيرهم مما يطول شرحه .

﴿ الخطباء ﴾ وجملة القول ان الخطباء كانوا عديدين في النهضة الجاهلية كالشعراء والغالب فيهم ان يكونوا أمراء القبائل أو وجهاءها او حكماءها . وكان لكل قبيلة خطيب او غير خطيب كما كان لها شاعر او غير شاعر . واشهر خطباء الجاهلية قس بن ساعدة من بني اياد وقد ادركه النبي فرآه في سوق عكاظ على جمل احمر وهو يقول في خطابه « أيها الناس اجتمعوا فاسمعوا وعوا من عاش مات ومن مات فات وكل ما هو آتٍ آت »[١] وقد تقدم ذكره بين الشعراء

ومنهم سحبان وائل الباهلي الذي يضرب المثل بفصاحته فيقال « هو اخطب من سحبان وائل » وكان اذا خطب يسيل عرقاً ولا يعيد كلمة ولا يتوقف ولا يقعد حتى يفرغ . ومنهم جماعة كبيرة من حمير كدويد بن زيد وزهير بن جناب ومرثد الخير وغيرهم من سائر القبائل كالحارث بن كعب المذحجي وقيس بن زهير العبسي وذي الاصبع العدواني واكثم بن صيفي التميمي وعمرو بن كلثوم غيرهم

وكانوا يتخيرون في خطبهم الالفاظ الرقيقة والمعاني المألوفة . وكانت خطبهم على ضربين الطوال والقصار . والقصار اكثر عدداً لانهم كانوا يفضلونها لسهولة حفظها . وكانوا لشدة عنايتهم بالخطب يتوارثونها ويتناقلونها في الاعقاب ويسمونها باسماء خاصة كالعجوز خطبة لآل رقبة والعذراء خطبة قيس بن خارجة والشوهاء خطبة سحبان[٢]

وتجد امثلة من خطب الجاهلية او بأثناء الفتوح في كتب الادب ولاسيما العقد الفريد لابن عبد ربه . والبيان والتبيين للجاحظ والاغاني ونهج البلاغة (خطب علي) وفي كتب المغازي والفتوح كفتوح الشام لابي اسماعيل البصري وفتوح الشام للواقدي وفتوح البلدان للبلاذري والسيرة النبوية لابن هشام وتاريخ الطبري وابن الاثير وغيرها

---

(١) البيان والتبيين ١١٩ ج ١ (٢) البيان والتبيين ١٣٣ ج ١

خامساً — الانساب

في الجاهلية

﴿ الانساب ﴾ كان للانساب في عصور الجاهلية عند الامم القديمة شأن كبير وكان للناس عناية عظمى في حفظ انسابهم للتناصر على الاعداء او للتفاخر بالآباء . وقد بالغ اليونان في ذلك حتى حفظوا انساب آلهتهم وكيفية تسلسلها بعضها من بعض ثم نسبوا انفسهم اليها فلم يكن في جاهلية اليونان اسرة كبيرة من الاشراف ورجال السلطة الا وحبل نسبها يتصل ببعض تلك الآلهة . وقد نظم بعضهم الاشعار للتفاخر بذلك قبل المسيح ببضعة قرون . وكذلك كان الرومان في اقدم اجيالهم فالطبقة التي تعرف عندهم بالبطارقة كانوا يدعون الانتساب الى آباء أعلى طبقة من البشر . ومن هذا القبيل انتساب اليهود الى الآباء الاولين والانبياء وافتخارهم بذلك على سائر الامم وهم يمتازون في هذا عن اليونان والرومان انهم يرجعون جميعاً الى أب واحد — وهذا ايضاً من قبيل ميلهم الفطري الى التوحيد مثل سائر الامم السامية

﴿ نسب العرب ﴾ والعرب من حيث انسابهم فرع من العبران لان العدنانيين منهم يرجعون في أصل آبائهم الاولين الى اسماعيل بن ابراهيم والقحطانيين ينتسبون الى يقطان بن عابر . وقد زادت عناية العرب في الانساب رغبة في التناصر على الغرباء او بعضهم على بعض . وقد رتبت انساب العرب في ست مراتب او طبقات اولها الشعب ثم القبيلة فالعمارة فالبطن فالفخذ فالفصيلة . فالشعب هو النسب الابعد مثل عدنان وقحطان ثم القبيلة وهي ما انقسمت فيها انساب الشعب مثل ربيعة ومضر ثم العمارة وهي ما انقسمت فيها انساب القبائل مثل قريش وكنانة ثم البطن وهو ما انقسمت فيه انساب العمارة مثل بني عبد مناف وبني مخزوم ثم الفخذ وهو ما انقسمت فيه انساب البطن مثل بني هاشم وبني أمية ثم الفصيلة مثل بني أبي طالب وبني العباس [1]

وبالغ العرب في الرجوع الى الاجداد حتى رجعوا باسماء المدن الى اسماء بعض اجدادهم . والغالب ان ينتهي النسب باحد آباء التوراة — فاذا سئل احدهم مثلاً عن

(١) الماوردي الاحكام السلطانية ١٩٤

الاندلس من بناها قال « بناها اندلس بن يافث بن نوح » [١] وكان النسابون يحفظون اسماء القبائل وما يتفرع منها حفظاً دقيقاً فاذا عرض لهم رجل فقال انا من بني تميم مثلاً انسبني فانه يبدأ من قبيلة تميم وما تفرع منها من العمائر والبطون والافخاذ حتى ينتهي الى الفصيلة ومنها الى والد السائل او اليهِ هو نفسه

وكثر النسابون في الجاهلية ولم تخلُ قبيلة او عمارة او بطن من نسابة او غير نسابة ومن اشهرهم دغفل السدوسي من بني شيبان وعميرة ابو ضمضم وابن لسان الحمرة من بني تيم اللات وزيد بن الكيس النمري والنخار بن أوس القضاعي وصعصعة بن صوحان وعبد الله بن عبد الحجر بن عبد المدان وغيرهم [٢] وظل النسب محفوظاً في صدر الاسلام واشتهر كثير من النسابين فلما آلت الدولة الى الموالي والمصطنعين صار الناس ينتسبون الى مواليهم ومصطنعيهم

وقد دون المسلمون انساب العرب في صدر دولتهم وسنذكر ذلك في الكلام عن العلوم الاسلامية

سادساً — الاخبار او التاريخ

في الجاهلية

لم يكن عند العرب الجاهلية تاريخ من قبيل ما نفهمهُ من هذه اللفظة اليوم ولكنهم كانوا يتناقلون اخباراً متفرقة بعضها حدث في بلادهم والبعض الآخر نقله اليهم الذين عاشروهم من الامم الاخرى . فمن امثال اخبارهم حروب القبائل المعروفة بايام العرب وقصة سد مأرب واستيلاء ابي كرب تبان اسعد على اليمن وبعض من خلفه وملك ذي نواس وقصة اصحاب الاخدود وفتح الحبشة لليمن وقصة اصحاب الفيل وقدومهم الكعبة وحرب ذي يزن الحميري الى آخر ما انتهى اليه امر الفرس في اليمن وقصة عمرو بن لحي واصنام العرب وحكاية جرهم ودفن زمزم وتاريخ الكعبة الى ايام قصي بن كلاب وولاية الحج وامر عامر بن الظرب ثم ما كان من غلب قصي على امر مكة وقصة حلف المطيبين

---

(١) ابن خلكان ١٤ ج ١ (٢) بلوغ الارب ١٩٦ ج ٣ والبيان ١١٨ ج ١

وحلف الفضول وحفر بئر زمزم وحرب الفجار وحديث بنيان الكعبة . غير اخبار عاد وثمود وغيرهما من العرب البائدة وحكاية بلقيس وسليمان ونحوهما من اخبار التوراة وغير ذلك من الاخبار التي كان العرب يتناقلونها عند ظهور الاسلام

سابعاً — اسواق العرب ومجالس الادب

في الجاهلية

١ — اسواق العرب

المراد بالسوق مكان يجتمع فيه اهل البلاد أو القرى في اوقات معينة يتبايعون ويتداولون ويتقايضون . ولا تزال أمثال هذه الاسواق تقام الى اليوم في القرى أو في البلاد البعيدة عن التمدن الحديث . على ان في بعض المدن الكبرى كالقاهرة مثلاً اسواقاً تنعقد في بعض ايام الاسبوع وتعرف بها كسوق السبت أو السبتية وسوق الثلاثاء أو الاربعاء . فيجتمع اليه الناس من الضواحي للبيع والشراء

ومن هذه الاسواق ما ينعقد كل اسبوع ومنها ما لا ينعقد الا مرة في الشهر أو في السنة ومنها ما ينعقد مرة كل بضع سنين . فان للهنود سوقاً يقيمونها في هردوار على ضفاف الكنج كل سنة ويبلغ عدد المجتمعين هناك في الموسم ٣٠٠٠٠٠ نفس . ويقيمون في ذلك المكان حجًّا مرة كل ١٢ سنة يبلغ عدد الحاجين اليه نحو مليون نفس وهو اكبر اسواق العالم . وأمثال هذه الاسواق كثيرة في روسيا وبلاد الدولة العلية وفي جرمانيا وفرنسا وانكلترا واميركا . ففي روسيا سوق تقام في مدينة نوفكرود مرتين في السنة يبلغ عدد الذين يؤمونها ١٢٠٠٠ نفس يجتمعون هناك من سائر بلاد روسيا ومن شرقي اوربا . ويقدرون قيمة ما يباع من البضائع في اسواق روسيا بنحو ١٢٠٠٠٠٠٠٠ روبل في العام وقس على ذلك سائر الاسواق الكبرى

وقد كان كثير من امثال هذه الاسواق في العالم القديم . ولكن الاقدام لا تتزاحم فيها الا اذا كان الغرض من الاجتماع حجاً دينيًّا . فاذا اجتمع الناس في مكان الحج وتكاثروا احتاجوا الى من يبيعهم الاطعمة والاشربة وغيرها فتقام الاسواق لهذه الغاية كذلك كان شأن العرب في سوق عكاظ وغيرها من اسواق الجاهلية

﴿ اسواق العرب ﴾ كان للعرب في الجاهلية اسواق يقيمونها في اشهر السنة وينتقلون من احداها الى الاخرى يحضرها العرب من قرب منهم ومن بعُد . فاذا فرغوا من سوق انتقلوا الى سواها . فكانوا ينزلون دومة الجندل في أعالي نجد اول يوم من شهر ربيع الاول فيقيمون اسواقها للبيع والشراء والاخذ والعطاء . ثم ينتقلون الى سوق هجر فيقمون هناك شهراً ويرتحلون منها الى عمان فيقيمون سوقهم ثم يرتحلون الى حضرموت فعدن وبعضهم ينزل صنعاء فيقيمون اسواقهم ثم يرتحلون الى عكاظ في الاشهر الحرام . وكانت لهم اسواق أخرى في صحار والشحر والجنة وحباشة والمشقر وغيرها (١)

﴿ سوق عكاظ ﴾ واشهر اسواق العرب الجاهلية سوق عكاظ وهي مكان بين الطائف ونخلة صحراء مستوية لا علم فيها ولا جبل الا ما كان من الانصاب التي كانت لاهل الجاهلية وبها من دماء البدن كالارحاء العظام (٢) فكانت العرب اذا قصدت الحج اقامت بهذه السوق من اول ذي القعدة يبيعون ويشترون الى عشرين منه ثم يتوجهون الى مكة فيقضون مناسك الحج ثم يعودون الى اوطانهم . . وكان كل شريف انما يحضر سوق بلده الا عكاظ فانهم كانوا يتوافدون اليها من كل ناحية . ومن كان له اسير سعى في فدائه هناك ومن كانت له حكومة ارتفع الى الذي يقوم بامر الحكومة في ايام المواسم وهم أناس من تميم . ومن كان له ثار على احد ولم يعرف مكانه طلبه في الموسم . أو اراد احداً ان يعمل عملاً تعرفه العرب أو يستشهدها فيه عملهُ في عكاظ (٣) أو أراد ان يفاخر احداً على مشهدٍ من الناس فاخره هناك . وكانوا يتفاخرون حتى في كبر المصائب كما تقدم عن معاظلة الخنساء وهند بنت عتبة .

وانما يهمنا في هذا المقام ان العرب كانوا يغتنمون وقت الموسم واجتماع القبائل ويقيمون مجالس البحث في كل موضوع كالمناشدة والمفاخرة فينشد الشعراء ويخطب الخطباء فيختارون كبيراً من وجهائهم يجعلونه حكماً فيما يختلفون فيه . وكان النابغة الذبياني اذا اتى عكاظ في الموسم ضربوا له قبة حمراء من ادم وتأتيه الشعراء فتعرض

(١) نهاية الارب (خط) (٢) معجم البكري ٦٦٠ (٣) الاغاني ٢ ج ١٣

عليه اشعارها [١] ليحكم فيها ويقال انهم كانوا اذا أقروا على فضل قصيدة علقوها هنالك أو في الكعبة ومنها المعلقات السبع

وشأن العرب في ذلك شأن اليونان القدماء في الجناسيوم وهي ابنية كانوا يجتمعون فيها للالعاب البدنية وفيهم الفلاسفة والعلماء فكانوا يتنمون فرصة وجودهم هنالك ويتباحثون ويتناظرون ويتنافرون كما كان يفعل العرب في عكاظ [٢] ولا يخفى ما في ذلك من تمحيص الحقائق واستحثاث القرائح فضلاً عما كان يترتب على ذلك الاجتماع من تنقيح اللغة ونموها . فان قريش كانوا يسمعون لغات القبائل في اثناء تلك الاجتماعات فما استحسنوه من لغاتهم تكلموا به فصاروا افصح العرب وخلت لغتهم من مستبشع اللغات ومستقبح الالفاظ كالكشكشة والكسكسة والعنعنة والفخفخة والوكم والوهم والعجعجة والاستنطاء والشنشنة وغير ذلك من العيوب في لغات الامم الاخرى [٣]

٢ — مجالس الادب

وكان للعرب مجالس يجتمعون فيها لمناشدة الاشعار ومبادلة الاخبار والبحث في بعض شؤونهم العامة . وكانوا يسمون تلك المجالس الاندية ومنها نادي قريش ودار الندوة بجوار الكعبة وكان لكل بيت فناء بين يديه للاجتماع [٤] ولكل قوم مجتمع عام في المضارب [٥] على انهم كانوا حيثما اجتمعوا تناشدوا وتفاخروا

وتجد اخبار اسواق العرب واماكنها في جملة التاريخ الجاهلي . وفي كتب الاقاليم والمعاجم الجغرافية وخصوصاً معجم البلدان لياقوت الحموي ومعجم ما استعجم للبكري وصفة جزيرة العرب للهمداني وكلها مطبوعة . فضلاً عما جاء من اخبارها في الاغاني ٩ ج ١ و٦١ ج ٢ و٢٢ و١١٠ و١٣٦ ج ٤ و٩٢ ج ٦ و٤٦ ج ٧ و١٠ ج ٩ و١٢ و٢٩ و١٤٨ ج ١٠ و٥٤ ج ١٢ و١٤١ ج ١٣ و٤١ ج ١٤ و٧٣ ج ١٩ وفي السيرة النبوية وغيرها

---

(١) الشعر والشعراء ١٩٧ (٢) Lit. Gr. 132 (٣) المزهر ١٠٩ ج ١
(٤) الاغاني ٥٢ ج ٢ (٥) الاغاني ١٢٩ ج ١١

ثامناً - العلوم الطبيعية

في الجاهلية

١— الطب

الطب من جملة العلوم التي اشتهر بها الكلدان كهنة بابل و يقال انهم أول من بحث في علاج الامراض فكانوا يضعون مرضاهم في الازقة ومعابر الطرق حتى اذا مرَّ بهم احد أصيب بذلك الداء أخبرهم بسبب شفائه فيكتبون ذلك على الواح يعلقونها في الهياكل ولذلك كان التطبيب عندهم من جملة اعمال الكهان . وعن الكلدان اخذت سائر الامم القديمة وفي جملتها العرب وهو متشابه عند تلك الامم في مصر وفينيقية واشور وكان لمصر شأن خاص فيه. ثم تناوله اليونان فاتقنوه ورتبوا ابوابه وعنهم اخذ الرومان والفرس . ونظراً لمعاصرة العرب لهذه الدول فقد اقتبسوا شيئاً من طبها اضافوه الى ما جاءهم به الكلدان والى ما استنبطوه من عند انفسهم بالاختبار فتألف من ذلك ما عبرنا عنه بالطب في الجاهلية ولا يزال كثير منهم الى اليوم في قبائل البادية . وكان للتطبيب عندهم طريقتان الاولى طريقة الكهان والعرافين والثانية طريقة العلاج الحقيقية . فالكهان كانوا يعالجون بالرقى والسحر او بذبح الذبائح في الكعبة والدعاء فيها او بالتعزيم او نحو ذلك

وكان التطبيب بالرقي شائعاً في الامم القديمة كلها وقد وجدوا في الآثار المصرية كثيراً من العزائم التي كانوا يصفونها لمعالجة المرضى . وجاء في اخبارهم ان كاهنهم كان اذا سار لمعالجة مريض صحبه خادمان احدهما يحمل كتاب العزائم والثاني يحمل صندوق العقاقير الطبية وهم يعالجون بالاثنين معاً . وكانوا يوجهون كلامهم في العزيمة او الرقية الى احد آلهتهم وخصوصاً ايزيس واوزيرس ورع . ولهم عبارات يقولونها عند صنع الادوية وعند مناولتها للمريض . فمن امثلة العزائم التي كانوا يتلونها عند تناول الدواء « هذا هو كتاب الشفاء لكل مريض فهل لايزيس ان تشفيني كما شفت حوريس من كل الم اصابه من اخيه ست حينما قتل اباه اوزيريس فيا ايزيس انت الساحرة الكبيرة اشفيني وخلصيني من كل شيء مكدر رديء شيطاني ومن امراض اللبسة والامراض القاتلة والخبيثة بانواعها التي تعتريني كما خلصت ابنك حوريس ... » (١) وكان عندهم

(١) بغية الطالبين ٢٠٨

عزائم لاخراج الارواح الشريرة التي تسبب الامراض في زعمهم

فعلى هذه الكيفية كان العرب يتلون العزائم لاصنامهم ويرقون لاخراج الجان او الشياطين . وكان اعتقادهم من هذا القبيل انهم اذا خافوا وباءً نهقوا نهيق الحمار يزعمون ان ذلك يمنعهم من الوباء وان شرب دماء الملوك يشفي من الخبل

واما معالجاتهم العقارية فشبيهة بما كان عند المصريين وغيرهم من الامم القديمة فقد كانوا يعالجون بالعقاقير البسيطة او الاشربة وخصوصاً العسل فانه كان قاعدة العلاج في امراض البطن — على ان اعتمادهم في معالجة الامراض كان معظمه عائداً الى الجراحة كالحجامة والكي ومن اقوالهم « كل داء حسم بالكي آخر الامر . وآخر الطب الكي » وكثيراً ما كانوا يعالجون بالقطع او البتر والغالب ان يكون ذلك بالنار فان النار عندهم كانت تقوم مقام مضادات الفساد عندنا . فاذا ارادوا فصل عضو حموا شفرة بالنار وقطعوه بها كما فعلوا بصخر بن عمرو اخي الخنساء لما نتأت قطعة من جوفه مثل الكبد على أثر طعنة فاحموا له شفرة وقطعوها (١)

وكانوا يعالجون حول البصر بادامة النظر الى حجر الرحى في دورانه ويزعمون ان العين تستقيم به. ومن معالجاتهم التي نعدُّها اليوم خرافة ان المجروح اذا شرب الماء مات (٢) واذا خافت المرأة حتى برد قلبها سقوها ماءً حارًّا (٣)

﴿ الاطباء ﴾ وأما الاطباء فقد كانوا في اول الامر من الكهنة ثم تعاطى الطب جماعة من العرب ممن خالطوا الروم والفرس واخذوا الطب عنهم فاشتهروا بهذه الصناعة واكثرهم من اهل النهضة الاخيرة قبل الاسلام حوالي القرن السادس للميلاد . على ان بعضهم اقدم من ذلك كثيراً واقدم اطبائهم لقمان وهو حكيمهم وفيلسوفهم وفي اصله وزمن وجوده اختلاف . يليه رجل من تيم الرباب يقال له ابن حزيم ويضربون به المثل بالحذاقة في الطب فيقولون لمن ارادوا وصفه بذلك اطبُّ من ابن حزيم وفيه يقول اوس بن حجر :

فهل لكم فيها اليَّ فانني بصير بما اعيا النطاسي حزيما

ومن احدث اطباء الجاهلية الحرث بن كلدة توفي سنة ١٣ للهجرة وهو من بني

(١) الاغاني ١٣٧ ج ١٣ (٢) الاغاني ١٣١ ج ١٤ (٣) الاغاني ٣٢ ج ١٠

ثقيف من اهل الطائف رحل الى ارض فارس واخذ الطب من جنديسابور وتعاطى صناعة الطب هناك واكتسب مالاً ثم عاد الى بلاده واقام في الطائف ونال شهرة واسعة وقد ادرك الاسلام وكان النبي يأمر من كان به علة ان يأتيه فيستوصفه — ومنهم ابن ابي رومية التميمي والنضر بن الحرث بن كلدة

واكثر هؤلاء الاطباء تناولوا الطب من بلاد الفرس او الروم وبعضهم اخذه عن الكهان او الاحبار من الاديار ونحوها . وربما اخذوا عنهم شيئاً من الفلسفة القديمة كما فعل النضر المذكور . والظاهر ان بعضهم كان يخصص نفسه للاعمال الجراحية فيغلب عليه لقب الجراح واشهر جراحي الجاهلية ابن ابي رومية التميمي المتقدم ذكره فقد كان جراحاً مزاولاً لاعمال اليد

ويؤخذ مما حوته اللغة العربية قبل الاسلام من اسماء العلل والامراض والعقاقير أن العرب عرفوا كثيراً من الامراض ومعالجتها . وناهيك بما عرفوه وتوسعوا فيه من احوال الاعضاء واوصافها وهو من قبيل علم التشريح . وهم يعبرون عنه بخلق الانسان وقد الف ادباء المسلمين كتباً كثيرة في هذا الموضوع نقلاً عن العرب سيأتي ذكرها بين مؤلفات اهل اللغة . والمتأمل في ما حوته من اسماء الاعضاء واوصافها يتبين له ان اولئك الجاهليين كانوا على معرفة بتشريح الاعضاء لان عندهم لكل عضو اسماً ووصفاً من الرأس وما يتركب منه وما له من الصفات . الى الشعر واقسامه والوانه . فالاذن وما تركبت منه واقسامها . فالوجه وما تركب منه . فالحاجب وانواعه وما يحمد منه وما يذم . والعين واصنافها وطبقاتها ومجاري دمعها وغير ذلك مما اشتملت عليه . والانف وما تركب منه وبيان اقسامه . والفم وما تركب منه . والاسنان وعددها واسماء اصنافها واجزائها ومنابتها . واللسان وما اشتمل عليـهِ من الاجزاء والعظام التي في اسفله . والحلق وبيان ما فيه من اللغاديد واللغانين والحنجرة والغلصمة والبلعوم والحلقوم . واللحيين وبيان محلها واسماء ما تركبا منه . واللحية واسماء اجزائها واقسامها والوانها وسائر اوصافها . والعنق وما تركب منه . والمنكب والكتف وما اشتملا عليه . واليد وما تركبت منه من العظام والاعصاب والعضلات والعروق وما وضع لذلك من الاسماء والاصابع واسمائها واجزائها . والظفر واقسامه واسمائه . والصدر وما تركب منه . والجنبين وعدد اضلاعها واسمائهما وما يلحق ذلك . والبطن وما حوى . وهكذا في سائر الاعضاء . وقد توسعوا في بعضها حتى وضعوا لكل عضو عدة اسماء

وتجد نتفاً من الطب الجاهلي في العقد الفريد والاغاني والكشكول وحياة الحيوان وسواها من كتب الادب وغيرها ويستخرج شيء كثير من اشعارهم

٢ — البيطرة والخيل وعلوم طبيعية اخرى

وكان للعرب معرفة حسنة في شؤون الخيل واحوالها لم يسبقهم اليها سواهم لما تعلمه من عنايتهم بافراسهم و يعبرون عنها بالبيطرة . ونبغ فيهم غير واحد من اطباء الحيوان منهم العاص بن وائل . وظلت هذه المعرفة تتناقل في افراد منهم الى اليوم وهم يجولون في البادية يعالجون الخيل معالجة الحاذقين . وروى عنهم الرواة في صدر الدولة العباسية ووضعوا الكتب في ما جمعوه من هذا العلم . وخصص الآلوسي صاحب بلوغ الارب فصلاً في هذا الموضوع بالجزء الثالث من كتابه جاء فيه على كثير من عيوب الخيل وما يستحب منها نقلاً عن كتاب الخيل لابي عبد الله الاسكافي

وقد الف الادباء كثيراً من الكتب في الخيل وهي ترمي الى نحو هذا الغرض . وتعدّ من كتب اللغة سيأتي ذكرها

ومن المعارف الطبيعية التي توصلوا اليها : اولاً استنباط الماء ويسمونه الريافة فانهم كانوا يعرفون وجود الماء في مكان بشم التراب او برائحة بعض النباتات او نحو ذلك . ثانياً الاهتداء في البراري بامارات يعرفونها بالاتربة اوبالنجوم . ثالثاً نزول الغيث وهو من قبيل الظواهر الجوية . رابعاً الملاحة وقد اضطروا الى معرفتها لاسفارهم الى الهند والحبشة للاتجار من عهد دول اليمن . وتجد امثلة من معارفهم هذه في الجزء الثالث من كتاب بلوغ الارب في احوال العرب للالوسي وهو مطبوع في بغداد سنة ١٣١٤

٣ — الانواء ومهاب الرياح

و يراد بالانواء عندهم ما يقابل علم الظواهر الجوية عندنا مما يتعلق بالمطر والرياح ولكنهم كانوا ينسبون الظواهر المذكورة الى طلوع الكواكب اوغروبها ولذلك كان علم الانواء فرعاً من علم النجوم وكانوا يسمون طلوع المنزلة نوءها اي نهوضها وسموا تأثير الطلوع بارحاً وتأثير السقوط نوءا ومن طلوع كل واحدة منها الى طلوع التي تليها ثلاثة عشر يوماً سوى الجبهة فان بين طلوعها وطلوع التي تليها ١٤ يوماً . ومن اقوالهم في ذلك :

والدهر فاعلم كله ارباع   لكل ربع واحد اسباع
وكل سبع لطلوع كوكب   ونوء نجم ساقط في المغرب
ومن طلوع كل نجم يطلع   الى طلوع ما يليه اربع
من الليالي ثم تسع تتبع

ثم اختلفوا فيها فزعم بعضهم ان كل تأثير يكون بعد طلوع منزلة الى طلوع التي تتلوها فهو منسوب اليها وزعم آخرون ان لطلوع كل واحدة وسقوطها مقداراً من الزمن ينسب اليها ما يكون فيه فاذا انقضت تلك المدة لم ينسب اليها ما يكون بعدها . وكانوا اذا تحقق التأثير فلم يظهر منه شيء في تلك الازمنة قالوا خوى النجم او خوت المنزلة يعنون بذلك مضت مدة نوء ولم يكن فيه مطر او حر او برد او ريح [1] ومن امثالهم « اخطأ نوءك » يضرب لمن طلب حاجة فلم يقدر عليها [2]

وكانوا اذا امطرت السماء نسبوا المطر الى تأثير النجم المتسلط في ذلك الوقت فيقولون مثلاً مطرنا بنوء الجبهة او هذا نوء الخريف ومطرنا بالشعرى . وقالوا ان النوء سقوط نجم ينزل في المغرب مع الفجر وطلوع رقيبه في الشرق من انجم المنازل ولذلك كانت الانواء ٢٨ نوءاً او نجماً كانوا يعتقدون انها هي علة الامطار والرياح والحر والبرد وفي اشعارهم امثلة كثيرة تدل على علاقة احوال الجو او فصول السنة باقترانات الكواكب او طلوعها وقد نظموها شعراً ليسهل حفظها على الناس لقلة الكتابة عندهم ومن ذلك قولهم :

اذا ما قارن القمر الثريّا   لثالثة فقد ذهب الشتاء

وقول الآخر :

اذا ما البدر تمّ مع الثريا   اتاك البرد اوله الشتاء

وقول الآخر :

اذا ما قارن الدبران يوماً   لاربع عشرة قمر التمام
فقد حفّ الشتاء بكل ارض   فوارس مؤذنات باحتدام
وحلق في السماء البدر حتى   يقاس ظل اعمدة الخيام
وذلك في انتصاف الليل شطراً   ويصفو الجو من كدر الغمام

---

(١) الآثار الباقية للبيروني ٣٣٩   (٢) مجمع الامثال للميداني ٢٠٢ ج ١

وقول الآخر :

اذا ما هلال الشهر اول ليلة بدا لعيون الناس بين النعائم
اتتك رياح القر من كل وجهة وطاب قبيل الصبح كور العمائم

وقول الآخر :

وقد برد الليل التمام باهله واصبحت العواء للشمس منزلا [١]

وكان عندهم لمطلع كل كوكب او منزل وصفٌ يدلُّ على تأثير ذلك في الطقس على اعتقادهم ومن هذا القبيل اعتقادهم تأثير النجوم في اعمال البشر على ما كان عند الكلدان [٢] على انهم كثيراً ما كانوا يستدلون على المطر ايضا بالوان الغيوم واشكالها فاقلُّ الغيوم مطراً عندهم البيضاء ثم الحمراء ثم السوداء ومن اقوالهم « السحابة البيضاء جفل والحمراء عارضٌ والسوداء هطلة » [٣]

وكان العرب في حاجة الى معرفة مهاب الرياح للاهتداء في اسفارهم ولذلك فقد وضعوا لها الاسماء ولكنهم اختلفوا في عدد جهاتها فحسبها بعضهم ستة والبعض الآخر اربعة . فهي عند اصحاب القول الثاني ١ مهب الصبا من الشمال ٢ مهب الشمال من المغرب ٣ مهب الدبور من الجنوب ٤ مهب الجنوب من المشرق . ويزيد عليها اصحاب القول الاول النكباء بجانب الشمال والمحوة بجانب الجنوب . واليك قول ذي الرمة في ذلك

اهاضيب انواء وهيفان جرتا على الدار اعراف الجبال الاعافر
وثالثة تهوى من الشام حرجف لها سنن فوق الحصى بالاعاصر
ورابعة من مطلع الشمس اجفلت عليها بدقعاء المعا فقراقر
تحنثها النكب السوافي فاكثرت حنين اللقاح القاريات العواشر [٤] .

وتجد امثلة في هذا الموضوع في ما يأتي ذكره من الكتب التي تبحث في الفلك

(١) البيروني ٣٢٧ (٢) Rawlinson's Ancient Monarchies III. 425
(٣) الميداني ١٠٩ ج ١ (٤) البيروني ٢٤٠

تاسعاً — العلوم الرياضية

فى الجاهلية

١ — الفلك او النجوم

معظم هذه العلوم دخيل على العرب اقتبسوه من الامم الاخرى ممن هاجر اليهم وقام بين ظهرانيهم أو التقوا بهم في اسفارهم واكثر اخذهم عن الكلدان . فقد اخذوا عنهم علم النجوم وتعلموا منهم مواقع الابراج ومناطقها ومنازل القمر والشمس وربما كان لهم علمٌ بشيء من احكامها من عند انفسهم او مما وصل اليهم من طريق الهند أو غيرها ولكن يقال بالاجمال ان العرب مدينون بعلم النجوم للكلدان وهم يسمونهم الصابئة — والصابئة ان لم يكونوا الكلدان انفسهم فهم خلفاؤهم او تلامذتهم [١] وكان الصابئة كثيرين في بلاد العرب ولهم مثل منزلة النصارى او اليهود . فاخذ العرب عنهم علم النجوم باصطلاحاته واسمائه وان كان معظم اسماء السيارات لا يردُّ الى اصله الكلداني فربما كان له اسباب عارضة ضاعت أخبارها

على ان بعضها لا يزال أصله الكلداني ظاهراً فيه كالمريخ مثلاً فانهُ يقابل «مرداخ» الكلدانية لفظاً ومعنى . ولكن معظم تلك الاسماء قد ضاعت المشابهة اللفظية بينها وبقيت المشابهة المعنوية . فان «زحل» معناه في العربية الارتفاع والعلو وهي نفس دلالة «كاون» اسم هذا السيار في الكلدانية . وأما الابراج ومنازل القمر فلا تزال كما كانت عند الكلدان لفظاً ومعنى — واليك اسماء الابراج عند كليهما :

اسماؤها العربية	اسماؤها الكلدانية	اسماؤها العربية	اسماؤها الكلدانية
الحمل اوالكبش	امرا	الميزان	ماسانا
الثور	ثورا	العقرب	عقربا
الجوزاء او التوأمين	تامي	القوس او الرامي	قشتا
السرطان	سرطان	الجدي	كديا
الاسد	اريا	الدلو	دولا
السنبلة	شبلتا	الحوت او السمكة	نونا

(١) مختصر الدول ٢٦٦

واما منازل القمر والشمس فقد تبدل بعض اسمائها كما أصاب السيارت . ولكن العبرة بالاكثر في قواعد هذا العلم ومصطلحاته فانها عند العرب كما كانت عند الكلدان تماماً حتى لفظ « منازل القمر » و« منازل الشمس » فان هذا التعبير هو نفس ما كان يعبر به الكلدان عن هذه المنازل . وقد ابدلته الامم الاخرى التي اخذت هذا العلم عن الكلدان بتعبير آخر الا العرب واليهود

ومعرفة العرب بالنجوم مشهورة فقد رأيت انهم عرفوا السيارات والابراج وعرفوا عدداً كبيراً من الثوابت ولهم في ذلك مذهب يختلف عن مذاهب المنجمين في الامم الاخرى [1] وفي قدم اسماء تلك النجوم في العربية دليل على قدم معرفة العرب بها وبمواقعها مثل بنات نعش الكبرى والصغرى والسها والظباء والربع والرابض والعوائذ والذئبين والنثرة والفرقد والقدر والراعي وكلب الراعي والاغنام والرامح والسماك وعصا الضباع واولاد الضباع والسماك الرامح وحارس السماء والاظفار والفوارس والكف الخضب والخباء والعيوق والعنز والجديين وغيرها

اما منازل القمر فقد قسموها الى ثمانية وعشرين قسماً خلافاً لما كان عند الهنود فانها ٢٧ قسماً عندهم . واراد العرب منها غير ما اراده اولئك اذ كان مرادهم منها معرفة احوال الهواء في الازمنة وحوادث الجو في فصول السنة لانهم كانوا اميين فلم تمكنهم معرفتها الا بشيء يعاين فعلموا عليها بالكواكب كما رأيت في الكلام على الانواء واليك اسماء منازل القمر في العربية وهي ٢٨

الثريا	الجبهة	الاكليل	سعد السعود
الدبران	الزبرة	القلب	سعد الاخبية
الهقعة	الصرفة	الشولة	الفرغ المقدم
الهنعة	العواء	النعائم	الفرغ المؤخر
الذراع	السماك	البلدة	بطن الحوت
النثرة	الغفر	سعد الذابح	الشرطان
الطرف	الزبانيان	سعد بلع	البطين

(١) القزويني على هامش الدميري ٥٠ ج ١

وكان العرب اذا عدوا المنازل بدأوا بالشرطين لاسباب تتعلق باقليمهم . وقد بالغ المتعصبون للعرب في صدر الدولة العباسية في براعة العرب في علم النجوم . ومن جملة المتعصبين ابن قتيبة فقد قال في كتابه تفضيل العرب على العجم ان العرب اعلم الامم بالكواكب ومطالعها ومساقطها [١] ومع اعترافنا بما في ذلك من المبالغة فاننا نستدل على توسع العرب في هذا العلم

ولا غرابة في اتقانهم معرفة النجوم ومواقعها فانها كانت دليلهم في اسفارهم واكثر احوالهم فكانوا اذا سألهم سائل عن الطريق المؤدي الى البلد الفلاني قالوا « عليك بنجم كذا وكذا » فيسير في جهته حتى يجد المكان وربما استعانوا على ذلك ايضاً بذكر مهاب الرياح يعبرون بها عن الجهات . ومن امثلة ذلك ان سليك بن سعد سأل قيس بن مكشوح المرادي ان يصف له منازل قومه ثم هو يصف له منازل قومه فتوافقا وتعاهدا ان لا يتكاذبا فقال قيس بن مكشوح « حدّ بين مهب الجنوب والصبا ثم سر حتى لا تدري اين ظل الشجرة فاذا انقطعت المياه فسر أربعاً حتى تبدو لك رملة وقف بينها الطريق فانك ترد على قومي مراد وخثعم » فقال السليك « خذ بين مطلع سهيل ويد الجوزاء اليسرى العاقد لها من أفق السماء فثم منازل قومي بني سعد ابن زيد مناة » واشتهر في جاهلية العرب في اتقان علم النجوم جماعة منهم بنو مارية ابن كلب وبنو مرة بن همام الشيباني [٢]

وقد الف الادباء في صدر الاسلام كتباً في الانواء ضاعت . وتجد اشياء متفرقة في كتاب الآثار الباقية للبيروني والامثال للميداني وعجائب المخلوقات للقزويني وحياة الحيوان للدميري وكلها مطبوع ومتداول

٢ – الميثولوجيا

ومما يلحق بعلم النجوم أيضاً ما يعبر عنه الافرنج بالميثولوجيا وهي عبارة عما كانوا يزعمون وقوعه بين الكواكب أو هي الآلهة عندهم من الحروب أو الزواج أو نحو ذلك من حوادث البشر على نحو ما ذكروه عن آلهة اليونان . فالعرب ألهوا الاجرام وعبدوها وقد ضاع خبر ذلك لعدم تدوينه . على اننا نستدل عليه من بعض ما وصل

(١) البيروني ٢٣٨ (٢) البيروني ٣٤١

الينا من اسماء أصنامهم وعبادة بعض رجالهم . فاللات اسم للزهرة وقد اشتهر كثيرون بعبادتها وعبادة الشمس والقمر والشعرى . وكانوا يتناظرون في افضلية بعضها على بعض قالوا « وأبو كبشة أول من عبد الشعرى وكان يقول الشعرى تقطع السماء عرضاً ولا أرى في السماء شمساً ولا قمراً ولا نجماً يقطع السماء عرضاً غيرها » (١)

أما تشخيص تلك الاجرام وانزالها منزلة البشر فقد كان معروفاً عند العرب . ومن الاقاصيص الميثولوجية التي كانوا يتناقلونها ان الدبران خطب الثريا وأراد القمر أن يزوجه بها فابت عليه وولت عنه وقالت للقمر ما أصنع بهذا السبروت الذي لا مال له فجمع الدبران قلاصه يتمول بها فهو يتبعها حيث توجهت يسوق صداقها قدامة يعنون القلاص . وان الجدي قتل نعشاً فبناته تدور به تريده . وان سهيلاً ركض الجوزاء فركضته برجلها فطرحته حيث هو وضربها هو بالسيف فقطع وسطها . وان الشعرى اليمانية كانت مع الشعرى الشامية ففارقتها وعبرت المجرة فسميت الشعرى العبور فلما رأت الشعرى اليمانية فراقها اياها بكت عليها حتى غمصت عينها فسميت الشعرى الغميصاء (٢)

ومن هذا القبيل تأليهم بعض المشاهير من الملوك او القواد أو الاسلاف واعتبار البعض الآخر من نتاج الملائكة أو الجان . فعندهم مثلاً ان بلقيس كانت امها جنية وان جرهماً كان من نتاج الملائكة و بنات آدم . وكذلك كان ذو القرنين عندهم امه ادمية وابوه من الملائكة (٣) وأما اصل هذه الاعتقادات فاما هندي أو يوناني او مصري أما الكلدان فقلما كانت لهم عناية بامثال ذلك

٣ — التوقيت

كان العرب يؤرخون بكل عام فيه امر مشهور . واشهر الحوادث التي وصلت الينا اخبارها مما ارخوا منها عام الفيل اي هجوم الاحباش على مكة وكان ذلك سنة ٣٨ من ملك كسرى انوشروان . وارخت قريش بموت هشام بن المغيرة المخزومي . وكان عندهم تاريخ يسمى « زمن الفطحل » وهو اقدم ازمنتهم وفيه اقوال لا محل لها هنا (٤)

وكانت سنتهم قمرية واشهرها ١٢ شهراً كما هي الآن وكانوا يكبسون اي يزيدون

(١) الخميس ٦٠ جزء ١ (٢) الميداني ٣١٢ جزء ٢ (٣) الدميري ١٨ ج ٢
(٤) بلوغ الارب في احوال العرب ٢١٩ جزء ٣

اياماً كل سنة حتى تبقى النسبة محفوظة بين شهورهم وتوالي الفصول ولهم في الكبس طريقة ذكرها البيروني قال :

« وكذلك كانت العرب تفعل في جاهليتها فينظرون الى فضل ما بين سنتهم وسنة الشمس وهو عشرة ايام واحدى وعشرون ساعة وخمس ساعة بالجليل من الحساب فيلحقون بها شهراً كلما تم منها ما يستوفي أيام شهر . ولكنهم كانوا يعملون على انه عشرة أيام وعشرون ساعة وتتولى ذلك النسأة من كنانة المعروفون بالقلامس واحدهم قلمس وهو البحر الغزير . وهم أبو ثمامة جنادة بن عوف بن أمية بن قلع بن عباد بن قلع بن حذيفة وكانوا كلهم نسأة . وأول من فعل ذلك منهم كان حذيفة وهو ابن عبد فقيم بن عدي بن عامر بن ثعلبة بن مالك بن كنانة وآخر من فعله ابو ثمامة

« وكان اخذ ذلك من اليهود قبل ظهور الاسلام بقريب من مائتي سنة غير انهم كانوا يكبسون كل اربع وعشرين سنة قمرية بتسعة أشهر فكانت شهورهم ثابتة مع الازمنة جارية على سنن واحد لا تتأخر عن اوقاتها ولا تتقدم الى ان حج النبي عليه الصلاة والسلام حجة الوداع وانزل عليه « انما النسيء زيادة في الكفر يضلّ به الذين كفروا يحلونه عاماً ويحرمونه عاماً » فخطب عليه الصلاة والسلام وقال ان الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والارض وتلا عليهم الآية في تحريم النسيء وهو الكبس فاهملوه حينئذ وزالت شهورهم عما كانت عليه وصارت اسماؤها غير مؤدية لمعانيها » اه

وكان للعرب الجاهلية اشهر تعرف باسماء غيرها اليوم فيقولون انه كان لهم اشهر هذه اسماؤها : المؤتمر . ناجر . اخوان . صوان . حنتم . زباء . الاصم . العادل . النافق . الواغل . الهواع . البرك . وكان لايام الاسبوع اسماء غير المعروفة الآن وهي : اول . اهون . جبار . دبار . مؤنس . عروبة . شيار . وعندهم لكل ساعة من ساعات النار اسم وكذلك لايام الشهر وغيره وقد تقدمت الاشارة اليه

وتجد اخبار ذلك مفرقة في كتاب الآثار الباقية للبيروني وفي الأغاني والعقد الفريد والكشكول وامثال الميداني وغيرها من كتب الادب . وفي مروج الذهب للمسعودي وابن خلدون وابي الفداء وغيرها في عرض الكلام عن العرب الجاهلية

عاشراً — ما وراء الطبيعة

١ — الكهانة والعرافة

هما لفظان لمعنى واحد وفرق بعضهم بينهما فقال الكهانة مختصة بالامور المستقبلة والعرافة بالامور الماضية . وعلى كل حال فالمراد بهما التنبؤ واستطلاع الغيب . على ان العرب كانوا يعتقدون في الكاهن القدرة على كل شيء فكانوا يستشيرونه في حوائجهم و يتقاضون اليه في خصوماتهم و يستطبونه في امراضهم و يستفتونه في ما اشكل عليهم و يستفسرون منه رؤاهم و يستنبئونه عن مستقبلهم . و بالجملة فالكهان عندهم هم اهل العلم والفلسفة والطب والقضاء والدين شأن تلك الطبقة من البشر عند سائر الامم القديمة في بابل وفينيقية ومصر وغيرها

والكهانة من العلوم الدخيلة على العرب جاءتهم من بعض الامم المجاورة لهم . والغالب في اعتقادنا ان الكلدان حملوها اليهم مع علم النجوم . و يؤيد ذلك ان الكاهن يسمى في العربية أيضاً « حازي » او « حزاء » وهو لفظ كلداني (ܚܙܝܐ) معناه الاشتقاقي الناظر أو الرائي أو البصير وهو يدل عندهم على الحكيم والنبي . واما لفظ « الكاهن » فقد اقتبسه العرب بعدئذ من اليهود الذين نزحوا اليهم على أثر ما اصابهم من النكبات في اورشليم وخصوصاً بعد خرابها على يد طيطس سنة ٧٠ للميلاد وقد أخذ عنهم العرب كثيراً من الاداب والعادات مما لا يدخل في بحثنا

وأما الكهانة فاصلها من عند الكلدان ولعل الذين حملوا علم النجوم الى العرب هم الكهنة الكلدانيون انفسهم فكانت الكهانة في جملة ما حملوه اليهم . و يؤيد ذلك ان العرب كانوا يطلقون لفظ الحزاء على الكاهن والمنجم [١] على ان اهل بابل ما زالوا يتواردون الى بلاد العرب الى ما بعد الاسلام والعرب يجلونهم لعلمهم وتعقلهم

فالعرب كانوا يعتقدون في الكهنة العلم بكل شيء وان ذلك يأتيهم بواسطة الارواح فمن كان منهم يعتقد التوحيد نسب ذلك الى استطلاع الغيب عن افواه الملائكة . واذا كان من عبدة الاصنام اعتقد احتلال الارواح في الاصنام واباحتها اسرار الطبيعة

(١) السيرة الحلبية ٤٨ ج ١

للكهان والسدنة . فيقول العرب ان الاصنام تدخلها الجن (اي الارواح) وتخاطب الكهان وان الكاهن يأتيه الجني بخبر السماء وربما عبروا عنه بالهاتف . ومن اقوالهم « الاحبار من اليهود والرهبان من النصارى والكهان من العرب »

فكل ما كان يصنعه الكاهن انما مصدره الغيب فاذا استطبه مريض من ريح او صداع عالجه بالرقي واذا استشاره في معضلة خط له في الزمل أو نفث في العقد . واذ حكمه متخاصمان رمى لهما بالقداح واذا استطلعه سرقة أخذ قمقمة جعلها بين يديه ونفث فيها ونحو ذلك من الحركات الوهمية ـ واذا استفسره برؤيا تمم وتظاهر باستطلاع الغيب

قلنا ان الكهانة اتت العرب من بين النهرين فالكهان القدماء كانوا في الغالب كلدانيين (أو صابئة في قولهم) وكان العلم كله عندهم ثم تعدد الكهنة من اليهود وغيرهم ثم ما لبث العرب انفسهم ان أخذوا ذلك عنهم فنشأ الكهان منهم . على ان بعض العرب اقتصروا في ما تناولوه على علم دون آخر فكان بعضهم يتعاطى الطب فقط و بعضهم تعبير الرؤيا أو القيافة أو القضاء

﴿ الكهان ﴾ واشتهر في بلاد العرب جماعة كبيرة من الكهان والكواهن اقدمهم شق وسطيح وحكاياتهما اشبه بالخرافات منها بالحقائق . فعندهم ان الاول كان شق انسان (اي نصفه) بيد واحدة ورجل واحدة وعين واحدة وان سطيحاً كان لحماً يطوى كما يطوى الثوب لا عظم فيه غير الجمجمة ووجهه في صدره . ويزعمون ان هذين الكاهنين عاشا بضعة قرون الى غير ذلك من الاوهام . ومن الكهان الذين نبغوا في النهضة العربية قبل الاسلام خنافر بن التوأم الحميري وسواد بن قارب الدوسي . وفيهم من يعرفون بما ينسبون اليه من البلاد او القبائل كقولهم كاهن قريش وكاهن اليمن وكاهن حضرموت وغيرهم

ويقال نحو ذلك في العرافين واكثرهم ينسبون الى بلدانهم وقبائلهم كعراف هذيل وعراف نجد . واشهرهم عراف اليمامة شهرهُ عروة بن حزام ببيت قاله فيه ـ وكذلك الشعراء يشهرون ممدوحيهم ـ وهو قوله :

اقول لعراف اليمامة داوني ... فانك ان داويتني لطبيبُ

واما الكواهن من النساء فانهنَّ عديدات منهن طريفة كاهنة اليمن وهي اقدمهن واليها ينسبون الانذار بخراب سد مأرب واتيان سيل العرم . وزبراء بين الشحر

وحضرموت وسلمى الهمدانية الحميرية وعفيراء الحميرية وفاطمة الخثعمية بمكة وزرقاء اليمامة وغيرهن. وينسبن الى القبيلة او المدينة ككاهنة بني سعد يزعمون انها اقدمهم عهداً من شق وسطيح وانها استخلفتهما [1] وما زالت الكهانة في العرب حتى جاء الحديث بإبطالها وهو « لا كهانة بعد النبوة » [2]

وكان للكهان عند العرب لغة خاصة تمتاز بتسجيع خصوصي يعرف بسجع الكهان مع تعقيد وغموض . ولعلهم كانوا يتوخون ذلك للتمويه على الناس بعبارات تحتمل غير وجه كما يفعل بعض مشايخ التنجيم في هذه الايام حتى اذا لم يصدق تكهنهم جعلوا السبب قصور الناس في فهم قول الكاهن . ومن امثلة سجع الكهان ما يروونه عن طريفة كاهنة اليمن حين خاف اهل مأرب سيل العرم وعليهم مزيقياء عمرو بن عامر فانها قالت لهم « لا تؤموا مكة حتى اقول وما علمني ما أقول الا الحكم المحكم رب جميع الامم من عرب وعجم » قالوا لها « ما شأنك يا طريفة » قالت « خذوا البعير الشدقم فخضبوه بالدم تكن لكم ارض جرهم جيران بيته المحرم » [3]

٢ — القيافة وغيرها

ومن قبيل الكهانة أيضاً القيافة لكنها تختص بتتبع الآثار والاستدلال منها على الاعيان وهي قسمان قيافة الاثر وقيافة البشر . والاولى تختص بتتبع آثار الاقدام او الحوافر او الاخفاف والاستدلال من آثارها في الرمال او التراب على اصحابها . والفائدة من ذلك الاهتداء الى الفارّ من الناس او الضال من الحيوان وقد اتقن العرب ذلك حتى فرق بعضهم بين أثر قدم الشاب والشيخ وقدم الرجل والمرأة والبكر والثيب . واما قيافة البشر فهي الاستدلال بهيئات اعضاء الشخصين على المشاركة والاتحاد بينهما في النسب والولادة وسائر احوالهما وهي من قبيل الفراسة

وكانت القيافة شائعة في العرب ثم اختصت بعض القبائل بها دون البعض الآخر واشهر العرب بقيافة الاثر بنو مدلج وبنو لهب . ولا تزال هذه القيافة شائعة الى اليوم في بعض قبائل نجد ويقال انهم بنو مرة وهم اعلم الناس بها حتى لقد يعرف احدهم الانسان من أثره وربما نظر الى أثر بعير فقال هذا بعير فلان وكثيرون منهم يميزون بين العراقي والشامي والمصري والمدني

(١) السيرة الحلبية ٣٦ ج ١ (٢) كشف الظنون ٣٣٩ ج ٢
(٣) الاغاني ١١٠ ج ١٣

والفراسة كانت شائعة في العرب وكانت لهم فيها براعة يستدلون بهيئة الانسان واشكاله وأقواله على اخلاقه ومناقبه وهي من قبيل الذكاء وسرعة الخاطروسجية طبيعية

ومن قبيل الكهانة تعبير الرؤيا وكان معروفاً عند العرب وكانوا يفزعون الى الكهان في تفسير الاحلام على ان كثيرين من غير الكهان كانوا يتعاطونها اشهرهم ابو بكر الصديق [١]

ومن هذا القبيل زجر الطير وخط الرمل وقد أغضينا عنهما لضيق المقام

وتجد اخبار كهانهم في كتب التاريخ القديم وكتب الادب وخصوصاً الاغاني والعقد الفريد وفي السيرة النبوية وكتب التفسير وفي الجزء الاول من مروج الذهب المسعودي والاول من ابي الفداء وفي معجم البلدان لياقوت الحموي ومعجم ما استعجم للبكري وحياة الحيوان للدميري وفي كتب الادب وغيرها



(١) السيرة الحلبية ٢٩١ ج ١

عصر الراشدين

من ظهور الاسلام الى سنة ٤١ هـ

ظهر الاسلام في جزيرة العرب فشغل اهلها في أثناء حياة النبي ومعظم ايام الراشدين بالفتوح والجهاد والاسفار . وجاء الاسلام بالقرآن والحديث فاخذا بمجامع قلوبهم واستقرّا في المكان الاول من اذهانهم وغيرا من عاداتهم واخلاقهم وسائر احوالهم فظهر أثر ذلك في علومهم وآدابهم

اولاً — التغيير الذي احدثه الاسلام في العرب

١ — اجتماع كلمة القبائل

كان العرب في الجاهلية يتفاضلون بالعصبية ويتفاخرون بالانساب فلما جاء الاسلام كان في جملة ما بدّله من احوالهم انه جمع كلمتهم وصاروا يداً واحدة على اختلاف انسابهم ومواطنهم . وبعد ان كان اليمني يفاخر الحجازي والمضري يفاخر الحميري ونحو ذلك من مفاخرات القبائل والبطون والافخاذ جاء الاسلام فجمعهم تحت راية واحدة باسم واحد هو « الاسلام » فقال النبي « المسلمون اخوة » وقال من خطبة القاها يوم فتح مكة « يا معشر قريش ان الله قد اذهب عنكم نخوة الجاهلية وتعظمها بالآباء الناس من آدم وآدم من تراب » [1] وقال من خطبة في حجة الوداع « ايها الناس ان ربكم واحد وان اباكم واحد كلكم لآدم وآدم من تراب واكرمكم عند الله اتقاكم ليس لعربي على عجمي فضل الا بالتقوى » [2]

واقتدى بالنبي خلفاؤه الاولون لا سيما عمر بن الخطاب فان جبلة بن الايهم ملك غسان بعد ان اسلم اتفق وهو يطوف في الكعبة ان فزارياً وطيء ازاره فانحل فرفع جبلة يده وهشم الفزاري فشكاه الى عمر فأراد عمر ان يهشم انف جبلة فقال « وكيف ذلك يا أمير المؤمنين وهو سوقة وانا ملك » فاجابه عمر « ان الاسلام جمعك واياه ولست تفضله بشيء الا بالتقى والعافية » فلم يحتمل جبلة ذلك فعمد الى الفرار

(١) ابن هشام ٢١٩ ج ٢ (٢) البيان والتبيين ١٦٤ ج ١

٢ — انتشار العرب في الارض

كان العرب محصورين في جزيرتهم القاحلة وهم اهل بادية وخشونة وشظف من العيش يسمعون بالرومي او الفارسي فيعظمون قدره ويتمثلون بسطوة قيصر وكسرى ولم يتجاوزوا جزيرة العرب الا قليلاً . فلما ظهر الاسلام واجتمعت كلمة العرب نهضوا للفتح واوغلوا في البلاد وفتحوا الامصار . ولم يكن زجر عمر ليوقف تيارهم فانبساحوا في الارض حتى نصبوا اعلامهم على ضفاف الكنج شرقاً وشواطيء البحر الاتلانتيكي غرباً وضفاف نهر لوار شمالاً واواسط افريقيا جنوباً وملأوا الارض فتحاً ونصراً واحتلوا مدائن كسرى وقيصر واقاموا في المدن واركنوا الى الحضارة وتعودوا الترف واختلطت انسابهم بتوالي الاجيال . والقبائل التي قامت بنصرة الاسلام ونشره قبائل مضر وانصارها من العدنانية والقحطانية

ولم ينتشر العرب بالفتح فقط ولكنهم هاجروا ايضاً باهلهم وخيامهم وانعامهم التماساً لسعة العيش في البلاد العامرة من مملكتهم الجديدة . فقد جلت بطون من خزاعة الى مصر والشام في صدر الاسلام لان ارضهم اجدبت فمشوا يطلبون الغيث والمرعى وكذلك كانت تفعل العرب كلما اصابها جدب حتى كانت لهم اعوام خاصة يجلون بها الى مصر والشام يسمونها اعوام الجلاء . وكانوا يفعلون ذلك قبل الاسلام اذا اجدبت ارضهم يمموا العراق وفارس فيعطيهم الفرس التمر والشعير ولكنهم كانوا لا يقيمون هناك بل يرجعون الى بلادهم خوفاً من الذل في سلطان دولة اعجمية . اما بعد الاسلام فكان المقام يطيب لهم في بلاد فتحها آباؤهم واعمامهم او اخوالهم وغرسوا فيها اعلامهم وجعلوها فيئاً لهم

ولا يخفى ما يترتب على مثل هذا الاختلاط من الانقلاب في اللغة والآداب لكنه لم ينضج ويظهر الا في عصر الامويين فما بعده

٣ — انتشار القرآن

بعد ان كان همّ العرب الجاهلية اذا اجتمعوا في ناد أو سوق مناشدة الأشعار والتفاخر أو التفاضل اصبح همهم القرآن وحفظه وتلاوته صباح مساء واذا بعث الخليفة عاملاً الى بلده امره ان يحكم بالعدل وان يعلم المسلمين القرآن وكانوا يعلمونهم الحديث ايضاً

ثانياً - تأثير ذلك التغيير في آداب اللغة

ان ظهور الاسلام انقلاب ديني سياسي اجتماعي . ولابد لكل انقلاب من اثار يخلفها في نفوس اصحابه وعقولهم فيحدث تغييراً في آدابهم وعلومهم . فالتغيير الذي احدثه الاسلام في آداب الجاهلية يرجع الى ثلاثة اوجه : اولاً انه ابطل بعض تلك الاداب . ثانياً انه نوع البعض الاخر . ثالثاً انه احدث آداباً جديدة لم تكن من قبل . فالاداب التي أبطلها الاسلام الكهانة وفروعها اذ جاء الحديث بتحريمها [١] والاداب التي احدثها فبعضها اقتضاه الاسلام كالعلوم الشرعية واللسانية و بعضها نقل عن الامم الاخرى كالفلسفة والطبيعيات والطب وسياتي الكلام عليها في حينه

أما التنوع الذي احدثه الاسلام في آداب الجاهلية فاكثره في الشعر والخطابة وهما من الآداب الجاهلية التي زادها الاسلام روتقاً . لكن الخطابة سبقت الشعر في الرقي لحاجة المسلمين اليها في الفتوح والغزوات والعرب لا يزالون على بداوتهم تتأثر نفوسهم من التصورات الشعرية سواء سبكت في قالب الخطابة او في الشعر . والخطابة اقرب تناولاً اذ لم يرد في القرآن ما ينفر الناس منها كما ورد في الشعر والشعراء — فكما كان الشاعر في الجاهلية يقدم على الخطيب لفرط حاجتهم الى الشعر في تقييد مآثرهم وتفخيم شأنهم والتهويل على عدوهم والتهيب من فرسانهم اصبح الخطيب في الاسلام مقدماً على الشاعر لفرط حاجاتهم الى الخطابة [٢] في استنهاض الهمم وجمع الاحزاب وارهاب الاعداء

الخطابة والخطباء في عصر الراشدين

والفرق بين الخطابة في الجاهلية وفي الاسلام ان الاسلام زادها بلاغة وحكمة بما كان يتوخاه الخطباء من تحدي اسلوب القرآن واقتباس الآيات القرآنية . وقد كان للقرآن نحو هذا التأثير في الشعر ايضاً ولكن الخطابة اوسع مجالاً للاقتباس . فاخذ الخطباء يرصعون خطبهم بالآيات تمثلاً او اشارة او تهديداً حتى لقد يجعلون الخطبة برمتها مجموع آيات كما فعل مصعب بن الزبير لما قدم العراق واراد ان يحرض اهله على

(١) مشكاة المصابيح ٣١٢ (٢) البيان والتبيين ٩٨ ج ١

الطاعة لاخيه عبد الله فصعد المنبر وقال « بسم الله الرحمن الرحيم طسم تلك آيات الكتاب المبين نتلو عليك من نبأ موسى وفرعون بالحق لقوم يؤمنون إنَّ فرعون علا في الارض وجعل اهلها شيعاً يستضعف طائفة منهم يُذبّحُ ابناءهم ويستحيي نساءهم إنه كان من المفسدين (واشار بيده نحو الشام) ونريد ان نمُنَّ على الذين استضعفوا في الارض ونجعلَهم ائمةً ونجعلهمُ الوارثين (واشار بيده نحو الحجاز) ونمكّن لهم في الارض ونُريَ فرعون وهامان وجنودهما منهم ما كانوا يحذرون (واشار بيده نحو العراق) »[1]

وزادت الخطابة بعد الاسلام قوة ووقعاً في النفوس بنهضة العرب للحروب وانتصارهم في اكثر مواقعها فازدادوا انفة وسمت نفوسهم فسما بها ذوقهم في البلاغة وشحذت قرائحهم بما شاهدوه من البلاد الجديدة والامم الجديدة والالسنة الجديدة فبلغت الخطابة عندهم مبلغاً قلما سبقهم فيه احدٌ من الامم التي تقدمتهم بلاغة وايقاعاً وتأثيراً حتى اليونان والرومان — لا ننكر ما كان من تبرز هاتين الامتين في الخطابة ومانبغ بين رجالها من الخطباء الذين لا يشق لهم غبار كديموستنيس واشينس وهيبريدس من خطباء اليونان وشيشرون ويوليوس قيصر وسالوستس ولوكيرتس من خطباء الرومان . ولكن العرب لم يأتوا باقل مما اتى به أولئك بلاغة ووقعاً . وربما كان الخطباء في الاسلام اكثر عدداً وخطبهم اوفر وابلغ مع اعتبار الفرق بين الامتين لغة وخلقا وادباً

فقد ذكروا لديموستنيس اخطب خطباء اليونان ٦١ خطبة نصفها منسوب اليه خطأً وهذه خطب الامام علي تعد بالمئات . وأما في كثرة الخطباء فالعرب كانوا في صدر الاسلام من اكثر الامم خطباء لان خلفاءهم وامراءهم وقوادهم كان معظمهم من الخطباء حتى النساك والزهاد [2] ولا غرابة في ذلك لان العرب اهل خيال وذوو نفوس حساسة وللبلاغة تأثير شديد في عواطفهم تقعدهم وتقيمهم . وقد كان ذلك من جملة ما ساعد على نشر الاسلام بينهم — وكثيراً ما توقف فتح البلد او الحصن على خطاب يتلوه القائد على رجاله فتثور فيهم النخوة وتسري في عروقهم الحماسة فيستهلكون في الدفاع أو الهجوم . وفي اخبار الفتوح ادلة كثيرة لا يساعد المقام على ايرادها . ونعرف قواداً انما ساعدهم على النصر قوة عارضتهم وتأثير خطبهم في نفوس رجالهم

(١) البيان ٢٩ ج٢ (٢) البيان ١٣٥ ج ١

واذا رجعت لحوادث الفتح أو جمع الاحزاب أو اخماد الثورات رأيت عجباً . واول ثورة كادت تهبُّ في الاسلام لما بلغ اهل المدينة موت النبي فهاجوا حتى خاف الصحابة سوء العاقبة فقام ابو بكر خطيباً فقال « ايها الناس ان يكن محمد قد مات فان الله حيٌّ لم يمت .. وما محمد إلاَّ رسول قد خلت من قبله الرسل أفإن مات او قتل انقلبتم على اعقابكم . . ؟ وقد علمتم أني اكثركم قتباً في برّ وجارية في بحر فاقروا اميركم وانا ضامن إن لم يتم الامر ان اردها عليكم »[1] فهذه الكلمات القليلة كانت كافية لاخماد تلك الثورة . وقس على ذلك خطبه في السقيفة وخطب من تولى بعده من الخلفاء الراشدين

واعظم الخطباء في عصر الراشدين النبي والخلفاء والقواد وترى امثلة من اقوالهم متفرقة في السيرة النبوية وكتب المغازي والفتوح والتاريخ وفي العقد الفريد وغيره من كتب الادب وكلها مطبوعة ومشهورة . واشهر خطباء ذلك العصر الامام علي بن ابي طالب فقد جمعت خطبه في كتاب « نهج البلاغة » جمعها الشريف المرتضي المتوفى سنة ٤٣٦ هـ ولا نظن كل ما حواه من الخطب له . وقد شرح نهج البلاغة غير واحد وطبع مراراً في الشام ومصر ومنها شرح مطول لعبد الحميد بن ابي الحديد المعتزلي طبع في طهران في عشرين جزءا وفيه فوائد جمة عن تاريخ الاسلام وتمدنه

الشعر في عصر الراشدين

١ — الشعر والنبي

علمت مما تقدم ان اكثر شعراء الجاهلية من الفرسان والامراء واهل الحرب واكثر اشعارهم في الفخر والحماسة بما بين قبائلهم من التنازع ومرجع ذلك كله الى العصبية . كل قبيلة تطلب الفضل لنفسها على سواها . فلما جاء الاسلام وجمع كلمة العرب وذهبت العصبية الجاهلية لم تبق حاجة الى الشعر او الشعراء — ناهيك باشتغال اهل المواهب والقرائح بالحروب في الجهاد لنشر الاسلام و بالاسفار . وقد ادهشتهم اساليب القرآن

(١) البيان ١٢٢ ج ١ والشهرستاني ٩ ج ١ .

واخذتهم النبوة وانصرفت قرائحهم الشعرية الى الخطابة لحاجتهم اليها في استنهاض الهمم وتحريك الخواطر للجهاد وهي شعر منثور . وقد جاء الطعن على الشعراء في القرآن وهو قوله « والشعراءُ يتَّبعهمُ الغاوُون ألم ترَ أنهمْ في كل وادٍ يهيمون وانهم يقولون ما لا يفعلون »

وزد على ذلك ان النبي لم يكن راغباً في الشعر لانه من عوامل التفريق وهو يدعو العرب الى الاجتماع . وكان اذا روى شعراً لا يلتفت الى وزنه (١) ومن اقواله «لان يمتلئ جوف احدكم قيحاً حتى يريه خير من ان يمتلئ شعراً » (٢) ولم يكن مع ذلك يبخس الشعر حقه ويرى ان الآية التي نزلت عن الشعراء انما يراد منها شعراء قريش الذين تناولوه بالهجاء والاذى . وقد اراد تقبيح الشعر في الذين غلب الشعر على قلوبهم حتى شغلهم عن الدين وفروضه ـ وليس الشعر على اطلاقه . ولذلك فقد ابدى اعجابه به بقوله « ان من الشعر لحكمة » يشير الى الاشعار التي فيها تدين أو دفاع عن الحق . ومن اقواله « اصدق كلمة قالها شاعر قول لبيد (الا كلُّ شيء ما خلا الله باطل) وكثيراً ما كان يحب ان يسمع شعر امية بن ابي الصلت لما فيه من ذكر الله والبعث (٣)

اما سائر اغراض الشعر فكان يعرض عنها ويرد عليها بكلام القرآن . يروى من هذا القبيل ان الطفيل بن عمرو السدوسي اتى النبي فعرض عليه الاسلام فقال له « اني رجل شاعر فاسمع ما اقول » فقال « هات » فانشد :

لا واله النـاس نالم حربهم	ولو حاربتنا منهب وبنو فهم
ولمـا يكن يوم تزول نجومه	تطير به الركبان ذو نبأ ضخم
اسلماً على خسف ولستُ بخالدٍ	ومالي من واق اذا جاءني حتمي
فلا سلم حتى تحفر الناس خيفةً	ويصبح طير كانسات على لحم

فاجابه النبي « وانا اقول: اعوذ بالله من الشيطان الرجيم بسم الله الرحمن الرحيم . قل هو الله أحد الله الصمد لم يلد ولم يولد ولم يكن لهُ كفُواً احد » وقرأ غيرها فاسلم الرجل (٤) . وكان النبي مع ذلك يرى مداراة الشعراء لتأثيرهم في الاذهان فكان يأمر ان يقطع لسان الشاعر بالعطاء (٥)

(١) الاغاني ٦٧ ج ١٣ (٢) العمدة ١٢ ج ١ (٣) مشكاة المصابيح ٤٠٩
(٤) الاغاني ٥٣ ج ١٢ (٥) الاغاني ٦٧ ج ١٣

وعرضت قتيلة بنت النضر بن الحارث للنبي وهو يطوف وكان قد قتل اباها فاستوقفته وجذبت رداءه حتى انكشف منكبه وانشدته اياتاً مطلعها :

يا راكباً ان الاثيل مطيةٌ　　من صبح خامسةٍ وانت موفقُ

الى ان قالت :

امحمد ها انت نجل نجيبةٍ　　من قومها والفحل فحلٌ معرقُ

ما كان ضرّك لو مننتَ وربما　　منَّ الفتى وهو المغيظُ المحنق

والنضر اقرب من قتلتَ وسيلة　　واحقهم ان كان عتقٌ يعتقُ

فقال النبي « لوكنت سمعت شعرها هذا ما قتلته »(١). ولذلك لم يكن يرى بأساً من انتصار الشعراء له يدفعون عنه اقوال شعراء قريش الذين جاءت الآية بالطعن عليهم فتوعدهم النبي ففرَّ بعضهم من وجهه وقتل البعض الآخر(٢) وقد تقدم في ترجمة حسان ابن ثابت ان اشهر من هجاه ثلاثة : عبد الله بن الزِبَعْرى وابو سفيان وعمرو بن العاص وان النبي قال للانصار « ما يمنع الذين نصروا رسول الله بسلاحهم ان ينصروه بالسنتهم » فانتصب للدفاع عنه ثلاثة هم : حسان بن ثابت وكعب بن مالك وعبد الله ابن رواحة وكان يرى لاشعارهم تأثيراً في اعدائه ومن اقواله « هؤلاء النفر (الشعراء) أشدُّ على قريش من نضح النبل » وقال لحسان مرة « اهجهم (يعني قريشاً) فوالله لهجاؤك عليهم أشد من وقع السهام في غلس الظلام اهجهم ومعك جبريل روح القدس والقَ أبا بكر يعلمك تلك الهنات »(٣)

٢ — الشعر والخلفاء الراشدون

وسار الراشدون على خطة النبي في تحريض الناس على حفظ القرآن — ذكروا ان غالباً ابا الفرزدق الشاعر جاء بابنه وهو غلام الى علي بالبصرة بعد واقعة الجمل وقال لهُ « ان بني هذا من شعراء مضر فاسمع لهُ » فاجابه علي « علمهُ القرآن »

وكانوا ينشطون من يعدل عن الشعر الى القرآن كما فعل عمر بن الخطاب باستنشاد الشعراء على يد المغيرة بن شعبة ففضل من عدل الى القرآن . وقد تقدم حديث ذلك في ترجمة لبيد . على انهم اقتدوا بالنبي في التمييز بين شعر وشعر وشاعر وشاعر.

(١) العمدة ٣٠ ج ١　(٢) العمدة ٧ ج ١　(٣) العمدة ١٣ ج ١

وحرّض عمر المسلمين على حفظ الشعر فقال « رووا اولادكم ماسار من المثل وحسنَ من الشعر » [١] وقد اراد احسنه ويؤيد ذلك قوله « ارووا من الشعر اعفه » [٢]

وقد ازدادوا حاجة الى الشعر لما عمدوا الى تفسير القرآن فقال ابن عباس « اذا قرأتم شيئاً في كتاب الله فلم تعرفوه فاطلبوه في اشعار العرب » [٣] وفي مقدمة جمهرة اشعار العرب لابي زيد القرشي امثلة كثيرة من هذا القبيل [٤]

ولم يكن الراشدون يرون بأساً من ان يقولوا الشعر هم انفسهم فقد رووا لابي بكر قصيدة حماسية قالها في غزوة عبيدة بن الحارث . ورووا لعمر ابياتاً في الحكم ونحوه وكذلك لعثمان . اما علي فالمروي من شعره كثير بعضهُ قالهُ في صفين [٥] ولم يبقَ من الصحابة من لم يقل الشعر او يتمثل بهِ [٦]

على انهم كانوا يمنعون الشعراء من هجو الاسلام والمسلمين واشدهم وطأة في ذلك عمر فقد اخذ عهداً على الحطيئة ان لا يهجو رجلاً مسلماً [٧] . ويقال بالاجمال ان الشعر في عصر الراشدين توقف لاشتغال المسلمين عنه بالجهاد الا ما كان منه من قبيل الجهاد كاقوال حسان واصحابه في الدفاع عن النبي والاسلام

واما سائر الشعراء المخضرمين فقد ترجمناهم مع شعراء الجاهلية لانهم نشأوا فيها وتطبعوا بطبائع اهلها

اللغة والانشاء

في عصر الراشدين

وكان لظهور الاسلام تأثير كبير في اللغة العربية واساليبها والفاظها لتشرب قرائح المسلمين روح القرآن وحفظهم كلامه واعجابهم به . وطبيعي ان الكاتب تتكيف ملكة اللغة فيه على مقتضى محفوظه من اشعارها وامثالها واساليبها . فلا غرو اذا ظهرت اساليب القرآن والفاظه في لغة المسلمين شعراً ونثراً كتابة وخطابة . ويرجع ذلك التغيير الى قسمين : تغيير في الاسلوب وتغيير في الالفاظ

---

(١) البيان والتبيين ٢١٣ ج ١ (٢) الجمهرة ١٥ (٣) العمدة ١١ ج ١
(٤) الجمهرة ٥ (٥) العمدة ١٢ ج ١ (٦) الجمهرة ١٦
(٧) العقد الفريد ١١١ ج ٣

١ — التغيير في الاسلوب

أما الاسلوب الانشائي فلا يمكننا تعيين مقدار التغيير الذي اصابه لان ما وصلنا من انشاء الجاهليين لا يخلو من صبغة اسلامية الا سجع الكهّان فالغالب انه بقي على حاله والفرق بينه وبين اسلوب القرآن كالفرق بين الثريا والثرى — اين قول طريفة كاهنة اليمن حين خاف اهل مأرب سيل العرم وعليهم مزيقياء عمرو بن عامر فانها قالت لهم « لا تؤموا مكة حتى اقول وما علمني ما اقول الا الحكم المحكم رب جميع الامم من عرب وعجم الخ » من اساليب القرآن ؟

وتولد في صدر الاسلام ضرب من الانشاء في ابلغ ما يكون. واحسن الامثلة عليه مخاطبات الخلفاء والقواد وكلها من السهل الممتنع ككتاب عمرو بن العاص الى عمر بن الخطاب لما بعث به لفتح مصر ثم تخوف فكتب اليهِ « بسم الله الرحمن الرحيم . من الخليفة عمر بن الخطاب الى عمرو بن العاص عليه سلام الله تعالى وبركاته . اما بعد فان ادركك كتابي هذا وانت لم تدخل مصر فارجع عنها واما اذا ادركك وقد دخلتها او شيئاً من ارضها فامضِ واعلم اني ممدّك »

وكتب ابن الخطاب الى ابن العاص يستنجده في مجاعة بقولهِ « من عبد الله عمر امير المؤمنين الى العاصي ابن العاصي سلام . اما بعد فلعمري ياعمرو ما تبالي اذا شبعت انت ومن معك ان اهلك انا ومن معي فياغوثاه ثم يا غوثاه » فكتب اليهِ عمرو « الى امير المؤمنين عمر بن الخطاب من عمرو بن العاص . اما بعد فيالبيك ثم يالبيك قد بعثت اليك بعيرٍ اولها عندك وآخرها عندي والسلام »

ذلك اسلوبهم فيما يكتبونه او يقولونه من المخابرات السياسية او الخطب الحماسية او العهود او العقود . حتى انك اذا قرات لهم رسالة تبينت اسلوب صدر الاسلام فيها فيهون عليك التفريق بين الصحيح والموضوع منها . ومما يطعن في صحته من العهود ما يسمونه « العهدة النبوية » فانها بعيدة عن عصر الراشدين باسلوبها والفاظها فضلاً عن مخالفة بعض نصوصها للتاريخ

وتجد امثلة من المخابرات السياسية والخطب ونحوها على اسلوب صدر الاسلام في كتب الفتوح والغزوات كفتوح الشام للواقدي وفتوح البلدان للبلاذري ومنها جانب كبير في خطط المقريزي عن فتوح مصر . وتجد معظمها مجموعاً في كتاب فتوح الشام للشيخ ابي اسماعيل محمد بن عبد الله الازدي البصري من اهل اواسط القرن الثاني

للهجرة طبع في كلكتة سنة ١٨٥٤ وقد شاهدنا فيه ما لم نشاهده في غيره مما وصل الينا من كتب الفتح فانه عبارة عن مجموع المخابرات السياسية او الاوامر الرسمية التي جرت بين الخلفاء الراشدين وقوادهم او ما تكاتب به القواد او ما كتبوه الى كبراء الروم وغيرهم . او ما عقدوه من العهود في اثناء حروبهم في الشام الى فتحها وفتح اجنادها . كأنها الاصول التي اخذت اخبار الفتح عنها

٢ — التأثير في الالفاظ

اما تأثير القرآن في الفاظ اللغة فضلاً عن الاسلوب فظاهرٌ في ما دخلها من الالفاظ الاسلامية مما اقتضاه الاصطلاح الديني او الشرعي . واكثر هذه الالفاظ كانت موجودة في اللغة قبل الاسلام لكنها كانت تدل على معان اخرى فتحولت للدلالة على ما يقاربها من المعاني الجديدة . فلفظ « مؤمن » مثلاً كان معروفاً في الجاهلية ولكنه كان يدلُّ عندهم على الامان او الايمان وهو التصديق فاصبح بعد الاسلام يدل على المؤمن وهو غير الكافر وله في الشريعة شروط معينه لم تكن من قبل . وكذلك المسلم والكافر والفاسق ونحوها . ومما حدث من المصطلحات الشرعية الصلاة واصلها في العربية الدعاء وكذلك الركوع والسجود والحج والزكاة والنكاح فقد كان لهذه الالفاظ واشباهها معان تبدلت بالاسلام وتنوعت

وقس على ذلك المصطلحات الفقهية كالايلاء والظهار والعدة والحضانة والنفقة والاعتاق والاستيلاء والتعزير واللقيط والآبق والوديعة والعارية والشفعة والمناسخة والفرائض والقسامة وغيرها

ويروون الفاظاً وتراكيب نطق بها النبي ولم تسمع من العرب قبله كقوله « مات حتف انفه » و « حمي الوطيس » و « لايلدغ المؤمن من جحر مرتين » (١)

وفي كتابنا « تاريخ اللغة العربية » بحث ضاف في ما دخل اللغة من الالفاظ والاساليب قبل الاسلام وبعده

(١) المزهر ١٠٣ ج ١

العلوم التي حدثت في عصر الراشدين

جمع القرآن وتدوينه

لم يحدث في عصر الراشدين علم ولكن فيه وضعت جرثومة العلوم الشرعية بجمع القرآن وحفظ الحديث . والقرآن لم يظهر مرة واحدة وانما ظهر تدريجاً في اثناء ٢٠ سنة على مقتضى الاحوال من اول ظهور الدعوة الى وفاة النبي بعضه في مكة وبعضه في المدينة . فكان كلما قال آية أوسورة كتبوها على صحف الكتابة في تلك الايام وهي الرقاع من الجلود والعريض من العظام كالاكتاف والاضلاع . وعلى العسب وهي قحوف جريد النخل واللخاف وهي الحجارة العريضة البيضاء . فتوفي النبي سنة ١١هـ والقرآن اما مدوّن على امثال هذه الصحف أومحفوظ في صدورالرجال وكانوا يسمون حفظته « القراء »

وكان اكثر الناس عناية في تدوينه على عهد النبي علي بن ابي طالب وسعد بن عبيد بن النعمان وابو الدرداء ومعاذ بن جبل وثابت بن زيد وابي بن كعب وغيرهم [1] . فلما قام ابو بكر بالامر وارتد اهل جزيرة العرب عن الاسلام بعث جنداً لمحاربتهم فقتل من الصحابة في تلك الحروب جماعة كبيرة وخصوصاً في غزوة اليمامة قتل فيها وحدها ١٢٠٠ من المسلمين فيهم ٧٠٠ من القراء . فلما بلغ ذلك اهل المدينة فزعوا فزعاً شديداً وخصوصاً عمر بن الخطاب رجل الاسلام والمسلمين . فاشارعلى ابي بكر بجمع القرآن لئلاً يذهب منه شيء بموت اهله فتوقف ابو بكر وقال « كيف افعل امراً لم يفعله رسول الله ولم يعهد الينا فيهِ عهداً » فما زال عليه عمر حتى اقنعه بجمعه . فاحضر ابو بكر زيد بن ثابت لانه كان من كتبة الوحي فجمع ما كان مدوّناً عند الصحابة وربما وجد السورة مكتوبة عند اثنين أو ثلاثة او اكثر. وقد لا يوجد من السورة الاخرى الا نسخة واحدة كسورة التوبة فانه لم يجد منها الانسخة واحدة عند ابي خزيمة الانصاري [2] فجمعه من تلك المحفوظات ومن صدور الرجال وسلمه الى ابي بكر فظلت الصحف عنده حتى توفي سنة ١٣ هـ فلما تولى عمر تسلمها وظلت عنده حتى تولى عثمان سنة ٢٣ هـ فانتقلت الى عند ابنته حفصة من ازواج النبي

وفي ايام عثمان اتسعت الفتوح وتفرق المسلمون في مصر والشام والعراق وفارس

(١) الفهرست ٢٧ (٢) الفهرست ٢٤

وافريقية وفيهم القراء وعند بعضهم نسخ من القرآن وقد رتبها كل منهم ترتيباً خاصا فعوّل اهل كل مصر على من قام بينهم من القراء . فاهل دمشق وحمص مثلاً اخذوا عن المقداد بن الاسود واهل الكوفة اخذوا عن ابن مسعود واهل البصرة عن ابي موسى الاشعري[١] — ومع شدة عناية القراء في حفظ القرآن وضبطه لم ينجوا من الاختلاف في قراءة بعض آياته

واتفق في اثناء ذلك ان حذيفة بن اليمان كان في جملة من حضر غزوة ارمينيا واذربيجان فرأى في اثناء سفره اختلافاً بين المسلمين في قراءة بعض الآيات وسمع بعضهم يقول لبعض « قراءتي خير من قراءتك » فلما رجع الى المدينة انبأ عثمان بذلك وانذره بسوء العقبى ان لم يتلافَ الامر الى ان قال « ادرك هذه الامة قبل ان يختلفوا في الكتاب اختلاف اليهود والنصارى » فبعث عثمان الى حفصة ان « ارسلي الينا بالصحف ننسخها في المصاحف ثم نردُّها اليك » فارسلتها . فدعا عثمان زيد بن ثابت وعبد الله بن الزبير وسعيد بن العاص وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام وامرهم ان ينسخوا القرآن ويستعينوا على القراءة بما حفظه القراء وقال لهم « اذا اختلفتم انتم وزيد بن ثابت في شيء فاكتبوه بلسان قريش فانما انزل بلسانهم » ففعلوا ذلك[٢] سنة ٣٠ هجرية وكتبوا اربعة مصاحف بعثها عثمان الى الامصار الاربعة مكة والبصرة والكوفة والشام[٣] واثنين ابقاهما في المدينة واحد لاهلها وواحد لنفسه . وهو الذي يسمونه « الامام » ثم امر بجمع كل ما كان قبل ذلك من المصاحف والصحف[٤] وامر باحراقه

فاصبح المعوّل في المصاحف على ما كتبه عثمان واشتغل المسلمون في الامصار باستنساخ تلك المصاحف فنسخوا منها شيئاً كثيراً في مدة قليلة — ذكر المسعودي في عرض كلامه عن واقعة صفين بين علي ومعاوية وما كان من ظهور علي وما اشار به عمرو بن العاص من رفع المصاحف « ورفع من عسكر معاوية نحو من خمسمائة مصحف »[٥] وليست هذه كل مصاحف المسلمين . فاعتبر هذا العدد وبين كتابة مصحف عثمان وواقعة صفين ٧ سنين

ومع تشديد الصحابة في التعويل على مصحف عثمان دون سواه فقد ظلّ عند

---

(١) ابو الفداء ١٧٦ ج ١ (٢) الفهرست ٢٤
(٣) نفح الطيب ٢٨٧ ج ١ (٤) ابو الفداء ١٧٦ ج ١
(٥) المسعودي ٢٠ ج ٢

بعض المسلمين نسخ من مصاحف اخرى اشهرها مصحف علي . ويعتقد الشيعة ان علياً اول من خط المصاحف عند وفاة النبي وتنوقل مصحفه في شيعته وبقي عند اهل جعفر . وقد ذكر ابن النديم في كتاب الفهرست انه رأى عند ابي يعلي حمزة الحسني مصحفاً بخط علي يتوارثه بنو حسن[١] ـ ومنها مصحف عبد الله بن مسعود وابيّ بن كعب ولكل منها ترتيب خاص في سوره[٢]

الخط العربي وتاريخهُ

بمناسبة كلامنا على جمع القرآن في زمن الراشدين نأتي بتاريخ الخط وان تجاوزنا في تاريخه ما بعد هذا العصر استيفاء للكلام في موضع واحد فنقول :

ليس في آثار العرب بالحجاز ما يدلُّ على انهم كانوا يعرفون الكتابة الا قبيل الاسلام مع انهم كانوا محاطين شمالاً وجنوباً بامم من العرب خلفوا نقوشاً كتابية كثيرة . واشهر تلك الامم حمير في اليمن كتبوا بالحرف المسند والانباط في الشمال كتبوا بالحرف النبطي وآثارهم باقية الى هذه الغاية في ضواحي حوران والبلقاء . وقد عثر النقابون على آثار كتابية في الحجاز لكنها حميرية . والسبب في ذلك ان الحجازيين أو عرب مضر كانت البداوة غالبة على طباعهم والكتابة من الصنائع الحضرية

على ان بعض الذين رحلوا منهم الى العراق او الشام قبل الاسلام تخلقوا باخلاق الحضر واقتبسوا الكتابة منهم على سبيل الاستعارة فعادوا وبعضهم يكتب العربية بالحرف النبطي او العبراني او السرياني . ولكن النبطي والسرياني ظلا عندهم الى ما بعد الفتوح الاسلامية فتخلف عن الاول الخط النسخي (الدارج) وعن الثاني الخط الكوفي نسبة الى مدينة الكوفة . وكان الخط الكوفي يسمى قبل الاسلام الحيري نسبة الى الحيرة وهي مدينة عرب العراق قبل الاسلام وابتنى المسلمون الكوفة بجوارها

ومعنى ذلك ان السريان في العراق كانوا يكتبون ببضعة اقلام من الخط السرياني في جملتها قلم يسمونه « السطرنجيلي » كانوا يكتبون به اسفار الكتاب المقدس[٣]

---

(١) الفهرست ٢٨ (٢) الفهرست ٢٦ (٣) اللمعة الشهية في نحو اللغة السريانية ١٧

فاقتبسه العرب في القرن الاول قبل الاسلام وكان من اسباب تلك النهضة عندهم . وعنه تخلف الخط الكوفي وهما متشابهان حتى الآن

واختلفوا في من نقله الى بلاد العرب والاشهر ان اهل الانبار نقلوه ـ وذلك ان رجلاً منهم اسمه بشر بن عبد الملك الكندي اخو اكيدر بن عبد الملك صاحب دومة الجندل تعلّم هذا الخط من الانبار وخرج الى مكة فتزوج الصهباء بنت حرب بن امية اخت ابي سفيان فعلّم جماعة من اهل مكة فكثر من يكتبهُ من قريش[1] عند ظهور الاسلام . أما الخط النبطي فكتبوا به اللغة العربية قبل ذلك ببضعة قرون [2]

والخلاصة في كل حال ان العرب تعلموا الخط النبطي من حوران في اثناء تجارتهم الى الشام وتعلموا الخط الكوفي من العراق قبيل الاسلام بقليل وظل الخطان معروفين عندهم بعد الاسلام . والارجح انهم كانوا يستخدمون القلمين معاً الكوفي لكتابة القرآن ونحوه من النصوص الدينية كما كان سلفه السطرنجيلي يستخدم عند السريان لكتابة الاسفار المقدسة النصرانية . والنبطي لكتابة المراسلات والمكاتبات الاعتيادية . ومما يدلُّ على تخلف القلم الكوفي عن السطرنجيلي فضلاً عن شكله ان الالف اذا جاءت حرف مدّ في وسط الكلمة تحذف ـ وتلك قاعدة مضطردة في الكتابة السريانية وكان ذلك شائعاً في اوائل الاسلام وخصوصاً في القرآن فيكتبون « الكتب » بدل « الكتاب » و « الظلمين » بدل « الظالمين »

فجاء الاسلام والكتابة معروفة في الحجاز ولكنها غير شائعة فلم يكن يعرف الكتابة الا بضعة عشر انساناً اكثرهم من كبار الصحابة وهم : علي بن ابي طالب وعمر بن الخطاب وطلحة بن عبيد الله وعثمان وابان ابنا سعيد بن خالد بن حذيفة ويزيد بن ابي سفيان وحاطب بن عمرو بن عبد شمس والعلاء بن الحضرمي وابو سلمة بن عبد الاشهل وعبد الله بن سعد بن ابي سرح وحويطب بن عبد العزى وابو سفيان بن حرب وولده معاوية وجهيم بن الصلت بن مخرمة . ثم تعلم غيرهم من الصحابة ومنهم خرج كتاب الدواوين للخلفاء الراشدين وكتاب الرسائل وكتاب القرآن . فكتبوا القرآن بالكوفي ايام الراشدين وايام بني امية . وفي ايامهم تفرع الخط المذكور الى اربعة

(١) المزهر ١٧٧ ج ٢ (٢) راجع صفحة ٢٨ من هذا الكتاب

اقلام اشتقها بعضها من بعض كاتب اسمه قطبة كان اكتب اهل زمانه وكان يكتب لبني امية المصاحف . ثم اشتهر بعده الضحاك بن عجلان في اوائل الدولة العباسية فزاد على قطبة ثم زاد اسحق بن حمادة وغيره فبلغت الاقلام العربية الى اوائل الدولة العباسية ١٢ قلماً . وهي ١ قلم الجليل ٢ قلم السجلات ٣ قلم الديباج ٤ قلم اسطورمار الكبير ٥ قلم الثلاثين ٦ قلم الزنبور ٧ قلم المفتح ٨ قلم الحرم ٩ قلم المدامرات ١٠ قلم العهود ١١ قلم القصص ١٢ قلم الحرفاج . وفي ايام المأمون تنافس الكتاب في تجويد الخط فحدث القلم المرصع وقلم النساخ وقلم الرئاسي نسبة الى مخترعه ذي الرئاستين الفضل بن سهل وقلم الرقاع وقلم غبار الحلية [1]

فزادت الخطوط على عشرين شكلاً وكلها تعدُّ من الكوفي . وأما الخط النسخي أو النبطي فقد كان شائعاً بين الناس لغير المخطوطات الرسمية حتى اذا نبغ ابن مقلة المتوفى سنة ٣٢٨ هـ فادخل في الخط المذكور تحسيناً جعله على ما هو عليه الآن وادخله في كتابة الدواوين . والمشهور عند المؤرخين ان ابن مقلة نقل الخط من صورة القلم الكوفي الى صورة القلم النسخي والغالب في اعتقادنا ان الخطين كانا شائعين معاً من اول الاسلام الكوفي للمصاحف ونحوها والنسخي (أو النبطي) للرسائل ونحوها كما تقدم . وأن ابن مقلة انما جعل الخط النسخي على قاعدة جميلة حتى يصلح لكتابة المصاحف . وقد شاهدنا في معرض الخطوط العربية القديمة في دار الكتب الخديوية رقوقاً وقطعاً من البردي عليها كتابات بالخط النسخي بعضها من اواخر القرن الاول للهجرة . ورأينا عقد نكاح مكتوباً في اواسط القرن الثالث للهجرة سنة ٢٦٤ هـ على رق مستطيل في اعلاه صورة العقد بالقلم الكوفي المنتظم وتحتها خطوط الشهود بالقلم النسخي بغاية الاختلال — فابن مقلة حسن هذا الخط تحسيناً وادخله في كتابة المصاحف

ثم تفرع الخط النسخي المذكور بتوالي الاعوام الى فروع كثيرة . واصبحت الاقلام الرئيسية في اللغة العربية اثنين الكوفي والنسخي ولكل منهما فروع كثيرة اشتهر منها بعد القرن السابع للهجرة ستة اقلام وهي : الثلث والنسخي والتعليقي والريحاني والمحقق والرقاع . واشتهر من الخطاطين جماعة كبيرة الفوا فيه الكتب والرسائل بعضها في

(١) كشف الظنون ٤٦٦ ج ١

دوات الخط كالاقلام وطرق بريها واحوال الشق والقط والدواة والمداد والكاغد وغير ذلك وما زال الخط يتفرع الى اليوم وان يزال الى ما شاء الله عملاً بسنة النشوء والارتقاء

وفي آخر الجزء الاول من كتاب صبح الاعشى للقاقشندي طبع المكتبة الخديوية بمصر بابٌ خاصٌ في الكتابة وادواتها وتوابعها يدخل في ٣٠ صفحة كبيرة (من صفحة ٥٤٦ ــ ٥٧٦) وتجد اقوالاً تتعلق بالخط العربي في كشف الظنون ٤٦٦ ج ١ وابن خلكان ٣٤٦ ج ١ والعقد الفريد ١٦٢ ج ٢ وابن خلدون ٢٠٥ و٣٤٨ ج ١ والاغاني ١٩ ج ٢ و١٠٦ ج ٤ و٥٠ ج ٧ وفي المزهر ١٧٧ ج ٢

أما ما يلحق الخط من الحركات والاعجام ونحوهما من العلامات فسيأتي الكلام عليها في العصر الاموي



العصر الاموي

من سنة ٤١ — ١٣٢ هـ

مميزات العصر الاموي

نريد بالعصر الاموي العصر الذي كانت الدولة الاسلامية فيه في حوزة الامويين بالشام منذ بويع معاوية بالخلافة سنة ٤١ هـ الى أن قهرهم عليها العباسيون سنة ١٣٢ هـ . ويختلف العصر الاموي عن عصر الراشدين اختلافا كبيراً من أوجه كثيرة . ويعدّ انتقال الدولة الاسلامية الى بني أمية انقلاباً عظيماً في تاريخ الاسلام . لانها كانت في في زمن الراشدين خلافة دينية فصارت في أيامهم ملكاً عضوداً وكانت شوروية فصارت ارثية . وقام معاوية يطلبها وينازع أعمام النبي وأبناء عمه عليها والمسلمون يعتقدون حق هؤلاء فيها وان معاوية طليق لاتحل له الخلافة وانه لم يعتنق الاسلام الا مكرهاً . ولكنه تمكن بدهائه وسعة صدره من التغلب عليهم جميعاً فاسس الدولة الاموية . وقد فصلنا الاسباب التي ساعدته على ذلك في الجزء الرابع من كتابنا تاريخ التمدن الاسلامي

وانما يهمنا في هذا المقام ما نجم عن مساعي بني أمية في تأييد سلطانهم من التفريق بين القبائل والرجوع الى عصبية الجاهلية كما كان العرب قبل الاسلام يفعلون وما كان من تأثير ذلك في الآداب واليك هي :

التفريق بين القبائل واحياء العصبيات

قد علمت ان العصبية العربية كانت في الجاهلية بين القبائل بسبب الانساب فلما جاء الاسلام تنوسيت تلك العصبية واجتمع العرب كافة باسم الاسلام او الجامعة الاسلامية . وما زالت الجامعة الاسلامية تشمل العرب على اختلاف قبائلهم وبطونهم طول أيام الخلفاء الراشدين . حتى اذا طمع بنو أمية بالملك وقبضوا على أزمة الخلافة استبدوا وتعصبوا للعرب وحافظوا على مقتضيات البداوة وتمسكوا بعاداتها فظلت خشونة البادية غالبة على حكومتهم وظاهرة في سياستهم مع ذهاب اكثر مناقب البدو الأخرى .

وانما حفظوا من مناقب جاهليتهم تعصبهم لقبيلتهم قريش وايثار أهلهم على سواهم . فجاشت عوامل الحسد في نفوس القبائل التي كان لها شأن في الجاهلية وضاع فضلها في الاسلام وخصوصاً أهل البصرة والكوفة والشام لان أكثر العرب الذين نزلوا هذه الامصار جفاة لم يستكثروا من صحبة النبي ولا هذبتهم سيرته ولا ارتاضوا بخلقه مع ما كان فيهم من جفاء الجاهلية وعصبيتها . فلما استفحلت الدولة اذا هم في قبضة المهاجرين والانصار من قريش وكنانة وثقيف وهذيل وأهل الحجاز ويثرب . فاستنكفوا من ذلك وغصوا به لما يرون لانفسهم من التقدم بانسابهم وكثرتهم ومصادمة فارس والروم مثل قبائل بكر بن وائل وعبد القيس من ربيعة وكندة والازد من اليمن وتميم وقيس من مضر . فصاروا الى الغض من قريش والانفة عليهم فعادت العصبية الى نحو ما كانت عليه في الجاهلية

أسباب التفريق

كان التفريق أولاً بين قريش وسائر العرب فتعصب العرب كافة على قريش حسداً لاستبدادهم في السلطة دون سائر الصحابة أو التابعين — الا الذين تألفهم معاوية من القبائل اليمنية والعدنانية . بدأ هذا الخلاف من أيام عثمان على يد سعيد بن العاص [١] وتزايدت الوحشة بين قريش وسائر القبائل من ذلك الحين وخصوصاً بينهم وبين اليمنية وفيهم الانصار . وثبت الانصار في نصرة أهل البيت ضد أهلهم من قريش مثلما فعلوا في أول الاسلام اذ جاءهم النبي مهاجراً فراراً من أهله . ولما جرت وقعة صفين سنة ٣٧ هـ بين علي ومعاوية عدوها بين اليمنية الانصار وقريش . فلما احتدم القتال في تلك الوقعة قال رجل يمني من أنصار علي « أيها الناس هل من رائح الى الله تحت العوالي والذي نفسي بيده لنقاتلنكم على تأويله (القرآن) كما قاتلنا كم على تنزيله »

وامتد النزاع من هذا النحو حتى صار أكثر اليمنية شيعة علي وأنصاره . فعمد معاوية الى اجتذاب قلوبهم لعلمه أن اكتفاءه بقريش ونحوهم لا يجديه نفعاً فقرب منه قبيلة كلب وتزوج منها بحدل أم يزيد ابنه واستنصرهم على قتلة عثمان لان امرأة عثمان كانت كلبية واستغواهم بالمال فحاربوا معه . ولما فاز في حروبه ورسخت قدمهُ في الخلافة تقربت منه قبائل كثيرة من مضر واليمن وظلت كلب على نصرة يزيد ابنه بعده لانهم اخواله

(١) راجع تفصيله في تاريخ التمدن الاسلامي ٥ ج ٤

فلما مات يزيد وكان ابن الزبير في مكة يطالب بالخلافة واختلف بنو أمية على اختيار خالد بن يزيد او مروان بن الحكم (وكلاهما من امية) وقع الخصام بين دعاة ابن الزبير ودعاة بني امية وكان انصار ابن الزبير من قيس (مضرية) يدعون لابن الزبير وانصار بني أمية من كلب (يمنية) يدعون لخالد بن يزيد لانه ابن اختهم . ونهض اناس من بني امية فاعترضوا على صغر سن خالد واجمعوا على بيعة مروان لشيخوخته على أن تكون الخلافة بعده لخالد . ثم جرت واقعة مرج راهط بين أصحاب مروان وأصحاب ابن الزبير أي بين كلب وقيس وفاز مروان وثبتت قدمه في الخلافة . ثم توفي مروان ولم يف لخالد فخلفه ابنه عبد الملك بن مروان الشديد الوطأة وظلت كلب معه وقيس مضطغنة عليه . وانقسم العرب في سائر انحاء المملكة الاسلامية بين هذين الحزبين قيسية وكلبية أو مضرية ويمنية أو نزارية وقحطانية . وقامت المنازعات بينهما في الشام والعراق ومصر وفارس وخراسان وافريقيا والاندلس . وفي كل بلد من هذه البلاد وغيرها حزبان مضري ويمني تختلف قوة احدهما او الآخر باختلاف الخلفاء او الامراء أو العمال . فالعامل المضري يقدم المضرية والعامل اليمني يقدم اليمنية ويختلف ذلك باختلاف الاحوال وله تأثير في كل شيء من تصاريف احوالهم حتى في تولية الخلفاء والامراء وعزلهم وكثيراً ما كانت الولاية والعزل موقوفين على نصرة أحد هذين الحزبين

غير الانقسام الذي وقع بين بطون قريش واهم احزابهم بنو امية وبنو هاشم فكان الناس يتعصبون لاحدهما على الآخر. وناهيك بالتخاصم بين العرب وغير العرب وكما كان القرشيون مقدمين في العصر الاموي على سائر العرب فالعرب على الاجمال كانوا مقدمين على سائر الامم التي دانت للمسلمين . ولم يكن هؤلاء يستنكفون من ذلك بل كانوا يعتقدون فضل العرب في اقامة هذا الدين وانهم مادته واصله ولا كانوا يأنفون من ان يسموا العرب أسيادهم ويعدوا انفسهم من مواليهم بل كانوا يعدون طاعتهم وحبهم فرضاً واجباً عليهم

فكان العرب في اثناء هذه الدولة يترفعون عن سائر الامم من الموالي واهل الذمة وكان العربي يعدُّ نفسه سيداً على سواه ويعتقد انه خلق للسيادة وذلك للخدمة فاقتصر العرب على الاشتغال بالسياسة ولم يكونوا يعتنون بشيء من العلم غير الشعر والتاريخ لانه

لازم للسياسة . واما الحساب والكتابة فقد كانا من صنائع الموالي — حتى الشعر فان الموالي نالوا منه حظاً في اثناء العصر الاموي

و بالجملة ان انتقال الدولة الى الامويين انقلابٌ سياسيٌّ عظيم هو طبيعي في نواميس العمران لان القواعد التي وضعها الامام عمر للدولة تنافي سياسة الملك ولم يكن يرجى بقاؤُها لان من شروطها ان لا تخزن الاموال في بيت المال وان لا يشتغل المسلمون بالزرع ولا يقتنوا الارضين ونحو ذلك مما يلائم الدين والتقوى ويخالف السياسة والملك فانتقالها الى الملك في أيام بني امية وانتقال كرسي الخلافة الى الشام اوجب احتكاكها بالدول الاخرى فاقيمت على دعائم سياسية واقتبس أهلها تمدن الامم المجاورة وعلومهم وانشأوا تمدناً من عند انفسهم ووضعوا العلوم والآداب التي اقتضاها ذلك التمدن كما سيجيء

حال الشرق عند الفتح الاسلامي

نعني بالشرق البلاد التي فتحها المسلمون حول بحر الروم وخليج العجم وهي تشمل مصر والشام والعراق وفارس فلما فتحوها كان بعضها تحت سيطرة الفرس وهي العراق وفارس والبعض الآخر تحت سيطرة الروم وهي الشام ومصر . أما من حيث الاداب والعلوم فمصر والشام كانتا ملحقتين بمملكة الروم بآدابهما وعلومهما والغالب في دينهما النصرانية . والعراق وفارس كانت آدابهما فارسية واكثر أهلهما من المجوس . وكان التنازع قائماً بين النصرانية والمجوسية وانتشبت الحرب بين الروم والفرس لهذه الغاية . فجاء العرب وغلب الامتين جميعاً فقام الاسلام في ذينك البلدين مقام ذينك الدينين

آداب الروم في مصر والشام

كانت آداب الروم في مصر والشام يومئذٍ عبارة عن الآداب اليونانية في عصرها الاسكندري الروماني لان آداب اليونان القدماء هي القاعدة الاساسية لآداب الرومان ومَن تشعبت اليه دولتهم من الامم . وللآداب اليونانية اطوار فصلناها في الجزء الثالث من تاريخ التمدن الاسلامي آخرها العصر الاسكندري وفيه انتقلت علوم اليونان وآدابهم من اثينا وغيرها من بلادهم الى الاسكندرية على عهد البطالسة بمن انتقل

اليها من جالية اليونان على أثر فتوح الاسكندر في الشرق من القرن الرابع قبل الميلاد وحملوا معهم كتب العلم والفلسفة والطب والشعر والادب واللغة والتاريخ غير ما جمعه البطالسة من الكتب الاخرى فزهت الاسكندرية بهم وبعلومهم

وينقسم العصر الاسكندري المذكور الى قسمين : الاول كانت مصر فيه تحت سيادة البطالسة وهو العصر الاسكندري اليوناني . والثاني بعد دخولها في سيطرة الروم قبل الميلاد وهو العصر الاسكندري الروماني وينتهي بظهور الاسلام

فلما فتح المسلمون مصر والشام كانت هذه البلاد في عصرها الاسكندري الثاني او الروماني يبدأ قبل الفتح الروماني بنصف قرن اي يوم دخول أثينا في حوزة الرومان في القرن الاول قبل الميلاد لان قائدهم سولا لما فتح أثينا حمل منها احمالاً من كتب العلم والفلسفة الى رومية فانتقل العلم من أثينا الى رومية وضعف شأن الاسكندرية قبل دخولها في حوزة الروم . فلما صارت رومانية قبيل الميلاد زادت ضعفاً . وكانت علومها قد تغيرت وجهتها وانحصرت في الفلسفة . لان الاسكندرية ما برحت منذ تأسيسها وفيها جماعة من اليهود نزحوا اليها كعادتهم في الرحيل للارتزاق أو فراراً من الاضطهاد فآنسوا في الاسكندرية ترحاباً وراحة فتكاثروا . فترتب على اختلاطهم باليونان وتمازج الاذواق والابحاث تغيرٌ مهمٌ في الفلسفة والدين لان اليهود اهل توحيد ووحي وتقليد واليونان اهل فلسفة ومنطق وخرافات دينية فأدى التمازج الى التقارب وزاد ذلك بظهور النصرانية . ولما تأيدت النصرانية واعتنقها اليونان اخذوا في تطبيق فلسفتهم على الدين فتولد من ذلك ما يسمونه الفلسفة الافلاطونية الجديدة (Neo-Platonic) والفلسفة الفيثاغورية الجديدة (Neo-Pythagoric) وجملة القول ان العصر الاسكندري الثاني قلما افاد العلم لان ابحاثه كانت غايتها دينية

هذه هي الفلسفة التي كانت شائعة في المملكة الرومانية الشرقية عند الفتح الاسلامي . وكانت مدرسة الاسكندرية أم المدارس الشرقية يعلم فيها الطب والهندسة والفلك وسائر العلوم الطبيعية والرياضية يتفاخر العلماء بالتخرج فيها كما يتفاخر متخرجو جامعات اكسفورد وكمبريدج وباريس وبرلين اليوم . وعاصرتها مدارس حسنة في برغاموس وطرسوس ورودس وانطاكية وبيروت . وكان في بيروت مدرسة للحقوق طارت شهرتها في الآفاق (١)

فلما جاء الاسلام كان العلم قد انحط في هذه المدارس كلها وأهملت كتب الفلسفة القديمة بمقاومة رجال الدين لها لانها في نظرهم عثرة في سبيل الدين

(١) راجع الهلال ص ٢٢ سنة ١٩

آداب مملكة الفرس

كان للفرس آداب قديمة أضافوا اليها كثيراً من علوم الهند والصين واشور وغيرها من أمم الشرق القديم . فلما فتح الاسكندر بلادهم نقل ماكان في عاصمتها من كتب العلم الى بلاده فذهب تمدنهم وتضعضعت شؤونهم وتقاعدوا عن العلم الى ايام سابور ابن أزدشير في الدولة الساسانية باواسط القرن الثالث للميلاد لحارب الروم ونقل جماعة من اسراهم الى الاهواز وانشأ لهم مدينة سماها جندي سابور وأكرم وفادتهم فحببوا اليه العلم فعمد الى استرجاع علوم الفرس من اليونان أو الاستعاضة بمثلها . فبعث الى بلاد اليونان استجلب كتب الفلسفة وأمر بنقلها الى الفارسية [1] واختزنها في مدينته واخذ الناس في نسخها وتدارسها

فلما تولى كسرى انوشروان العادل (من سنة ٥٣١ — ٥٧٨م) فُتح للفرس مورد جديد للعلم والفلسفة بما كان من اضطهاد يوستنيان قيصر الروم للفلاسفة الوثنيين على أثر اقفاله الهياكل والمدارس الوثنية . وكانت الفلسفة الافلاطونية الجديدة قد نضجت ففرّ بعض اصحابها من وجه الاضطهاد وتفرقوا في العالم وجاء منهم سبعة الى انوشروان فأكرم وفادتهم وأمرهم بتأليف كتب الفلسفة ونقلها الى الفارسية فنقلوا المنطق والطب [2] والفوا فيهما الكتب فطالعها هو ورغب الناس فيها . وعقد المجالس للبحث والمناظرة كما فعل المأمون بعده بقرنين وبعض القرن حتى خيل لليونان الذين جالسوا انوشروان انه من تلامذة افلاطون

وانشأ انوشروان في جندي سابور مدرسة للطب والفلسفة اشتهرت في بلاد الفرس اشتهار مدرسة الاسكندرية في مصر ومدرسة بيروت في سوريا

فترى ان آداب الفرس عند ظهور الاسلام كانت قائمة على آداب اليونان والعالم المتمدن في ذلك العهد مدين لليونان في اكثر آدابه كما صارت الامم الاسلامية بعد ذلك مدينة بآدابها وعلومها لآداب اللغة العربية التي نضجت في ايام العباسيين

ومما يحسن استطراده ان آداب اليونان نقلت الى الامم الشرقية على ايدي السوريين نقلوها اولاً الى الفارسية ثم نقلوها الى لسانهم السرياني ونقلوها بعد ذلك الى اللسان العربي في التمدن الاسلامي لكن ذلك لم يتم الا في الدولة العباسية

الدولة الاموية واللغة العربية

اما الدولة الاموية فالهمة كانت متجهة فيها على الخصوص الى الآداب العربية

---

(١) ابو الفداء ٥٠ ج ١

(٢) E. Browne, Literary Hist. of Persia, I 167

الجاهلية لان الامويين كانوا شديدي الحرص على منزلة العرب كثيري العناية في حفظ الانساب وهم الذين جعلوا الاسلام دولة فأيدوها ونشروا اللغة العربية في المملكة الاسلامية بنقل الدواوين من القبطية والرومية والفارسية الى العربية . وبعد ان كانت مصر قبطية والشام رومية والعراق كلدانية او نبطية اصبحت هذه البلاد بتوالي الاجيال عربية النزعة وتنوسيت لغاتها الاصلية وهي تعدُّ الآن من البلاد العربية . واذا نزلها التركي او الافرنجي او غيرهما من اي امة كانت وتوالد فيها عدَّ نسله عربيا

وظل العرب في ايام بني امية على بداوتهم وجفائهم . وكان خلفاؤهم يرسلون اولادهم الى البادية لاتقان اللغة واكتساب اساليب البدو وآدابهم . وظل كثير من عادات الجاهلية شائعة في ايامهم كالمفاخرة والمباهلة ومناشدة الاشعار في الاندية العمومية فكان اشراف اهل الكوفة يخرجون الى ظاهرها يتناشدون الاشعار ويتحادثون ويتذاكرون ايام الناس ، واهل البصرة يخرجون الى المربد لهذه الغاية كما سيجيء . كأنهم رجعوا بعصبيتهم الى ما كانوا عليه قبل الاسلام . ولم يبلغ العرب من العز والسؤدد ما بلغوا اليه في ايام هذه الدولة . وقد تكاثروا على عهدها وانتشروا في ممالك الارض

اقسام آداب اللغة العربية

في العصر الاموي

تقسم آداب اللغة في هذا العصر الى قسمين :

اولاً — الآداب الحادثة ويدخل تحتها (١) ما حدث من العلوم او الآداب مما اقتضاه الاسلام كعلوم القرآن والحديث والفقه والعلوم اللسانية والتاريخ والجغرافيا ونسميها العلوم الاسلامية (٢) ما اقتضاه التمدن الاسلامي من العلوم التي نقلت عن اليونان والفرس وغيرهم ونسميها الآداب الدخيلة

ثانياً — الآداب القديمة وهي ما كان منها موجوداً في عصر الراشدين كاللغة والشعر والخطابة والامثال من الآداب الجاهلية

ويقال بالاجمال ان في العصر الاموي نضجت الآداب الجاهلية وولدت الآداب الاسلامية وبدا النقل من اللغات الاجنبية فلننظر في كل منها على حدة ونبدأ بالعلوم الحادثة في الاسلام ثم نعود الى الاداب التي كانت في الجاهلية لينجلي لنا تأثير تلك فيها

اعمار العلوم

ولكل من العلوم على اختلاف مواضيعها ادوار يمرُّ بها العلم كما يمرُّ الحي بادوار الحياة لان العلوم من توابع الاحياء فتخضع لنواميس النشوء مثل خضوعهم . فالادوار التي تمرُّ بها العلوم هي :

١ دور التكون (الولادة)
٢ « النمو او النشؤ (الصبا)
٣ « البلوغ (الشباب)
٤ « النضج (الكهولة)
٥ « التفرع او التشعب أو الانحلال (الشيخوخة)

وسترى ان بعض العلوم يتكون في عصر وينمو في آخر ويبلغ في آخر وينضج في آخر وقد يتخطى دورين أو ثلاثة في عصر واحد

والعصر الاموي فاتحة عصور التمدن الاسلامي أو الدولة الاسلامية لان الاسلام قبله كان ديناً لا دولة . وفي هذا العصر بدأ تكون اكثر علوم هذا التمدن ونمت ونضجت في ما يليه . وقد تقدم ان العلوم الحادثة في الاسلام قسمان كبيران العلوم الاسلامية والعلوم الدخيلة فنبدأ بالاولى

العلوم الاسلامية

هي العلوم التي اقتضاها الاسلام وتقسم الى ثلاثة اقسام (١) العلوم الشرعية وهي العلوم الدينية الاسلامية (٢) العلوم اللسانية وهي التي اقتضاها الاسلام ضمناً فاحتاجوا اليها في ضبط قراءة القرآن او تفسيره أو تفهمه وتفهم الحديث (٣) التاريخ والجغرافيا فلنبحث في كل منها على حدة

اولاً — العلوم الشرعية

ونريد بالعلوم الشرعية العلوم المستخرجة من القرآن والحديث اهمها علوم القرآن والحديث والفقه ولكل منها فروع تولدت بتوالي الاجيال وكانت في العصر الاموي في

دور تكونها وهي يومئذ القراءة (قراءة القرآن) والحديث (ضبط الحديث) والفقه وقبل التقدم اليها نمهد الكلام في البصرة والكوفة

البصرة والكوفة

هما من المدن الاسلامية التي اختطها العرب لانفسهم . وكانوا قبل الاسلام اهل ماشية وخيام وخيل يكرهون الاقامة ضمن الاسوار وينفرون من الانحصار في المدن . فلما تأيد الاسلام واجتمع العرب على فتح الامصار في العراق والشام ومصر كانوا في بادىء الرأي اذا ساروا الى غزو أو فتح أصطحبوا نساءهم وعيالهم فاذا فتحوا بلداً اقاموا في ضواحيه بخيامهم واخبيتهم وهو معسكرهم . وكان عمر بن الخطاب يشترط على جنده المقيمين في الامصار ان لا يقيموا في مكان يحول الماء فيه بينهم وبينه حتى أذا اراد أن يركب راحلته اليهم ركب . كذلك فعل عمرو بن العاص في الفسطاط وسعد بن ابي وقاص في الكوفة والبصرة وكانت كلها مضارب لجند العرب الفاتحين يعبرون عنها بالرابطة أو المعسكر فاذا طال بهم المقام اختطوا الاسواق وبنوا المنازل والقصور . ذلك كان شأنهم في صدر الاسلام فبنوا البصرة والكوفة على هذه الصورة

على انهم ظلوا نازعين الى البداوة بعد تخطيط البصرة لاول عهدها فبنوا مسجدها ودار امارتها بالقصب فكانوا اذا غزوا نزعوا ذلك القصب وحزموه وحفظوه حتى يعودوا من الغزو فيعيدوا بناءها كما كان واعتبر ذلك بالكوفة أيضاً

فاول من عمّر البصرة والكوفة الفاتحون واهلهم ثم اتسعت الفتوح الاسلامية شرقاً وغرباً ورسخت دولة المسلمين حتى نزح العرب باهلهم وخيلهم التماساً لسعة العيش في البلاد العامرة من مملكتهم الجديدة وهم يختارون اقربها الى البادية بلدهم القديم فالبصرة والكوفة أوفق البلاد لهم لانهما على الحدود بين جزيرتهم والشام والعراق

المربد او عكاظ الاسلام

انتقل العرب الى هذين البلدين ونقلوا معهم عاداتهم الجاهلية واخلاقهم العربية فانقسموا فيها قبائل و بطوناً — عرب اليمن في أحد طرفي البلد وعرب الحجاز في الطرف الآخر وأنقسمت قبائل كل جانب حسب بطونها وافخاذها . واقاموا فيهما أسواقاً أدبية

مثل أسواقهم في الجاهلية للمفاخرة والمناضلة والمناشدة : اشهرها « المربد » في البصرة وكانت سوقاً من اسواقها يعرف بسوق الابل ثم صار محلة عظيمة سكنها الناس واقاموا بها مفاخرات الشعراء ومجالس الخطباء ويدلك على سعتها وسعة البصرة أن المربد كان في زمن ياقوت بالقرن السادس للهجرة بعد انحطاط دولة العرب كالبلد المنفرد وبينه وبين البصرة ثلاثة أميال وكان ما بين ذلك عامراً فتأمل

وكان المربد في الدولة الاموية عكاظ الاسلام تألفت فيه حلقات المناشدة والمفاخرة[1] ومجالس العلم والادب[2] فكان الشعراء يؤمونه ومعهم رواتهم للمناضلة أو المناشدة أو المحاكة وكان لفحولهم حلقات خاصة أشهرها حلقة الفرزدق وراعي الابل[3]

وكان الاشراف يخرجون أيضاً الى المربد للمذاكرة أو المناشدة . وكذلك كان يفعل أشراف الكوفة يخرجون الى ضواحيها لمثل هذا الغرض . لكن المربد غلب على سائر الاسواق كما غلبت عكاظ في الجاهلية

مدينة السياسة ومدينة العلم

ففي عصر الراشدين كانت المدينة عاصمة المسلمين ومقر علمائهم وهم يومئذ القراء والحفاظ من الصحابة ثم أفضت الدولة الى بني أمية وانتقلت عاصمة الاسلام الى دمشق واختلفت الاحزاب وتحصن ابن الزبير في مكة وأخرج بنو أمية وأنصارهم من المدينة وسائر الحجاز . وقد علمت رغبة الامويين في استبقاء الطبائع العربية البدوية فنشطوا الآداب الجاهلية ولا سيما الشعر لاسباب سيأتي تفصيلها فوجدوا في البصرة والكوفة ما ينوب عن مكة والمدينة من هذا القبيل وان ظلوا مضطرين الى الحجاز لان فيه الكعبة وقبر النبي وسائر مناسك الحج

وكان في المدينة على عهد معاوية طائفة من ابناء الصحابة يخشى قيامهم للمطالبة بالخلافة كما فعل احدهم عبد الله بن الزبير فاعماهم معاوية بالعطايا وقيدهم بالاحسان ووسعهم بالحلم فاركنوا الى التمتع بالدنيا من طعام وشراب وسماع . ينفقون في ذلك الاموال وهي تتدفق عليهم من خزائن الشام . فلما تولى عبد الملك بن مروان (سنة ٦٥ هـ) كانت المدينة قد اصبحت مرسحاً للهو والغناء ونبغ فيها طائفة من المغنين

(١) الاغاني ١٨٢ ج ٢ (٢) الاغاني ٥١ ج ٣ (٣) الاغاني ١٦٩ ج ٢٠

وتكاثر فيها المخنثون واهل القصف الا من كان فيها من الحفاظ والقراء . فعلم عبد الملك ان اعداءه هناك لا يخشى بأسهم لاشتغالهم بأنفسهم وملاذهم ولا سيما بعد ان غلبهم في العراق فجعل همه صرف اذهان اهل الادب والعلم عن بلاد العرب الى البصرة فجعلها ملجأ الشعراء والادباء وغيرهم وكانت في ايامهم لا تزال كالبادية يقيم العرب حولها في المضارب قبائل و بطوناً فاصبحت الشام في ايامه دار الملك والبصرة دار العلم . ولم ينبغ شاعر او خطيب في بلاد العرب كلها الا جاء البصرة والكوفة فازدحمت الاقدام فيهما و بعد زمن يسير خلت جزيرة العرب من اهل الادب الا اليمامة وبعض الحجاز

سكان البصرة والكوفة

وتقاطر الى البصرة والكوفة ايضاً اهل المدن المجاورة في العراق والشام وفارس من طلاب الرزق للاستفادة من تلك النهضة السياسية بالتجارة او الصناعة أو غيرهما . فاجتمع في تلك البقعة لفيف من امم شتى مصيرهم الى التعريب . لان العربية كانت قد اصبحت لغة الدولة والدين ولا بد منها لمن اقام في تلك الديار من المسلمين وغيرهم بعد أن تحولت دواوينها الى العربية كما تقدم . فاشتدت الحاجة الى ضبطها وجمع الفاظها — غير ما بعث الى ذلك من الاسباب الاخرى . ونظراً لرغبة الامويين في الاحتفاظ بالبداوة نشطوا آداب الجاهلية على الخصوص فاشتغل الناس بتدوينها ونبغ الرواة والادباء وغيرهم

فاصبحت البصرة والكوفة في العصر الاموي و بعده بؤرة العلم والادب وملتقى العلماء والادباء والشعراء يزدحمون في المسجد أو المربد أو غيرهما للمفاخرة أو المناظرة أو المناضلة أو المناشدة واهل البصرة اعرف في اللغة والادب يأخذ الكوفيون عنهم وهم لا يأخذون عن أهل الكوفة . أما الشعر فكان في الكوفة اكثر منه في البصرة. ووقف المختار في اثناء حروبه بالعراق على اشعار مدفونة في القصر الابيض بالكوفة مما يدل على عناية الكوفيين بالشعر [١] لكن اكثره مصنوع ومنسوب الى من لم يقله [٢]

فبعد أن مهدنا الكلام بوصف البصرة والكوفة نقدم الى العلوم الشرعية الاسلامية واساسها القرآن وقد ذكرنا كيفية جمعه وتدوينه في عصر الراشدين

(١) الخصائص لابن جني (خط) ١١٨ (٢) المزهر ٢٠٦ — ٢٠٨ ج ٢

١ — قراءة القرآن

في العصر الاموي

هي أقدم العلوم الشرعية الاسلامية وكان للقراءة شأن في صدر الاسلام لقلة الذين يقرأون يومئذ فسموا الذين كانوا يحفظون القرآن « قراء » تمييزاً لهم عن سائر المسلمين لانهم كانوا اميين . وقد تقدم ان السبب الذي حمل عثمان على جمع القرآن وكتابته ما بلغه من اختلاف الصحابة في قراءته . على انه لم يمض على ارسال مصاحفه الى الامصار زمن قصير حتى اصبح لاهل كل مصر قراء خاصة يتبعون فيها قارئاً يثقون بصحة قراءته وتنوقل ذلك واشتهر . ثم استقر منها سبع قراءات تواتر نقلها بادائها واختصت بالانتساب الى من اشتهر بروايتها فصارت هذه القراءات السبع اصولاً للقراة ويعدُّها بعضهم عشراً

واصحاب هذه القراءات معظمهم من الموالي و بعضهم تجاوز العصر الاموي وهم :

١ — عبد الله بن كثير توفي سنة ١٢٠ هـ في مكة وهو من الموالي اصله من ابناء فارس الذين بعثهم كسرى بالسفن الى اليمن حين طرد الحبشة عنها . وكان شيخاً كبيراً ابيض الراس واللحية طويلاً جسيماً اسمر اشهل العينين يغير شيبته بالحناء (١)

٢ — عاصم بن ابي النجود توفي سنة ١٢٨ هـ في الكوفة وهو مولى بني جذيمة أخذ القراءة عن ابي عبد الرحمن السلمي وزر بن حبيش (٢)

٣ — عبد الله بن عامر اليحصبي من الطبقة الاولى من التابعين توفي بدمشق سنة ١١٨ هـ

٤ — يزيد بن القعقاع توفي سنة ١٣٢ هـ في المدينة وهو مولى عبد الله بن عياش المذكور واخذ القراءة عنه وعن غيره (٣)

٥ — حمزة بن حبيب الزيات توفي بحلوان العراق سنة ١٥٦ هـ وهو مولى آل عكرمة

٦ — ابو عمر بن العلاء من تميم توفي سنة ١٥٥ هـ بالكوفة وهو العلم المشهور في علم القراءة واللغة العربية وسيأتي ذكره مراراً في تاريخ آداب اللغة

٧ — نافع بن عبد الرحمن توفي سنة ١٦٩ هـ بالمدينة وهو مولى جعونة بن شعوب الشجعي كان اسود شديد السواد واصله من اصبهان ويظهر من تأخر وفاته عن زمن انتقال الدولة الى العباسيين انه كان في العصر الاموي صغيراً (٤)

---

(١) ابن خلكان ٢٥٠ ج ١ (٢) الفهرست ٢٩ (٣) المعارف ١٧٩
(٤) ابن خلكان ١٥١ ج ٢ .

القراءات الشاذة

واشتهر غير هؤلاء كثيرون في اقطار العالم الاسلامي وفيهم من يقرأ قراءات غريبة وقد سماهم ابن النديم قراء الشواذ ذكر في فهرسته (صفحة ٣٠) جماعة منهم في المدينة وآخرين في مكة والبصرة والكوفة والشام واليمن وغيرها . وتكاثر قراء الشواذ على الخصوص بعد ان ظهرت الفرق الاسلامية وتشعبت الآراء في التفسير والفقه والخلفاء يشددون في مقاصة اولئك الشاذين خوف التفرقة كما كان يفعل رؤساء النصرانية في القرون الاولى للميلاد . ولكن الاسلام كان اقرب الى اطلاق حرية الفكر والقول وخصوصاً في اوائله فلم يكن المسلم يستنكف من ابداء ما يخطر له ولو كان مخالفاً لرأي الخليفة ولذلك كثرت الفرق الاسلامية يومئذ وتعددت مذاهب اصحابها في القراءة والتفسير والفقه وفي كل شيء حتى ذهب بعضهم الى ان سورة يوسف ليست من القرآن لانها قصة من القصص والقائلون بذلك العجاردة [١] وظل بعضهم يقرأون القراءات الغريبة الى اواسط الدولة العباسية وفي جملتهم يعقوب العطار المتوفي سنة ٣٥٤ هـ فاستحضره الخليفة واستتابه بحضرة القراء والفقهاء وكتب محضر توبته واشهد عليه من حضر [٢]

واشهر من قرأ القراءات الشاذة ابن شنبوذ البغدادي المتوفى سنة ٣٢٨ هـ فانه تفرد بقراءات من الشواذ كان يقرأ بها في المحراب ذكرها ابن النديم وابن خلكان فعلم به ابن مقلة الوزير سنة ٣٢٣ هـ فقبض عليه واعتقله اياماً فلم يكن ذلك ليرجعه عن قراءته فامر بجلده واستتابه فتاب وقال انه قد رجع عما يقرأه وانه لا يقرأ الا بمصحف عثمان بن عفان بالقراءة المتعارفة التي يقرأ بها الناس وكتب محضراً بذلك [٣]

والقراءات السبع التي ذكرنا اصحابها كلها جائزة عند المسلمين . وعند الائمة ان الجميع على صواب فقد يختار الاقليم الواحد قراءة واحدة أو قراءتين أو أكثر وقد تقرأ كل القراءات في اقليم واحد [٤] . وكانوا يرجعون في اثبات صحة القراءة الى الاسناد المتسلسل كقولهم قرأ يعقوب بن اسحق على سلام وقرأ سلام على عاصم وقرأ عاصم على ابي عبد الرحمن وقرأ أبو عبد الرحمن على علي بن ابي طالب وقرأ علي على النبي [٥]

(١) الشهرستاني ٧٣ ج ١ (٢) طبقات الادباء ٣٦١ (٣) ابن خلكان ٤٩٠ ج ١
(٤) المقدسي ٣٩ ونفح الطيب ١٠٤ ج ١ (٥) ابن خلكان ٣٠٨ ج ٢

كتب القراءة

ولم يدون هؤلاء القراء قراءاتهم في الكتب لكنها تنوقلت بالاسناد فالف فيها كثيرون بعد نضج التمدن الاسلامي في بغداد وقرطبة وغيرهما من مدائن ذلك التمدن ونحن موردون خلاصة تاريخ ذلك — واشهر ماوصلنامن كتبهم في هذا الفن :

١ كتاب الايضاح في الوقف والابتداء لمحمد بن قاسم الانباري المتوفى سنة ٣٢٨ منه مجلد ناقص في المكتبة الخديوية بخط قديم يشبه ان يكون من خطوط القرن الرابع للهجرة . ومنه نسخة في المتحف البريطاني وفي مكتبة كوبريلي بالاستانة

٢ كتاب التيسير في القراءات السبع لابن الصيرفي من اهل دانية بالاندلس توفي سنة ٤٤٤هـ ومنه نسخة خطية في المكتبة الخديوية ٣ جامع البيان في القراءات السبع له

٤ مفردات القراءات السبع لابن الصيرفي المذكور اتى فيه على الاختلاف بين اصحاب نافع الاربعة الذين اخذوا عنه القراءات وبين غيرهم من اصحاب الأئمة السبعة ومنه نسخة خطية في المكتبة الخديوية

٥ حرز الاماني ووجه التهاني في القراءات السبع وهو منظومة لمحمد بن فيره الشاطبي المتوفى سنة ٥٩٠ وتعرف بمتن الشاطبية وقد طبعت في الهند وغيرها ومنها عدة نسخ خطية في المكتبة الخديوية

٦ المقدمة الجزرية في علم التجويد منظومة لابن الجزري المتوفى سنة ٨٣٣ هـ منها عدة نسخ في المكتبة الخديوية

٢ — التفسير

كان العرب عند ظهور الدعوة كلما تليت عليهم سورة أو آية فهموها وادركوا معانيها بمفرداتها وتراكيبها لأنها بلسانهم وعلى اساليب بلاغتهم ولان اكثرها قيلت في احوال كانت كالقرائن تسهل فهمها واذا اشكل عليهم شيء منها سألوا النبي فكان يبين لهم المجمل ويميز الناسخ من المنسوخ . فحفظ اصحابه عنه ذلك وتناقلوه فيما بينهم وعنهم اخذ من جاء بعدهم من التابعين وتابعي التابعين

ولما صار الاسلام دولة واحتاجوا الى الاحكام والقوانين كان القرآن مصدر استنباطها فزادت العناية في تفسيره واصبح القراء والمفسرون مرجع المسلمين في استخراج تلك الاحكام أو هم الفقهاء لاول عهد الاسلام . وكانوا يتناقلون التفسير شفاهاً الى اواخر القرن الاول

والمشهوران اول من دونه مجاهد المتوفى سنة ١٠٤ هـ ولكننا وجدنا في المكتبة الخديوية بضع نسخ من تفسير ينسب الى ابن عباس الصحابي المشهور المتوفى سنة ٦٨ هـ ابن عم النبي . والمتواتر انه اول من فسر القرآن ولم تكن نظن له تفسيراً مدوناً ولكن يؤخذ مما ذكر في مقدمة هذا التفسير انه نقل بالرواية والاسناد ولم يدون في ايام صاحبه . وللشيعة تفسير قديم ينسبونه الى محمد الباقر بن علي بن الحسين . اما تفسير مجاهد المذكور فغير موجود ولعله تفسير ابن عباس رواه مجاهد [١] .

ولم ينضج التفسير الا في العصر العباسي كما سيأتي

٣ - الحديث

لما اشتغل المسلمون في تفهم معاني القرآن كان في جملة ما افتقروا اليه في تفهمها اقوال النبي وهو ما عبروا عنه بالاحاديث النبوية . واقدم من سمعها الصحابة وحفظوها فكانوا اذا اشكل عليهم فهم آية واختلفوا في تفسيرها او حكم من احكامها استعانوا بتلك الاحاديث على استيضاحها . فلما كانت الفتوح تفرق الصحابة في الارض وعند كل منهم بعض الاحاديث وقد يتفرد بعضهم باحاديث لم يسمعها سواه فاصبح طالب الحديث اذا كان من اهل دمشق مثلاً لا يستوفيه الا اذا رحل في طلبه الى مكة والمدينة والبصرة والكوفة والري ومصر وغيرها . وكذلك المقيم في احد هذه البلاد فانه لا يستطيع استيفاء الحديث ما لم يطلبه من البلاد الأخرى وهذا ما يعبرون عنه بالرحلة في طلب العلم . على ان الارتحال في طلب العلم لم يكن من مستحدثات الاسلام ولكنه كان شائعاً من قديم الزمان بالنظر الى قلة وسائل المواصلات واسباب النشر في تلك العصور فكان المؤرخ والجغرافي مثلاً يرحل في طلب التاريخ او الجغرافيا الى اقاصي البلاد كما فعل هيرودوتس واسترابون وغيرهما . وكان المسلمون يرحلون في طلب العلوم غير الحديث ايضاً . وكان النصارى في العصر الاسلامي يرحلون الى بلاد الروم لاتقان دياناتهم [٢]

وضع الاحاديث

نشأت الفتنة بعد مقتل الخليفة عثمان واختلف المسلمون في الخلافة وادعاها غير واحد فانصرفت عناية كل حزب من احزابهم الى استنباط الادلة واستخراج الاحاديث المؤيدة لدعواهم فكان بعضهم اذا اعوزهم حديث يؤيدون به قولاً او يقيمون به حجة اختلقوا حديثاً من عند انفسهم . وتكاثر ذلك في اثناء تلك الفوضى فكان المهلب بن ابي صفرة مثلاً يضع الاحاديث ليشد بها امر المسلمين ويضعف امر الخوارج [٣] وهو

(١) الفهرست ٣٣ (٢) طبقات الاطباء ١٧٥ ج ٢ (٣) ابن خلكان ١٤٦ ج ٢

مع ذلك معدود من الاتقياء والنبلاء مع علمهم بما كان يضعه من الاحاديث لانهم كانوا يعدون ذلك خدعة في الحرب وامثال المهلب كثيرون كانوا يضعون الحديث لاغراض مختلفة

فلما هدأت الفتنة وعمد المامون الى التحقيق كانت تلك الموضوعات قد تكاثرت فاشتغلوا في التفريق بينها وبين الصحيح فألفوا كتباً كثيرة في الحديث وميزوا صحيحه من فاسده وجعلوه مراتب . ولهم في ذلك الفاظ اصطلحوا عليها لهذه المراتب كقولهم الصحيح والحسن والضعيف والمرسل والمنقطع والمعضل والشاذ والغريب وغير ذلك من القابه المتداولة بينهم . وبينوا كيف يأخذ الرواة بعضهم عن بعض بقراءة اوكتابة او مناولة اواجازة مع تفاوت رتبها [١] واشهر المحدثين في زمن بني أمية وبعضهم تجاوزه :

١ — شعبة بن الحجاج بن الورد مولى الاشاقر ويكنى ابا بسطام توفي سنة ١٦٠ هـ وكان الثغ ويقول « والله لانا في الشعر اسلم مني في الحديث ولو اردت الله ما خرجت اليكم ولو اردتم الله ما جئتموني ولكننا نرغب في المدح ونكره الذم »

٢ — خالد الحذاء : هو خالد بن مهران مولى قريش توفي سنة ١٤١

٣ — ابو المهزم : وهو يزيد بن سفيان وقد طعن شعبة في تحديثه [٢]

٤ — عاصم : هو عاصم بن سليمان مولى بني تميم توفي بالكوفة سنة ١٤١ هـ

واكثر المحدثين نبغوا في العصر العباسي الاول وهم كثيرون ذكرهم ابن قتيبة في كتاب المعارف صفحة ١٧٢ — ١٧٩ فليراجع هناك

وليس بين هؤلاء من دون كتاباً واقدم من دون الاحاديث مالك بن انس الامام المشهور في كتاب الموطأ رتبه على ابواب الفقه وهو مطبوع ومشروح وسيذكر في باب الفقه . وذكر بعضهم ان ابن جريج دون الحديث لكن لم يصلنا منه شيء

وفي العصر العباسي نضج علم الحديث وضبطت كتبه على ايدي الائمة المحدثين

٤ — الفقه

لما صار الاسلام دولة احتاج امراؤه الى ما يقضون به بين رعاياهم في احوالهم الشخصية ومعاملاتهم المدنية فرجعوا الى القرآن والحديث . فاستخرجوا منهما شريعة نظموا بها حكومتهم وحكموا بها بين رعاياهم . وذلك طبيعي في الدول الكبرى . فاليونان قلما عنوا بوضع الشرائع والاحكام الدولية او القضائية لانهم لم يكونوا اهل دولة كبرى الا زمناً قصيراً فانصرفت قرائحهم الا الفلسفة وفرعها . واما الرومان فقد اتسعت مملكتهم كما اتسعت مملكة العرب وامتد سلطانهم وقويت شوكتهم فلم يكن لهم بدٌّ من وضع الشرائع

(١) ابن خلدون ٣٦٨ ج ١ (٢) المعارف ١٧٢

لكنها لم يتم نضجها عندهم الابعد تأسيس دولتهم ببضعة عشر قرناً على يد يوستنيان صاحب القانون المشهور سنة ٥٣٣ م وهي عبارة عن عادات واعتبارات واعتقادات تجمعت بتوالي الاحقاب من الشعب اللاتيني والصابني وغيرهما ممن دانوا لرومية بالتدريج حتى صارت شريعة كاملة على عهد يوستينيان المذكور

واما المسلمون فانهم استخرجوا احكامهم من القرآن والحديث . ولم يمض عليهم قرنان والثالث حتى نضجت شريعتهم وتكون فقهم وهو من افضل شرائع العالم . وقد اسرعوا في ذلك مثل سرعتهم في تأسيس دولتهم ونشر دينهم

قلنا ان القرآن اساس الفقه الاسلامي وكان المسلمون في عهد النبي يتلقون الاحكام منه وهو يبينها لهم شفاهاً لم يكن ذلك يحتاج الى نظر او قياس . فلما توفي رجع الصحابة الى القرآن والسنة فاصبح القراء اول فقهاء المسلمين او حاملي شريعتهم وكانوا يرجعون اليهم في الفتيا والاحكام لقلة الذين يقراون في الصدر الاول . فلما عظمت امصار الاسلام وذهبت الامية من العرب وكمل الفقه واصبح صناعة بدلوا باسم الفقهاء والعلماء

الفقهاء

فاول الفقهاء المسلمين الصحابة الاولون واولهم الخلفاء الراشدون ثم عبد الرحمن بن عوف وابيُّ بن كعب وعبد الله بن مسعود ومعاذ بن جبل وعمارة بن ياسر وحذيفة وزيد بن ثابت وسلمان وابو الدرداء وابو موسى الاشعري [١] ثم انتقلت الفتوى والفقه الى التابعين واشتهر منهم سبعة وهم سعيد بن المسيب وابو بكر بن عبد الرحمن وقاسم وعبيد الله وعروة وسليمان وخارجة وقد جمعهم بعض العلماء في هذين البيتين :

الا كل من لا يقتدي بأئمة فقسمته ضئزي عن الحق خارجه

فخذهم عبيد الله عروة قاسم سعيد سليمان ابو بكر خارجه [٢]

وبعض المؤرخين يحسبهم عشرة مع تبديل بعض الاسماء [٣] وعنهم انتقل الفقه والفتيا في العالم الاسلامي . وفي اوائل الاسلام كان الفقه والقراءة والتفسير والحديث علماً واحداً ثم اخذت هذه العلوم تستقل بعضها عن بعض عملاً بناموس الارتقاء فلما استقل الفقه سموا اصحابه الفقهاء كما تقدم وكان لهم تاثير كبير في الدولة لما يترتب على الفتيا من الامور الهامة كالعزل والتنصيب والقتل والعفو . ففي ايام بني امية كان المرجع في الفقه والفتيا الى اهل المدينة وكان الخلفاء لا يقطعون امراً دونهم . ولم يخلف فقهاء العصر الاموي آثاراً مكتوبة لان الفقه نضج وتكيف بعد نبوغ الائمة الاربعة في العصر العباسي

(١) الدميري ٥١ ج ١ (٢) ابن خلكان ٩٢ ج ١ (٣) ابو الفداء ٢٠٩ ج ١

ثانياً ـ العلوم اللسانية

في العصر الاموي

ونريد بها العلوم التي ترجع الى ضبط اللغة العربية كالنحو والصرف والادب ونحوها. وهذه بدأت بالتكون في العصر الاموي ولم يتكون منها في هذا العصر غير النحو ويلحقه الحركات والاعجام وسنتكلم عن كل منها :

١ ـ النحو

النحو بمعناه الحقيقي طبيعي على لسان كل متكلم يتلقنه من مرضعه . لان الانسان يتعلم النحو وهو يتعلم النطق اذ بدونه لا يحسن التعبير عن افكاره . اما اذا اراد ان يتعلم لساناً غير لسانه فدرس قواعد النحو يسهل عليه تناوله . ولذلك فالامة قد تقضي قروناً متطاولة وهي تتكلم وتخطب وتنظم الشعر قبل ان تدون قواعد النحو وتجعله علماً . فاليونان لم يبدأوا بضبط قواعد لسانهم الا في القرن الخامس قبل الميلاد واول من بدا بذلك منهم بروتغوراس المتوفى سنة ٤١١ ق . م . فتكلم في المذكر والمؤنث وبعض الاسماء . ثم بروديكوس وقد عاصره وتكلم في المترادفات ثم جاء ارسطو وغيره واتموا علم النحو اليوناني وله تاريخ يشبه تاريخ النحو العربي . وكذلك فعل الرومان في نحو اللغة اللاتينية فانهم لم يدونوا قواعده الا في القرن الاول قبل الميلاد في زمن بومبيوس وقد دونه عالم اسمه ديونيسيوس تراكس اقتداء باليونان

فاليونان نبغ فيهم الشعراء والخطباء والادباء والفلاسفة قبل تدوين قواعد النحو في لسانهم . فنظم هوميروس الياذته واوذيسته وهو لم يتعلم قواعد النحو فلم يضره ذلك شيئاً لان اللغة كانت ملكة فيه والف اشيلوس الروايات التمثيلية وسحر اليونان ببيانه ونبغ الفلاسفة فريسيدس وانا كسمندر وطاليس . وكتب هيرودوتس الرحالة تاريخه الشهير قبل وضع النحو . وكذلك الرومان فقد نبغ فيهم جماعة من الشعراء والخطباء والادباء قبل تدوين النحو

وضع النحو العربي وواضعه

وهكذا العرب فقد نظموا الشعر والقوا الخطب وتناشدوا وتراسلوا قبل تدوين النحو لان ملكة اللغة كانت طبيعية فيهم . على أنهم اضطروا الى ضبط تلك القواعد وتدوينها باسرع مما اضطر اليه اليونان والرومان التماساً للدقة في ضبط معاني القرآن .

فلم يمض على دولتهم نصف قرن حتى شعروا بالحاجة الى النحو . ويغلب على ظننا انهم نسجوا في تبويبه على منوال السريان لان السريان دونوا نحوهم والفوا فيه الكتب في اواسط القرن الخامس للميلاد . واول من باشر ذلك منهم الاسقف يعقوب الرهاوي الملقب بمفسر الكتب المتوفى سنة ٤٦٠ م [١] فالظاهر ان العرب لما خالطوا السريان في العراق اطلعوا على آدابهم وفي جملتها النحو فأعجبهم فلما اضطروا الى تدوين نحوهم نسجوا على منواله لان اللغتين شقيقتان . ويؤيد ذلك ان العرب بدأوا بوضع النحو وهم في العراق بين السريان والكلدان . واقسام الكلام في العربية هي نفس اقسامه في السريانية

اما استعجال العرب في تدوين النحو فانه تابع لاستعجالهم في الفتح ونشر الدين لان الفتوح دعت الى الاختلاط بالاعاجم والاختلاط دعا الى فساد اللغة فأصبح الناس يهملون الاعراب . وكان العرب عند ظهور الاسلام يعربون كلامهم على نحو ما في القرآن — الا من خالطهم من الموالي والمتعربين فان هؤلاء كانوا حتى في أيام النبي يخطئون الاعراب وقد ذكروا رجلاً لحن بحضرة النبي فقال « ارشدوا اخاكم فقد ضل » وقال ابوبكر « لان اقرأ فاسقط احب الي من ان اقرأ فالحن » [٢] ولكن اللحن لم يكثر الا بعد الفتوح وانتشار العرب في الآفاق فتذمر العمال مما كانوا يسمعونه من اللحن وخصوصاً في قراءة القرآن فاحسوا بحاجة شديدة الى ضبط قواعد اللغة

اما واضع علم النحو او مدونه فهو بالاجماع ابو الاسود الدؤلي المتوفى سنة ٦٩ هـ وكان من سادات التابعين صحب علي بن ابي طالب وشهد معه واقعة صفين ثم أقام في البصرة . وكأنه تعلم لغة السريان او اطلع على نحوها فرغب في النسج على منواله فعرض ذلك على والي العراقين يومئذ زياد بن ابيه فأبى [٣] . حتى اذا جاءه رجل يشكو اليه امراً فسمعه يقول « اصلح الله الامير توفي ابانا وترك بنون » فاستنكف زياد من سماع ذلك اللحن فبعث الى ابي الاسود ان يصنع ما كان قد نهاه عنه

واختلف الرواة في مابعث ابا الاسود على وضع النحو لكنهم مجمعون على انه واضعه كما قدمنا وهو يقول انه تلقى ذلك عن علي بن ابي طالب

فوضع علم النحو او الشروع فيه على الاقل ثابت لابي الاسود ويؤيد ذلك ما ذكره ابن النديم صاحب الفهرست مما شاهده بعينه في عرض كلامه عن خزانة كتب اطلعه عليها احد جماعي الكتب فكان في جملة مافيها قمطر كبير فيه نحو ٣٠٠ رطل جلود

(١) شعراء السريان للقرداحي ١٨ (٢) المزهر ١٩٩ ج٢ (٣) ابن خلكان ٢٤٠ ج١

فلجان وصكاك وقرطاس مصري وورق صيني وورق تهامي وجلود ادم وورق خراساني وبينها اربع اوراق قال « احسبها من ورق الصين ترجمتها هـذه فيها كلام في الفاعل والمفعول من ابي الاسود رحمة الله عليه بخط يحي بن يعمر وتحت هـذا الخط بخط عتيق هذا خط علان النحوي وتحته هذا خط النضر بن شميل ثم لما مات هذا الرجل فقدنا القمطر » (١)

على ان ما وضعه ابو الاسود من القواعد لم يكن ليسدّ الحاجة المستعجلة لضبط القراءة فعمد الى ضبطها بعلامات يتميز بها المنصوب من المرفوع او الاسم من الفعل فوضع علامات كانت عند السريان يدلون بها على الرفع والنصب والجر او يميزون بها الفعل من الاسم كما سيجيء

فالعرب كانوا يعرفون الاعراب قبل علم النحو كما كانوا يحسنون النظم قبل علم العروض وكان ذلك ملكة طبيعية فيهم حتى اختلطوا بالاعاجم واسلم هؤلاء وليس فيهم ملكة اللغة ليفهموا القرآن فاضطروا الى ضبطها وكانوا اكثر المسلمين اشتغالاً في ذلك . بدا بعلم النحو ابو الاسود واتمه من جاء بعده من اهل البصرة والكوفة . ولم ينضج الا في العصر العباسي وسيأتي الكلام عليه هناك

٢ — الحركات

ونعني بها علامات الضم والفتح والكسر ونحوها اضطروا الى وضعها في اوائل الاسلام لضبط الاعراب في قراءة القرآن . وكان القرآن في اول الاسلام محفوظاً في صدور القراء لا خوف من الاختلاف في قراءته لكثرة عنايتهم في تناقله وضبط الفاظه حتى دونوه وكثر اهل الاسلام . فمضى نصف القرن الاول للهجرة والناس يقرأون القرآن بلا حركات ولا اعجام . واول ما افتقروا اليه الحركات واول من رسمها ابو الاسود الدؤلي المتقدم ذكره فانه وضع نقطاً تمتاز بها الكلمات أو تعرف بها الحركات ولذلك توهم بعضهم انه وضع نقط الاعجام . والحقيقة انه وضع نقطاً لتمييز الاسم من الفعل من الحرف وليس لتمييز الباء من التاء او الجيم من الحاء . والارجح انه اقتبس ذلك من الكلدان أو السريان جيرانه في العراق وكان عندهم نقط كبيرة توضع فوق الحرف أو تحته لتعيين لفظه أو تعيين الكلمة الواقع هو فيها اسم هي ام فعل أم حرف.

(١) الفهرست ٤٠

مثل قولهم «كتب» فيمكن ان تكون اسماً جمع كتاب أو فعلاً ماضياً معلوماً أو مجهولاً. وكان عندهم أيضاً نقط هي حركات وصفها يعقوب الرهاوي قبيل ذلك الزمن [1] وهي عبارة عن نقط كانت ترسم في حشو الحروف ثم تحولت الى نقط مزدوجة تنوب عن الحركات الثلاث وما زالت عندهم الى اليوم

فالظاهر ان ابا الاسود اقتبس هذه الحركات. ويؤيد ذلك انه لما اراد التنقيط اتوه بكاتب فقال له ابو الاسود «اذا رأيتني قد فتحت فمي بالحرف فانقط نقطة فوقه على اعلاه وان ضممت فمي فانقط نقطة بين يدي الحرف وان كسرت فاجعل النقطة من تحت الحرف [2]» فكان العرب بعد ذلك يستعملون هذه النقط والغالب أن يكتبوها بلون غير لون الخط. وقد شاهدنا في دار الكتب الخديوية مصحفاً كوفياً منطقاً على هذه الكيفية وجدوه في جامع عمرو بجوار القاهرة وهو من اقدم مصاحف العالم مكتوب على رقوق كبيرة بمداد أسود وفيه نقط حمراء اللون. فالنقطة فوق الحرف فتحة وتحته كسرة وبين يدي الحرف ضمة كما وصفها ابو الاسود

صور الحركات

اما صور الحركات التي وصلت الينا نعني الضمة والفتحة والكسرة فلا نعلم واضعها أو واضعيها ولا الزمن الذي وضعت فيه ولكن الغالب انها وضعت في القرون الاولى للاسلام كما وضعت نقط الاعجام اقتداء بالسريان. لان هؤلاء وضعوا الحركات لحروفهم في القرن الثامن للميلاد نقطاً كما فعل العبرانيون. والحركات عند العبرانيين ١١ وعند السريان الشرقيين ٧ وعند السريان الغربيين ٥ أما في العربية فهي ثلاث فقط

ظل الساميون يكتبون السنتهم بلا حركات من اقدم ازمنة التاريخ في اشور وبابل وفينيقية واليمن والحجاز ولم يفطنوا لوضع الحركات الا بعد الميلاد المسيحي. واقدم وسيلة اتخذوها لدفع الالتباس في القراءة النقطة الكبيرة التي استخدمها السريان كما تقدم. والغالب انها وضعت نحو القرن الرابع للميلاد. ثم تقدموا خطوة اخرى فاتخذوا لكل حركة علامة خاصة توضع فوق الحرف أو تحته وهي عند العبران والسريان الشرقيين نقط توضع مفردة أو مزدوجة فوق الحرف أو تحته فتدل على الضم أو الفتح أو الكسر أو ما بينها كالامالة والاشمام ونحوهما

(١) اللمعة الشهية ٢٠ (٢) الفهرست ٤٠

أما السريان الغربيون فاقتبسوا الحركات من الابجدية اليونانية وأخذوا منها خمسة أحرف صوتية هي Y, E, H, O, A, عبروا بها عن الحركات كل حرف يجانس الحركة التي يدل عليها في اليونانية . وقد تم ذلك في المئة الثامنة للميلاد اذ نهض السريان لتحرير الفاظ الكتاب المقدس وسائر كتب الدين وضبطوا قراءتها وكانت اليونانية شائعة بين رجال العلم منهم فاقتبسوا حروفها الصوتية لهذه الغاية

أما العرب فقد هموا بضبط لسانهم نحو قيام السريان فاقتدوا بهم أولاً بالنقط الكبيرة والصغيرة ثم وضعوا الحركات المستقلة كما وصلت الينا . لكنهم لم يقتبسوها من احراف الالسنة الاخرى كما فعل السريان بل اخذوها من الابجدية العربية فاستخدموا حروفها الصوتية لتدل على الحركات . والحركات العربية لا تقلُّ عدداً عن الحركات السريانية وربما زادت عليها ولكن الاحرف الصوتية في العربية ثلاث فقط (الواو والالف والياء) فاستعاروها للدلالة على الضم والفتح والكسر وهي الحركات الرئيسية وتركوا سائر الحركات المختلسة كالاشمام والرَوْم والامالة لفطنة القارىء . واذا تأملت صور الحركات المذكورة رأيت الضمة كالواو تماماً والفتحة تشبه الالف مائلة . وأما الكسرة فانها الآن بعيدة الشبه بالياء فاما انها كانت عند اول استخدامها اقرب الى شكل الياء ثم تنوعت بالاستعمال أو انهم قلدوا بها حركة الكسر عند السريان الشرقيين وهي نقطتان اسفل الحرف فرسمها العرب معاً فجاءتا كالكسرة . أو لعلهم اقتبسوا الياء السريانية فان صورتها كالكسرة العربية وهي « ـِ » وقد قال الامام الرازي الحركات ابعاض المصوتات

المدة والشدة والوصلة

وفي الكتابة العربية علامات اخرى لضبط التلفظ بالمد أو الوصل أو الادغام وهي احدث في استنباطها من الحركات التي تقدم ذكرها . ولكنها وضعت قبل القرن الخامس للهجرة واشهرها المدة « ~ » والشدة « ّ » والوصلة « ٱ » وكلها مقتطعة من الفاظ تؤدي المعنى المراد من وضعها . فالمدة مقطوعة من « مد » والشدة من « شد » والوصلة من « صل » — وذلك أن الكاتب كان اذا اراد ضبط ما يكتبه كتب فوق الحرف الذي يريد مدّه قوله « مد » بصيغة الامر وفوق الحرف المدغم لفظ « شد » والشين بلا نقط وفوق الالف المراد وصلها كلمة « صِل » وكانوا يرسمون هذه الالفاظ صغيرة كما يفعلون

حتى اليوم في علامات ضبط قراءة القرآن فيكتبون فوق الكلمة « قف » أو « ج » أو « س » أو « ط » وكل منها مقتطعة من لفظ يراد به تعيين درجة الوقف أو الوصل

وظلوا دهراً يكتبون علامات المد والشد والوصل بصورها الاصلية ثم اختصروها . فكانوا يعبرون عن حركة المدّ اولاً بكتابة لفظ « مد »وعن التشديد بلفظ « سد » وعن الوصل بلفظ « صل » ثم اختصروا صورها بالاستعمال فصارت المدة « ~ » والشدة « ّ » والوصلة « ص » ثم اختصرت في الكتابة الى ما هي عليه الآ ن . وقد اطلعنا في معرض المكتبة الخديوية على كتاب مخطوط في اوائل القرن الخامس للهجرة وفيه هذه العلامات قريبة جداً من الفاظها الاصلية — وهذه صورتها في ذلك الكتاب « ~ » للمدة و « ّ » للشدة و « ص ». للوصلة

اما همزة القطع فانها بصورة العين مصغرة « ء »ولعلهم يرمزون عنها بالعين لتقارب لفظيهما وكثير ما تتبادلان أو انهم رسموا العين مقتطعة من لفظ « قطع » كما بقيت الصاد من صل والشين من شد

ومن العلامات الكتابية الشائعة علامة توضع في آخر الرسالة أو الكتاب ويراد بها الدلالة على نهاية القول وهي « ؟ » او نحوها والغالب في أعتقادنا أنها بقية لفظ « صح » التي كانوا ولا يزالون يختمون رسائلهم بها

٣— الاعجام

كان الخط لما اقتبسه العرب من السريان والانباط خالياً من النقط — ولا تزال الخطوط السريانية بلا نقط الى اليوم ـ فالاعجام حادث في العربية وهو قديم فيها . والظاهر ان المسلمين بعد أن استخدموا الحركات المذكورة رأوا التصحيف قد تكاثر والتبس الناس في القراءة لتكاثر الاعاجم من القراء والعربية ليست لغتهم فصعب عليهم التمييز بين الاحرف المتشابهة في شكلها كالجيم والحاء والسين والشين والباء والتاء والثاء فانتبه لذلك الحجاج امير العراق في ايام عبد الملك بن مروان ـ قال ابن خلكان « ففزع الحجاج الى كتابه وسألهم ان يضعوا لهذه الاحرف المختلفة علامات تميزها بعضها من بعض فيقال ان نصر بن عاصم قام بذلك فوضع النقط افراداً وازواجاً وخالف بين اماكنها فعبر الناس بذلك زماناً لايكتبون الا منقوطا فكان مع استعمال

النقط ايضاً يقع التصحيف فاحدثوا الاعجام فكانوا يتبعون النقط بالاعجام » (١) وفي عبارة ابن خلكان هذه التباس لا يفهم المراد بها ولا ما الفرق بين التنقيط والاعجام وهما واحد . ولا يعقل أن يكون المراد بالنقط الحركات لانهم انما عمدوا اليها لكثرة التصحيف أي اختلاف القراءة باختلاف النقط . فالظاهر أن النقط المذكورة هي من قبيل الاعجام لتمييز الحروف المتشابهة ولكن نصراً هذا لم ينقط الا بضعة حروف مما يكثر وروده ويخشى الالتباس فيه . ثم رأوا القراءة لا تضبط الا بتنقيط كل الحروف كما هي الآن وهذا ما عبروا عنه بالاعجام

وقد شاهدنا في معرض الخطوط في دار الكتب الخديوية كتابة عربية على صحيفة من البردي « البابيروس » مؤرخة سنة ٩١ هـ وفيها اعجام لكنه قاصر على الصور المشابهة للباء للتمييز بين الباء والياء والتاء وصورة حرف الشين لتمييزه من السين بثلاث نقط موضوعة على استواء واحد — وشاهدنا اجزاء من مصاحف أخرى مكتوبة على رقوق صغيرة وعليها نقط حمراء للحركات ونقط سوداء للاعجام . وقد تجد خطوطاً قديمة منقطة ومحركة وخطوطاً حديثة بلا تنقيط ولا تحريك

ولم تعجم الحروف كلها في وقت واحد ولكنهم تدرجوا في ذلك حسب الحاجة في أزمنة مختلفة ويتضح ذلك لمن يتأمل في المخطوطات العربية القديمة فانك تجد الاعجام لم يبلغ ما هو عليه الآن الا بتوالي الاجيال . وآخر حرف اعجم الياء لتمييز الياء من الالف المقصورة . واول من فعل ذلك المرسلون الاميركان في بيروت في اوائل القرن الماضي

ثالثاً — التاريخ والجغرافية

في زمن بني امية

لم يكن عند العرب الجاهلية من التاريخ الا اخبار متفرقة ليست من التاريخ في شيء فلما ظهر الاسلام واشتغل المسلمون بالفتح والحرب حتى استتب لهم الامر ونزعوا الى الجهاد تدرجوا في وضع التاريخ مثل تدرجهم في سائر العلوم الاسلامية . وهو قسمان (١) تاريخ المسلمين واعمالهم وتراجم رجالهم وهذه قد استخرجها العرب من اعمالهم . (٢) تاريخ

(١) ابن خلكان ١٢٥ ج ١

الامم الاخرى . فهذه بدأوا بتعرفها ونقلها من زمن بني امية لان الدهاة من الخلفاء الامويين كانوا من ارغب الناس في معرفة اخبار مشاهير الامم الاخرى

فمعاوية بن ابي سفيان كان يجلس لاصحاب الاخبار في كل ليلة بعد العشاء الى ثلث الليل فيقصون عليه اخبار العرب وايامها والعجم وملوكها وسياستها في رعيتها وسائر ملوك الامم وحروبها ومكائدها . ثم ينام ثلث الليل و يقوم فيأتيه غلمان مرتبون وعندهم كتب قد وكلوا بحفظها وقراءتها فيقرأون عليه ما في تلك الكتب من سير الملوك واخبار الحروب ومكايدها وانواع السياسات[1] والغالب في اعتقادنا ان تلك الكتب في اليونانية او اللاتينية وفيها اخبار ابطال اليونان والرومان كالاسكندر و يوليوس قيصر وهنيبال وان الغلمان كانوا يفسرونها له بالعربية

وسماع اخبار العظماء يستنهض الهمم الى الاقتداء بهم ولذلك كان اكثر القواد العظام الراغبين في العلى من العرب وغير العرب يستتلون اخبار من سبقهم من مشاهير القواد والساسة للعبرة

اما تدوين التاريخ في اللغة العربية فبدأ بزمن بني امية مع رغبة المسلمين عن التدوين في ذلك العصر لاسباب بيناها في الجزء الثالث من تاريخ التمدن الاسلامي . ولكنهم اختصوا عدم التدوين في الفقه والتفسير فلم يدوّن الا في القرن الثاني . واما ما تقدم ذكره عن تفسير ابن عباس فانه مروي عنهُ سماعاً

و يظهر انهم بدأوا بتدوين التاريخ الاجنبي قبل تدوين حروبهم وفتوحهم اذ لم يكن المراد بالتدوين خدمة التاريخ وانما فعلوه خدمة لاغراض الخلفاء في الاطلاع على احوال الامم الاخرى . واول من فعل ذلك عبيد بن شرية الف كتاب الملوك واخبار الماضين لمعاوية بن ابي سفيان ذكره صاحب الفهرست ولا وجود له الآن . وكان الامويون يسمون ابحاث هذا العلم « علم اخبار الماضين » . وذكر ابن النديم كتباً في مواضيع مختلفة الفها ابو مخنف الازدي من اصحاب علي فيها تراجم المشاهير ونحوهم وكتاباً الفه عوانة بن الحكم الكلبي في التاريخ وآخر في سيرة معاوية وبني امية في القرن الثاني للهجرة ولم يصل الينا شيء من هذه الكتب ولا غيرها من كتب الادب والتاريخ او غيره مما كتب في زمن بني امية

ومن العلوم التاريخية التي ولدت في العصر الاموي علم الانساب وقد علمت أن الانساب من العلوم الجاهلية فاحتاج اليها المسلمون في صدر الاسلام لاثبات انسابهم وعليها يتوقف مقدار العطاء او منزلته من الدولة او المنصب فجعلوها علماً . واول من

---

(١) المسعودي ٢.٥ ج ٢

احتاج الى ذلك زياد بن ابيه الداهية المشهور الذي استلحقه معاوية بنسبه ليستعين به على اعدائه فعمل في نسبه كتاباً دفعهُ الى ابنه — ذكرذلك ابن النديم ايضاً ولم نقف عليه ولا على خبره . وذكر ايضاً من اقدم النسابين في الاسلام دغفل والحجر بن الحارث والبكري ولسان الحمرة ولم يذكر لهم كتباً

وبالاجمال ان التاريخ ولد في زمن بني امية ولم ينضج الا في العصر العباسي . وفي كل حال فان العرب من اسبق الامم الى تدوين التاريخ بعد ان تمدنوا . لان الرومان لم يؤلفوا فيهِ الابعد تأسيس دولتهم بسبعة قرون واول مؤرخيهم يوليوس قيصر [١] اي بعد استقرار الدولة . واليونان بدا التاريخ عندهم بمواضيع خصوصية ولم يدونوا التاريخ العام الا في زمن هيرودوتس اي بعد انشاء دولتهم ببضعة قرون

اما الجغرافيا فلفظها يدل على انها دخيلة لكن العرب بدأوا بشيء منها قبل النقل كما سيجيء

العلوم الدخيلة

في العصر الاموي

نريد بالعلوم الدخيلة التي نقلها المسلمون الى اللغة العربية من الالسنة الاولى . ويدخل فيها علوم اليونان والفرس والهند والسريان وغيرهم وهذه نقلت في العصر العباسي كما هو مشهور لكن العرب بدأوا بنقلها من ايام بني امية وان لم يبق من نقلهم شيء الى الآن

خالد بن يزيد

واول من فعل ذلك خالد بن يزيد بن معاوية المتوفى سنة ٨٥ هـ حفيد معاوية الاكبر ويسمونه الحكيم . وكان طامعاً في الخلافة بعد وفاة اخيه معاوية الثاني فغلبه على ذلك مروان بن الحكم وانتقلت به الخلافة من بيت ابي سفيان الى بيت مروان . فلما يئس خالد من الخلافة وهو ذو مطامع وذكاء انصرف ذهنه الى اكتساب العلى بالعلم . وكانت صناعة الكيمياء رائجة يومئذ في مدرسة الاسكندرية فاستقدم جماعة منهم راهب رومي اسمه مريانوس طلب اليه ان يعلمه صناعة الكيمياء فلما تعلمها امر بنقلها الى العربية فنقلها له رجل اسمه اسطفان القديم [٢] وهذا اول نقل في الاسلام من لغة الى لغة

(١) Lit. Anc. 259 & 232 (٢) الفهرست ٢٤٢ و ٢٤٤

وكان خالد راغباً في علم النجوم ايضاً وانفق الاموال في طلبه واستحضار آلاته ولعلهم ترجموا له شيئاً منه لم يصلنا خبره

ولم يصلنا شيء من منقولات خالد المذكورة ولكنه كان شديد الولع بالعلم الطبيعي وخصوصاً الكيمياء والفلك . وقد ذكر ابن القفطي في ترجمة ابن السنبدي انه شاهد في خزائن الكتب بالقاهرة كرة نحاس وعليها مكتوب « حملت هذه الكرة من الامير خالد بن يزيد بن معاوية » (١)

واشتغل بنقل العلم في هذا العصر بعض اهل الشام نقلوا بعض كتب الطب . وممن وصلنا خبرهم من النقلة طبيب كان معاصراً لمروان بن الحكم اسمه ما سرجويه سرياني الجنس يهودي المذهب كان يقيم في البصرة وظهر في ايامه كتاب في الطب هو كناش (حاوي) من افضل الكنانيش الفه القس اهرون بن اعين في اللغة السريانية فنقله ما سرجويه الى العربية . فلما تولى عمر بن عبد العزيز وجد هذا الكتاب في خزائن الكتب في الشام فحرضه بعضهم على اخراجه الى المسلمين للانتفاع به فاستخار الله في ذلك ٤٠ يوماً ثم اخرجه الى الناس وبثه في ايديهم ويدلك ذلك على التردد الذي استولى على الخليفة في اخراج هذا الكتاب مع انه من كتب الطب وليس الفلسفة

وذكر ابن النديم ان سالماً كاتب هشام بن عبد الملك نقل رسائل ارسطو الى الاسكندر . وفي كل حال لم يبقَ شيء من منقولات هذا العصر



(١) اخبار الحكماء لابن القفطي ٢٨٦

الآداب الجاهلية

في العصر الاموي

نريد بالآداب الجاهلية الاداب العربية التي كانت عند العرب قبل الاسلام وقد تولدت عندهم اهمها اللغة والشعر والخطابة والانشاء وننظر في كل منها على حدة

١ — اللغة

اللغة مرآة عقول اهلها ومعرض آدابهم واخلاقهم وسائر احوالهم تتبعهم في ما يطرأ عليهم من التغيير وتحفظ آثار ذلك التغيير. وقد تتبدل احوال الامة ويذهب كثير من عاداتها أو آدابها وتبقى آثار ذلك في الفاظها وتراكيبها . وقد رأيت ما حدث في اللغة من الآداب الشرعية واللسانية فاقتضى ذلك طبعاً ان يحدث فيها الفاظ جديدة أو تتنوع بعض الفاظها للتعبير عن المعاني الجديدة

فمن المصطلحات اللغوية التي اقتضتها العلوم اللسانية قولهم النحو والعروض والشعر والاعراب والادغام والاعلال والحقيقة والمجاز والنقض والمنع والقلب والرفع والنصب والخفض والمديد والطويل وغيرها من اسماء البحور وضروب الاعراب والتصريف وهي كثيرة جداً ولها فروع واشتقاقات — حتى لقد اصبح للفظ الواحد معنىً فقهيٌّ وآخر لغوي وآخر عروضي وآخر ديني مما لا يمكن حصرهُ . اما المصطلحات الشرعية فقد ذكرنا بعضها في الكلام على اللغة في عصر الراشدين فليقس عليها

ودخل اللغة في هذا العصر وقبله بعض المصطلحات الادارية كالخلافة والوزارة والحجابة والامامة وغيرها من مصطلحات الجند كالمسترزقة والمتطوعة والعلوفة والعسكر . وضروب الحرب وابواب الهجوم كالزحف والكر والفر والبيات والكفاح والغرة . وصنوف الاسلحة كالدبابة والكبش والعرادة وغيرها . ناهيك بمصطلحات الدواوين على اجمالها كقولهم الثغور والعواصم والاقليم والقصبة والعمل والولاية والضياع والحكومة والسكة والتوقيع والوظيفة والخراج والجزية والعشور والمرافق والصوافي والجوالي والجباية والوقف والمصادرة والمستغلات والصدقة والمكوس والمراصد ودار الضرب والضمان والدفاتر والجرائد والخرائط والايغار والراتب والجاري والعطاء والبيعة والدعوة والختم والخطط والمطالعة والمؤامرة وغير ذلك كثير جداً

واكثر هذه الالفاظ كانت موجودة في اللغة لكن مدلولاتها تغيرت بتغير احوال العرب بعد انشاء دولتهم لحدوث معان جديدة اقتضاها ذلك التغيير (١)

٢ — الشعر

في العصر الاموي

لم يكن للشعر العربي تأثير في النفوس ومنزلة في الدولة في عصر من اعصر العرب مثل ما كان له في العصر الاموي ولا غرابة في ذلك بعد ما علمته من خصائص ذلك العصر السياسية وطبائع الامويين ولا بأس من ذكر الاسباب التي بعثت على زهو الشعر في هذا العصر ومنزلته في الدولة وتأثيره في النفوس بالايجاز ثم نأتي على مميزاته

اولاً — اسباب رواجه

١ — انقسام القبائل بالعصبية

اقتضت سياسة بني امية استنصار القبائل بعضها على بعض بالرجوع الى عصبية الجاهلية واول من فعل ذلك معاوية في الخلاف بينه وبين علي وابنائه . ثم كان انقسام القبائل عند انتقال الخلافة من آل معاوية الى آل مروان وكلاهما من بني امية وانتشبت الحرب في مرج راهط وقد تقدمت الاشارة الى ذلك . واخيراً قام طلاب الخلافة من غير العلويين في زمن عبد الملك بن مروان وهم آل الزبير والازارقة وسعيد بن الاشدق وغيرهم كما تقدم . ولكل خارج قبيلة أو بضع قبائل تنصره والامويون يستعينون بالشعراء على اختلاف قبائلهم وبطونهم يتألفونهم بالعطاء لعلمهم بما لقول الشاعر من التأثير في نفوس عشيرته لانه لسان حالها فازداد الشعراء بذلك نفوذاً وتقرباً من الخلفاء أو الامراء . وكان الخليفة يعد مدح الشاعر له دليلاً على رضى قبيلته عن اغراضه لانه لسان حالها والقبيلة تعد اكرام الخليفة لشاعرها اكراماً لها

(١) راجع تفصيل ذلك في كتابنا تاريخ اللغة العربية صفحة ٢٣ وما بعدها

٢— سخاء بني امية بالاموال

واقتضت سياستهم تألف الشعراء بالمال فضلاً عن اضطرار الشعراء وغيرهم الى استرضائهم خوفاً من قطع العطاء عنهم . والعطاء يومئذ رواتب الجند وسائر المسلمين وكان المسلمون في صدر الاسلام كلهم جنداً ولكل منهم راتب يتناوله من بيت المال على شروط مذكورة في الديوان [1] فمن قبض على بيت المـال قبض على رقاب المسلمين ويجدر بهم ان يتقربوا منه ويتزلفوا اليه فاذا كان القابض عليه حكيماً يعرف كيف يعطي ولمن يعطي اغناه ذلك عن سائر الاسباب فيزيد العطـاء أو ينقصه أو يقطعهُ على حسب الاقتضاء

كذلك كان يفعل الدهاة من بني امية وقدوتهم معاوية بن ابي سفيان اكبر دهاة العرب . فقد جعل تصرفه في العطاء وسيلة لاكتساب قلوب المسلمين حتى اشياع العلويين وغيرهم من ابناء الصحابة الذين كان يخاف قيامهم للمطالبة بالملك . فاحر به ان يفعل ذلك بالشعراء ولهم رواتب في بيت المـال مثل سائر المسلمين فلم يكن الشعراء يرون بدًّا من استرضاء بني امية خوفاً من قطع اعطيتهم فضلاً عما يرجونه من الجوائز اذا احسنوا ارضاءهم

٣— رغبة بني امية في الشعر

كان لبني امية رغبة شديدة في احياء لسان العرب وآدابه كما قدمنا . وكان الخلفاء انفسهم من اهل الادب نفوسهم شعرية حساسة . حدث معاوية عن نفسه قال « اجعلوا الشعر اكبر همكم واكثر دأبكم فلقد رايتني ليلة الهرير بصفين وقد اتيت بفرس اغر محجل بعيد البطن من الارض وانا اريد الهرب لشدة البلوى فما حملني على الاقامة الاَّ ابيات عمرو بن الاطنابة :

ابت لي همّتي وأبى بلائي	واخذي الحمدَ بالثمن الربيح
واقحامي على المكروه نفسي	وضربي هامةَ البطل المشيح
وقولي كلما جشأتْ وجاشت	مكانكِ تُحمدي او تستريحي
لأدفعَ عن مآثرَ صالحـات	واحمي بعدُ عن عرض صحيح [2]

(١) تاريخ التمدن الاسلامي ١٢٥ ج ١ (٢) العمدة ١٠ ج ١

ويزيد بن عبد الملك رد الاحوص الشاعر من منفاه ببيت شعر لهُ غنته فيهِ جميلة المغنية وهو قوله :

كريم قريش حين ينسب والذي   اقرت لهُ بالملك كهلاً وامردا

فطرب يزيد وقال « ويحكِ مَن كريم قريش هذا؟ » قالت « انت وقد قاله الاحوص وهو منفي » فكتب بردّه وانفذ له حلالاً سنية وادناه وقربه . وقال له يوماً « لولم تمتّ الينا بحقّ ولاصهر ولا رحم الا بقولك :

واني لاستحييكم اذ يقودني   الى غيركم من سائر الناس مطمعُ

لكفاك ذلك عندنا » [1]

وقد خابر عبد الملك بن مروان عدوه ابن الزبير بالشعر واجابه ذاك بمثله [2] وكان عمال الامويين اصحاب شعر وخيال وحساسة مثلهم . فالحجاج وهو اشدُّهم وطأة جيءَ بالاسرى الى ما بين يديه بعد حرب الاشعث فاخذ في قتلهم بقية ذلك اليوم حتى صاح به رجل « والله يا حجاج لئن كنا قد اسأنا بالذنب فما احسنت بالعفو ولقد خالفت الله فينا وما اطعته » فقال له « وكيف ويلك » قال « لان الله تعالى يقول (فاذا لقيتم الذين كفروا فضرب الرقاب حتى اذا اثخنتموهم فشُدُّوا الوثاق فامّا منا بعدُ وامّا فداءً حتى تضع الحرب اوزارها) وقد قتلت فاثخنت حتى تجاوزت الحد فأْسِرْ ولا تقتل » ثم قال « اوامنن » فقال الحجاج « ويل لك الا كان هذا الكلام منك قبل هذا الوقت » ثم نادى برفع السيف وأمن الناس

وكان بنو امية يحفظون الشعر ويباحثون الشعراء وينتقدونهم وكثيراً ما كانوا يجمعون طائفة منهم في مجلس يقترحون عليهم ان يصفوا شيئاً ويجيزون المجيد كما فعل هشام بن عبد الملك [3] او يجمعونهم ليتفاخروا بين ايديهم كما فعل سليمان بن عبد الملك اذ جمع اليه الفرزدق وجريراً وكثيراً وابن الرقاع وقال لهم انشدونا من فخركم شيئاً حسناً ففعلوا في حديث طويل [4]

وقد يخطر لاحدهم شعر لايعرف قائله او يحتاج الى تفسير فيكتب الى الشاعر او الراوية فيستقدمه من العراق الى الشام عَلَى البريد كما فعل هشام المذكور اذ بعث برسالة مستعجلة من دمشق الى عامله بالبصرة ان يشخص اليه حماداً الراوية على البريد فقضى حماد اثنتي عشرة ليلة في الطريق وهو خائف من تلك الدعوة المستعجلة فاذا هو يقول له « بعثت اليك لبيت خطر ببالي لم ادر من قائله »

---

(١) الاغاني ٥٧ ج ٨   (٢) الاغاني ٦٨ ج ١٣   (٣) الاغاني ٨٠ ج ٩

(٤) الاغاني ٢٣ ج ١٩

فهدأ روعه وقال وما هو ؟ » فقال :

فدعوا الصبوح يوماً فجاءت قينة في يمينها ابريق

فقال حماد « هذا يقوله عدي بن زيد من قصيدة » وانشده اياها

وكذلك كان يفعل عمالهم اذا علموا بوجود شاعر او اديب بارع بعثوا في استقدامه مما يطول بنا ذكره [١]

وكان من الخلفاء شعراء كالوليد بن يزيد فقد كان شاعراً بليغاً وسيأتي خبر ذلك — وينسبون الى يزيد بن معاوية القصيدة المشهورة التي مطلعها :

نالت عَلَى يدها ما لم تنله يدي نقشاً عَلَى معصم اوهت به جلدي

وربما كانت لغيره لكنه كان من اصحاب الشاعرية

وكان لبعض خلفائهم الدهاة شغف بالادب على الاجمال ونخص منهم ثلاثة معاوية وعبد الملك وهشام حكم كل منهم اكثر من عشرين سنة وكانت لهم عناية بالادباء وخصوصاً عبد الملك . والادب لا ينمو ويورق ويثمر الا في ظل محبيه من الملوك او الامراء واذا تدبرت النهضات التي مر بها الادب في اثناء التمدن الاسلامي رأيت لكل نهضة اميراً او ملكاً اخذ بناصرها واحيا الادب بتقديم اهله او تنشيطهم وسترى ادلة كثيرة من ذلك في ما يأتي من هذا الكتاب

فلا عجب اذا كان اكثر احاديث الناس في مجتمعاتهم ومنتدياتهم في الشعر ومن هو اشعر شعراء الجاهلية او الاسلام. وكان الرائج من شعراء الجاهلية في عصرهم امرأ القيس وزهير والنابغة يفضلونهم عَلَى سواهم ويفضلون جريراً والفرزدق والاخطل على سائر الشعراء المسلمين في ايامهم . لكنهم كانوا يتناقشون في اي هؤلاء اشعر وكثيراً ما كانوا يتخاصمون وترتفع اصواتهم . وربما اهتم الخليفة او الامير فبعث الى بعض العلماء يسأله عن رأيه في اشعر الشعراء كما فعل الحجاج اذ بعث الى ابن قتيبة يسأله عن ذلك[٢] وقد يبعثون من الشام الى العراق لمثل هذا السؤال

٤ — الحركة الادبية في البصرة والكوفة

قدعلمت ما كان من حال هذين البلدين في العصر الاموي وفيهما احتك العرب بغيرهم من الامم المتمدنة وفيهما اشتغل المسلمون بجمع اخبار العرب واشعارهم وامثالهم وفيهما ولد النحو وغيره من الآداب اللسانية فتكاثرت الاندية الادبية هناك ولا

(١) الاغاني ٤٣ ج ٧ (٢) المزهر ٢٤٠ ج ٢

سيما المربد عكاظ الاسلام كما تقدم . فكان ذلك من جملة البواعث على زهو الشعر في العصر الاموي

على ان الشرق كله كان يومئذ في نهضة ادبية حتى الهند والصين واليابان فقد نبغ فيها الشعراء والادباء في القرن الثامن للميلاد[١] على اثر ظهور الاسلام واتساع فتوحه فاهتزت اعصاب الشرق الى اقصاه فحدثت فيه تلك النهضة

ثانياً — مميزات الشعر

في العصر الاموي

الانسان صنيعة الاقليم فتتغير اطواره واحواله بتغير البيئة المحيطة به ويظهر اثر ذلك في نتاج قريحته أو فكرته وقد رأيت ان العرب اختلفت احوالهم في العصر الاموي عما كانت عليه في زمن الجاهلية أو في زمن الراشدين فظهر اثر ذلك في ثمار قرائحهم وخصوصاً الشعر واليك اهم مميزاته في ذلك العصر :

١ — خلوه من وحشي الكلام

ان قرب العصر الاموي من الجاهلية ورغبة الامويين في البداوة وتحديهم العرب الجاهلية في ادابهم واشعارهم ابقت للشعر الاموي بلاغة الجاهلية وسلامتها من العجمة والركاكة . لكن الاسلام اكسبه اسلوب القرآن والحديث فتخلص من التركيب الغريب والكلام الوحشي . فهو من حيث البلاغة احسن في هذا العصر مما في سائر العصور وان كان لكل عصر مميزات

٢ — كثرة التشبيب

كان الشاعر الجاهلي يقول الابيات تغزلاً في حبيبته يعبر بذلك عن حبه أو ما تكنّه جوارحه من الغرام أو الشوق ولا يشبب في غير حبيبته أو خطيبته وقد يسميها بغير اسمها . والغالب ان يكني عنها باحدى عرائس الشعر لئلا يعلم أهله بتشبيبه فيمنعوه من التزوج بها . لانهم كانوا شديدي الغيرة على النساء حتى ان احدهم اذا سطا عليه عدوّ

(١) Lit. Comp 107

وخاف على حياته منه عمد الى امرأته او حبيبته فيقتلها غيرة عليها من ان يمسها سواه بعد موته (١) ويندر في الجاهليين ان يشبب شاعرهم بغير حبيبته . واذا فعل فلداع فوق العادة كما فعل دريد بن الصمة اذ رثى اخاه بقصيدة صدرها بابيات غزلية (٢) وقد رأيت الشعراء العشاق في الجاهلية يعدون على الاصابع فاصبحوا في العصر الاموي اضعاف ذلك واكثروا من وصف الحب واعراضه واحواله

وذلك طبيعي في الامة بانتقالها من البداوة الى الحضارة وخصوصاً اذا كان ذلك على اثر الفتوح وفيها الغنائم من السبايا فيصيب الرجل منهم جارية او بضع جوار في كل معركة ملكاً حلالاً له . وكانت السبايا في صدر الاسلام كثيرات واكثرهن من الروم والفرس . والفاتحون يبيعونهنّ أو يستخدمونهن في حاجات المنزل ويستبقون الجميلات منهن للتسري . فتحركت القلوب وتنبهت القرائح للمواضيع الغزلية وصار الشعراء يشببون بالنساء الجميلات . وكان الخلفاء الراشدون يعدون ذلك خروجاً عن حرمة الادب فجعلوا التشبيب ذنباً يستوجب القصاص . وكان عمر بن الخطاب لا يسمع بشاعر يشبب بامرأة الاّ جلده (٣)

فلما افضت الدولة الى بني امية وقد انتقلت عاصمتها من المدينة الى دمشق وكثر الاختلاط بالاعاجم واخذ العرب باسباب الحضارة وذهبت هيبة العفة من نفوسهم وانقضت شدة الراشدين في المحافظة عليها هان عليهم التشبيب فاكثروا منه ولاسيما في المدينة لان اهلها من اسبق المسلمين الى القصف واللهو لقيام بعض ابناء الصحابة بين اظهرهم وقد اغرقهم معاوية بالعطايا والرواتب ليشغلهم باللهو عن طلب الملك فكانوا ينفقون الاموال في المغنين ونحوهم فكثر اللهو في المدينة وسبقت سائر المدائن الاسلامية الى الغناء وشاع القصف بين اهلها وتجرأ الشعراء على التشبيب بغير احبائهم

امام اهل النسيب

على ان امام اهل النسيب والغزل في الاسلام جميل بن مَعْمر الشاعر العاشق كان معاصراً لعبد الملك بن مروان . وهو الذي وطأ النسيب للشعراء فاكثر منه وتفنن فيه لكنه كان يشبب بحبيبته بُثينة وهو في عرف اهل الادب « امام المحبين » (٤)

---

(١) الاغاني ١٤٥ ج ١٢ (٢) العمدة ١٢٢ ج ٢
(٣) الاغاني ٩٨ ج ٤ (٤) الاغاني ٨٠ ج ٧

فاستحسن الناس تشبيبه لانه طبيعي صادر عن شعور صادق فاخذوا يقلدونه فيه فينظم الشاعر ابيات الغزل أو النسيب لمحبوب وهمي . واستعار بعضهم اسماء حبيبات الشعراء العاشقين كليلى ودعد وهند وشببوا بهن تقليداً . وبعد ان كانت بثينة مثلاً معشوقة جميل بن معمر صارت عروساً للشعر يباح التغزل بها لمن اراد وقد يعنون بالاسم المستعار امرأة جميلة معروفة

فجميل كان يشبب بحبيبته ولا حرج عليه واراد الشعراء تحديه والتغزل بجميلات النساء وهن في الغالب بحوزة الامراء أو الخلفاء فخافوا غضب بعولتهن او ابائهن . فلم يكن يجرأ على المجاهرة بذلك من الشعراء الا من كان ذا عصبية تنصره أو منزلة تشفع به . ولذلك كان اسبق الشعراء الى التشبيب من قريش نظراً لما كان للقرشي من المنزلة الرفيعة والهيبة في العصر الاموي . ولأن القرشيين اقرب الى الحضارة لنزولهم في مكة واليها يحج الناس من اقطار العالم ومعهم اجمل النساء

شعراء قريش والتشبيب

واول من تجرأ على التشبب منهم ابن ابي عتيق وهو ابن حفيد ابي بكر الصديق ويقولون انه كان طاهراً عفيفاً يتشبب عن غير ريبة . ثم عمر بن ابي ربيعة من قريش والعرجي وهو من قريش ايضاً وغيرهم وكلهم من شعراء العصر الاموي . فتجرأ الشعراء من غير قريش على الاقتداء بهم حتى شاع التشبيب وصاروا يعتقدون ان الشعر لا يحسن الا به لما فيه من عطف القلوب . فيبدأ الشاعر الحضري بذكر الحبيب والصدود والهجران كما يبدا البدوي بذكر الرحيل والانتقال ووصف الطلول

ولم تأت اواخر بني امية حتى صار الشاعر لا ينظم مديحاً او فخراً الا صدره بابيات في الغزل قد تكون اكثر من ابيات المديح — ذكروا شاعراً اتى نصر بن سيار عامل بني امية على خراسان بارجوزة فيها مائة بيت نسيباً وعشرة ابيات مديحاً فقال له نصر « والله ما ابقيت كلمة عذبة ولا معنى لطيفاً الا وقد شغلته عن مديحي بنسيبك »[1] ولم يكن الاستهلال بالغزل خاصاً بالشعر العربي فان في شعر اليونان شيئاً من ذلك [2]

على ان شعراء العرب كثيراً ما كانوا يشببون بالمرأة ليفضحوا ابنها او زوجها[3] . وقد

(١) العمدة ٩٩ ج ٢ (٢) جويدي في المشرق ٤٢٧ سنة ١٠ (٣) الاغاني ١٥٤ ج ١

يكون التشبيب بالبنات وسيلة لزواجهن كما فعل نُصَيب مولى عبدالعزيز بن مروان وقد استسقى فتاة ماءً فسقتهُ لبناً وطلبت اليه ان يشبب بها فقال « ما اسمك » قالت «هند» قال « وما اسم هذا الجبل » قالت « قبا » فانشأ يقول :

احب قبا من حب هند ولم اكن ابالي اقرباً زاده الله ام بعدا
الا انَّ بالقيعان من بطن ذي قبا لنـا حاجة مالت اليه بنا عمدا
اروني قبـا انظر اليـه فانني احبُّ قبا اني رايت به هنـدا

وشاعت هذه الابيات وخطبت هذه الجارية من اجلها [1]

الخلفاء والتشبيب

وكان الامراء والكبراء يغضبون لنسائهم اذا شبب بهنَّ احد لغلبة طبائع البدو عليهم . وينقمون على المشبب ويعيبونه حتى عدُّوا شعر ابن ابي ربيعة عصياناً لله [2] وقد يكبر على الخليفة ان يظهر غضبه على الشاعر اذا شبب ببعض اهله فينتقم منه بالاهمال — كذلك كان يفعل معاوية [3] وهو اوسع الناس صدراً . واقتدى به عبد الملك ابن مروان [4] اما ابنه الوليد بن عبد الملك فلم يسع صدره ذلك الكظم فاخذ يتوعد الشعراءَ اذا شببوا و بلغه ان وضاح اليمن شبب بامراته فقتله [5] وكذلك فعل عمر بن عبدالعزيز فمنع ابن ابي ربيعة عن التشبيب . وكان العمال يقتدون بالخلفاء و يعملون باوامرهم في ذلك فان عامل المدينة نفى الاحوص الشاعر لانه شبب ببعض نسائها [6]

ولكن المرأة كان يسرُّها أن يشبب بها شاعرٌ مشهور وان كانت لا ترجو التزوج به ولكن يسرُّها ما في التشبيب من الاعجاب بجمالها (والغواني يغرُّهنَّ الثناء) سواء في ذلك الاميرة والحقيرة . ذكروا ان زوجة الوليد بن عبد الملك هي التي اقترحت على وضاح اليمن ان يشبب بها فلما فعل قتله زوجها واقترحت ام محمد بنت مروان بن الحكم اخت عبد الملك على عمر بن ابي ربيعة ان يشهرها بشعره و بعث اليه الف دينار فابى ان يؤجر على التشبيب . فابتاع بالجائزة حللاً وطيباً واهداه اليها فردته فقال فيها ابياتاً مطلعها :

---

(١) الاغاني ١٤١ ج ١ (٢) الاغاني ٣٦ ج ١ (٣) الاغاني ١٤٨ ج ١٣
(٤) الاغاني ٢٦ ج ٦ (٥) الاغاني ٣٦ ج ٦ (٦) الاغاني ٤٨ ج ٤

ايها الراكب المجدُّ ابتكارا　　قد قضى من تهامة الاوطارا [١]

وبالجملة فان التشبيب على نحو ما وهو عليه الآن نشأ في العصر الاموي

٣ ـ المهاجاة بين الشعراء

كان الجاهليون يتنافسون ويتفاخرون فيذكر احدهم ما في قبيلته من الشجاعة والنجدة وما اوتوه من النصر او الغلبة او ما هو عليه من هذه الفضائل . ويندر فيهم من يتخطى ذلك الى الهجو . واكثر من تخطاه منهم المخضرمون كما تقدم . وقد كثر الهجو واتسعت دائرته في العصر الاموي واجاد الشعراء فيه . ولبعضهم مهاجاة ونقائض تدخل في كتاب ضخم

الهجو السياسي

وقد راج الهجو في العصر الاموي لاحتياج ولاة الامر اليه بسبب الانقسام الذي قام بين الاحزاب المختلفة — وهو الهجو السياسي . وكان اكثر الشعراء يأخذون بناصر الامويين لانهم اهل السيادة وكان خلفاؤهم يبذلون الاموال للشعراء ليستعينوا بالسنتهم على اعدائهم لتأثير الهجاء في نفوس العرب لشدة حساسيتها ونخوة اهلها

وقد بدأت المهاجاة في الاسلام بين شعراء النبي واعدائه القرشيين . ثم صارت بين المهاجرين والانصار اوهي بين قريش واليمن . وكان لكل من الجانبين شعراء يردون عنهم الهجاء باشد منه وقد تقدمت الاشارة الى ذلك . وكان المسلمون يحفظون ما يقولهُ هؤلاء من المهاجاة وينشدونه كل طائفة تنتصر لاصحابها . وبلغ ذلك عمر بن الخطاب فنهى عنه وقال « في ذلك شتم الحي بالميت وتجديد الضغائن » [٢]

فلما افضى الامر الى معاوية اقتضت سياسته ومصلحته ان يجدد تلك الضغائن فجعل يغري الشعراء على الطعن بالانصار لانهم اصحاب علي بن ابي طالب خصمه . وكان يفعل ذلك تحت طي الخفاء — ومن الذين اغراهم على ذلك الطعن الاخطل الشاعر التغلبي المشهور . فعظم ذلك على الانصار خصوصاً لانهُ نصراني واستعان به معاوية على المسلمين . فغضب متكلم الانصار وشاعرهم وهو يومئذ النعمان بن بشير ودخل على معاوية وانشدهُ قصيدة في الدفاع عن الانصار مطلعها :

معاوي الاَّ تعطنا الحق تعترف　　لحي الازد مشدوداً عليها العمائم

ويشتمنا عبـد الاراقم خلة　　وما ذا الذي تجري عليك الاراقم

فما لي ثأرٌ دون قطع لسانه　　فدونك من يرضيه منك الدراهم

---

(١) الاغاني ٦٩ ج ١　(٢) الاغاني ٥ ج ٤

ثم تخلص الى الفخر باعمال الانصار وانسابهم وختم القصيدة بالطعن على خلافة معاوية الى ان قال : (١)

واني لاغضي عن امور كثيرة ستر‌قى بها يوماً اليك السلالمُ
اصانع فيها عبد شمس وانني لتلك التي في النفس مني اكاتمُ
فما انت والامر الذي لستَ اهله ولكن وليّ الحق والامر هاشمُ

فلما سمع معاوية تهديده اظهر ان الاخطل فعل ذلك من عند نفسه وامر ان يدفع اليه ليقطع لسانه . واوشك ان يفعل لو لم يستجر الاخطل بيزيد بن معاوية فاجاره وارضى النعمان . وعرف الامويون هذا الفضل للاخطل فجعله عبد الملك بن مروان شاعر الدولة — وسنعود الى ذلك

وتحولت المهاجاة بين الانصار والمهاجرين الى المشاتمة بين بني هاشم وبني امية وانتشر ذلك في اطراف المملكة الاسلامية . فكان سديف الشاعر يخرج في جماعة من موالي بني هاشم في مكة وشبيب يخرج في جماعة من موالي بني امية فيفتخرون ثم يتشاتمون ثم يتجالدون بالسيوف وكان يقال لهم السديفية والشبيبية . وكان اهل مكة منقسمين بينهما في العصبية

الهجو الادبي

على ان التهاجي السياسي جرَّ الى التهاجي بين الشعراء بقطع النظر عن الاحزاب السياسية من قبيل المفاخرة أو المعاظلة ويختلف سبب هذه المهاجاة باختلاف الاحوال وقد يكون الغرض منها المقارعة لبيان المقدرة على الهجو ثم يتنافر المتهاجيان الى من يحكم بينهما . كما تهاجى جميل الشاعر المتيم وجواس بن قطنة العذري وتنافسا في ايهما افضل اباً وحسباً ثم تنافرا الى يهود تيماء (٢)

واشهر ضروب المهاجاة في العصر الاموي المهاجاة بين جرير والفرزدق وبين جرير والاخطل وغيره من الشعراء المعاصرين . والبادىء في ذلك كله جرير وكان لمهاجاته مع الفرزدق والاخطل شهرة كبيرة حتى اصبح حديث القوم في مجالسهم وموضوع مناقشاتهم في اي الشاعرين افضل . وانقسم النـاس في ذلك حزبين نسب احدهما الى جرير سمي جريرياً والآخر الى الفرزدق سمي فرزدقياً وكثيراً ما احتدم الجدال بين الادباء في المجالس حتى آل الى الخصام — وسيأتي تفصيل ذلك في الكلام عن

(١) الاغاني ١٢٦ ج ١٤ (٢) الاغاني ١١٢ ج ١٩

شعراء بني امية . وقد يكون الباعث على الهجو تخويف المهجو ليسترضي الهاجي بالمال او غيره كما تفعل بعض الصحف اليوم

واتصلت المهاجاة بين الشعراء الى العصر العباسي فاشتهرت مهاجاة بشار بن برد وحماد [1] ومهاجاة ابي العتاهية وابي والبة [2] . على ان اشتغال الناس في المناقشة على الشعراء وتفاضلهم طبيعي في كل عصر وليس هو خاص بالعرب . فقد كان اليونان ايضاً يفعلون ذلك [3]

٤ ــ نبوغ الموالي في الشعر

قد رايت انه لم يقل الشعر في الجاهلية من الموالي الا عبد بني الحسحاس . واما في الاسلام فانتظم في عداد الشعراء طائفة من الموالي وهم المسلمون غير العرب [4] وفيهم الفرس والروم ممن دخل في حوزة العرب في اثناء الفتح ثم اسلموا . واكثرهم من موالي بني اسد وقريش . وفيهم جماعة من نوابغ الشعراء . ولولا تقيد القوم باساليب الجاهلية لادخلوا كثيراً من المعاني الشعرية نقلاً عن لغاتهم الاصلية

٥ ــ الشعر السياسي او المديح للاستجداء

قد علمت مما تقدم ان الشعراء الجاهليين نظموا المديح لكنهم قلما كانوا يستجدون بمدحهم وانما كانوا يمدحون شكراً لصنيع . واما في العصر الاموي فاصبح الغرض الاول من المدح التماس العطاء وقد جرهم الى ذلك استدرار الخلفاء للمدح ببذل الاموال للاسباب التي قدمناها

فاصبح الاستجداء عادة مألوفة ونبغت طائفة كبيرة من المداحين وكانوا يتذبذبون في مدحهم تبعاً لما يرجونه من العطاء او يخافونه من النقمة . ولذلك كان اكثر مديحهم في الامويين اصحاب السيادة وبيت المال . وربما مدح احدهم بني هاشم او آل الزبير او غيرهم من اعداء الامويين ثم رغب عنهم الى هؤلاء التماساً لعطائهم او خوفاً من غضبهم لان الامويين كانوا يغضبون على الشعراء اذا مدحوا سواهم ويتطرقون الى الانتقام منهم بكل وسيلة . فلا غرو اذا راينا حتى شعراء الشيعة ينظمون المدائح في الامويين . ومن الشعراء من مدح بني هاشم وبني امية او ابن الزبير وبني امية

---

(١) الاغاني ٧٤ — ٨٦ ج ١٣ (٢) الاغاني ١٥٠ ج ١٦

(٣) نكلسن ٢٤٠ (٤) راجع تاريخ التمدن الاسلامي ٢١ و ٨٦ ج ٤

٦ ــ وصف الخمر

لم يتقن الشعراء وصف الخمر الا في العصر العباسي لكنهم بداوا بذلك في العصر الاموي على اثر انغماس الامويين في القصف والسكر باواخر الدولة واول من وصفها من المسلمين الوليد بن يزيد الخليفة الخليع السكير . وقد ذكر الخمر في الجاهلية عدي بن زيد والاعشى ثم ذكرها الاخطل ووصف الزجاجة بقوله :

وتظل تحفنا بها قروية ابريقها برقاعه ملثومُ
فاذا تعاودت الاكفُّ زجاجها . نفحت فشمَّ رياحها المزكوم [1]

ثم اجاد في ووصفها الوليد بن يزيد بقصيدة قال منها :

من قهوةٍ زانها تقادمها فهي عجوزٌ تعلو على الحقبِ
اشهى الى الشرب يوم جلوتها من الفتاة الكريمة النسب
فقد تجلَّت ورقَّ جوهرها حتى تبدت في منظر عجب
فهي بغير المزاج من شرر وهي لدى المزج سائل الذهبِ
كانها في زجاجها قبسٌ تذكو ضياءً في عين مرتقب

وله في وصف الخمر اشعار اخذها الشعراء في اشعارهم سلخوا معانيها ولا سيما ابو نواس فانه سلخ معاني الوليد كلها وجاءها في شعره [2] واخذ ابو نواس ايضاً من حسين بن الضحاك [3] وكان معاصراً له واخذ من والبة وكان استاذه [4]



(١) الاغاني ٨٤ ج ٨ (٢) الاغاني ١١٠ ج ٦
(٣) الاغاني ١٧٠ و ١٧٥ ج ٦

الشعراء في العصر الاموي

تكاثر الشعراء في العصر الاموي للاسباب التي قدمناها فزاد عددهم في اثنائه (وهي تسعون سنة) على شعراء الجاهلية الذين نبغوا في اثناء قرنين و بعض القرن . فقد رأيت عدد الشعراء الجاهليين نحو ١٢٠ شاعراً على اختلاف القبائل والبطون وزاد عدد شعر العصر الاموي على ذلك — نعني الذين اشتهروا بالشعر ووصلتنا اخبارهم وهناك مئات غيرهم لم يبق من آثارهم الا ابيات أو قصائد ذكرت في كتب الحماسة والجمهرات وغيرها من كتب الادب او ضاعت اخبارهم كما ضاعت اخبار اكثر الجاهليين

شعراء العصر الاموي بالنظر الى قبائلهم

اذا نظرنا في شعراء العصر الاموي من حيث قبائلهم وانسابهم رأينا اكثر شعراء العرب من قيس ثم قريش فاليمن فتميم فربيعة فمضر فقضاعة . وهم يختلفون عن حال شعراء الجاهلية من هذا القبيل اختلافاً كثيراً وان اتفقوا معهم بان الاكثرية في قيس. فشعراء قريش كانوا في الجاهلية عشرة فصاروا في العصر الاموي ٢٣ وسبب ذلك بديهي لان القرشيين ظهروا بعد الاسلام لقيام الاسلام بهم . و بعكس ذلك شعراء ربيعة فقد كانوا في الجاهلية ٢٠ فصاروا في العصر الاموي ١١ والسبب طبيعي ايضاً لان ربيعة كان لها الشأن الاكبر في الجاهلية لانها قامت باستقلال الحجازيين من سلطة اليمن وكثرت حروبهم وايامهم

واعتبر ذلك في القحطانية أو شعراء اليمن فقد كانوا في الجاهلية ٢٢ فصاروا في العصر الاموي ١٦ لانتقال عز السيادة بعد الاسلام الى سواهم . واما تميم فعدد شعرائها في العصرين واحد لان حالهم لم تختلف فيهما . أما اياد فلم ينبغ منهم في ذلك العصر شاعر لذهاب عصبيتهم قبل الاسلام . وكذلك اليهود لم ينبغ منهم في هذا العصر الاموي شاعر وكانوا في الجاهلية ٤ على ان طبقة من الشعراء كبيرة ظهرت في هذا العصر لم يكن منها في الجاهلية الا واحد نعني الموالي أو العبيد فقد بلغ عدد الشعراء منهم ٢١ شاعراً — وهذا جدول في المقابلة بين شعراء الجاهلية وشعراء بني امية من حيث انسابهم على وجه التقريب :

اسم القبيلة	شعراؤه في الجاهلية	شعراؤها في العصر الاموي
قيس	٢٧	٢٦
ربيعة	٢٠	١١
تميم	١٢	١٣
مضر (غير قيس وقريش وتميم)	١٦	٩
قريش	١٠	٢٣
القحطانية (اليمن)	٢٢	١٦
قضاعة	٤	٨
اياد	٢	٠٠
اليهود	٤	٠٠
الموالي	١	٢١

شعراء العصر الاموي بالنظر الى اغراضهم

واذا اعتبرنا شعراء هذا العصر بالنظر الى اغراضهم رأيناهـا تختلف عن اغراض الشعراء الجاهليين اختلافاً كثيراً . فقد كانت الاكثرية في ذلك العصر للامراء والفرسان المحاربين وكان عددهم بضعة واربعين شاعراً فصاروا في العصر الاموي قليلين لاشتغال الفرسان والكبراء باعمال الدولة ولذهاب بعض الاريحية البدوية من نفوسهم بالحضارة . وقد ظهرت آثار الحضارة في الشعر الاموي بكثرة العشاق واهل الغزل وكانوا في الجاهلية ٦ فصاروا ٢١ ونشأت طائفة من الشعراء السكيرين واهل الخلاعة عددهم ٦ ولم يكن منهم في الجاهلية الا واحد او اثنان

على ان الاكثرية في العصر الاموي لطبقة من الشعراء سميناهم شعراء السياسة لاشتغالهم في الدفاع على الاحزاب التي قام النزاع بينها على السيادة في ذلك العصر واكثرهم طبعاً بجانب الامويين لانهم اقوى الاحزاب . ويليهم الخوارج والعلويون وغيرهم

ويقسم العصر الاموي بالنظر الى اغراض شعرائه الى ثلاثة ادوار :

الدور الاول : من اول الدولة الاموية (سنة ٤١ هـ) الى ذهاب آل معاوية بخلافة

مروان بن الحكم سنة ٦٤ هـ ومعظمه في زمن معاوية ويجوز ان نسمية « دور معاوية » وشعراء هذا الدور لا يتجاوز عددهم عدد اصابع اليدين وكانت الدولة الاموية في ايامهم لم ترسخ قدمها بعد . فكان نحو نصفهم يخالفون سياسة معاوية وخلفائه ويطعنون فيه وبعضهم يجاهرون بعداوته انتصاراً للانصار او العلويين

الدور الثاني : من خلافة مروان بن الحكم (سنة ٦٤ هـ) الى خلافة يزيد بن عبد الملك (سنة ١٠١ هـ) وخلفاء هذا الدور مروان وابنه عبد الملك فالوليد فسليمان فعمر بن عبد العزيز . ولكن معظمه في زمن عبد الملك بن مروان صقر قريش بحيث يصح ان ينسب اليه فيقال « دور عبد الملك » وفي ايامه اختلفت الاحزاب وتعدد طلاب الخلافة وانتشبت الحروب وراجت سوق الشعر لجمع الاحزاب او تفريقها. واكثر شعراء العصر الاموي نبغوا في هذا الدور وبلغ عددهم فيه نحو المئة وفيهم شعراء السياسة وشعراء الغزل والادب وغيرهم .

الدور الثالث : من ولاية يزيد بن عبد الملك (سنة ١٠١ هـ) الى انقضاء الدولة الاموية (سنة ١٣٢ هـ) وفيه تضعضت الدولة واركن اهلها الى الترف والقصف ومن خلفائها يزيد بن عبد الملك العاشق المتيم صاحب حبابه وابنه الوليد بن يزيد الخليع المفتون — والناس على دين ملوكهم . وعدد الشعراء الذين نبغوا في هذا العصر نحو عدد شعراء الدور الاول واكثرهم من عشراء السوء واهل الرخاء والترف .

الدور الاول من الشعر في العصر الاموي

من سنة ٤١ — ٦٤ هـ

هو اقرب سائر الادوار الى الجاهلية وقد نشأ شعراؤه في عصر الراشدين وتعودوا الصدق واستقلال الفكر والعدل وكانوا لا يرون الحق لمعاوية بالخلافة بل يعتقدون انه اخذها بالدهاء ولا يتوقعون انتقالها الى اهله بل كانوا يرجون رجوعها بعده الى آل علي أو غيرهم من ابناء الصحابة بالانتخاب ولذلك كانت لهم جرأة عليه . واهمُّ الاحزاب السياسية يومئذ الانصار والمهاجرون . والانصار هم اهل المدينة شيعة علي والمهاجرون هم قريش من اهل مكة شيعة معاوية . فكان معاوية يقرب الشعراءَ الذين يطعنون في

الانصار ويندر أن يجرأ احد منهم على ذلك احتراماً للامام علي فكان اكثر الشعراء في هذا الدور اما على الحياد خوفاً من معاوية أو ينصرون العلويين عليه و بعضهم كان يتزلف اليه بالمديح . واكثر شعراء هذا الدور من شعراء السياسية إما مع الامويين أو عليهم أو على الحياد . واهم الذين كانوا مع الامويين ابن ارطاة المحاربي كان سيد قومه والحارث بن بدر من يربوع والمتوكل الليثي من كنانة والوليد بن عقبة من قريش

والذين كانوا ضد الامويين اشهرهم النعمان بن بشير الانصاري وابن مُفرّغ من حمير وابو الاسود الدئلي واضع علم النحو . وممن كان على الحياد القتّال الكلابي وسيأتي ذكرهم

ولا نعني بقسمة العصر الاموي الى ادوار أن شعراء الدور الاول لم يدركوا الدور الثاني وان شعراءَ الثاني لم يدركوا الاول فان اكثرهم عاصروا الدولة الاموية في معظم سنيها وعرفوا معظم خلفائها ولكننا نعني بشعراء الدور الفلاني الذين نبغوا في هذا الدور ونظموا فيه او عنه

١ — انصار علي

١ — النعمان بن بَشير الأَنصاري

توفي سنة ٦٥ ه

هو من الخزرج اهل يثرب لكنه ساير معاوية فكان معه في واقعة صفين ولم يكن مع معاوية في تلك الواقعة من الانصار سواه . وقد اجتذبه بدهائه وسخائه وكان يراعي جانبه وكثيراً ما سمع توسطه للانصار عنده . وعاش النعمان المذكور الى خلافة مروان بن الحكم . وكان يتولى حمص فلما افضت الخلافة الى مروان دعا الى ابن الزبير وخالف على مروان بعد قتل الضحاك فلم يجبه أهل حمص الى ذلك فهرب منهم فتبعوه وادركوه وقتلوه ومع مسايرته بني امية فانه كان شديد التعصب للانصار ولذلك فلما علم بقصيدة الاخطل في الطعن عليهم ردَّ عليه كما تقدم . والنعمان بن بشير من العريقين في الشعر خلفاً عن سلف فان جده واباه وعمه واولاده واحفاده كلهم شعراء [١]

(١) الاغاني ١٢٥ ج ١٤

ومن احفاده شبيب بن زيد بن النعمان كان يرى فساد امر بني امية على ايام الوليد ابن يزيد فقال من قصيدة يعاتبهم :

يا ايها الراكب المزجي مطيته لقيت حيث توجهت الثنا الحسنا
ابلغ اميّة اعلاها واسفلها قولاً ينفّر عن نوّامها الوسنا
ان الخلافة امرٌ كان يعظمه خيار اوّلكم قدماً واولنا
فقد بقرتم بايديكم بطونكم وقد وعظتم فما احسنتم الاذنا
لما سفكتم بايديكم دماءكم بغياً وغشيتم ابوابكم درنا

وترى اخبار النعمان بن بشير في الاغاني ١١٩ ج ١٤ والعقد الفريد ١١٢ ج ٣ وفي سيرة ابن هشام وابن خلكان وابن الاثير وغيرها

٢ — ابن مفرّغ الحميَريّ

توفي سنة ٦٩ هـ

هو يزيد بن ربيعة بن مفرّغ الحميري وكان شاعراً غزلاً محسناً وكان قلبه مع علي لكنه ساير الامويين لانه من حلفائهم وكان مقرباً من آل زياد بن ابيه . صحب عباد بن زياد الى سجستان فلم يحسن صحبته فهجاه سرًّا يهزأ بلحيته وكانت كبيرة فقال فيها :

الا ليت اللحى كانت حشيشاً فنعلفها خيول المسلمين

فوشى به بعضهم الى عباد فجفاه وحبسه فهرب الى العراق وأخذ يطعن في آل زياد يهجوهم لان اباهم زياد بن ابيه مجهول النسب وانما استلحقه معاوية بنسبه ليستفيد من دهائه كما هو مشهور في تاريخ الاسلام (١) فعلم عبيدالله بن زياد وهو امير البصرة فقبض على ابن مفرغ واستأذن معاوية في قتله فنهاه عن ذلك لانه حليفه ولكنه أذن بتعذيبه فعذبه تعذيباً شديداً (٢)

ومن قول ابن مفرغ في زياد وابنه وفيه اشارة الى ضعف انسابهم :

الا ابلغ معاوية بن صخر مغلغلة عن الرجل اليماني
اتغضب ان يقال ابوك عفٌّ وترضى ان يقال ابوك زاني
فاشهد ان رحمك من زياد كرحم الفيل من ولد الاتان

---

(١) راجع تاريخ التمدن الاسلامي ١٧ ج ٤ (٢) ابن خلكان ٢٩٢ ج ٢

واشهد انها ولدت زياداً وصخرٌ من سمية غير دان

وكان ابن مفرغ من شعراء الحماسة وله غزل لطيف

وتجد اشعاره واخباره متفرقة في الاغاني ٥١ ج ١٧ والشعر والشعراء ٢٠٩ وابن خلكان ٢٨٩ ج ٢ وسيرة ابن هشام وفي تاريخ ابن الاثير

٣ — ابو الأسوَد الدؤلي

توفي سنة ٦٩ هـ

اسمه ظالم بن عمرو هو من الدئل بطن من كنانة معدود في التابعين والفقهاء والشعراء والمحدثين والاشراف والفرسان والامراء والدهاة والنحويين وهو واضع علم النحو . وكان من اكثر الناس تعلقاً بعلي وعنه اخذ علم النحو كما تقدم . اما من حيث الشعر فقد كان من نصراء الشيعة لكنه لم يكن يجسر على هجو معاوية كما فعل اكثر امثاله . وكان معاوية لايتعمد اذاه ولكنه كان يضايقه فلم يروَ له طعن في بني امية واكثر شعره في الحكم والادب . ومن حكمه والفخر قولهُ :

اذا كنت مظلوماً فلا تلف راضياً عن القوم حتى تأخذ النصف واغضبِ

وقارب بذي جهلٍ وباعد بعالم جلوب عليك الحق من كل مجلب

فان حدبوا فاقعس وان هم تقاعسوا ليستمسكوا مما وراءك فاحدب

ولا تدعني للجور واصبر على التي بها كنت اقضي للبعيد على ابي

فاني امرؤٌ اخشى الهي واتقي معادي وقد جرَّبت مالم تجرب

ومن قوله :

احبب اذا احببت حباً مقارباً فانك لا تدري متى انت نازع

وابغض اذا ابغضت بغضاً مقارباً فانك لا تدري متى انت راجع

وكن معدناً للحلم واصفح عن الخنا فانك راءٍ ما عملت وسامع

وعاش ابو الاسود فقيراً وكان متهماً بالبخل وكان يقيم بجوار البصرة . وتجد ترجمته في الاغاني ١٠٥ ج ١١ وفي ابن خلكان ٢٤٠ ج ١ والشعر والشعراء ٤٥٧ والمستطرف ١٣٩ ج ١ والعقد الفريد ٢٥٧ ج ٣ والدميري ٣١٧ ج ١ وطبقات الادباء ٤ وفي المجلة الشرقية الالمانية مقالة عن شعره وشعر علي سنة ١٨٦٤

٢ - انصار معاوية

١ - مِسكِينٌ الدَّارِميُّ

توفي سنة ٩٠ هـ

هو ربيعة بن عامر من دارم بطن من تميم وكان شاعراً شريفاً من سادات قومه وعمّر الى اواخر الدور الثاني من العصر الاموي . لكننا وضعناه هنا لغلبة شعره في معاوية على سواه . وله معه شأن في تاريخ العطاء ايام معاوية وكان معاوية لا يفرض العطاء (الرواتب) الا لليمن ليحاربوا معه وينحرفوا عن علي فجاء مسكين وطلب من معاوية ان يفرض له العطاء فابى فقال ابياتاً يذكره فيها بقرب النسب بين تميم ومضر وهي :

اخاك اخاك ان من لا اخا له كساعٍ الى الهيجا بغير سلاحِ
وان ابن عم المرء فاعلم جناحه وهل ينهض البازي بغير جناحِ
وما طالب الحاجات الا مغرِّرٌ وما نال شيئاً طالبٌ كنجاحِ

فلم يجبه معاوية يومئذ لكن سنحت له فرصة رأى فيها اليمنيين قد اخذهم الغرور وزادت دالتهم على الدولة فعمد معاوية الى استرضاء القيسيين ففرض لاربعة الاف من قيس سوى من فرض لهم من تميم وغيرهم من مضر . وصار يغزي اليمنيين في البحر والقيسيين في البر وفرض طبعاً لمسكين وقربه حتى استعان بشعره في مبايعة ابنه يزيد

وذلك ان معاوية كان يخاف اذا بايع لابنه بولاية العهد ان يغضب المسلمون لان توارث الملك لم يكن معروفاً في الاسلام . فاحب ان يجسَّ نبض الرأي العام قبل اعلان فكره نحو ما يفعله بعض دهاة السياسة في هذه الايام اذ — يوعزون الى الصحف التي تدافع عن ارائهم ان تذكر عزمهم على العمل الفلاني وينظرون الى ما يكون من وقعه عند الناس ويكون لهم مندوحة للرجوع عنه اذا توسموا فيه خطراً . فاوعز معاوية الى مسكين ان يقول ابياتاً في معنى المبايعة ليزيد وينشدها اياه في مجلسه وهو حافل بالوجوه والاشراف ففعل وانشأ قصيدة قال فيها :

الا ليت شعري مايقول ابن عامر ومروان امّا ذا يقول سعيدُ
بني خلفاء الله مهلاً فانما يبوئها الرحمن حيث يريدُ
اذا المنبر الغربيُّ خلّاه ربُّهُ فانَّ امير المؤمنين يزيدُ

ومآل القصيدة انه يقترح عليه ان يولي يزيد العهد . فلما فرغ من انشاده قال له معاوية « ننظر في ما قلت يامسكين ونستخير الله » ولم يتكلم احد من الحضور بذلك الا بالموافقة فاغدق عليه معاوية العطاء . ولما مات زياد بن ابيه رثاه مسكين بقوله :

رايت زيادة الاسلام ولت جهاراً حين ودعنا زياد

وكان الفرزدق منحرفاً عن زياد فعارضه فاجابه مسكين ثم تكافا . وترى اخبار مسكين في الاغاني ٦٨ ج ١٨ والشعر والشعراء ٣٤٧ وخزانة الادب ٤٦٧ ج ١

سائر شعراء الدور الاول

اما سائر شعراء هذا الدور فنكتفي بالاشارة الى اماكن تراجمهم ليطالعها من شاء :

٢ ابن ارطاة ترجمته في الاغاني ٧٩ ج ٢
٣ المتوكل الليثي (توفي سنة ٦٠) « « « ٣٩ ج ١١
٤ الوليد بن عقبة (« ٧٠) « « « ١٧٥ ج ٤
٥ القتال الكلابي (« ٦٤) « « « ١٥٨ ج ٢٠ والشعر والشعراء ٤٤٣

الدور الثاني من الشعر

في العصر الاموي

من سنة ٦٤ — ١٠١ هـ

في هذا الدور نبغ معظم شعراء بني امية وابلغهم وعددهم يناهز مئة شاعر . وهم فئات قسمناها حسب اغراضهم واول تلك الفئات شعراء السياسة وعددهم نحو ٤٠ شاعراً واهمهم واكثرهم عدداً انصار بني امية وهم نحو العشرين وثمانية من انصار آل المهلب والباقون من انصار سائر الاحزاب . على ان شعراء السياسة اكثر من ذلك اذ قلما نبغ شاعر لم يتعرض لاحد الاحزاب التي كانت شائعة يومئذ . لكن جماعة منهم دخلوا في الطبقات الاخرى لتغلب بعض تلك الاغراض على خواطرهم . واهم هذه الطبقات شعراء الغزل وعددهم بضعة وعشرون شاعراً والباقون من شعراء الادب الذين لا يعرف لهم غرض خاص . غير الشعراء السكيرين والمغنين

ويقدّم النقادون ستة من شعراء العصر الاموي يعدونهم في مقدمة سائر الشعراء الامويين من سائر الطبقات . وهم الاخطل وجرير والفرزدق والراعي وابو النجم العجلي

والاحوص يسمونهم الفحول . واكثرهم من شعراء السياسة . ويقدمون الثلاثة الاول على سائرهم فهم اشعر شعراء بني امية على الاطلاق نعني جريراً والفرزدق والاخطل . واختلف الناس في من هو اشعرهم فالذين يقدمون جريراً يقولون انه اكثرهم فنون شعر واسهلهم الفاظاً واقلهم تكلفاً وارقهم نسيباً . والذين يقدمون الاخطل يقولون انه اكثرهم قصائد طوالاً جياداً ليس فيها سقط ولا فحش واكثرهم تهذيباً لشعره . وقد تقدمهم الاخطل في الزمن ثم نبغ جرير والفرزدق فدخل الاخطل بينهما وهو شيخ طاعن في السن . وكان ابو عمرو بن العلاء يشبه جريراً بالاعشى والفرزدق بزهير والاخطل بالنابغة . ولم يجتمع اديبان من ادباء ذلك العصر الا جرى بينهما البحث في اي الشاعرين اشعر جرير او الفرزدق فيحتدم الجدال وينفض المجلس واهله حزبان يعرفان بالفرزدقيين والجريريين

فحول شعراء العصر الاموي

١ — الأَخْطَل

توفي سنة ٩٥ ﻫ

يكنى أبا مالك واسمه غِياث بن غوث بن الصلت من قبيلة تغلب وهو نصراني مثل اكثر تلك القبيلة . والاخطل لقب غلب عليه لسبب اختلفوا فيه . وظهرت الشاعرية في الاخطل منذ حداثته وكان يقيم في الحيرة فدارت مهاجاة بينه و بين كعب بن جعيل شاعر تغلب قبله فغلبه الاخطل وافحمه فصار هو المقدَّم في شعرائها . وكان ينقي شعره فينظم تسعين بيتاً ويختار منها ثلاثين . وسئل حماد عن الاخطل فقال « وما تسألونني عن رجلٍ حبَّب شعره اليَّ النصرانية » وكان الاخطل يشرب الخمر ولا يجيد النظم الا اذا شرب . ولكنه لم ينظم شعراً تستحي العذراء من سماعه

وكان السبب في تقربه الى بني امية ان معاوية اراد ان يهجو الانصار لاسباب تقدم بيانها فاقترح ابنه يزيد على كعب بن جعيل المشار اليه ان يهجوهم وكان مسلماً فابى وقال « ادلك على غلام منا نصراني لا يبالي ان يهجوهم كان لسانه لسان ثور » قال « ومن هو ؟ » قال « الاخطل » فدعاه معاوية وامره بهجائهم فقال « على ان تمنعني » قال « نعم » فقال قصيدة جاء فيها من الهجو بالانصار قوله ..

واذا نسبت ابن الفريعة خلته ... كالجحش بين حمارة وحمار
لعن الاله من اليهود عصابة ... بالجزع بين صليصل وصرار
قوم اذا هدر العصير رايتهم ... حمراً عيونهمو من المسطار
خلوا المكارم لستمو من اهلها ... وخذوا مساحكم بنو النجار
ان الفوارس يعلمون ظهوركم ... اولاد كل مقبح اكار
ذهبت قريش بالمكارم والعلا ... واللؤم تحت عمائم الانصار

فبلغ ذلك النعمان بن بشير فرد عليه بقصيدة تقدم ذكرها في كلامنا عن مميزات شعر العصر الاموي

ثم أفضت الخلافة الى عبد الملك بن مروان وكان ناقماً على قبائل قيس لانهم نصروا اعداءه كما تقدم فعمد الى تقديم شعراء القبائل الاخرى ليكتسب احزابهم . وعلم ان الاخطل شاعر تغلب وله يدٌ في نصرة الامويين على الانصار فقربه واكرمه . وكان عبد الملك بصيراً بالشعر يعجبه شعر الاخطل فيطرب لما يقوله حتى سماه « شاعر بني امية » وبعث بمولى له ينادي على رؤوس الملأ « هذا شاعر امير المؤمنين هذا شاعر العرب » وكان الاخطل مغرماً بالخمر وحملته الدالة على عبد الملك ان يطلب منه ان يسقيه خمراً [١] فغضب عليه وقال « لولا حرمتك لفعلت بك وفعلت » فخرج حتى لقي خماراً شرب عنده وعاد فجاءت قريحته فدخل على عبد الملك ومدحه بقصيدة مطلعها:

خفَّ القطين فراحوا منك وابتكروا ... وازعجتهم نوى في صرفها غيرُ

وقال له عبد الملك مرة « الا تسلم فنفرض لك في الفيء ونعطيك عشرة آلاف » فقال « وكيف الخمر » قال « وماتصنع بها وان اولها لمرٌّ وان آخرها لسكرٌ » فقال « اما اذ قلت ذلك فان فيما بين هاتين لمنزلةً ما ملكك فيها الا كلعقة ماء من الفرات بالاصبع » فضحك وتركه على نصرانيته وسهل عليه الدخول والخروج حتى كان يجيءُ وعليه جبة خز وفي عنقه سلسلة ذهب فيها صليب تنفض لحيته خمراً حتى يدخل على عبد الملك بغير اذن .

وكان لشعره تأثير في نفس عبد الملك يقيمه ويقعده . ومن الادلة على ذلك ان عبد الملك لما انزل زفر بن الحرث الكلابي عن قرقيسيا استقدمه اليه واقعده على سريره . فعاتبه بعضهم على تقديم رجل كان في الامس من الدّ اعدائه وسيفه يقطر

(١) الاغاني ١٧٥ ج ٧

من دماء قومه فلم ينفع العتاب . فبلغ ذلك الاخطل وهو يشرب فمضى حتى دخل على عبد الملك وانشد :

وكأس مثل عين الديك صرف تنسي الشاربين لها العقولا
اذا شرب الفتى منها ثلاثاً بغير الماء حاول ان يطولا
مشى قرشيةً لا شك فيها وارخى من مآزره الفضولا

فقال له عبدالملك « ما اخرج هذا منك يا ابا مالك الا خطة في رأسك » قال « اجل والله يا امير المؤمنين حين تجلس عدو الله هذا معك على السرير وهو القائل بالامس:

وقد ينبت المرعى على دمن الثرى وتبقى حزازات النفوس كما هيا

فقبض عبد الملك رجله ثم ضرب بها صدر زفر فقلبه عن السرير وقال « أذهب الله حزازات تلك الصدور »

ومن قوله في النسيب :

من الخفرات البيض أما وشاحها فيجري وأما القلب منها فلا يجري
تموت وتحيا بالضجيع وتلتوي بمطَّرد المتنين منبتر الخصر

ومن قوله في المديح :

نفسي فداء امير المؤمنين اذا ابدى النواجذ يوماً عارم ذكرُ
الخائض الغمرة الميمون طائره خليفة الله يستسقى به المطر

ومن قوله في الهجاء :

وكنت اذا لقيت عبيد تيم وتيماً قلت ايهمُ العبيدُ
لئيم العالمين يسود تيماً وسيدهم وان كرهوا مسودُ

أما دخوله في الهجاء بين جرير والفرزدق فسببه انه كان مرة عند بشر بن مروان اخي الخليفة وعنده جرير والفرزدق . وكان بشر يرى من السياسة ان يغري بين الشعراء فقال للاخطل « احكم بين الفرزدق وجرير » فقال « اعفني ايها الامير » قال « احكم بينهما » فقال « الفرزدق ينحت من صخر وجرير يغرف من بحر » وبلغ ذلك جريراً فلم يعجبه وهجاه بقوله :

يا ذا الغباوة ان بشراً قد قضى ان لا تجوز حكومة النشوان

فردَّ عليه الاخطل ثم ردَّ عليه جرير مما يطول ذكره (١) . وكان الاخطل اشهب

(١) الاغاني ١٨٦ ج ٧

اللحية له ضفيرتان ومن احاسن شعره قوله في وصف السكران :

صريع مدام يرفع الشرب راسه ليحيا وقد ماتت عظام ومفصلُ
نهاديهِ احياناً وحيناً نجرُّهُ وما كاد الا بالحشاشة يعقلُ
اذا رفعوا صدراً تحامل صدرهُ وآخر مما نال منها محمَّلُ

وهو من اصحاب الملحمات ولهُ ملحمة مطلعها :

تغير الرسم من سلمى باقفار واقفرت من سليمى دمنة الدار

وتفنن الاخطل في النظم من حيث الوزن تفنناً قلدوه بهِ بعد اجيال وذلك قوله :

ولقد علمت اذا الرياح تناوحت هوج الرئال تكبهنَّ شمالا
انا نعجل بالعبيط لضيفنا قبل العيال ونضرب الابطالا

ولو قال : ولقد علمت اذا الريا ح تناوحت هوج الرئال
لكان شعراً واذا زدت فيهِ « تكبهنَّ شمالاً » كان ايضاً شعراً من روي آخر

وللاخطل ديوان مطبوع في بيروت للمرة الاولى بعناية الاب صالحاني عن نسخة بطرسبورج مع شروح سنة ١٨٩١ في نيف وخمسمائة صفحة . وللاب المذكور طبعة بالفوتوغراف عن نسخة وجدوها في بغداد . وللدكتور غريفيني طبعة بالحجر عن نسخة وجدت في اليمن . وعثروا في مكتبة بيازيد بالاستانة على نسخة خطية من كتاب نقائض جرير والاخطل (١)

وله اخبار متفرقة في الاغاني ١٦٩ج ٧ و٤٦ ج٩ و٢ ج ١٠ و١٤٨ و١٥٤ج ١٣ والجمهرة ١٧٠ وفي الشعر والشعراء ٣٠١ والعقد الفريد ١٣٣ ج٣ وخزانة الادب ٢٢٠ ج١ وللمستشرق دي برسفال مقالة عنه وعن جرير والفرزدق في المجلة الاسيوية الفرنساوية سنة ١٨٣٤ وكتب عنه الاب لامنس مقالة في المجلة الاسيوية المذكورة سنة ١٨٩٤

٢ — جرير

توفي سنة ١١٠ هـ

هو جرير بن عطية بن الخَطَفى من كليب بن يربوع (تميم) نشأ في البادية أيام معاوية وهو واسع الخيال قوي الشاعرية مع ميل الى الهجو وكان يفد الى الشام مع من يفد على الخلفاء للاستجداء بالمديح فعرَّفه أحدهم الى يزيد بن معاوية وهو اميرٌ وجعل يختلف اليه وهو شاب . فاستلطف يزيد نظمه . واتفق أن يزيد اراد ان يعاتب اباه بشعر فاقتبس ابياتاً

(١) راجع وصفها في المشرق ٩٧ مجلد ٨

من قصيدة لجرير فرفعها الى ابيه عن لسانه وفيها قوله :

بأي سنان تطعنُ القوم بعد ما نزعت سناناً من قناتك ماضيا

فاعتقد معاوية ان الايات لابنه . فلما صارت الخلافة الى يزيد وفد اليه جرير فاستؤذن له مع الشعراء فجاء الجواب « ان امير المؤمنين يقول لا يصل الينا شاعرٌ لا نعرفه ولا نسمع بشيء من شعره » فقال جرير «قولوا له انا القائل (وذكر الابيات)» فامر بادخاله فلما انشده القصيدة قال يزيد « لقد فارق ابي الدنيا وما يحسب الاَّ اني قائلها » وأمر له بجائزة

ولما صارت الخلافة الى عبد الملك بن مروان لم يتجرأ جرير على الوفود عليه لعلمه بغضب عبد الملك على شعراء مضر لانهم كانوا يمدحون آل الزبير اعداءه (وتميم من مضر) فاحتال حتى قدم على الحجاج وهو امير العراقين على يد بعض عماله . فاعجب الحجاج ببلاغته وشاعريته فاحب ان يقدمه للخليفة وعلم ان عبد الملك سينكر ذلك فانفذ معه ابنه محمد بن الحجاج فاستقبله عبد الملك بعد الجهد ثم اقبل يعاتبه قائلاً « ماذا عسى ان تقول فينا بعد قولك بالحجاج عاملنا :

من سدَّ مطَّلع النفاق عليكم او من يصول كصولة الحجاج

أن الله لم ينصرنا بالحجاج وانما نصر دينه وخليفته » وظهر الغضب في وجه عبد الملك . فتوسط ابن الحجاج في الرضا فاستأذن جرير في الانشاد وانشد القصيدة التي يقول منها :

الستم خير من ركب المطايا وانْدى العالمين بطون راحِ

فتبسم عبد الملك وقال « كذلك نحن وما زلنا كذلك » وامر له بمائة لقحة وثمانية من الرعاء . وصار يفد على عبد الملك من ذلك الحين ويأخذ الجوائز وكانت جائزته اربعة آلاف درهم وتوابعها من الحملان والكسوة

ولما تولى الخلافة عمر بن عبد العزيز وهو لا يرى للشعراء حقاً من العطاء وفد عليه بقصيدة عامرة فاعتذر له ولم يعطه . وتوفي جرير سنة ١١٠ بعد الفرزدق ببضعة اشهر ودفن في اليمامة حيث قبر الاعشى [1] وكان يخنخن في لفظه فيخرج الكلام من انفه أو كأن فيها نوناً

(١) الاغاني ٤٦ ج ١٩

مهاجاة جرير والفرزدق

واشتهر جرير على الخصوص بمهاجاته الفرزدق وغيره من معاصريه وكان الناس يخافون لسانه . والسبب في اشتهاره بالهجاء أن رجلاً من عشيرته اسمه غسان بن ذهيل بن سليط هجاه بابيات منها :

لعمري لئن كانت بجنبة زانها جرير لقد اخزى كليباً جريرها

يريد ان جريراً اخزى كليباً وهو البطن الذي هو منه . فاجابه جرير بقصيدة وقعت على رأس الرجل وقوع السهام منها قوله :

الا ليت شعري عن سليط الم تجد سليط سوى غسان جاراً يجيرها

فقد ضمنوا الاحساب صاحب سوأة يناجي بها نفساً خبيثاً ضميرها

فاستنصر غسان رجلاً اسمه البعيث فنصره وهجا جريراً وقال فيه :

كليب لئام الناس قد يعلمونه وانت اذا عدّت كليب لئيمها

فاجابه جرير على الوزن والقافية . و بلغ ذلك الفرزدق وكان يحسد جريراً فانتصر للبعيث فاحتدم الهجاء بينهما على الخصوص . وانقسم الادباء في الانتصار لهما الى حزبين كما تقدم . وبلغ من احد المشغوفين بالفرزدق انهُ عقد جائزة قيمتها ٤٠٠٠ درهم وفرس لمن يفضل الفرزدق على جرير (١) وقد جمعت مناقضاتهما في كتاب يعرف بمناقضات جرير والفرزدق طبع في لندن في جزئين سنة ١٩٠٥

وانتشبت المهاجاة بين جرير والاخطل لسبب ذكرناه في ترجمة الاخطل . وهاجاه أيضاً عمر بن لجأ التميمي وسراقة بن مرداس ثم المستنير بن سيرة العنبري لانه اعان عليه ابن لجأ . ثم هاجى راعي الابل وهو من الفحول لانه فضل الفرزدق عليه وله في هجائه حديث طويل والراعي من بني نُمَير فهجا جريراً بابيات منها :

رايت الجحش جحش بني كليب تيمّم حوض دجلة ثم آبا

فذهب جرير اليه ليستكفه أو يعاتبه فلقيه في المربد نادي الادباء والشعراء بالبصرة على بغلة و بجانبه ابنه جندل على مهر . فاقترب منه جرير وحياه وقال « يا أبا جندل ان قولك يستمع وأنك تفضل الفرزدق عليَّ تفضيلاً قبيحاً وأنا امدح قومك وهو يهجوهم وهو ابن عمي و يكفيك من ذاك اذا ذكرنا أن تقول كلاهما شاعرٌ كريم ولا تحمل مني ولا

(١) الاغاني ٦٧ ج ٧

منه لائمة » . فلم يجبه الراعي ولكنه لحق ابنه ورفع عصاه فضرب عجز بغلته وخاطب ابنه قائلاً « لااراك واقفا على كلب من بني كليب كانك تخشى منه شرًّا او ترجو خيراً »

فرفست البغلة جريراً فوقعت قلنسوته عن رأسه . فانصرف مغضباً حتى اذا صلى العشاء بمنزله في علية له قال« ارفعوا لي باطية من نبيذ واسرجوا لي » فاسرجوا له واتوه بباطية من نبيذ وجعل يشرب ويستحث قريحته وينظم حتى كان السحر وقد نظم ٨٠ بيتاً ختمها بقوله :

فغض الطرف انك من نُمَير فلا كعباً بلغتَ ولا كلابا

ثم جاء المربد وانشد هذه القصيدة في مجالس الادباء وفيهم الفرزدق والراعي فكان لها وقع شديد ولا سيما البيت الاخير

وقد لا يفقه القارئ قوة الهجاء اذا لم يعلم ان كعباً وكلاباً ونُميراً ثلاثة ابطن من عامر بن صعصعة من قيس . فجرير فضَّل كعباً وكلاباً على نُمير مع انهما اخواه . ولم يسمع ذلك البيت احد من العرب يومئذٍ الاّ قال « لايفلح النُّميري بعد ذلك ابداً » ومن هذه القصيدة ابيات في ابلغ ما يكون كقوله :

اذا غضبت عليك بنو تميم حسبت الناس كلهم غضابا

وهو احسن بيت في الفخر وبسببه بدأت المهاجاة بين جرير والعباس بن يزيد الكندي وقد ساءه تفاخر جرير بتميم فعارضهُ بقولهِ :

الا رغمت انوف بني تميم قساة التمر ان كانوا غضابا
لقد غضبت عليك بنو تميم فما نكأت بغضبتها ذبابا
لو اطلع الغراب على تميم وما فيها من السوءات شابا

فاغتنم جرير سقطة من العباس وهجاهُ بابيات على نفس الوزن والقافية اولها :

اذا جهل الشقي ولم يقدّر لبعض الامر اوشك ان يصابا

وممن هاجاهم جرير أيضاً جفنة الهزاني والمراد بن منقذ وحكيم بن ميعة والاشهب ابن ميلة وغيرهم . وربما تهاجى الرجلان قبل ان يتعارفا كما يتناقش الصحافيان او الكاتبان اليوم وبينهما الوف من الاميال

وتجد اخبار هذه المهاجاة في الاغاني ج ٧ وفي كتاب نقائض جرير والفرزدق وفي الشعر والشعراء

واحسن اقوال جرير في النسيب قوله :

ان العيون التي في طرفها حور   قتلننا ثم لا يحيين قتلانا

ومن أحسن شعره قوله يرثي ابنه :

قالوا نصيبك من اجرٍ فقلت لهم   كيف العزاء وقد فارقت اشبالي
فارقتني حين كف الدهر من بصري   وحين صرت كعظم الرِّمة البالي

ومن قوله يرثي امرأته :

لولا الحياء لعادني استعبار   ولزرت قبركِ والحبيب يُزار
ولهت قلبي اذ علتني كبرةٌ   وذوو التمائم من بنيك صغارُ
لا يلبث الاحباب ان يتفرقوا   ليلٌ يكرُّ عليهم ونهارُ
صلى الملائكة الذين تخيروا   والطيبون عليكِ والابرارُ

وهو من اصحاب الملحمات ومطلع ملحمته :

حيِّ الغداة برامة الاطلالا   رسماً تقادم عهده فاحالا

وقد ذكرنا أمثلة من هجائه ومنها ايضاً قوله في هجو التيم :

وفي الاصلاب ينزل لؤم تيم   وفي الارحام يخلقُ والمشيم

وكان جرير على الاجمال من الشعراء طلاب العطاء من الخلفاء والامراء وكان يقيم هو والفرزدق بجوار البصرة ونظراً لاشتغال الناس بهما أهمل ذكر من عاصرهما من الشعراء

ولجرير ديوان منه نسخة خطية في المكتبة الخديوية وقد طبع في القاهرة سنة ١٨٩٥ وفي غيرها . وترى اخباره في الاغاني ٣٨ و١٧٢ ج ٧ و ٢ ج ١٠ و ٤٦ ج ٩ والجمهرة ١٦٨ والشعر والشعراء ٢٨٣ وخزانة الادب ٣٩٧ ج ٣ وابن خلكان ١٠٢ ج ١ والمستطرف ٥٣ ج ١ والعقد الفريد ١١٤ ج ٣

٣ — الفَرَزْدَقُ

توفي سنة ١١٠ هـ

هو من دارم من تميم واسمه همام بن غالب بن صعصعة وكان جده صعصعة وجيهاً يعرف بمحيي الموؤدات وابوه غالب كان رئيساً في قومه وله مناقب مشهورة . ولد الفرزدق في البصرة واقام في باديتها مع ابيه وظهرت فيه ملكة الشعر وهو غلام فجاء به ابوه الى علي بن ابي طالب بعد واقعة الجمل واخبره أنه شاعرٌ فقال «علمه

القرآن » كما تقدم . فلم ينظم شعراً حتى حفظ القرآن ولم يكد ينبغ حتى قامت المهاجاة بينه وبين جرير ولا شك انها نفعتهما لان الانتقاد يشحذ القريحة والضغط والمقاومة يظهران القول الكامنة . وانما نأتي بمثال من ذلك — نظم الفرزدق قصيدة وهو في المدينة قال فيها :

هما دلتاني من ثمانين قامة كما انقضّ باز اقتم الريش كاسره
فلما استوت رجلاي في الارض قالتا احيٌّ فيرجى ام قتيل نحاذره
فقلت ارفعا الامراس لا يشعروا بنا واقلتُّ في اعجاز ليل اباده
احاذر بوابين قد وكلا بنا واسود من ساج تصرُّ مسامره

فلما بلغت هذه الابيات جريراً نظم من جملة قصيدة طويلة :

لقد ولدت ام الفرزدق فاجراً فجاءت بوزّار قصير القوادم
يوصّل حبليه اذا جن ليلهُ ليرقى الى جاراته بالسلالم
تدليتَ تزني من ثمانين قامة وقصَّرت عن باع العلا والمكارم
هو الرجس يا اهل المدينة فاحذروا مداخل رجس بالخبيثات عالم
لقد كان اخراج الفرزدق عنكم طهوراً لما بين المصلى وواقم

فلما وقف الفرزدق على هذه القصيدة جاوبه بقصيدة طويلة يقول في جملتها :

وان حراماً ان اسبَّ مقايساً بآبائي الشمّ الكرام الخضارم
ولكن نصفا ان سببت وسبني بنو عبد شمس من مناف وهاشم
اولئك ابائي فجئني بمثلهم واعتدّ ان اهجو كليباً بدارم

وغضب اهل المدينة لذلك وشكوه الى مروان بن الحكم وهو يومئذ والي المدينة وطلبوا اليه أن يحده فامر بنفيه فغضب الفرزدق وهدده بالهجاء فخاف مروان واسترضاه بالجائزة

وكان الفرزدق يتشيع لعلي وأهله . والتقى في اواخر ايامه بهشام بن عبد الملك في الحج ورأى هشام هناك علي بن الحسين في غمار الناس فقال « من هذا الشاب الذي تبرق اسرة وجهه كانه مرآة صينية تتراءى فيها عذارى الحي وجوهها » فقالوا « هذا علي بن الحسين » فنظم الفرزدق قصيدة في مدح علي المذكور مطلعها :

هذا الذي تعرف البطحاء وطأته والبيت يعرفهُ والحل والحرمُ

و بلغ هشاماً خبر القصيدة وهو بين مكة والمدينة فغضب وحبسه هناك فقال :

أتحبسني بين المدينة والتي اليها قلوب الناس يهوى منيبها

يقلب رأساً لم يكن رأس سيد وعيناً له حولاء بادٍ عيوبها

فلما بلغ ذلك هشاماً امر باطلاقه

ولم يكن الفرزدق من مداح بني امية لانه كان يتشيع لعلي كما رأيت وقد هجا بعضهم ولكنه مدح بعض عمالهم وخصوصاً آل المهلب والحجاج خوفاً منهم

ويعتقد علماء اللغة أن شعر الفرزدق فيه كثير من اساليب العرب والفاظهم حتى قالوا لولا شعر الفرزدق لذهب ثلث لغة العرب وكان له على الحجاج دالة . وكان من اقرب شعراء ذلك العصر الى الثبات في الرأي فقد طلب يزيد بن عبد الملك بعد قتل يزيد بن المهلب من الشعراء هجو يزيد المذكور فابى الفرزدق وقال « امتدحت بني المهلب بمدائح ما امتدحت بمثلها احداً وانما يقبح بمثلي أن يكذب نفسه على كبر السن فليعفني امير المؤمنين » فاعفاه (١)

ومن اقوال الفرزدق التي تجري مجرى الامثال قوله :

فيا عجباً حتى كليب تسبني كأن اباها نهشل ومجاشع

وقوله وكنا اذا الجبار صعر خده ضربناه حتى تستقيم الاخادع

« وكنت كذئب السوء لما رأى دماً بصاحبه يوماً احال على الدم

« احلامنا تزن الجبال رزانة وتخالنا جناً اذا ما نجهلُ

« فان تنج مني تنج من ذي عظيمة والا فاني لا اخالك ناجيا

« ترى الناس ما سرنا يسيرون حولنا وان نحن اومأنا الى الناس وقفوا

وهو من اصحاب الملحمات ومطلع ملحمته :

عزفت باعشاش وما كدت تعزف وانكرت من حدراء ما كنت تعرف

وللفرزدق ديوان مطبوع في جملة الدواوين الخمسة (النابغة وعروة وحاتم وعلقمة والفرزدق) بمصر سنة ١٢٩٣ وطبع على حدة في باريس سنة ١٨٧٠ وما بعدها مع ترجمة فرنساوية للموسيو بوشر عن نسخة خطية نقلوها بالفوتوغراف من مكتبة ايا صوفيا في الاستانة . وطبعت تتمتها في مونيخ سنة ١٩٠١ وفي المكتبة الخديوية نسخة خطية املاء محمد بن حبيب مشروحة . ومنه نسخ خطية ايضاً في اوكسفورد وليدن وغوطا وبرلين ولندن . وله طبعات اخرى

وترى اخباره في الاغاني ٢ ج ١٩ و١٨٦ ج ٨ و٦٥ ج ١ و ٦ ج ٦ و ١٧ ج ٧ و٤٦ ج ٩ وفي الشعر والشعراء ٤٨ و ٢٨٩ و ٣٠٦ و ٣١٤ وابن خلكان ١٩٦ ج ٢ و١٠٣

(١) الاغاني ٥٣ ج ٤

و١٨٥ ج١ والمستطرف ٥٣ ج ١ و١٤٢ج ٢ والعقد الفريد ١٤٦ ج ١ والجمهرة ١٦٣ وخزانة الادب ١٠٥ ج ١ والدميري ٩ ج ١

٤- الرّاعي

توفي سنة ٩٠ هـ

هو عبيد بن حصين النُميري من قبيلة نُمَير التي هجاها جرير في بيته المشهور وقد تقدم سبب نظمه . وقد سمي الراعي لكثرة وصفه الابل وجودة نعته اياها . وهو شاعر فحل وكان مقدماً مفضلاً على سائر الشعراء حتى اعترض بين جرير والفرزدق فاستكفه جرير فابى ان يكف فهجاه بالقصيدة المتقدم ذكرها ففضحه ولذلك كان الراعي يقضي للفرزدق على جرير وهو السبب في هجو جرير له ومما سبق اليه من المعاني وقد اخذت عنه :

كأن العيون المرسِلات عشية شآبيبُ دمع لم تجد متردداً
مزايد خرقاء اليدين مسيفة اخبَّ بهن المخلفان واحفدا

ومن شعره في النساء قوله :

يحدثهنَّ المضمراتِ وفوقنا ظلالُ الخدور والمطي جوانحُ
يناجيننا بالطرف دون حديثنا ويقضين حاجات وهن موازح

وقوله : طاف الخيال باصحابي فقلت لهم أأمُّ شذرة زارتنا ام الغول
لامرحباً بابنة الاقيان اذ طرقت كأن محجرها بالقار مكحول
سودٌ معاصمها جعدٌ معاقصها قد مسها من عقيد القار تفصيل

وهو معدود من اصحاب الملحمات ومطلع ملحمته :

ما بال دفك بالفراش مذيلا اقذى بعينك ام اردت رحيلا

وتجد اخباره في الاغاني ١٦٨ ج ٢٠ والشعر والشعراء ٢٤٦ وخزانة الادب ٥٠٤ ج ١ والجمهرة ١٧٢

٥- ابو النَّجم الرَّاجِز

توفي سنة ١٣٠ هـ

هو الفضل بن قدامة من بني عجل من بكر وائل من رجاز الاسلام الفحول المقدمين وفي الطبقة الاولى منهم . وكان ابلغ من العجاج في النعت ولم يكن الشعراء يعتدون بالرجاز حتى نبغ العجاج ورؤبة وابو النجم هذا . وقد عاصر العجاج وجرى بينهما

مراجزة . وذلك ان العجاج خرج محتفلاً عليه جبة خز وعمامة خز على ناقة له قد اجاد رحلها حتى وقف بالمربد والناس مجتمعون فانشدهم قوله : « قد جبر الدين الاله فجبر »

فذكر فيها ربيعة وهجاهم فجاء رجل من بكر بن وائل الى ابي النجم وهو في بيته فقال « له انت جالس وهذا العجاج يهجونا بالمربد قد اجتمع عليه الناس » قال « صف لي حاله وزيّه الذي هو فيه » فوصف له فقال « ابغني جملاً طحاناً قد اكثر عليه من الهناء » فجاء بالجمل اليه فاخذ سراويل له فجعل احدى رجليه فيها واتزر بالاخرى وركب الجمل ودفع خطامه الى من يقوده فانطلق حتى اتى المربد . فلما دنا من العجاج قال « اخلع خطامه » فخلعه وانشد : « تذكر القلب وجهلاً ما ذكر »

فجعل الجمل يدنو من الناقة يتشممها ويتباعد عنه العجاج لئلا يفسد ثيابه ورحله بالقطران حتى اذا بلغ الى قوله : « شيطانه أنثى وشيطاني ذكر » تعلق الناس هذا البيت وهرب العجاج عنه

وكان ابو النجم يحضر مجلس عبد الملك فيأمره بالمفاخرة مع الفرزدق اوغيره من الشعراء المعاصرين . وكذلك كان يفعل هشام بن عبد الملك وسأل الشعراء مرة ان يصفوا ابلاً تعطر وترد وتصدر فقال ابو النجم ارجوزته التي مطلعها « الحمد لله الوهوب المجزل » وهي من الغر نظمه حتى اتى الى شطر يصف به الشمس فقال « فهي في الافق كعين ... » واراد ان يقول « الاحول » فتذكر ان هشاماً أحول فلم يتم البيت واتم الارجوزة فغضب عليه هشام وامر بوجء عنقه ونفيه . فتوسط له وجوه القوم فاقره هناك لكنه عاش مرذولاً يأكل فضلات الناس حتى اذا اصاب هشاماً ارقٌ فطلب اعرابيـاً يحدثه واشترط ان يكون اهوج ويروي الشعر . فخرج الخادم فلقي ابا النجم في المسجد بلباس رث فاخذه الى هشام فلما عرفه سأله عن حاله فقال « اني اتغدى عند هذا واتعشى عند هذا » فقال « وما عندك من الولد » قال « ثلاث بنات زوجت منهن اثنتين » فسأله عما اوصاها عند الزفاف فقال « قلت للاولى واسمها برة

اوصيت من برة قلباً حرّا   بالكلب خيراً والحماة شرّا
لا تسأمي ضرباً لها وجرّا   حتى ترى حلو الحياة مرّا
وان كستك ذهباً ودرّا   والحيّ عميهم بشرّ طر

فضحك هشام وقال « فما قلت للاخرى » قال قلت :

سبي الحماة وابهتي عليها وان دنت فازدلفي اليها
واوجعي بالقهر ركبتيها ومرفقيها واضربي جنبيها
وظاهري النذر لها عليها لا تخبر الدهر به ابنتيها

فضحك هشام واجازه . وكان قوي البديهة ومن شعره ارجوزة وصف بها فهود عبد الملك فقال منها :

فهي ضوارٍ من مضرّيات تريك آماقاً مخططات
سوداً على الاشداق سائلات تلوي باذناب موقّفات

وترى امثلة من الرجز في كتاب اراجيز العرب طبع مصر سنة ١٣١٢هـ وديوان العجاج منه نسخة خطية في المكتبة الخديوية وطبع في فينا سنة ١٨٩٦ وديوان رؤبة بن العجاج منه نسخة خطية في المكتبة الخديوية وسنعود اليه

واخبار ابي النجم في الاغاني ٧٧ج ٩ والشعر والشعراء ٣٨١ وخزانة الادب ٤٩ج ١

٦ — الأحوص : وهو من الفحول لكننا نظراً لتغلب التشبيب عليه سنترجمه مع المشببين

شعراء السياسة

في الدور الثاني من العصر الاموي

كان الشعراء في صدر الدولة الاموية لا يزالون على انفة البداوة والبعد عن الزلفى كما رأيت فلما صارت الدولة الى آل مروان وقام بها عبد الملك (سنة ٦٥ هـ) وغلب على سائر الاحزاب وكان هو اديباً كثر الشعراء في ايامه وتقربوا اليه بمدحه والطعن على اعدائه من آل الزبير أو الخوارج أو العلويين أو غيرهم . وظل بعضهم على ولاء هؤلاء وكانوا من انصارهم . على ان اكثر شعراء السياسة من انصار بني امية وقد تقدم ذكر بعضهم مع الفحول واشهر من بقي منهم بضعة عشر شاعراً اكثرهم ممن انتصر للامويين على ابن الزبير لانه كان بخيلاً على الشعراء وهم يطلبون الجوائز . واليك تراجمهم ونجمع انصار كل دولة أو حزب على حدة :

١ – انصار بني امية

١– ابو العبّاس الأعمى

اسمه السائب بن فروخ مولى بني الدئل فهو عربي بالولاء وليس بالنسب . واصله من اذربيجان فهو من جملة الشعراء الموالي الذين تكاثروا في الاسلام بمن اسلم من غير العرب . وهو من شعراء بني امية المعدودين المقدمين في مدحهم والتشيع لهم وانصباب الهوى اليهم . وكان يقيم في مكة وله اشعار كثيرة في مدح بني امية.وهجاء ابن الزبير ومن قوله يحرضهم على حربه :

أبني امية لا ارى لكمُ   شبهاً اذا ما التفَّت الشيحُ
سعة واحلاماً اذا نزعت   اهل الحلوم فضرَّها النزع
ابني امية غير انكم   والناس فيما اطمعوا طمعوا
اطمعتمُ فيكم عدوكم   فسما بهم في ذاكم الطمع
فلو انكم كنتم كقومكمو   مثل الذي كانوا لكم رجعوا
عما كرهتم او لردَّهمُ   حذر العقوبة انها نزع

وكان بنوامية يحسنون جزاءه فيرسلون اليه عطاءه من الشام الى مكة . وكانت قريش كلها تبرّه للسانه وتقرباً الى بني امية ببره . ولما قتل مصعب بن الزبير سنة ٧١ﻫ رثاه بابيات لانه كان صديقه فغضب عبد الملك لذلك . فلما جاء مكة حاجاً في بعض السنين دخل عليه الاعيان على مراتبهم وقامت الشعراء والخطباء فتكلموا ودخل ابو العباس الاعمى فسأله عبد الملك عن مدحه مصعباً فاستعفاه وقال « انما رثيته لانه كان صديقي وقد علمت ان هواي امويٌّ » قال «صدقت ولكن انشدني قولك فيه » فانشده :

رحم الله مصعباً فلقد   مات كريماً ورام امراً جسيما

فقال عبد الملك « أجل لقد مات كريماً

ولكنه رام التي لا يرومها   من الناس الا كلُّ حرٍّ معمم »

و كان ابن الزبير لما غلب على الحجاز جعل يتتبع شيعة بني امية فينفيهم عن المدينة ومكة فبلغه ان ابا العباس الاعمى يكاتب الامويين ويتجسس لهم ويمدحهم فدعا به ثم كلموه بشأنه وانه ضرير فعفا عنه ونفاه الى الطائف فهجاه وهجا سائر بني اسد (عشيرة آل الزبير) بابيات منها قوله :

بني اسد لا تذكروا الفخر انكم متى تذكروه تكذبوا وتحمقوا
متى تسألوا فضلاً تضنوا وتبخلوا ونيرانكم في الشر فيها تحرق
اذا استبقت يوماً قريش خرجتم بني اسد سكاً وذو المجد يسبق
تجيئون خلف القوم سوداً وجوهكم اذا ما قريش للاضاميم اصفقوا
وما ذاك الا ان للؤم طابعاً يلوح عليكم وسمه ليس يخلق

وهاجى عمر بن ابي ربيعة ثم بلغه ان عمر يرامي جارية له بنادق الغالية فقال لقائده اوقفني على باب بني مخزوم فاذا مرّ ابن ابي ربيعة ضع يدي عليه « ففعل فقبض على حجزته وقال :

الا من يشتري جاراً نؤوماً بجارٍ لا ينامُ ولا ينيم
ويلبس بالنهار ثياب ناسٍ وشطر الليل شيطان رجيم

واخباره في الاغاني ٥٩ ج ١٥ والشعر والشعراء ٣٦٦

٢ — أَعْشَى رَبيعة

توفي سنة ٨٥ ه

اسمه عبد الله بن خارجة من شيبان (ربيعة) كان يقيم في الكوفة وهو مرواني المذهب يتعصب لبني امية تعصباً شديداً . ومن قوله في آل مروان قصيدة انشدها لعبد الملك بن مروان منها :

وما انا في امري ولا في خصومتي بمهتضمٍ حقي ولا قارعٍ سنّي
ولا مسلم مولاي عند جناية ولا خائف مولاي من شرّ ما اجني
وان فؤاداً بين جنبيَّ عالم بما ابصرت عيني وما سمعت اذني
وفضلني في الشعر واللب انني اقول على علم واعرف من اعني
فاصبحت اذ فضلت مروان وابنه على الناس قد فضلت خير ابٍ وابن

فقال عبد الملك « من يلومني على هذا » وامر له بعشرة آلاف درهم وعشرة تخوت ثياب وعشر فرائض من الابل واقطعه الف جريب وقال له « امض الى زيد الكاتب يكتب لك بها » واجرى له على ثلاثين عيلاً

وهذه عطايا تفسد الابن على ابيه . ودخل مرة على عبد الملك وهو يتردد في الخروج لمحاربة ابن الزبير فقال له « يا امير المؤمنين مالي اراك متلوماً ينهضك الحزم ويقعدك العزم وتهمّ بالاقدام وتجنح الى الاحجام انفذ لنصرتك وامض رايك وتوجه

الى عدوك بجدك مقبل وجده مدبر واصحابه له ماقتون ونحن لك محبون وكلمتهم مفترقة وكلمتنا عليك مجتمعة والله ماتؤتى من ضعف جنان ولا قلة اعوان ولا يثبطك عنه ناصح ولا يحرضك عليه غاش وقد قلت في ذلك ابياتاً » فقال « هاتها فانك تنطق بلسان ودود وقلب ناصح » فقال

آل الزبير من الخلافة كالتي عجل النتاج بحملها فاحالها
اوكالضعاف من الحمولة حملت ما لا تطيق فضيعت احمالها
قوموا اليهم لا تناموا عنهم كم للغواة اطلتمو امهالها
ان الخلافة فيكمو لا فيهم ما زلتمو اركانها وثمالها
امسوا على الخيرات قفلاً مغلقا فانهض بيمنك فافتح اقفالها

فضحك عبد الملك وقال « صدقت يا أبا عبد الله ان ابا خبيب لقفل دون كل خير ولا نتأخر عن مناجزته ان شاء الله ونستعين الله عليه وهو حسبنا ونعم الوكيل » وامر له بصلة سنية . واخباره في الاغاني ١٦٠ ج ١٦

٣ ــ نابغة بني شيبان

هو ايضاً من ربيعة كالاعشى واسمه عبدالله بن المخارق وكان بدويا يقيم في البادية ويفد على خلفاء بني امية في الشام فيمدحهم ويجزلون عطاءه . وكان نصرانيًّا وفي شعره كثير من ذكر الانجيل والرهبان ونحوهما وقد مدح عبدالملك ودخل عليه يوماً وقد عزم على عزل اخيه عبد العزيز عن ولاية العهد والمبايعة بها لابنه الوليد وكان المجلس حافلاً بالناس على اثر فشل ابن الزبير وذهاب دولته فدخل النابغة وانشده قصيدة لعل عبد الملك اوعز اليه ان يفعل ليجس الراى العام كما فعل معاوية قبله — ومنها قوله بشأن الخلع :

آليت جهداً وصادق قسمي لرب عبد الله ينتصحوا
يظل يتلو الانجيل يدرسه من خشية الله قلبه طفح
لابنك اولى بملك والده ونجم من قد عصاك مطرح
داود عدل فاحكم بسيرته ثم ابن حرب فانهم نصحوا
وهم خيار فاعمل بسنتهم واحي بخير واكدح كما كدحوا

فتبسم عبد الملك ولم يتكلم في ذلك باقرار ولا دفع فعلم الناس ان رايه خلع عبد العزيز . وادرك النابغة الوليد بن يزيد ومدحه ونال جوائزه وله قصيدة طويلة يصف بها الخمر وتخلص منها الى الفخر ببني شيبان

واخباره في الاغاني ١٥١ ج ٦ وله ديوان خطي في المكتبة الخديوية

٤ — عَدِيُّ بن الرَّقاع

هو عدي بن زيد من عاملة حي من قضاعة كان شاعراً مقدماً عند بني امية مداحاً خاصاً بالوليد بن عبد الملك وله بنت شاعرة يقال لها سلمى وكان منزله في دمشق فهو من حاضرة الشعراء لا من باديتهم وقد تعرض لجرير وناقضه في مجلس الوليد المذكور ولم يجسر جرير على هجائه خوفاً من الوليد لانه هدده بالاذى اذا فعل . ومن شعره في وصف ظبية قوله :

كالظبية البكر الفريدة ترتعي ... من ارضها قفراتها وعهادها
خضبت لها عقد البراق جبينها ... من عركها علجانها وعرادها
كالزين في وجه العروس تبذلت ... بعد الحياء فلاعبت ارآدها
تزجي اغنَّ كأن ابرة روقه ... قلم اصاب من الدواة مدادها

وفي هذه القصيدة يذكر شعره وعلمه وحنكته :

ولقد اصبت من المعيشة لذة ... ولقيت من شظف الخطوب شدادها
وعمرت حتى لست أسأل عالماً ... عن حرف واحدة لكي ازدادها
صلى المليك على امرئ ودعته ... واتم نعمته عليه وزادها

ومن هذا البيت اقتبس الكتاب قولهم « واتم نعمته عليك »

ومن قوله في مدح عمر بن الوليد وفيه حكم :

واذا نظرت الى اميري زادني ... ضناً به نظري الى الامراء
تسمو العيون اليه حين يرونه ... كالبدر فرّج بهمة الظلماء
والاصل ينبت فرعه متأثلاً ... والكف ليس بنانها بسواء

واخباره في الاغاني ١٧٩ ج ٨ والشعر والشعراء ٣٩١

٥ — أبو صَخْر الهُذَلي

واسمه عبد الله بن سلم من هذيل وكان متعصباً لآل مروان مدح عبد الملك واخاه عبد العزيز وهجا ابن الزبير فحبسه ابن الزبير حتى مات وله نسيب في امرأة من قضاعة احبها

وتزوجها سواه وتجد اخباره في الاغاني ٩٤ ج ٢١ وخزانة الادب ٥٥٥ ج ١

وهناك طائفة منا نصار بني امية اضطروا لمدح آل الزبير لقيامهم بين اظهرهم ولان اكثرهم كانوا يمدحون بعض امراء بني امية وليس خلفائهم — ولو كانوا من شعراء الخلفاء ربما كانوا اثبت في مدحهم منهم :

٦ — عبدالله بن الزبير الأسدي

هو غير ابن الزبير القائم بالدعوة في الحجاز . وهو شاعر هجّاء يرهب شره نشأ في الكوفة واقام فيها وكان متشيعاً لبني امية وذوي الهوى فيهم والتعصب والنصرة على عدوهم . وما زال كذلك حتى غلب مصعب بن الزبير على الكوفة فاتى به مسرًا فمنّ عليه ووصله واحسن اليه فمدحه واكثر وانقطع اليه فلم يزل معه حتى قتل مصعب سنة ٧١ ثم عمي عبد الله ابن الزبير بعد ذلك ومات في خلافة عبد الملك . واكثر مدائحه في بشر بن مروان الاموي ومن قوله يمدحه :

كأن بني امية حول بشر نجومٌ وسطها قمرٌ منير
هو الفرع المقدم من قريش اذا اخذت مآخذها الامورُ
لقد عمت نوافلة فاضحى غنيًّا من نوافله الفقير
جبرت مهيضنا وعدلت فينا فعاش البائس الكلُّ الفقير
فانت الغيث قد علمت قريش لنا والوا كف الجون المطير

ومن مديحه في اسماء بن خارجة قوله :

تراه اذا ما جئتهُ متهللاً كانك تعطيه الذي انت نائله
ولو لم يكن في كفه غير روحه لجاد بها فليتق الله سائله

ومن هجائه قصيدة يهاجي بها عبد الرحمن بن أم الحكم مطلعها :

ابى الليل بالمران ان يتصرّما كأني اسوم العين نوماً محرّما

واخباره في الاغاني ٣٣ ج ١٣

٧ — ابو قَطِيفَة

هو عمرو بن الوليد بن عقبة من بني امية وكان يقيم في المدينة وهواه مع بني امية . فلما تمكن ابن الزبير من الحجاز نفاه مع من نفاه من بني امية الى الشام فلما طال مقامه فيها قال :

الا ليت شعري هل تغير بعدنا قباءٌ وهل زال العقيق وحاضره

وهل برحت بطحاء قبر محمد اراهط غرٌّ من قريش تباكره
لهم منتهى حبي وصفو مودتي ومحض الهوى مني وللناس سائره

واكثر من ذكر المدينة والحجاز في شعره وشوقه الى الوطن فلم يعجب ذلك عبد الملك وتنقصه لرغبته في الحجاز عن الشام وبلغ ذلك ابا قطيفة فقال :

نبئتُ ان ابن العملس عابني ومن ذا من الناس البريء المسلم
فمن انتم من انتم خبروا فمن فقد جعلت اشياء تبدو وتكتم

فبلغ ذلك عبد الملك فقال « ما ظننت انا نُجهل . والله لولا رعايتي لحرمته لأَلحقته بما يعلم ولقطعت جلده بالسياط »

وبلغ ابن الزبير ما يقاسيه ابو قطيفة في سبيل حبه المدينة فبعث اليه ان يعود الى بلده وهو آمن . فانكفأ الى المدينة فلم يصل اليها حتى مات . وتجد اخباره في الاغاني ٧ ج ١

سائر انصار بني امية

وهناك طائفة من انصار بني امية وفيهم من مدح الامراء دون الخلفاء او مدح الاثنين . وربما اضطر بعضهم لمدح آل الزبير للاسباب التي تقدمت راينا ذكر تراجمهم يطول بنا فنكتفي بالاشارة الى المآخذ التي يمكن الرجوع اليه لمن اراد الاطلاع على اخبارهم وليس لاحد منهم ديوان معروف وهم :

٨ امية بن ابي عائذ الهذلي : مدح عبد الملك وعبد العزيز ابني مروان . ترجمته في الاغاني ١١٥ ج ٢٠ وخزانة الادب ٤٢١ ج ١

٩ جبها الاشجعي : شاعر بدوي ليس ممن انتجع الخلفاء بشعره ومدحهم . ترجمته في الاغاني ١٤٦ ج ١٦

١٠ الحكم بن عبدل الاسدي : كان اعرج احدب شاعراً هجاءً خبيث اللسان مدح بعض آل مروان ترجمته في الاغاني ١٤٩ ج ٢ وفوات الوفيات ١٤٥ ج ١

١١ شبيب بن البرصاء : من ذبيان كان بدوياً لم يحضر الا وافداً او منتجعاً ترجمته في الاغاني ٩٣ ج ١١

١٢ عبد الله بن جحش : من الصعاليك كان يعجب بني امية . الاغاني ١١٨ ج ١٧

١٣ العجير السلولي : هو شاعر مقل عاصر عبد الملك وسليمان وهشاماً ترجمته في الاغاني ١٥٢ ج ١١ وخزانة الادب ٣٩٩ ج ٢

١٤ عويف الفزاري : من قيس كان يقيم في الكوفة وبيته من البيوتات الفاخرة في العرب ترجمته في الاغاني ١٠٥ ج ١٧ وخزانة الادب ٨٧ ج ٣

١٥ الفضل بن العباس : من قريش عاصر الوليد بن عبد الملك في الاغاني ٢ ج ١٥

١٦ موسى شهوات : مولى قريش واصله من اذربيجان ترجمته في الاغاني ١١٨ ج ٣ والشعر والشعراء ٢٦٦

٢ — انصار آل المهلب

من هم آل المهلب

آل المهلب بيت من بيوتات الاسلام من الازد اشتهروا بالكرم في ايام بني امية مثل اشتهار آل برمك في الدولة العباسية ونكبوا مثل نكبتهم وهم ينتسبون الى كبيرهم المهلب بن ابي صفرة . عمل المهلب لبني امية وحارب عنهم الازارقة وآخر ما تولى من الاعمال بلاد خراسان تولاها من جهة الحجاج يوم كان له العراقان . وما زال عليها حتى توفي سنة ٨٣ هـ وهو من كبار رجال الاسلام في تلك الدولة . وكان كريماً التماساً لحسن الاحدوثة ومن اقواله « الحياة خير من الموت والثناء الحسن خير من الحياة ولو اعطيت ما لم يعطه احد لاحببت أن تكون لي اذن اسمع بها ما يقال فيَّ غداً اذا متُّ » فهو من طلاب الشهرة بالسخاء . وسار ابناؤه على خطواته فكثر الشعراء الذين مدحوهم . واشهر اولاده يزيد بن المهلب والمغيرة بن المهلب قاتل الخوارج وكانت له معهم وقائع مأثورة . ومنهم مخلد بن يزيد بن المهلب من الاسخياء الممدوحين توفي سنة ١٠٠ هـ وحبيب بن المهلب وغيرهم . أما الشعراء الذين مدحوهم فهاك اشهرهم :

١ — زِياد الأَعْجَمُ

توفي سنة ١٠٠ هـ

هو من موالي عبد القيس من بني عامر بن الحرث وكان ينزل اصطخر فغلبت العجمة على لسانه فسموه الاعجم . وكان شاعراً جزل الشعر فصيح الالفاظ على لكنة لسانه مثل سائر الاعاجم لا يستطيع لفظ العين . وقد مدح على الخصوص المغيرة بن المهلب وله فيه قصيدة يرثيه بها تزيد على خمسين بيتاً مطلعها :

قل للقوافل والقريّ اذ اقروا والباكرين وللمجدّ الرائح
ان المروأة والسماحة ضمنا قبرًا بمرو على الطريق الواضح
فاذا مررتَ بقبره فاعقر بهِ كوم الهجان وكل طرف سابح

من لطيف اخباره مع حبيب بن المهلب انه جاء مرة الى المهلب في اصبهان ومدحه

فامر له بجائزة فاقام عنده اياماً . و بينما هو جالس في عشية مع حبيب المذكور في دار له وفيها حمامة تسجع قال زياد يخاطب الحمامة :

تغنّـي انت في ذممي وعهدي ... وذمة والدي ان لم تطاري
وبيتـكِ فاصلحيه ولا تخافي ... على صفر مزغبـةٍ صغار
فانك كلما غنيت صوتاً ... ذكرتُ احبتي وذكرت داري
فاما يقتلوك طلبتُ ثاراً ... له نبأ لانك في جواري

فقال حبيب « يا غلام هات القوس » فقال له زياد « وما تصنع بها » قال « ارمي « جارتك هذه » قال « والله لئن رميتها لاستعدينّ عليك الامير » فاتى بالقوس فنزع لها سهماً فقتلها فوثب زياد فدخل على المهلب فحدثه الحديث وانشده الشعر فقال المهلب « عليّ بابي بسطام » فاتي بحبيب فقال له « اعط ابا امامة دية جارته الف دينار » فقال « أطال الله بقاء الامير انما كنت العب » قال « اعطه كما آمرك » فاعطاه

وهمّ الفرزدق ان يهاجي عبد القيس موالي زياد فبعث اليه زياد « لا تعجل حتى اهدي اليك هدية » فانتظر الفرزدق فبعث اليه يقول :

ما ترك الهاجون لي ان هجوته ... مصححاً اراه في اديم الفرزدق
ولا تركوا عظماً يرى تحت لحمه ... لكاسره ابقوه للمتعرق
سأكسر ما ابقوه لي من عظامه ... وأنكت مخ الساق منه وانتقي
وانا وما تهدي لنا ان هجوتنا ... لكالبحر مهما يلق في البحر يغرق

فلما بلغه الشعر قال « ليس لي الى هجاء هؤلاء من سبيل ما عاش هذا العبد »

ومع شاعريته كان كثير اللحن في نظمه — ومن قوله يخاطب يزيد بن المهلب :

هل لك في حاجتي حاجة ... ام انت لها تارك طارح
أأمتها لك الخير ام أحيها ... كما يفعل الرجل الصالح
اذا قلتُ قد اقبلت ادبرت ... كمن ليس غادٍ ولا رائح

ومن خبيث هجائه قوله يهجو الاشاقر :

قبيلة خيرها شرها ... واصدقها الكاذب الآثم
وضيفهم وسط ابياتهم ... وان لم يكن صائماً صائم

ومن مأثور حكمه قوله :

وكائن ترى من صامت لك معجب زيادته او نقصه في التكلم
لسان الفتى نصفٌ ونصفٌ فؤاده فلم تبقَ الا صورة اللحم والدم

وتجد اخباره في الاغاني ١٠٢ ج ١٤ و ٥٨ ج ١٣ والشعر والشعراء ٢٥٧ وخزانة الادب ١٩٣ ج ٤ وفوات الوفيات ١٦٤ ج ١

٢ — ثَابِتُ قُطْنَة

هو مولى بني اسد بن الحرث واسمه ثابت بن كعب شاعر فارس شجاع كان في صحابة يزيد بن المهلب وكان يوليه اعمالاً من اعمال الثغور فيحمد فيه مكانه لكتابته وشجاعته فضلاً عن شاعريته . ومن لطيف خبره ان يزيد ولاه عملاً في خراسان فلما صعد المنبر يوم الجمعة رام الكلام فتعذر عليه وحصر فقال «سيجعل الله بعد عسر يسرا أو بعد عيّ بياناً وانتم الى امير فعّال احوج منكم الى امير قوّال

وان لم اكن فيكم خطيباً فانني بسيفيَ اذ جدّ الوغى لخطيب»

وجالس ثابت قوماً من الشراة وقوماً من المرجئة وكانوا يجتمعون فيتجادلون في خراسان فمال الى قول المرجئة ونظم في هذا المذهب قصيدة وصفهُ فيها من جملتها قوله :

يا هند فاستمعي لي ان سيرتنا ان نعبد الله لا نشرك به احدا
نرجي الامور اذا كانت مشبهة ونصدق القول فيمن جار اوعندا
المسلمون على الاسلام كلهم والمشركون استووا في دينهم قددا
ولا ارى ان ذنباً بالغ احداً م الناس شركاً اذا ماوحدوا الصمدا
لا نسفك الدم الا ان يراد بنا سفك الدماء طريقاً واحداً جددا

ومن نظمه قصيدة يحرض بها يزيد بن المهلب على الحرب [1] ولما قتل يزيد قال ثابت يرثيه :

كل القبائل تابعوك على الذي تدعو اليه وبايعوك وساروا
حتى اذا حمس الوغى وجعلتهم نصب الاسنة سلموك وطاروا
ان يقتلوك فانّ قتلك لم يكن عاراً عليك وبعض قتل عارُ

(١) الاغاني ٥٤ ج ١٣

ومن فخرياته قوله :

تعففتُ عن شتم العشيرة انني وجدت ابي قد كفَّ عن شتمها قبلي
حليماً اذا ما الحلم كان مروأة واجهل احياناً ان التمسوا جهلي

واخباره في الاغاني ٤٩ ج ١٣ والشعر والشعراء ٤٠٠ وخزانة الادب ١٨٥ ج ٤

٣ — حَمْزَةُ بن بِيض

توفي سنة ١٢٠ هـ

هو حنفي من بكر وائل (ربيعة) من أهل الكوفة خليع ماجن من فحول طبقته وكان منقطعاً لآل المهلب وولده ثم الى ابان بن الوليد وبلال بن أبي بردة واكتسب بالسفر الى هؤلاء مالاً كثيراً — ذكروا انه اكتسب نحو مليون درهم — فهو كان ينصرهم لمجرد الاستجداء بخلاف من تقدم . ومن قوله يخاطب مخلد بن يزيد بن المهلب وعنده الكميت :

أتيناك في حاجة فاقضها وقل مرحباً يجب المرحبُ
ولا تتكلنا الى معشر متى يعدوا عدة يكذبوا
فانك في الفرع من اسرة لهم خضع الشرق والمغرب
وفي ادب منهم ما نشأت ونعم لعمرك ما ادبوا

فأمر له بمائة الف درهم . ولما سجن يزيد بن المهلب دخل عليه حمزة وأنشده أبياتاً مطلعها :

اغلق دون السماح والجود والنجدة بابٌ حديده اشب

فدفع اليه يزيد فص ياقوت أحمر باعه بثلاثين الف درهم

ولحمزة اخبار طويلة حسنة اكثرها مع يزيد المذكور وابنه مخلد . وله في عبد الملك وابنه سليمان اقوال واخبار تجدها في الاغاني ١٥ ج ١٥ وفوات الوفيات ١٤٧ ج ١

٤ — كعب الأَشقَرِي

هو كعب بن معدان من الاشاقر قبيلة من الازد . شاعر فارس خطيب معدود في الشجعان بين اصحاب المهلب وله ذكر في حروبه الازارقة وأوفده المهلب الى

الحجاج وأوفده الحجاج الى عبد الملك . وكان الفرزدق شديد الاعجاب به يعدُّه رابع الثلاثة الفحول (الفرزدق وجرير والاخطل) وأوفده المهلب الى الحجاج ليخبره عن واقعة جرت له مع الازارقة فأنشده قصيدة مطلعها :

يا حفص اني عداني عنكم السفر وقد سهرت فآذى عيني السهر

ثم وصف المعركة الى أن قال :

خبوا كمينهم بالسفح اذ نزلوا بكازرون فما عزوا ولا نصروا
باتت كتائبنا تردي مسوَّمة حول المهلب حتى نوَّر القمر
هناك ولوا جراحاً بعد ماهربوا وحال دونهم الانهار والجدر
تأبى علينا حزازات النفوس كما تبقي عليهم ولا يبقون ان قدروا

وهجاه زياد الاعجم وقد علمت انه ينتمي لعبد القيس فقال كعب يهجو عبد القيس

اني وان كنت فرع الازد قد علموا اخزى اذا قيل عبد القيس اخوالي
فيهم ابو مالك بالمجد شرفني ودنس العبد عبد القيس سربالي

فرد عليه زياد يهجو الاشاقر واشتد اللجاج فشكاه الى المهلب . فاستقدم زياداً وعاتبه وصالحهما . واخبار كعب كثيرة تراها في الاغاني ٥٦ ج ١٣ .

٥ — بيهس الجرمي

هو بيهس بن صهيب من جرم (قضاعة) شاعر فارس شجاع كان يبدو بنواحي الشام مع قبائل جرم وكلب وعذرة ويحضر معهم في اجناد الشام . وقد صحب المهلب ابن صفرة في حربة للازارقة وكانت له مواقف مشهورة . أول ماهاج شاعريته انه هوي امرأة من قومه اسمها صفراء وكان يتحدث اليها ويكتم وجده لها ولا يخطبها لأبيها لانه كان صعلوكاً لا مال له وكان ينتظر أن يثري . وكان من احسن الشباب وجهاً وبشرة وحديثاً وشعراً . فرأته صفراء يتحدث مع بعض نساء الحي مرة فهجرته . وعرض له سفر فخرج اليه فعاد وقد زوجها ابوها رجلاً من بني أسد فذكرها في قصيدة ثم ماتت قبل أن يعرفها زوجها فقال يرثيها بقصيدة عبر بها عن شعوره بما ينطبق على الواقع على طريقة الجاهليين من ذلك قوله :

هل بالديار التي بالطائح من احد باق فيسمع صوته المدلج الساري

تلك المنازل من صفراء ليس بها … نارٌ تضيءُ ولا اصوات سمار
عفت معارفها هوجا مغبرة … تسفي عليها تراب الابطح الهاري
حتى تنكرت منها كل معرفة … الا الرماد نخيلاً بين احجار
طال الوقوف بها والعين تسبقني … فوق الرداء بوادي دمعها الجاري
ان اصبح اليوم لا اهل ذوو لطف … الهو لديهم ولا صفراء في الدار

وله قصيدة في مدح محمد بن مروان لانه اجاره من تهمة كانت عليه منها :

وان محمداً سيعود يوماً … ويرجع عن مراجعة العتاب
فيجبر صيبتي ويحوط جاري … ويؤمن بعدها ابداً صحابي
هو الفرع الذي بنيت عليه … بيوت الاطيبين ذوي الحجاب

وتجد اخباره في الاغاني ١٦١ ج ١٠ و١٠٧ ج ١٩

وممن صحب آل المهلب ونصرهم بشعره :

٦ العُدَيْل بن الفرخ من ربيعة ترجمته في الاغاني ١١ج ٢٠ وفي الشعر والشعراء ٢٤٤ وخزانة الادب ٣٦٧ ج٢

٧ المغيرة بن حبناء من تميم ترجمته في الاغاني ١٦٢ ج ١١ وخزانة الادب ٦٠١ ج ٣

٨ يزيد بن الحكم من ثقيف « « « ١٠٠ ج ١١

٣ – أنصار العلويين أو الهاشميين

كان أنصار العلويين من الشعراء كثيرين لكنهم لم يكونوا يجسرون على الظهور خوفاً من الامويين وهم أهل السيادة وربما مدحهم احدهم سراً ثم يعدل الى مدح الامويين كما فعل الكميت بن زيد وغيره وهاك أشهر أنصار العلويين :

١ – الكُمَيت بن زَيد

المتوفى سنة ١٢٦ ﻫ

هو الكميت بن زيد الاسدي شاعر مقدم عالم بلغات العرب خبير بآيامها. من شعراء مضر والسنتها المتعصبين على القحطانية القارعين لشعرائهم العلماء بالمثالب والايام المفاخرين بها . وكان مشهوراً بالتشيع لبني هاشم وقصائده فيهم تسمى الهاشميات وهي

من جيد شعره وكانت أول منظوماته . وجاء الفرزدق وعرض عليه شعره فسمع له وهو يستخف به حتى بلغ الى قوله :

بني هاشم رهط النبي فانني بهم ولهم ارضى مراراً واغضبُ
خفضت لهم مني جناحي مودة الى كنف عطفاه اهل ومرحبُ
وكنت لهم من هؤلاء وهؤلا ءِ محباً على اني اذم واغضبُ
وارمى وارمي بالعداوة اهلها واني لاؤذى فيهم واؤنب

فقال له الفرزدق « يا ابن اخي اذع ثم اذع فانت والله اشعر من مضى واشعر من بقي »

ويقال في سبب توسعه بعلم لغة العرب وأخبارهم أنه كان له جدتان أدركتا الجاهلية فكانتا تصفان له البادية وأمورها وتخبرانه باخبار الناس في الجاهلية فاذا شك في شعر أو خبر عرضه عليهما فيخبرانه عنه فمن هناك كان علمه . وهو من اصحاب الملحمات ومطلع ملحمته :

الا لا ارى الايام يقضى عجيبها بطول ولا الاحداث تفنى خطوبها

وله مناقضات ومهاجاة لشعراء اليمن . وأراد القسري أن يسيء به الى بني أمية فروّى قصائده الهاشميات لجارية حسناء وأعدها ليهديها الى هشام بن عبدالملك وكتب اليهِ باخبار الكميت وأنفذ قصيدته التي يقول فيها :

فيارب هل الا بك النصر يتقى ويا رب هل الا عليك المعوّلُ

وهي طويلة يرثي بها زيد بن علي (الهاشمي) ويمدح بني هاشم فاكبرها هشام فكتب الى خالد عامله أن يقطع لسانه ويده فنبهه الى ذلك بعض أصدقائه ففرَّ وقضى زماناً مختفياً ثم توسطوا له بالعفو وجاء الى هشام ومدحه بقصيدة أنشده اياها مطلعها :

ما ذا عليك من الوقو ف بها وانك غير صاغر

الى أن قال :

فالآن صرت الى امي ة والامور الى المصائر
يا ابن العقائل للعقا ئل والجحاجحة الاخاير
من عبد شمس والاكا بر من امية فالاكابر
ان الخلافة والالا ف برغم ذي حسد وواغر

وأنشده غيرها وغيرها فاجازه . ومما سبق اليه في وصف الفرس قوله :

يبحث الترب عن كواسر في الشـ ـرب لا يحشم السقاة الصفيرا

ومن جيد شعره قوله :

الا لا ارى الايام يقضى عجيبها لطول ولا الاحداث تفنى خطوبها

ولا عبر الايام يعرف بعضها ببعض من الاقوام الا لبيبها

ولم ارَ قول المرء الا كنبله لهُ وبه محرومها ومصيبها

وتوفي سنة ١٢٦ولهُ ستون سنة وكان يبلغ شعره لما مات ٥٢٨٩ بيتاً . والهاشميات مطبوعة بمصر وفي ليدن سنة ١٩٠٤ولها شرح منه نسخة خطية في المكتبة الخديوية . وللكميت ترجمة مطولة في الاغاني ١١٣ ج ١٥ والشعر والشعراء ٣٦٨ وخزانة الادب ٦٩ ج ١ والجمهرة ١٨٧

٢ – أَيْمَنُ بن خُرَيْم الاسدي

هو من بني أسد كان شديد التشيع لعلي وقد مدح بنى هاشم ومن قوله فيهم :

نهاركمُ مكابدة وصومٌ وليلتكم صلاة واقتراءُ

اأجمعكم واقواماً سواءٌ وبينكم وبينهم الهواءُ

وهم ارض لارجلكم وانتم لارؤسهم واعينهم سماءُ

على انه اضطر الى مسايرة بن امية ومدح عبد الملك . وله في وصف النساء قصيدة بديعة تجدها مع سائر اخباره في الاغاني ٥ ج ٢١ والشعر والشعراء ٣٤٥

٤ – أنصار الخوارج وآل الزبير وغيرهم

ويقال نحو ذلك في أنصار سائر الاحزاب الذين كانوا على الامويين كالخوارج الشراة والازارقة وآل الزبير فان شعراءهم لم يكونوا يستطيعون الظهور ويندر ظهور أحدهم وهاك اشهرهم :

١ – الطِرِمَّاح بن حكيم

توفي سنة ١٠٠ هـ

هو من طي من فحول الشعراء الاسلاميين وفصحائهم نشأ في الشام وانتقل الى الكوفة بعد ذلك مع من وردها من جيوش أهل الشام واعتقد مذهب الشراة والازارقة

وكان معاصراً للكميت المتقدم ذكره وكانا صديقين . وسئل كميت مرة « لاشيء أعجب من صفاء ما بينك وبين الطرمّاح على تباعد ما يجمعكما من النسب والمذهب والبلاد وهو شامي قحطاني وأنت كوفي نزاري شيعي فكيف اتفقتما مع تباين المذهب وشدة العصبية» فقال « اتفقنا على بغض العامة »

وكان للطرمّاح والكميت رغبة في الغريب يدخلانه في اشعارهما . ومن قول الطرماح يمدح نفسه :

اذا قُبضت نفس الطرّمّاح اخلقت عرى المجد واسترخى عنان القصائد

ومن قوله في الفخر :

وما انا بالراضي بما غيره الرضى ولا المظهر الشكوى ببعض الاماكن
ولا اعرف النعمى عليَّ ولم تكن واعرف فصل المنطق المتغابن

وله قصائد كثيرة في هجو بني تميم ومن لطيف ما قاله فيهم :

تميم بطرق اللؤم اهدى من القطا ولو سلكت سبل المكارم ضلت
ولو ان برغوثاً على ظهر قملة يكرُّ على صفّي تميم لولت
ولو ان حرقوصاً يزقق مسكه اذاً نهلت منه تميم وعلت
ولو جمعت يوماً تميم جموعها على ذرة معقولة لاستقلت
ولوان ام العنكبوت بنت لها مظلتها يوم الندى لأكنت

وهو من اصحاب الملحمات ومطلع ملحمته :

قلَّ في شط نهروان اغتماضي ودعاني هوى العيون المراض

ومن قوله ويدل على مذهبه في الشراة :

لقد شقيتُ شقاء لا انقطاع له ان لم افز فوزة تنجي من النار
والنار لم ينج من روعاتها احد الا المنيب بقلب المخلص الشاري
او الذي سبقت من قبل مولده له السعادة من خلاقها الباري

وكان الاصمعيُّ يستجيد قوله في صفة الثور :

يبدو وتضمره البلاد كانه سيف على شرف يسل ويغمد

وللطرمّاح ديوان تحت الطبع في انكلترا على يد لجنة تذكار جيب مع ديوان طفيل بن عوف بعناية المستشرق كرنكو Krenkaw . واخباره في الاغاني ١٥٦ : ١٠ والشعر والشعراء ٣٧١ وخزانة الادب ٤١٨ ج ٣ والجمهرة ١٩٠

٢ – عمران بن حطان

توفي سنة ٨٩ هـ

هو من سدوس من بكر وائل شاعر فصيح من شعراء الشراة ودعاتهم المقدمين في مذاهبهم وكان من القعدة لان عمره طال فضعف عن الحرب وحضورها فاقتصر على الدعوة والتحريض بلسانه وهو مغال في التعصب على علي يؤيد ذلك قوله في مدح ابن ملجم قاتل علي وهو :

لله درُّ المرادي الذي سفكت　　كفاه مهجة شرّ الخلق انسانا
أمسى عشية غشاه بضربته　　مما جناهُ من الآثام عريانا

واخذ هذا المذهب عن امرأته لانها خارجية تزوجها ليردها عن مذهبها فذهبت به الى رأيهم وكان الحجاج يلح في طلب عمران بن حطان . وبلغه ان غزالة الحرورية دخلت على الحجاج فتحصن منها واغلق عليه قصره فكتب اليه عمران :

اسدٌ عليّ وفي الحروب نعامة　　ربداء تجفل من صفير الصافر
هلاّ برزت الى غزالة في الوغي　　بل كان قلبك في جناحي طائر
صدعت غزالة قلبه بفوارس　　تركت مدابره كامس الدابر

ثم لحق بالشام ونزل على روح بن زنباع . واشتهر شعر ابن حطان في عصره حتى كان لا يقول احد من الشعراء شعراً الا نسب اليه لشهرته الا من كان مثله في الشهرة ومرَّ بالفرزدق وهو ينشد وكان يتهمه انه يقول للاستجداء فيكذب فقال فيه :

ايها المادح العباد ليعطى　　ان لله ما بأيدي العباد
فاسأل الله ما طلبت اليهم　　وارج فضل المقسم العواد
لا تقل بالجواد ماليس فيه　　وتسمي البخيل باسم الجواد

وكان عمران يفتخر انه لم يكذب في شعره ومن ذلك قوله يخاطب امرأته حمزة :

ياحمز اني على ماكان من خلقي　　مثنٍ بخلات صدق كلها فيك
الله يعلم اني لم اقل كذباً　　فيما علمت واني لا ازكيك

واخباره في الاغاني ١٥٢ ج ١٦ وخزانة الادب ٤٣٦ ج ٢

٣ـ عبد الله بن الحجاج الذبياني

توفي سنة ٩٥ هـ

هو عبدالله بن الحجاج بن محصن من ذبيان ويكنى ابا الاقرع . شاعر فاتك شجاع من معدودي فرسان مضر ذوي البأس والنجدة فيهم وكان ممن خرج مع عمرو بن سعيد على عبد الملك بن مروان فلما تغلب عبد الملك على عمرو خرج عبد الله مع نجدة بن عامر الحنفي ثم هرب فلحق بعبد الله بن الزبير فكان معه الى ان قتل. ثم جاء الى عبد الملك متنكراً واحتال عليه حتى امنه في حديث طويل

وعاش الى زمن الوليد بن عبد الملك ووشي به فحبسه فقال وهو في الحبس قصيدة من جملتها :

فان يعرض ابو العباس عني ويركب بي عروضاً عن عروض
ويجعل عرفه يوماً لغيري ويبغضني فاني من بغيض
فاني ذو غنى وكريم قوم وفي الاكفاء ذووجه عريض

واخباره في الاغاني ٢٥ ج ١٢

٤ـ اسماعيل بن يسار النسائي

توفي سنة ١١٠ هـ

هو مولى بني تيم (من قريش) انقطع لآل الزبير . ولما استتب الامر لعبد الملك بن مروان وفد اليه ومدحه ومدح الخلفاء من ولده كما فعل غيره ولكنهم كانوا يضمرون الكره لهم ويمثل ذلك ما جرى لاسماعيل هذا وقد وفد على الغمر بن يزيد بن عبد الملك يوماً فحجبه ساعة ثم اذن له فدخل يبكي فقال له الغمر « مالك يا أبا فائد تبكي» فقال« و كيف لا ابكي وأنا على مروانيتي ومروانية أبي احجب عنك » فجعل الغمر يعتذر اليه وهو يبكي فما سكت حتى وصله الغمر بجملة لها قدر وخرج من عنده فلحقه رجل فقال له« اخبرني ويلك يا اسماعيل أي مروانية كانت لك أو لابيك » قال « بغضنا اياهم امرأته طالق ان لم تكن أمه تلعن مروان وآله كل يوم مكان التسبيح وان لم

يكن ابوه حضره الموت فقيل له قل لا اله الا الله فقال لعن الله مروان تقرباً بذلك الى الله تعالى »

وعاش اسماعيل عمراً طويلاً وكان شعوبياً يفخر على العرب بالعجم ومن قوله :

انما سمي الفوارس بالفر س مضاهاة رفعة الانساب
فاتركي الفخر يا امام علينا واتركي الجور وانطقي بالصواب
واسألي ان جهلت عنا وعنكم كيف كنا في سالف الاحقاب
اذ نربي بناتنا وتدسو ن سفاهاً بناتكم في التراب

ومن اقواله في الغزل من قصيدة :

حتى دخلت البيت فاستذرفت من شفق عيناك لي تسجم
ثم انجلى الحزن وروعاته وغيب الكاشح والمبرم
فبتُّ فيما شئت من نعمة يمنحنيها نحرها والفم
حتى اذا الصبح بدا ضوءه وغارت الجوزاء والمرزم
خرجت والوطء خفيٌّ كما ينساب من مكمنه الارقم

واخباره في الاغاني ١١٩ ج ٤

سائر انصار اعداء بني امية

ومن انصار اعداء بني امية غير من تقدم جماعة نكتفي بذكر مآخذ تراجمهم وهم :

٥ ابو وجزة السعدي من هوازن توفي سنة ١٣٠ مدح آل الزبير اخباره في الاغاني ٧٩ ج ١١ والشعر والشعراء ٤٤٢

٦ ابو حزابة من انصار ابن الاشعث اخباره في الاغاني ١٥٢ ج ١٩

٧ ابو كلدة اليشكري من بكر من انصار ابن الاشعث سكن الكوفة وقتله الحجاج اخباره في الاغاني ١١٠ ج ١٠



شعراء الغزل والتشبيب

في العصر الاموي

قلنا في كلامنا عن التشبيب أن امام التشبيب في هذا العصر جميل بن معمر امام المحبين وكان يشبب بحبيبته عن شعور حقيقي بالحب فقلده الشعراء بذلك وان لم يكونوا محبين . على ان اكثرهم ابتلوا بالعشق ولا سيما آل عذرة . وبلغ عدد المشببين بضعة وعشرين شاعراً منهم خمسة من قريش هم عمر بن ابي ربيعة والعرجي والحارث بن خالد وابو دهبل وابن قيس الرقيات وعروة بن أذينة وامامهم عمر بن ابي ربيعة وهو اول من تجرأ على التشبيب بالنساء وصارت له فيه طريقة تحداها الشعراء بعده من قريش وغيرهم كما سيجيء فنبدأ بجميل ثم نذكر الشعرا القرشين وغيرهم :

جَمِيلُ بن مَعْمَر

توفي سنة ٨٢ ﻫ

هو جميل بن عبدالله بن معمر من عذرة وكان شاعراً فصيحاً مقدماً جامعاً للشعر والرواية اشتهر بحبه بثينة ابنة عمه ولذلك عرف بجميل بثينة وكانا يقيمان في وادي القرى وكان اول عهده بها وهي صغيرة ومن اوائل نظمه فيها قوله :

وأول ماقاد المودة بيننا بوادي بغيض يابثين سباب
وقلت لها قولاً فجاءت بمثله لكل كلام يابثين جواب

ولم يكن يراها حتى صارت شابة فاخذ ينظم القصائد فيها حتى اشتهر امره واتفق مرة ان توبة بن الحميّر صاحب ليلى مرَّ ببني عذرة فراته بثينة فجعلت تنظر اليه وجميل حاضر فثارت الغيرة في قلب جميل فقال لتوبة من انت قال انا توبة بن الحميّر قال هل لك في الصراع قال ذلك اليك . فاعطته بثينة ملاءة حمراء فاتزر بها ثم صارعه فصرعه جميل . ثم قال هل لك في النضال قال نعم فناضله فنضله جميل . ثم قال هل لك في السباق قال نعم فسابقه فسبقه جميل . فقال له توبة « ياهذا انما تفعل ذلك بريح هذه الجالسة ولكن اهبط بنا الوادي » فهبط فصرعه توبة ونضله وسبقه

وكان عند بثينة مثل ما عند جميل ولما رأت مناضلته عنها زادت شغفاً به ولكنهما لم

يكونا يجتمعان الاخلسة على موعد . ولم يكن جميل يخلو من الرقباء لكنهم لم يستطيعوا رميه بريبة واخباره معها كثيرة لا يسعها هذا المقام . وما زال يجتمع بها سرًّا عن اهلها فالحوا بالشكوى عليه الى العامل ففر الى اليمن حتى عزل العامل وانتجع اهل بثينة الشام فرحل جميل اليهم فترصدوه وشكوه الى عشيرته فعنفه اهله وهددوه فانقطع عنها واخيراً لجأ الى مصر وعاملها عبد العزيز بن مروان فاحسن وفادته ومرض هناك ومات . وكان طويل القامة عريض بين المنكبين جميل الخلقة حسن البشرة ومن قوله فيها :

واني لارضى من بثينة بالذي لو ابصره الواشي لقرّت بلابله
بلا وبان لا استطيع وبالمنى وبالامل المرجوّ قد خاب آمله
وبالنظرة العجلى وبالحول تنقضي اواخره لا نلتقي واوائله

ومن قوله ابيات ينسبونها الى مجنون ليلى :

وما زلتم يا بثن حتى لو انني من الشوق استبكي الحمام بكى ليا
اذا خدرت رجلي وقيل شفاؤها دعاء حبيب كنت انت دعائيا
وما زادني النأي المفرق بعدكم سلوًّا ولا طول التلاقي تقاليا
ولا زادني الواشون الا صبابة ولا كثرة الناهين الا تماديا
لقد خفت ان القى المنية بغتة وفي النفس حاجات اليك كما هيا

ومن بديع قوله في النسيب :

لها في سواد القلب بالحب منعة هي الموت اوكادت على الموت تشرف
وما ذكرتك النفس يابثن مرة من الدهر الا كادت النفس تتلف
وما استطرفت نفسي حديثاً لخلة اسرُّ به الا حديثك اطرف

واكثر شعره فيها وله ابيات في الفخر بليغة منها :

يحبُّ الغواني البيض ظلُّ لوائنا اذا ماأتانا الصارخ المتلهف
نسير امام الناس والناس خلفنا فان نحن اومأنا الى الناس وقفوا
وكنا اذا مامعشر نصبوا لنا ومرت جواري طيرهم وتعيفوا
وضعنا لهم صاع القصاص رهينة بما سوف نوفيها اذا الناس طففوا

ولجميل ديوان شعر كبير كان مشهوراً في ايام ابن خلكان ولم نقف على خبره ولكن منه اشعاراً مجموعة في كتاب منه نسخة خطية في مكتبة برلين

وترى ترجمة جميل في الاغاني ٧٧ ج ٧ و٨٠ ج ١٠ و١٣٤ و١٤٢ ج ٢ وابن خلكان ١١٥ ج ١ وخزانة الادب ١٩١ ج ١ والشعر والشعراء ٢٦٠ وفي الهلال ٢٤٢ سنة ٦

شعراء قريش الغزليين

١ــ عُمَرُ بن ابي ربيعة

توفي سنة ٩٣ هـ

هوعمر بن عبد الله بن ابي ربيعة من مخزوم بطن من قريش . وكانت العرب تقرُّ لقريش بالتقدم عليها في كل شيء الا الشعر حتى ظهر عمر بن ابي ربيعة فاقرت لها بهِ

واختص عمر المذكور شعرة بوصف النساء ولم يصف سواهن . وكان الاسلام لا يزال في اوائله والمسلمون يستنكفون من التعرض للنساء والتشبيب بهن . ولم يجرأ ابن ابي ربيعة على ذلك الا لمنزلته في قريش ومع ذلك فقد عدوا شعره ضرراً على الاداب فقد قال ابن جريج « ما دخل العواتق في حجالهنَّ شيءٌ اضرُّ عليهن من شعر ابن ابي ربيعة » وقال هشام بن عروة « لا ترووا فتيانكم شعر عمر بن ابي ربيعة لا يتورطوا في الزنا تورطاً »[1] وكان اخوه الحارث يمنعه من شعره ويدفع اليه المال ليكف عنه فلا يقدر

وقد اقتبس عمر من جميل وقلده . وكان جميل يشبب بحبيبته أما عمر فكان يشبب بكل جميلة ولو لم يكن بينه وبينها مودة . وصار له في التشبيب طريقة عرفت باسمه تحداها الشعراء . ولما سمع الفرزدق تشبيبه قال « هذا الذي كانت الشعراء تطلبه فاخطأته وبكت الديار ووقع هذا عليه » وكانوا لذلك يعدونه انسب الناس واوصف الشعراء لربات الجمال . وكان يقيم بمكة فاذا آن الحج اعتمر في ذي القعدة ولبس الحلل الفاخرة وركب النجائب المخضوبة بالحناء عليها القطوع والديباج وسبل لمته ولقي العراقيات فيما بينه وبين ذات عرق محرمات ويتلقى المدنيات الى مر ويتلقى الشاميات الى الكديد . ويتعرض للحجاج فيشبب بشهيرات النساء اللواتي يقدمن الى مكة وهن في مشاعر الحج أو ينظر اليهن وهن في الطواف فيرى منهن ما لا يراه في الخارج فيصفهن . فتعرض لاشهر نساء العرب واجملهن وفيهن جماعة من كبار القوم وفي جملتهن فاطمة بنت عبد الملك بن مروان الخليفة ولكنه لم يكن يذكر اسمها خوفاً من ابيها ومن الحجاج . وكان ابوها قد بعث اليه يتوعده اذا ذكرها فلما عادت من الحج قال فيها :

(١) الاغاني ٣٥ ج ١

كدت يوم الرحيل اقضي حياتي ... ليتني متُّ قبل يوم الرحيل
لا اطيق الكلام من شدة الخو ... ف ودمعي يسيل كل مسيل
ذرفت عينهـا وفاضت دموعي ... وكلانا يلقى بلب اصيل

وممن شبب بهنَّ عائشة بنت طلحة الشهيرة بالجمال والتعقل وكان قد رآها تطوف فعلمت انه لايبرح ان يشبب فيها فبعثت اليه مع جاريتها تقول « اتق الله ولاتقل هجراً» فاجابها « اقرئيها السلام وقولي لها ابن عمك لا يقول الا حسناً » وقال ابياتاً منها :

لعائشة ابنة التيمي عندي ... حمى في القلب ما يرعى حماها
يذكرني ابنـة التيمي ظبي ... يرود بروضة سهل رباها
فقلت له وكاد يراع قلبي ... فلم ارَ قط كاليوم اشتباهـا
سوى حمش بساقك مستبين ... وان شواك لم يشبه شواهـا
وانك عاطـلٌ عارٍ وليست ... بعـارية ولا عطل يداهـا

وشبب ايضاً بلبابة بنت عبد الله بن عباس بابيات مطلعها :

ودع لبابة قبل ان تترحلا ... واسأل فان قلالة ان تسالا

وشبب بسكينة بنت الحسين من قصيدة قال فيها :

اسكين ما ماء الفرات وطيبه ... منا على ظمأ وحب شراب
بألذَّ منكِ وانـ نأيت وقلما ... ترعى النساء امانة الغياب

وشبب بالثريا بنت علي بن عبد الله بن الحرث وكان قد تزوجها رجل اسمه سهيل وفي ذلك يقول عمر :

ايها المنكح الثريا سهيلاً ... عمرك الله كيف يجتمعان
هي شآمية اذا ما استقلت ... وسهيل اذا استقلَّ يماني

وشبب ايضاً برملة بنت عبد الله بن خلف اخت طلحة الطلحات وغيرها وشعره كثير ومنه طائفة حسنة يغنونها . ومما يستحسن من شعره قوله في نحول البدن :

رات رجلاً اما اذا الشمس عارضت ... فيضحى واما بالعشيّ فيخصر
قليلاً على ظهر المطية شخصه ... خلا ما نبى عنه الرداء المحبر

واخباره كثيرة ذكرها صاحب الاغاني مطولة من ٣٠ ج ١ والشعر والشعراء ٣٤٨ وابن خلكان ٣٧٨ ج ١ والدميري ٣٢٦ ج ١ والعقد الفريد ١٣٢ ج ٣

وله ديوان مطبوع في ليبسك سنة ١٨٩٣ وفي مصر سنة ١٣١١ ومنه نسختان خطيتان في المكتبة الخديوية

٢ — العَرْجِيُّ

هو عبدالله بن عمر بن عمرو بن عثمان بن عفان الخليفة كان من شعراء قريش وقد شهر بالغزل وتشبه بعمر بن ابي ربيعة وكان مشغوفاً باللهو والصيد قليل المحاشاة لاحد فيها ولم يكن له نباهة في اهله . وكان اشقر ازرق جميل الوجه وقد شبب بوحيداء ام محمد بن هشام المخزومي ليفضح ابنها لالمحبة بينهما . فقضى عليه محمد وضربه وحبسه حتى مات في السجن

وكان يشبب ايضاً بشهيرات النساء بالجمال نحو ما كان يفعل ابن ابي ربيعة لكنه كان مقلداً فلم يبلغ مبلغه وكان يقلده بالبذخ فيستسقي على ابله في شملتين ثم يغتسل ويلبس حلتين بخمسمائة دينار . ومما قاله في حبسه :

اضاعوني واي فتىً اضاعوا ليوم كريهة وسداد ثغر
وصبر عند معترك المنايا وقد شرعت استنها بنحري
اجرّر في الجوامع كل يوم فيالله مظلمتي وصبري
كأني لم اكن فيهم وسيطاً ولم تك نسبتي في آل عمرو

واخباره كثيرة منشورة في الاغاني ١٥٣ ج ١ و ٩٠ ج ٦ و ١٤٥ ج ٧ والشعر والشعراء ٣٦٥

٣ — الحَارِث بن خَالد المَخزُومي

هو ايضاً من مخزوم مثل عمر بن ابي ربيعة وقد اتبع مذهبه في الغزل لا يتجاوزه الى المديح او الهجاء . وكان يهوى عائشة بنت طلحة ويشبب بها . وكان ذا قدر وخطر في قريش واخوه عكرمة بن خالد محدث جليل . وكان بنو مخزوم جميعاً من حزب ابن الزبير الا الحارث فكان منحازاً لعبد الملك بن مروان فولاه مكة . وكان يراقب الحج كما يفعل ابن ابي ربيعة ويشبب بمن يستحسنها من النساء وهن في الطواف

ومن قوله في عائشة بنت طلحة لما تزوجها مصعب بن الزبير ورحل بها الى العراق :

ظعن الامير باحسن الخلق وغدا بلبك مطلع الشرق
في البيت ذي الحسب الرفيع ومن اهل التقى والبر والصدق

فظلت كالمقهور مهجته هذا الجنون وليس بالعشق
اترجة عبق العبير بها عبق الدهان بجانب الحق
ما صبحت احدا برؤيتها الا غدا بكواكب الطلق

وله اقوال كثيرة ذكرها صاحب الاغاني ١٠٠ ج ٣ وخزانة الادب ٢١٧ ج ١

٤ — أَبُو دَهْبَل الجُمَحِيُّ

اسمه وهب بن زمعة من اشراف بني جمح من قريش وكان رجلاً جميلا له جمة شعر يرسلها فتضرب منكبيه . وكان عفيفاً قال الشعر في آخر خلافة علي بن ابي طالب ومدح معاوية وعبد الله بن الزبير . وكان ابن الزبير ولاه بعض اعمال اليمن ولكنه شغل عن ذلك بالغزل لانه هوي امرأة من قومه اسمها عمرة وكانت جزلة يجتمع اليها الرجال للمحادثة وانشاد الشعر والاخبار فكان ابو دهبل لا يفارق مجلسها وكانت هي ايضاً تحبه ففارت امرأة منها فبعثت اليها عجوزاً داهية وشت به حتى احتجبت عنه فقال :

وبتُّ كئيباً ما انام كانما خلال ضلوعي جمرة تتوهجُ
فطوراً امنّي النفس من عمرة المنى وطوراً اذا ما لجَّ بي الحزن انشجُ
لقد قطع الواشون ما كان بيننا ونحن الى ان يوصل الحبل احوج

وقد شبب في غيرها من شهيرات النساء منهن عاتكة بنت معاوية بن ابي سفيان وقد جاءت للحج فنزلت بذي طوى من مكة وقد اشتد الحر فأمرت جواريها فرفعن الستر فمر ابو دهبل فرآها وهي لا تعلم فلما رأته ينظر اليها غضبت وشتمته وامرت بارخاء الستر فقال ابو دهبل في ذلك :

اني دعاني الحين فاقتادني حتى رايت الظبي بالبابِ
يا حسنه اذ سبَّني مدبراً مستتراً عني بجلباب
سبحان من وقفها حسرة صبت على القلب باوصاب
يذود عنها ان تطلبتها ابٌ لها ليس بوهاب
احلها قصراً منيع الذرا يحمى بابواب وحجاب

وانشد ابو دهبل هذه الابيات بعض اخوانه فشاعت وغنى بها المغنون فبلغت عاتكة فبعثت اليه بكسوة وجرت الرسل بينهما . فلما صدرت عن مكة خرج معها الى

الشام فلما دخلت دمشق انقطعت عن لقائه في دمشق فنظم في ذلك قصيدة مطلعها :

طال ليلي وبت كالمحزون   ومللت الثواء في جيرون

وبلغ معاوية تشبيبه بابنته فاحب ان يمنعه باسلوب من اساليبه الناعمة فدعاه اليه واخبره أنه اطلع على ما قاله . فاراد ابو دهبل ان يتنصل ويزعم انها قيلت عن لسانه فأكد له معاوية انها له ولكنه قال « لا خوف عليك من جهتي ولكنني اخاف عليك من يزيد فان له سورة الشباب وانفة الملوك » فخاف ابو دهبل وخرج الى مكة هارباً . لكنه عاد الى مكاتبة عاتكة وبلغ ذلك معاوية فحج . ولما انقضت ايام الحج دعا ابا دهبل في جملة الشعراء والاشراف واجازه وسأله عن احب بنات عمه اليه فقال فلانة فقال « قد زوجتكها واصدقتها الفي دينار وامرت لك بالف دينار » فلما قبضها طلب العفو عما مضى ولم يتزوج الفتاة فسر معاوية من ذلك . واكثر شعره غير الغزل في عبد الله بن عبد الرحمن الازرق والي اليمن

ولابي دهبل اخبار طويلة ذكرها صاحب الاغاني ١٥٤ ج ٦ وله اشعار في الشعر والشعراء ٣٨٩

٥ — ابن قَيس الرُّقَيَّات

توفي سنة ٧٥ هـ

اسمه عبيد الله بن قيس من قريش وكان ممن انحاز الى ابن الزبير وخرج مع مصعب بن الزبير على عبد الملك بن مروان ومدحه وطعن في بني اميه ثم انحاز الى عبد الملك بعد قتل مصعب وعبد الله فامنه . فقال يمدحه من قصيدة :

ان الاغر الذي ابوهُ ابو الـ   ـعاصي عليه الوقارُ والحجبُ

يعتدل التاج فوق مفرقه   على جبين كأنه الذهب

فقال له عبد الملك « يا ابن قيس تمدحني بالتاج كاني من العجم وتقول في مصعب

انما مصعب شهاب من الله   تجلت عن وجهه الظلماء

ملكه ملك عزة ليس فيه   جبروت منه ولا كبرياء

اما الامان فقد سبق لك ولكن والله لا تأخذ مع المسلمين عطاءً ابداً »

اما تغزله فقد كان في امرأة كوفية كان ينزل عندها اسمها كثيرة وله في اخرى اسمها رقية . على ان غزله اقل من غزل سائر من تقدم من الشعراء القرشيين ولكن طائفة من شعره يغنونها . ومن شعره في رقية ويغنى به :

رقيَّ بعيشكم لا تهجرينا ومنينا المنى ثم امطلينا
عدينا في غدٍ ما شئت انا نحبُّ وان مطلت الواعدينا
فاما تنجزي عدتي واما نعيش بما نؤمل منك حينا

وله فيها ايضاً :

وترى في البيت صورتها مثل ما في البيعة السرجُ
خبروني هل على رجل عاشق في قبلة حرج

وترى اخباره في الاغاني ١٥٥ ج ٤ وفي الشعر والشعراء ٣٤٣ وخزانة الادب ٢٦٧ ج ٣ وله ديوان طبع في فينا سنة ١٩٠٢ مع ترجمة المانية . وقد شرحه السكري المتوفى سنة ٢٧٥ ﻫ وفي الكتبخانة الخديوية نسخة خطية من الشرح المذكور

سائر الشعراء الغزليين

يكاد لا يخلو شاعر من ابيات غزلية قالها عن حب أو تشبيب ولكن المراد بشعراء الغزل الذين اكثر قولهم فيه وقد تقدم ذكر بعضهم واليك الباقون

١ — مجنون ليلى

هو قيس بن الملوَّح ويقال بن مُعاذ بن مزاحم من عامر بن صعصعة ويعرف بمجنون ليلى نسبة الى ليلى التي كان يتعشقها وهو مشهور ولكن بعض اهل النقد من علماء الشعر يرون ان قصته موضوعة وضعها رجل من بني امية كان يحب ابنة عم له يكره ان يظهر ما بينه وبينها فوضع حديث المجنون وقال الاشعار التي يظنها الناس للمجنون . وقد زاد الناس فيه بعدئذٍ . ويؤيد ذلك ان كثيراً مما ينسب اليه من الاشعار رويت لغيره . فقصتهُ اذاً من قبيل الشعر التمثيلي (درام) الذي يراد به تمثيل بعض الفضائل . وهي تمثل العشق مع التعفف او لعلَّ لها اصلاً قليلاً وزاد فيه الرواة كما فعلوا بقصة عنترة التي تمثل الشجاعة والعشق

وفي كل حال فان بين الاشعار المنسوبة الى المجنون طائفة تمثل شعائر المحبين كما هي على طبيعتها . وديوان مجنون ليلى شائع ومتداول . ومما ينسب اليه قوله :

واني لينسيني لقاؤك كلما لقيتك يوماً ان ابثك ما بيا
وقالوا به داء عياء اصابه وقد علمت نفسي مكان دوائيا

وقوله :

فوالله ثم الله اني لدائب افكر ما ذنبي اليها واعجب
ووالله ما ادري علام قتلتني واي اموري فيك ياليل اركب
االقطع حبل الوصل والموت دونه ام اشرب رنقاً منكم ليس يشرب
ام اهرب حتى لااری لي مجاوراً ام اصنع ما ذا ام ابوح فاغاب
فايهما يا ليل ما ترتضينه فاني لمظلوم واني لمعتب

واخبار المجنون في الاغاني ١٦٧ ج ١ والشعر والشعراء ٣٥٥ وخزانة الادب ١٧٠ ج ٢ . وله ديوان مطبوع في القاهرة سنة ١٣٠٠ هـ وفي بيروت سنة ١٨٨٢ م ثم طبع مراراً ومنه نسخ خطية في المكتبة الخديوية وفي مكاتب تونس وبرلين وباريس واياصوفيا وغيرها

٢ — كثيّر عزّة

توفي سنة ١٠٥ هـ

هو كثيّر بن عبد الرحمن من خزاعة ويعرف بكثير عزة نسبة الى عشيقته التي كان يشبب بها وكان يدخل على عبد الملك وينشده وكان رافضياً شديد التعصب لآل ابي طالب. وكان عبد الملك يعرف ذلك فيه فلا ينكره فاذا اراد ان يصدقه بشيء حلفه بعلي وكان له صديق اسمه خندق الاسدي شديد التشيع مثله وبلغ من جرأة خندق هذا انه وقف مرة في الموسم والناس مزدحمون وقال « ايها الناس انكم على غير حق قد تركتم بيت نبيكم والحق لهم وهم الائمة » فوثب عليه الناس فضربوه ورموه حتى قتلوه ودفن خندق بقنونا فقال اذ ذاك كثير يرثيه :

اصادرة حجاج كعب ومالك على كل عجلي ضامر البطن محنق
بمرثية فيها ثناء محبر لازهر من اولاد مرة معرق

والقصيدة طويلة . اما معشوقته عزة فهي بنت حميد بن وقاص من ضمرة وكانت من اجمل النساء وآدبهن واعقلهن ويقال انه لم يرَ لها وجهاً الا انه استهيم بها قلبه لما ذكر له عنها . وعاتبه بعض اهلها فقالوا « قد شهرت نفسك وشهرت صاحبتنا فاكفف نفسك » فقال « اني لا ذكرها بما تكرهون »

واتفق خروجهم الى مصر في عام الجلاء فتبعهم على راحلته فزجروه فابى الا

ان يلحقهم فتربص لهُ بعضهم في بعض الطريق وقبضوا عليهِ وجعلوهُ في جيفة حمار وربطوها عليه فمرَّ بهِ صديقه خندق فاطلقه والحقه ببلاده . وكان كثيّر دميماً قليلا احمر اقيشر عظيم الهامة قبيحاً . واكثر اشعاره في عزة هذه . من ذلك قوله فيها لما اخرجت الى مصر :

وقال خليلي ما لها اذ لقيتها غداة السنا فيها عليك وجوم

فقلت له ان المودة بيننا على غير فحش والصفاء قديم

واني وان اعرضت عنها تجلداً على العهد فيما بيننا لمقيم

وان زماناً فرّق الدهر بيننا وبينكم في صرفه لمشوم

وقوله ويغني به :

وكنت اذا ماجئت اجللن مجلسي واظهرن مني هيبة لا تجهما

يحاذرن مني غيرة قد عرفنها قديماً فما يضحكن الا تبسما

ومن احاسن شعره قوله :

اغاضر لو شهدت غداة بنتم حنوَّ العائدات على وسادي

اويت لوامق لم تشكميه نوافذهُ تلذَّعُ بالزناد

ومن قوله في الحكم :

ومن لا يغمّض عينه عن صديقه وعن بعض ما فيه يمتْ وهو عاتبُ

ومن يتتبع جاهداً كلَّ عثرة يجدها فلا يسلم له الدهر صاحب

ويختار من قوله :

واجمع هجراناً لاسماء ان دنت بها الدار لا من زهدة في وصالها

فان شحطت يوماً بكيت وان دنت تذللت واستكثرتها باعتزالها

ومن منتخبات قوله في عزة قصيدة طويلة مطلعها :

خليلي هذا ربع عزة فاعقلا قلوصيكما ثم ابكيا حيث حلت

وقوله وفيه افراط :

ومشى اليَّ بعيب عزة نسوةٌ جعل الاله خدودهن نعالها

ولو ان عزة خاصمت شمس الضحى في الحسن عند موفّق لقضى لها

واخباره كثيرة تجدها في الاغاني ٤٦ ج ١١ و ٢٧ ج ٨ و ٧٨ ج ٧ والشعر والشعراء ٣١٦ وابن خلكان ٤٣٣ ج ١ والعقد الفريد ١١٥ و ٢٠٣ ج ١ وخزانة الادب ٣٨١ ج ٢ . وله ديوان شرحه ابو عبد الله الرشيدي منه نسخة خطية في الاسكوريال

٣ ـ ابن مَيَّادة

هو الرماح بن يزيد بن ثوبان من ذبيان وكان احمر سبطاً عظيم الخلق طويلاً طويل اللحية وكان لباسه عطراً وذكروا انه اشعر غطفان في الجاهلية والاسلام وكان خيراً لقومه من النابغة لم يمدح غير قريش وقيس وكان النابغة يمدح اليمن (القحطانية) ومما يؤثر من قوله في الشعر وقد قيل له مرة « لو اصلحت شعرك لذكرت به لانه فيه كثير من السقط » فقال « انما الشعر كنبل في جفيرك ترمي به الغرض فطائع وواقع وعاصد وقاصد »

وعاصر ابن ميادة الوليد بن يزيد ومدحه وادرك اول الدولة العباسية فمدح المنصور وجعفر بن سليمان فهو من اهل الدور الثالث وانما ذكرناه هنا لانه من الشعراء الغزليين واحب امرأة من بني مرة اسمها ام حجدر وكان يختلف اليها فعلم ابوها وغضب واقسم ان لا يزوجها رجلاً من ذلك البلد فزوجها رجلاً من الشام فقال ابن ميادة من شدة الوجد :

خليلي من افناء عذرة بلغا رسائل منا لا تزيدكما وقرا
الما على تيماء نسأل يهودها فان لدى تيماء من ركبها خبرا
وبالغمر قد جازت وجاز مطيها عليه فسل عن ذاك تبان فالغمرا
ويا ليت شعري هل يحلن اهلها واهلك روضات ببطن اللوى خضرا

ولابن ميادة موافقات مع الحكم الخضري واراجيز طوال ومفاخرات مع عقال ابن هاشم ذكر صاحب الاغاني بعضها وهي منتقيات وله في مدح الوليد قصيدة مطلعها:

يا اطيب الناس ريقا بعد هجعتها واملح الناس عينا حين تنتقب

. ولما مات الوليد رثاه . فلما قامت الدولة العباسية مدح المنصور

واخبار ابن ميادة كثيرة في الاغاني ٨٨ ج ٢ والشعر والشعراء ٤٨٤

٤ ـــ الأَحْوَص

توفي سنة ١٠٥ هـ

هو عبد الله بن محمد بن عبد الله من الاوس من اهل المدينة وكان مثل سائر شبان يثرب في تلك الايام ميالاً الى الرخاء وكان قليل المروأة والدين مع ميل الى هجو الناس وقد جعله ابن سلام في طبقة ابن قيس الرقيات ونصيب وجميل ولكن اهل

الحجاز يفضلونه عليهم وهو اسمح طبعاً واسهل كلاماً واصح معنى منهم . ولشعره رونق وديباجة صافية وحلاوة وعذوبة وبه الناظ ليست لواحد منهم . وكان متهتكاً فبلغ سليمان بن عبد الملك عنه اقوال فنفاه . ويقال في سبب ذلك ان سكينة بنت الحسين فخرت يوماً بالرسول ففاخرها الاحوص بقصيدته التي يقول فيها « ليس جهل اتيته ببديع » فبلغ ذلك سليمان فنفاه ثم رده

واشتهر الاحوص بتشبيبه بام جعفر وهي امرأة من الانصار وتوعده اخوها وهدده فلم ينته فاستعدى عليه والي المدينة وهو يومئذ عمر بن عبدالعزيز فربط الاحوص واخاها بحبل ودفع اليهما سوطين وقال« تجالدا » فغلب اخوها ومن شعره فيها :

ازور البيوت اللاصقات بيتها وقلبي الى البيت الذي لاازور
وما كنت زواراً ولكن ذاالهوى اذا لم يزر لابد ان سيزور
ازور على ان لست انفك كلما اتيت عدوًّا بالبنان يشير

ومن شعره الجيد قوله :

الا لا تلمه اليوم ان يتبلدا فقد غلب المحزون ان يتجلدا
وما العيش الا ما تلذ وتشتهي وان لام فيه ذو الشنان وفندا
بكيت الصبا جهداً فمن شاء لامني ومن شاء واسى في البكاء واسعدا
واني وان عيرت في طلب الصبا لأعلم اني لست في الحب اوحدا

وكان الخليفة يزيد بن الوليد مشتغلاً عن الخلافة بجاريته حبابه فلامه عمه مسلمة ونهاه عنها فتركها وانقلع عن زيارتها فأرادت ان تسترجعه فلاقته وهو خارج الى المسجد بعودها وغنته بيت الاحوص : وما العيش الا ما تلذ وتشتهي الخ

فضرب يزيد بخيزرانته الارض وقال صدقت وعاد الى حالته معها

ومن غزله قوله وهو وصف حقيقة :

فما هو الا ان أراها فجاءة فأبهت حتى ما اكاد اجيب

وقوله :

ستبقى لها في مضمر القلب والحشا سريرة حب يوم تبلى السرائر

وترى ترجمة الاحوص واقواله في الاغاني ٤٠ ج ٤ و٥٣ ج٦ و١١٧ ج١ وفي الشعر والشعراء ٣٢٩ والعقد الفريد ١١٥ ج ١ وخزانة الادب ٢٣٢ ج ١ وفي سائر كتب الادب . وله قصيدة محفوظ في مكتبة برلين

٥ – قَيْس بن ذَرِيح

هو قيس بن ذريح من كنانة وكان رضيع الحسين بن علي لان ام قيس ارضعت الحسين . كان منزل قومه في ظاهر المدينة وكان هو وابوه من حاضرة المدينة واشتهر قيس بحبه لبنى بنت الحباب الكعبية وهي التي جعلته ينطق الشعر فانه رآها مرة واستسقاها فسقته وكانت امرأة مديدة القامة شهلاء حلوة المنظر والكلام فلما رآها وقعت في نفسه فعشقها وجعل ينطق بالشعر وشكا اليها غرامه فشكت اليه مثله فطلب الى ابيه ان يخطبها له فابى لانه كان غنياً فاراد له احدى بنات عمه . فشكا الى امه فلم تسعفه فاتى الحسين بن علي فتوسط له فزوجوه لان اشارته لا تردُّ فاقامت زوجته عنده مدة لا ينكر احد من صاحبه شيئاً

ثم دخلت الحماة بين الابن والكنة . وذلك ان قيساً كان ابرَّ الناس بامه فالهته لبنى عنها فغضبت واخذت تتحين الفرص للانتقام فمضى على الزواج زمن ولم تلد لبنى لقيس ولداً فخاطبت امه اباه بذلك وقالت « انت ذو مال فيصير المال الى الكلالة فزوجه بغيرها لعل الله ان يرزقه ولداً » والحت عليه فاستمهلها وسأل ابنه في ذلك فابى ان يتزوج غيرها فعرض عليه ان يتسرى فابى فقال طلقها فلم يرضَ فالح عليه وحلف لا يكنه سقف بيت أبداً حتى يطلق لبنى . فكان يخرج فيقف في حر الشمس ويجيء ابوهُ فيقف الى جانبه فيظله بردائه ويصلي هو بحر الشمس حتى يفيء الفيء فينصرف ويدخل قيس الى لبنى فيعانقها وتعانقه ويبكي وتبكي معه وتقول له « يا قيس لا تطلع اباك فتهلك وتهلكني » فيقول « ما كنت لاطيع احداً فيك أبداً » . فيقال انه مكث كذلك سنة وقيل عشر سنين ثم طلقها ولم يلبث حتى استطير عقله ولحقه مثل الجنون وصار يبكي كالطفل ثم اتى ابوها ليحملها الى اهله فلما رأى قيس هودجها وعلم انها مسافرة بعد ليلة سقط مغشياً عليه وهو يقول :

وانى لمفنٍ دمع عيني بالبكا حذار الذي قد كان اوهو كائنُ
وقالوا غداً او بعد ذاك بليلة فراق حبيب لم يبن وهو بائنُ
وما كنت اخشى ان تكون منيتي بكفيك الا ان ماحان حائنُ

ولما غاب هودجها اكبَّ على اثر خف بعيرها يقبله ورجع يقبل موقع مجلسها واثر

قدمها فلاموه على ذلك فقال :

وما احببت ارضكمُ ولكن اقبّل اثر من وطيء الترابا
لقد لاقيت من كلفي بلبنى بلاءً ما اسيغ به الشرابا
اذا نادى المنادي باسم لبنى عييت فما اطيق له جوابا

ثم زوجوها رجلاً من غطفان وعاود قيس زيارتها فشكوه الى معاوية فهدر دمه فقال في ذلك :

فان يحجبوها اويحل دون وصلها مقالة واش او وعيد امير
فلم يمنعوا عينيَّ من دائم البكا ولن يذهبوا ماقد اجنَّ ضميري

واخبار قيس بن ذريح كثيرة في الاغاني ١١٢ ج ٨ وفي الشعر والشعراء ٣٩٩ وله ديوان مشروح ومنه نسخة في مكتبة الاسكوريال وغيرها في برلين

٦- المُخَبَّل القيسي

اسمه كعب وهو صاحب ميلاء ابنة عمه وقد راها مرة فعشقها ولقيها فشكى اليها حبه فوعدته فعلم اخوتها وهم سبعة فهددوه وكان منزله في الحجاز فخرج الى الشام ونظم فيها الاشعار من ذلك قصيدة مطلعها :

خليليَّ قد قست الامور ورمتها بنفسي وبالفتيان كل زمان
فلم اخف سوءًا للصديق ولم اجد خليًا ولا ذا البث يستويان

الى ان قال يصف غرامه :

بلينا بهجران ولم ار مثلنا من الناس انسانين يهتجران
اشد مصافاة وابعد من قلى واعصى لواش حين يكتنفيان
فوالله ما ادري اكل ذوي الهوى على ما بنا او نحن مبتليان

وهي طويلة ومنها :

احقاً عباد الله ان لست ماشياً بمرصاب حتى يحشر الثقلان

وتجد اخباره في الاغاني ٢٠٩ ج ٢١ وهو غير المخبل السعدي الذي تقدم ذكره مع الجاهليين

وهناك بضعة من شعراء العشاق يعدون من الدور الثالث لانهم توفوا بعد انقضاء الدور الثاني وقد اتينا على تراجمهم هنا كما أتينا على آخرين قد يعدُّون من الدور الاول لاستيفاء هذا الموضوع في مكان واحد

٧ — ذُو الرُّمَّة

توفي سنة ١١٧ هـ

هو غيلان بن عقبة بن نهيس من مضر ويعدُّ من الشعراء المتيمين وصاحبته ميّة بنت مقاتل المنقري وكانت جميلة وكان هو دميماً اسود وسمعت تشبيبه بها ولم تره ثم رأته فقالت واسوأتاه فغضب وقال يهجوها :

على وجه ميٍّ مسحة من ملاحة وتحت الثياب العار لو كان باديا
ألم تر ان الماء يخبث طعمه وان كان لون الماء ابيض صافيا
فواضيعة الشعر الذي لج فانقضى بميٍّ ولم املك ضلال فؤاديا

وكان يشبب بخرقاء ايضاً وهي من عامر بن صعصعة ومن قوله فيها وهو مما يتغنى به :

لقد ارسلت خرقاء نحوي جديها لتجعلني خرقاء فيمن اضلت
وخرقاء لا تزداد الا ملاحة ولو عمرت تعمير نوح وجلت

وكان ذو الرمة كثير الاخذ من غيره وقد ذكر ابن قتيبة في الشعر والشعراء امثلة كثيرة من ذلك . وكان ذو الرمة كثير المديح لبلال بن ابي بردة بن ابي موسى الاشعري وكان له ثلاثة اخوة كلهم شعراء وكان مدور الوجه حسن الشعر جعدهُ أقنى أنزع خفيف العارضين اكحل حسن الضحك مفوّهاً اذا كلمك كلمك أبلغ الناس يضع لسانه حيث يشاء . وهو من اصحاب الملحمات ومطلع ملحمته :

ما بال عينك منها الماء ينسكب كأنه من كلى مفرية سرب

ويمتاز في شعره انه احسن شعراء عصره تشبيهاً كما كان امرؤ القيس احسن شعراء الجاهلية في ذلك . ودخل بين جرير والفرزدق لما تهاجيا فكان مع الفرزدق على جرير . واخباره كثيرة في الاغاني ١١٠ ج ١٦ والشعر والشعراء ٣٣٣ وابن خلكان ٤٠٤ ج ١ ومصارع العشاق ٧٨ والجمهرة ١٧٧ وخزانة الادب ٥١ ج ١ وله ديوان خطي في المكتبة الخديوية ومثله في مكاتب لندن وليدن

٨ — يزيد بن الطَّثْرِيَّة

توفي سنة ١٢٦ هـ

اسمه يزيد بن الصمة من قشير من عامر ويكنى ابا مكشوح وكان حسن الوجه والشعر حلو الحديث غزلاً آخذاً بقلوب النساء وكان الغزل في القشيريين نادراً ولهم في

ذلك حادثة مع جرم ذكرها صاحب الاغاني لا بأس من مطالعتها (١١١ ج ٧) انتهت بتعلق يزيد بامرأة من جرم يقال لها وحشية واشتد وجده بها حتى اشرف على الموت ونظم فيها الشعر ومن قوله فيها :

بنفسي من لو مرَّ بردُ بنانه على كبدي كانت شفاءً اناملهُ
ومن هابني في كل امر وهبته فلا هو يعطيني ولا انا سائلهُ

وكتب اليها هذين البيتين :

احبك اطراف النهار بشاشة وبالليل يدعوني الهوى فأجيب
لئن اصبحت ريح المودة بيننا شمالاً لقدماً كنت وهي جنوب

فاجابته بقولها :

احبك حب اليأس ان نفع الحيا وان لم يكن لي من هواك طبيب

وقد قاسى في حبها كما قاسى غيره من العشاق والمتيمين ونظم فيها كثيراً ومن قوله :

هبيني امرءًا اما بريئاً ظلمته واما مسيئاً تاب منه واعتبا
وكنت كذي داء تبغّى لدائه طبيباً فلما لم يجده تطببا

ولابن الطثرية اخبار كثيرة في الاغاني ١١٠ ج ٧ وفي ابن خلكان ٢٩٩ ج ٢ وفي الشعر والشعراء ٢٥٥

سائر الشعراء العشاق

ومن الشعراء العشاق طائفة حسنة يضيق المكان عن تراجمهم فنكتفي بالاشارة الى المآخذ وهم :

٩ الابيرد الرياحي : من تميم كان يهوى امراة ولم يفد على الخلفاء . واخباره في الاغاني ١٠ ج ١٢

١٠ ابن رهيمة : شاعر مشبب ايام عبد الملك اخباره في الاغاني ١١٨ ج ٤

١١ توبة بن الحمّير : من عامر بن صعصعة وصاحب ليلى الاخيلية اخباره في الاغاني ٦٧ ج ١٠ وفوات الوفيات ٩٥ ج ١ والشعر والشعراء ٢٦٩ وسيأتي ذكره مع ليلى الاخيلية

١٢ مرة بن عبد الله النهدي : من قضاعة شاعر بدوي واخباره في الاغاني ٦١ ج ٢٠

١٣ مزاحم العقيلي : من هوازن شاعر بدوي صاحب قصيد ورجز عاصر

الفرزدق احب امراة تزوجها غيره فتفتقت قريحته . واخباره في الاغاني ١٥٠ ج ١٧ وخزانة الادب ٤٥ ج ٣

١٤ مسعدة بن البختري : من اقرباء المهلب بالعراق اخباره في الاغاني ٧٧ ج ١٢ .

١٥ النميري : من ثقيف [1] واخباره في الاغاني ٢٤ ج ٦

١٦ وضاح اليمن : شبب بامراة الوليد فقتله واخباره في الاغاني ٣٢ ج ٦ وفوات الوفيات ٢٥٣ ج ١

١٧ عبد الله بن علقمة : من زرارة اخباره في مصارع العشاق

١٨ حميد بن ثور الهلالي : اخباره في الاغاني ٩٨ ج ٤ والشعر والشعراء ٢٣٠

الشعراء الخلعاء والسكيرون

قد رأيت الخلاعة والسكر في بعض من تقدم ذكرهم من الشعراء وانما نعني بهذه الطبقة الشعراء الذين غلب عليهم السكر والتهتك والمجون اشهرهم :

١ — الأُقيشر الأسدي

هو المغيرة بن عبد الله من بني اسد من مضر وكان احمر الوجه اقشر فسمي الاقيشر ويكنى ابا معرض كان كوفيا خليعاً ماجناً مدمناً في شرب الخمر ومن شعره :

فان ابا معرض اذ حسا   من الراح كاساً على المنبر

خطيب لبيب ابو معرض   فان ليم في الخمر لم يصبر

احل الحرام ابو معرض   فصار خليعاً على المكبر

وكان شديد الهجو قبيحه ومن لطائفه انه شرب مرة في الحيرة في بيت فيه خياط مقعد ورجل اعمى وعندهم رجل مغن مطرب فطرب الاقيشر فسقاهم من شرابه فلما انتشوا وثب الاعمى يسعى في حوائجهم وقفز الخياط المقعد يرقص على ظلعه ويجهد في ذلك كل جهده فقال الاقيشر :

ومقعد قوم قد مشى من شرابنا   واعمى سقيناهُ ثلاثاً فأبصرا

شراباً كريح العنبر الورد ريحه   ومسحوق هندي من المسك اذفرا

وترى اخباره في الاغاني ٨٤ ج ١٠ وفي الشعر والشعراء ٣٥٢

(١) له ديوان منه نسخة خطية في مكتبة اياصوفيا بالاستانة

٢ — الحزين الكناني

هو عمرو بن عبيد بن وهيب من كنانة وقيل انه مولى . وهو حجازي مطبوع ليس من فحول طبقته. وكان هجاءً خبيث اللسان ساقطاً يرضيه اليسير ويتكسب بالشر وهجاء الناس ذرب اللسان لم يخدم الخلفاء ولا انتجع بمدح . وكان اشعر ذا بطين عظيم الانف على انه مدح بعض آل مروان غير الخلفاء . ومن ذلك قصيدة زنانه قالها في عبد العزيز بن مروان منها :

قالوا دمشق ينبيك الخبيرُ بها ... ثم ائت مصر فثم النائل العممُ
لما وقفت عليها في الجموع ضحى ... وقد تعرّضتِ الحجاب والخدم
حييته بسلام وهو مرتفق ... وضجة القوم عند الباب تزدحم
في كفه خيزران ريحها عبق ... من كف اروع في عرنينه شمم
يغضي حياءً ويغضى من مهابته ... فما يكلَّم الا حين يبتسم

وترى اخباره في الاغاني ٧٦ ج ١٤ و٥٢ ج ١١

ومن الشعراء الخلعاء جماعة نكتفي بذكر مآخذ تراجمهم :

٣ بكر بن خارجة : مولى بني اسد سكيرماجن سكن الحيرة (الاغاني ٨٧ ج ٢٠)

٤ الشمردل بن شريك : من يربوع كان مغرماً بالشراب واللهو كثير الهجو اخباره في الاغاني ١١٧ ج ١٢ والشعر والشعراء ٤٤٣

٥ الوليد بن يزيد الخليفة : اول من وصف الخمر (اغاني ١٠١ ج ٦ و٩٨ ج ٣ والعقد الفريد ٢٦٨ ج ٢ وخزانة الادب ٣٢٨ ج ١)

الشعراء المغنون

لم يكن في شعراء الجاهلية من المغنين الا الاعشى وعلس ولكن اقتراب الامويين من الحضارة وتزايد العلائق بين الحجاز والشام والعراق اولدت الموسيقى ونبغ كثيرون من المغنين اكثرهم في المدينة اشهرهم :

١ حنين الحيري : شاعر نصراني كان يغني ايام هشام اخباره في الاغاني ١٢٠ ج٢

٢ سعيد الدارمي : (تميم) شاعر ظريف من اهل مكة ايام عمر بن عبد العزيز اخباره في الاغاني ١٧٨ ج ٢

٣ عبادل : مولى قريش في الحجاز لم يفارقها كان نبيلاً محترماً وكان يغني اخباره في الاغاني ١٧٥ ج ٥

٤ محمد بن الاشعث : من قريش كان كاتباً من فتيان اهل الكوفة ظريفاً ينظم ويغني احب سلامة الزرقاء ونظم فيها واخباره في الاغاني ١٢٧ ج١٣

٥ نصَيْب : مولى عبد العزيز بن مروان شاعر اشتهر بالغناء واخباره في الاغاني ١٢٩ج ١ والشعر والشعراء ٢٤٢

٦ ابن عائشة : من موالي المطلب كان يغني للوليد بن يزيد واخباره في الاغاني ٦٢ ج ٢

الشعراء الادباء

نريد بهذه الطبقة من الشعراء من لم نستطع ادخالهم في احدى الطبقات المتقدم ذكرها فلا هم من شعراء السياسة ولا العشاق ولا السكر ولا الغناء وهم بضعة وعشرون شاعرا يطول بنا ذكر تراجمهم وخصوصاً بعد ان طال بنا الكلام في شعراء هذا العصر فنكتفي بترجمة اثنين منهم مع الاشارة الى المآخذ التي يرجع اليها من اراد التوسع في الباقين

١ — القُطَامِيُّ

هو عمير بن شييم من بني تغلب وكان نصرانيا عاصر الاخطل وله شعر من الطبقة الاولى في التشبيب والحماسة والفخر . اما في التشبيب فقوله :

وفي الخدور غمامات برقن لنا ... حتى تصيدننا من كل مصطاد
يقتلننا بحديث ليس يعلمه ... من يتقين ولا مكنونه باد
فهن ينبذن من قول يصبن به ... مواقع الماء من ذي الغلة الصادي

وكان يمدح زفر بن الحارث الكلابي واسماء بن خارجة الفزاري . وكان زفرُ قد اسره ثم اطلقه ووهب له مائة ناقة فقال وفيه من كبر النفس ما فيه :

من مبلغ زُفر القيسيَّ مدحته ... عن القطامي قولاً غير افناد
اني وان كان قومي ليس بينهم ... وبين قومك الا ضربة الهادي
مثنٍ عليك بما اوليت من حسن ... وقد تعرَّض مني مقتلٌ باد
فان قدرت على يوم جزَيتُ به ... والله يجعل اقواماً بمرصاد

وله هجاء شديد نحا فيه نحواً خاصاً يدلُّ على تفننه كقوله يريد هجاء قيس بالبخل

من قصيدة استهلها انه مسافر ونزل ضيفاً على امرأة من قيس وانها ارتاعت لما علمت انه ضيف سينزل عليها ووصف ماجرى بينهما على اسلوب جميل . وهو القائل :

والناس من يلقَ خيراً قائلون له ما يشتهي ولام المخطئ الهبلُ
قد يدرك المتأني بعض حاجته وقد يكون مع المستعجل الزلل

ومن قوله في الفخر يصف حرباً مع كلب :

وكلب تركنا جمعهم بين هارب حذار المنايا او قتيل مجدلِ
وافلتنا لما التقينا بعاقد على سابح عند الجراء ابن بجدلِ
واقسم لو لاقيته لعلوته بابيض قطاع الضريبة مقصلِ

وهو من اصحاب المشوبات ومطلع مشوبته :

انا محيوك فاسلم ايها الطلل وان بليت وان طالت بك الطول

وتجد اخبار القطامي في الاغاني ١١٨ ج ٢٠ والشعر والشعراء ٤٥٣ والجمهرة ١٥١ وله ديوان طبع في ليدن سنة ١٩٠٢ ومنه نسخة خطية في المكتبة الخديوية وفي مكتبة برلين

٢ - ليلى الأَخْيَلِيَّة وتَوْبة بن الحُمَيِّر

توفيت ليلى سنة ٨٠ ه

هي ليلى بنت عبد الله بن الرحال من بني الاخيل من عامر . وهي من النساء المتقدمات في الشعر وكان توبة بن الحميّر يهواها وهو من بني عقيل من عامر ايضاً فعشقها وقال فيها الشعر فخطبها الى ابيها فابى ان يزوجه اياها وزوجها في بني الادلع . فجاء يوماً كما كان يجيء لزيارتها فاذا هي سافرة ولم يرَ منها الا بشاشة فعلم ان ذلك لامر ما كان . فرجع الى راحلته فركبها ومضى . وبلغ بني الادلع انه اتاها فتبعوه ففاتهم فقال توبة في ذلك :

نأتك بليلى دارها لا تزورها وشطت نواها واستمرَّ مريرها

وهي طويلة يقول فيها :

وكنت اذا ماجئت ليلى تبرقعت فقد رابني منها الغداة سفورها

ويحكى ان توبة رحل الى الشام فمرَّ ببني عذرة فرأته بثينة فجعلت تنظر اليه فشق ذلك على جميل فطلبه للمصارعة كما يفعل الافرنج اليوم في الطلب للمبارزة في مثل هذه الحال فتصارعا وبثينة حاضرة فغلبه جميل فقال توبة « انما صرعتني بريح هذه . انزل بنا الوادي » فنزلا فغلبه توبة . ومن لطيف شعره في ليلى قوله :

ولو ان ليلى الاخيلية سلمت   عليَّ ودوني تربةٌ وصفائح
لسلمت تسليم البشاشة اوزقى   اليها صدى من جانب القبر صائح
ولو ان ليلى في السماء لاصعدت   بطرفي الى ليلى العيون اللوامح

وكان توبة كثير الغارات فقتل في احدى غاراته في حديث طويل ذكره صاحب الاغاني . وكانت ليلى تفد على الحجاج فتمدحه وتنال جوائزه . واراد الحجاج ان يداعبها فقال لها « ان شبابك قد ذهب واضمحلَّ امرك وامر توبة فاقسم عليك الا صدقتني هل كانت بينكما ريبة قط او خاطبك في ذلك ؟ » فقالت « لا والله ايها الامير الا انه قال لي ليلة وقد خلونا كلمة ظننت انه قد خضع فيها لبعض الامر فقلت له :

وذي حاجة قلنا له لا تبح بها   فليس اليها ما حييتَ سبيلُ
لنا صاحب لا ينبغي ان نخونه   وانت لاخرى فارغ وحليلُ

فلا والله ما سمعت منه ريبة بعدها حتى فرق بيننا الموت » قال لها الحجاج فما كان منه بعد ذلك قالت وجه صاحباً له الى حاضرنا فقال « اذا اتيت الحاضر من بني عبادة بن عقيل فاعلُ شرفاً ثم اهتف بهذا البيت :

عفا الله عنها هل ابيتنَّ ليلة   من الدهر لا يسري اليَّ خيالها

فلما فعل الرجل ذلك عرفت المعنى فقلت له :

وعنه عفا ربي واحسن حفظه   عزيز علينا حاجة لا ينالها »

ومن شعرها قولها في مدح الحجاج :

احجاج لا يفلل سلاحك انما الـ   منايا بكفّ الله حيث تراها
اذا هبط الحجاج ارضاً مريضة   تتبع اقصى دائها فشفاها
شفاها من الداء العضال الذي بها   غلامٌ اذا هزَّ القناة سقاها

واخبار ليلى وتوبة في الاغاني ٦٧ ج ١٠ و ١٣٢ ج ٤ و ١٦١ ج ٧ والشعر والشعراء ٢٧١ وفوات الوفيات ١٤١ ج ٢ والمستطرف ٣٤ ج ١

سائر شعراء الدور الثاني

وهاك اسماء من بقي من شعراء الدور الثاني

٣ ارطاة بن سُهيَّة : من ذبيان شاعر فصيح شريف صادق جواد واخباره في الاغاني ١٣٩ ج ١١ والشعر والشعراء ٣٣٢

٤ اعشى تغلب : نصراني يسكن الشام اذا حضر وينزل بلاد قومه بنواحي الموصل اذا بدا واخباره في الاغاني ٩٨ ج ١٠

٥ الجحاف السلمي : من سليم ولد بالبصرة وحضر معركة قتل فيها ابن الاخطل

فهرب بالجحاف الى بلاد الروم ثم عاد وعفا عنه عبد الملك واخباره في الاغاني ٥٧ ج ١١

٦ جعفر بن الزبير : شاعر مقل اخباره في الاغاني ١٠٤ ج ١٣

٧ جُحية بن المضرب : (كندة) شاعر اموي واخباره في الاغاني ٩ ج ٢١

٨ سراقة بن مرداس البارقي : (١) اخباره في الاغاني ٤٤ و٦٧ ج٧ و٣١ ج ٨

٩ سويد بن كراع : من عكل شاعر فارس اخباره في الاغاني ١٢٧ ج ١١

١٠ عبدالله بن ابي معقل من : الخزرج حجازي « « ١١٦ ج٢٠

١١ « « الحشرج الجعدي : سيد من سادات قيس ولي الولايات ومدحه زياد الاعجم ترجمته في الاغاني ١٥١ ج ١٠

١٢ العجاج الراجز(٢): اخباره في الشعر والشعراء ٣٧٤ والاغاني ١٢٤ ج١٨

١٣ عروة بن اذينة : من كنانة اخباره في الاغاني ١٠٥ ج ٢١ وابن خلكان ٢١٢ ج ١ والشعر والشعراء ٣٦٧

١٤ عقيل بن علفة: من ذبيان شاعر مقل جاف شديد الهوج والعجرفة والبذخ من بيت شرف في قومه اخباره في الاغاني ٨٥ ج ١١ و٩٩ ج ٢

١٥ ليلى بنت طريف الشيباني : راس الخوارج اخبارها في الاغاني ٩ ج ١١

١٥ مالك بن اسماء بن خارجة : من فزارة تولى اصبهان تحت امرة الحجاج اخباره في الاغاني ٤١ ج ١٦ والشعر والشعراء ٤٩٢

١٦ مالك بن الرَّيب : من مازن نشأ في بادية البصرة وهو من اصحاب المراثي واخباره في الاغاني ١٦٣ ج ١٩ والشعر والشعراء ٢٠٥

١٧ محمد بن بشير الخارجي : من قيس شاعر حجازي من اهل المدينة كان منقطعاً الى ابي عبيدة بن عبد الله بن ربيعة القرشي . قدم البصرة وخطب امراة اشترطت عليه الاقامة بها فأبى واخباره في الاغاني ١٤٨ ج ١٤

١٨ مرة بن محكان السعدي : من تميم عاصر الفرزدق وجريراً واخملا ذكره كان شريفاً جواداً اخباره في الاغاني ٩ج ٢٠ والشعر والشعراء ٤٣١

١٩ المقنع الكندي : شاعر جميل الخلقة شريف واخباره في الاغاني ١٥٧ ج ١٥

٢٠ المهاجر بن خالد بن الوليد المخزومي : واخباره في الاغاني ١١ ج ١٥

٢١ يعلي الاحول : من القحطانية لص كان يقطع السابلة اخباره في الاغاني ١١١ ج ١٩

---

(١) له ديوان منه نسخة خطية في المكتبة الخديوية (٢) له ديوان مشروح في المكتبة الخديوية . وفيها كتاب خطي اسمه رجز العجاج

الدور الثالث من الشعر

في العصر الاموي

من ١٠١ — ١٣٢ ﻫ

ويدخل فيه الشعراء الذين قضوا معظم حياتهم في اواخر الدولة الاموية وهو دور انحطاطها وفسادها بعد ان تولاها يزيد بن الوليد وابنه الوليد بن يزيد والناس على دين ملوكهم . فأكثر شعراء هذا الدور أميل الى التملق والخلاعة والتهتك والقصف من سائر العصر الاموي اشهرهم يزيد بن الطثرية وابن ميادة وقد ذكرناهما بين الشعراء العشاق

وهاك سائر شعراء الدور الثالث من العصر الاموي مرتبة على الابجدية وبجانب كل منهم المكان الذي يرجع اليه في مطالعة اخباره :

١ ابو حية النميري : من عاصر مدح الخلفاء في الدولتين وكان ساكناً في البصرة وكان جباناً اهوج بخيلاً اخباره في الاغاني ٦٤ ج ١٥ والشعر والشعراء ٤٨٦

٢ ابو العطاء السندي : عاصر الدولتين اخباره في الاغاني ٨١ ج ١٦ والشعر والشعراء ٤٨٢

٣ ابو نخيلة الراجز الحماني : (تميم) نفاه ابوه فخرج الى الشام ثم اتصل بالعباسيين لقي المنصور واخباره في الاغاني ١٣٩ ج ١٨ والشعر والشعراء ٣٨١

٤ جعفر بن علبة الحارثي : (كهلان) شاعر غزل وفارس واخباره في الاغاني ١٤٦ ج ١١ وخزانة الادب ٣٢٢ ج ٤

٥ حريث بن عناب : من طيئ بدوي مقل لم يتصدَّ بالشعر للناس في مدح ولا هجاء اخباره في الاغاني ١٠٢ ج ١٣

٦ الحسين بن مطير : مولى بني اسد شاعر فصيح مدح الدولتين اخباره في الاغاني ١١ ج ١٤ وخزانة الادب ٤٨٥ ج ٢

٧ رؤبة بن العجاج الراجز [1] : اخباره بالاغاني ٥٠ ج ٢١ والشعر والشعراء ٣٧٦

٨ سعيد بن عبد الرحمن بن حسان بن ثابت : مدح الوليد بن يزيد اخباره الاغاني ١٦٤ ج ٧

٩ يزيد بن ضبة : مولى ثقيف كان يقيم في الطائف مدح الوليد بن يزيد. اخباره الاغاني ١٤٦ ج ٦

(١) له ديوان مطبوع في ليبسك سنة ١٩٠٣

خاتمة

اما وقد فرغنا من الكلام في الشعر والشعراء في العصر الاموي فقد راينا ان نختم المقال ببضعة فصول تتعلق بالشعر والشعراء اتماماً للفائدة

كيف كان الشعراء يستحثون قرائحهم

مهما بلغ المرء من سموّ المدارك وصفاء الذهن وسرعة البديهة فانه لا يستغني احياناً عن شحذ قريحته او ذهنه او استحثاث خاطره وخصوصاً في الشعر اذ كثيراً ما تعرض للشعراء فترة في خواطرهم لا يجدون معها قدرة على النظم . قال الفرزدق « قد تمرُّ علي الساعة وقلع ضرس من اضراسي اهون عليَّ من عمل بيت من الشعر » ويرى آخرون ان الشعر مثل عين الماء ان تركتها اندفنت وان استهتنتها هتنت يريدون انه لا بد للشاعر من استحثاث قريحته من وقت الى آخر

وللشعراء طرق شتى في استحثاث قرائحهم تختلف باختلاف امزجتهم وعاداتهم وطبائعهم . سئل ذو الرمة كيف تفعل اذا انقفل دونك الشعر فقال « كيف ينقفل دوني وعندي مفاتيحه » قيل له وعنه سألناك ما هو قال « الخلوة بذكر الاحباب » فهذا لانه عاشق . وسئل كثير عزة « كيف تصنع اذا عسر عليك الشعر » قال « اطوف في الرباع المحيلة والرياض المعشبة فيسهل علي قرصنه ويسرع الى احسنه »

وكان الاخطل يستحث قريحته بشرب الخمر . وكذلك كان يفعل كثيرون ممن كانوا يشربونها . وكانت طائفة من الشعراء تستحث شياطينها كما فعل الفرزدق وقد افحم عند سماع قصيدة حسان التي مطلعها :

لنا الجفنات الغر يلمعن في الضحى واسيافنا يقطرن من نجدة دمـا

وقد امهله قائلها ثلاثة ايام حتى يجيب عليها وكانت ساعة جمود على قريحته فاضطر الى استحثاثها — قال «اتيت منزلي فاقبلت اصعد واصوب في كل فن من الشعر فكاني مفحم او لم اقل شعراً قط حتى اذا نادى المنادي بالفجر فرحلت ناقتي ثم أخذت بزمامها فقدتها حتى اتيت رياناً وهو جبل بالمدينة ثم ناديت باعلى صوتي أخاكم اخاكم ابا لبنى يعني شيطانه فجاش صدري كما يجيش المرجل ثم عقلت ناقتي وتوسدت ذراعها فما قمت حتى قلت مائة وثلاثة عشر بيتاً » على انه كانت عادته اذا خانته قريحته وصعب عليه الشعر

ركب ناقته وطاف خالياً منفرداً وحده في شعاب الجبال و بطون الاودية والاماكن الخربة الخالية فيعطيه الكلام قياده

وكان الابيرد الرياحي اذا خانته القريحة اخذ عصاه وانحدر في الوادي وجعل يقبل فيه ويدبر ويهمهم بالشعر فتأتيه المعاني . وكان جرير يستحث قريحته بشرب النبيذ ويتمرّغ بالرمل او على الفراش ويهمهم ويحبو على الفراش عرياناً حتى يخاله الناظر اليه أصيب بجنة . وسئل نُصَيب مرة أتطلب القريض احياناً فيعسر عليك فقال « اي والله ربما فعلت فآمر براحلتي فيشد بها رحلي ثم أسير في الشعاب الخالية وأقف في الرباع المقوية فيطربني ذلك ويفتح لي الشعر »

ويقال نحو ذلك في احوال الشعراء في سائر الاعصر. وكان ابو تمـام اذا اعيته القريحة غطس في صهريج ماء عنده يمكث فيه ساعة

على ان لاستحثاث القريحة قواعد عامة يجري عليها كثيرون منها الجلوس بجانب الماء الجاري او الاشراف عن الاماكن العالية والنزوح الى الاماكن الخالية او التجول في الرياض . وبعضهم يستنهض قواه العاقلة او قريحته بالاستلقاء على الظهر ولعلهم مجمعون بالاكثر على مباكرة العمل بالاسحار عند الهبوب من النوم

شياطين الشعراء

كان العرب يعتقدون ان لكل شاعر شيطاناً يوحي اليه المعاني حتى لقد يتوهم الشاعر منهم انه رأى شيطانه وخاطبه واوحى اليه . ولهم في ذلك اخبار طويلة ذكر بعضها في جمهرة اشعار العرب (صفحة ١٨) وذلك مبني على اعتقادهم بوجود الجن طوائف وينسبون اليها اشعاراً واقوالاً لا فائدة من ذكرها

ومن غريب اعتقادهم في شياطين الشعراء ان للشعر شيطانين يدعى أحدهما الهوبر والآخر الهوجل فمن انفرد به الهوبر جاد شعره وصح كلامه . ومن انفرد به الهوجل فسد شعره (١) وزاد ادعاؤهم ذلك حتى سموا شيطان كل شاعر باسم خاص به فكان شيطان الاعشى يسمى « مسحل » (٢)

وفي كتب الادب اخبار كثيرة تدل على ما يعتقدونه من الجن وشياطين الشعر

(١) جمهرة اشعار العرب ٢٤ (٢) رسائل ابي العلاء ١٠٧

من ذلك ان رسولاً من عند بشر بن مروان جاء جريراً فدفع اليه كتاباً وقال له « انه قد أمرني ان اوصله اليك ولا ابرح حتى تجيب عن الشعر في يومك ان لقيتك نهاراً او ليلتك ان لقيتك ليلاً » واخرج اليه كتاب بشر وقد نسخ له القصيدة وأمره بأن يجيب عنها . فأخذها ومكث ليلته يجتهد ان يقول شيئاً فلا يمكنه (قالوا)فهتف به صاحبه من الجن من زاوية البيت فقال له « ازعمت انك تقول الشعر ما هو الا ان غبت عنك ليلة حتى لم تحسن ان تقول شيئاً فهلا قلت :

يا بشر حق لوجهك التبشير   هلاً قضيت لنا وانت امير »

فقال له جرير « حسبك كفيتك » وما زال حتى أتم القصيدة

وذكروا عن كثير عزة انه قال ما قلت الشعر حتى قوّلته قيل له وكيف ذلك قال: بينا انا يوماً نصف النهار اسير على بعير لي بالغميم او بقاع حمدان اذا راكب قد دنا مني حتى صار الى جنبي فتأملته فاذا هو من صفر وهو يجر نفسه في الارض جرًّا فقال لي « قل الشعر » والقاه عليَّ قلت « من انت قال انا قرينك من الجن » فقلت الشعر

الشعراء والقراءة

وكانت القراءة في صدر الاسلام خاصة بطبقة من الناس اهمهم حفظة القرآن ومن توخى المدنية فسكن المدن وغلبت عليه الحضارة . اما اهل البادية فيظهر انهم ظل معولهم على الذاكرة وخصوصاً الشعراء فقد كانت طائفة من فحولهم لا يقرأون وخصوصاً في الجاهلية فاكثرهم كانوا أميين . أما في الاسلام بعد انتشار القراءة والكتابة فظل كثيرون من الشعراء لا يقرأون وخصوصاً اهل البادية فلعلهم كانوا يعولون على الرواة أو على الحفظ . ومن شعراء العصر الاموي الذين كانوا لا يقرأون الفرزدق وقد وقفنا حيناً عند ما تبين لنا انه لا يقرأ لعلمنا بمنزلته من الشاعرية وتقدمه بين رجال الدولة . وقد تبين لنا ذلك عرضاً في سياق واقعة جرت له مع مروان بن الحكم — وذلك انه قال شعراً اساء مروان بن الحكم وهو والي المدينة فدعاه اليه وتوعده واجله ثلاثاً وقال « اخرج عني » فانشأ يقول الفرزدق :

دعانا ثم اجلنا ثلاثا   كما وعدت لمهلكها ثمود

قال مروان قولوا له عني اني اجبته فقلت :

قل للفرزدق والسفاهة كاسمها ان كنت تارك ما امرتك فاجلس
ودع المدينة انها محظورة والحقْ بمكة او ببيت المقدس

فعزم على الشخوص الى مكة فكتب له مروان الى بعض عماله مابين مكة والمدينة بمائتي دينار . فارتاب (الفرزدق) بكتاب مروان فجاء به اليه وقال :

مروان ان مطيتي معقولة ترجو الحباء وربها لم ييأس
آتيتني بصحيفة مختومة يخشى عليّ بها حباء النقرس
الق الصحيفة يافرزدق لا تكن نكداً كمثل صحيفة المتلمس

ورمى بها الى مروان. فضحك وقال «ويحك انك أميّ لا تقرأ فاذهب بها الى من يقرأها ثم ردها حتى اختمها » فذهب بها فلما قرئت اذا فيها جائزة فردها الى مروان فختمها وامر له الحسين بن علي بمائتي دينار (١)

فتبين لنا من ذلك انه لا يقرأ فاذا صح ذلك بالفرزدق فكيف بسواه ويقال ان ذا الرمة ايضا كان لا يقرأ

الخطابة والخطباء

في العصر الاموي

ظلت الخطابة على جلالة قدرها في العصر الاموي لحاجة القوم الى استنهاض الهمم في جمع الاحزاب أوتفريقها أوالتحريض على النهوض لحرب ونحوها فكان اكثر القواد خطباء وفيهم جماعة من ابلغ رجال الخطابة . فالحجاج بن يوسف كان خطيباً بليغاً زادته الخطابة عظمة وسطوة ــ كان العراق متمرداً على عبد الملك فلما اعجزه امره ولى الحجاج عليه فدخل الحجاج الكوفة وصعد المنبر متلثماً متنكباً قوسه واضعاً ابهامه على فمه فاحتقره الناس وكادوا يرمونه بالحصى كما كانوا يفعلون في الولاة قبله . فوقف وازاح لثامه عن وجهه ولفظ خطبته التي قال في مطلعها :

انا ابن جلا وطلاّع الثنايا متى اضع العمامة تعرفوني

الى ان قال :

(١) الاغاني ٤٣ ج ١٩

« أما والله لا احمل الشر بثقله واحذوه بنعله واجزيه بمثله . أما والله اني لأرى رؤوساً قد أينعت وحان قطافها وكأني ارى الدماء بين العمائم واللحى

هذا اوانُ الشرِّ فاشتدّي زيم قد لفها الليل بسوّاق حطم

« ألا وان امير المؤمنين عبد الملك بن مروان كبَّ كنانته فعجم عيدانها فوجدني اصلبها عوداً فوجهني اليكم . فانكم أهل بغي وشقاق وخلاف ونفاق طالما سعيتم في الضلالة وسننتم سنن البغي اما والله لالحونكم لحو العصا ولاعضبنكم عضب السلمة ولاقرعنكم قرع المروة ولاضربنكم ضرب عزائب الابل . والله ما احلف الا فريت ولا اعد الا وفيت ... الخ » (١)

فما فرغ من خطبته حتى هابوه واذعنوا له وكان شديداً عليهم وامره مشهور . ومع ذلك فقد كان اذا رقي المنبر وذكر احسانه الى اهل العراق وصفحه عنهم واساءتهم اليه يخيل للسامع انه صادق وأن أهل العراق ظالموه (٢) ولذلك كان الامراء والخلفاء يخافون الخطباء كما يخافون الشعراء لما في اقوالهم من التأثير في تلك النفوس الحساسة

وكان اكثر الخلفاء يخطبون لكنهم يتفاوتون في البلاغة وقوة العارضة على ان تلك القوة اخذت تضعف فيهم بعد الفراغ من الفتوح والانغماس في اسباب الترف والسكون الى الرخاء والبذخ وتحولت من الحماسة الى المواعظ ثم الى الشكاية . وتداعى فن الخطابة بتداعي دولة العرب في الشرق فلما قامت دولتهم في الاندلس بعثوه وقربوا الخطباء كما قربوا الشعراء لكنهم قلما كانوا يستخدمونهم لانهاض الهمم أو اخماد الفتن لذهاب الحاجة الى ذلك بذهاب البداوة والفراغ من الفتح . على انهم كانوا اذ احتفلوا بتنصيب خليفة او بالنصر على عدوّ أو باستقبال قادم كبير تقدمت الخطباء للترحيب به واعظام شأنه أو شأن مقعده ووصف ما تهيأ له من توطيد الخلافة (٣)

وأما الامراء والقواد فكانوا يخطبون في الجند قبل الاغارة على العدو فيحرضونهم على الثبات . وكثيراً ما كانت الخطبة سبباً للنصر كخطبة خالد بن الوليد في وقعة اليرموك وخطبة المغيرة في وقعة القادسية وخطبة خليد بن المنذر في غزوة فارس وخطبة طارق بن زياد في فتح الاندلس ونحو ذلك مما لا تسعه المجلدات

(١) العقد الفريد ٧ ج ٣ وغيره (٢) البيان ٢٠ ج ١
(٣) نفح الطيب ١٧٥ ج ١

ناهيك بشيوع الخطابة في القبائل على اختلاف اصقاعها كما كانت في الجاهلية . وكانت ترد الوفود الى المدينة أو دمشق أو بغداد أو غيرها من عواصم المسلمين لتهنئة لخليفة أو استنفاره أو استنجاده أو استجدائه . وكان شباب الكتاب أذا قدم الوفد حضروا لاستماع بلاغة خطبائهم لشيوع حب الخطابة فيهم [1] ولاقتباس اساليب لبلاغة منهم

الانشاء في العصر الاموي

كان الانشاء في عصر الراشدين جامعاً مانعاً وفيه بلاغة وايجاز كما تقدم وقدعلمت ن الدولة الاموية عززت اللغة العربية وآدابها فكانت بلاغة القول في جملة ذلك . كان الخلفاء والامراء ينشطون اهل الادب وا كثر انشائهم في المراسلات بين لخليفة وعماله يتحدون بها مكاتبات عصر الراشدين وقد ذكرنا امثلة من ذلك في مكانه

على ان اقتراب الدولة الاموية من الحضارة اثر في الانشاء ونوّعه وأطاله ونشأت طائفة من الكتاب (اي كتاب الرسائل) في الدولة فاصبحت الكتابة مهنة. وبعدان كان لكاتب في زمن الراشدين يتولى ضبط حساب الديوان وكتب المراسلات اصبحت لكتابة في الدولة الاموية خمسة اصناف لكل منها كاتب خاص — ومنهم كاتب لرسائل المقصود من كلامنا هنا وقد يسمى كاتب السر وهو يد الخليفة وكاتبه ومستودع سراره . فكان الخلفاء يتخيرون لهذا المنصب ابلغ المنشئين . وكان للبلاغة نشأة في سياستهم كما كان للشعر لان القوم يومئذ لا يزالون في عهد الفروسية والاريحية تقيمهم لبلاغة وتقعدهم

ومن اشهر كتابهم سالم كاتب هشام بن عبد الملك وقد نقل شيئاً من رسائل ارسطو لى الاسكندر وله رسائل في ١٠٠ ورقة (فهرست ١١٧) وكان للامراء كتاب نشئون لهم الرسائل لم يصلنا من اخبارهم الا القليل وكان الانشاء في اثناء ذلك يتنوع ويرتقي حسب الاحوال وعملاً بناموس الارتقاء فلم تنقض الدولة الاموية حتى صار للانشاء فيها صفة معينة وطريقة مخصوصة وضعها او أتمها عبد الحميد بن يحيى كاتب مروان بن محمد وصار له اسلوب خاص نسب اليه ونحاه الكتاب فيه

(١) العقد الفريد ٢٦٧ ج ٢

عبد الحميد الكاتب

هو عبد الحميد بن يحيي بن سعد مولى من اهل الشام اي اهل البلاد الاصليين الذين دخلوا في الاسلام فهو ليس عربياً . وكان المثل يضرب ببلاغة انشائه في الرسائل فيقال فتحت الرسائل بعبد الحميد وختمت بابن العميد. وكان في اول امره معلم صبية يتنقل في البلدان ثم ارتقى حتى صار كاتب مروان بن محمد آخر الخلفاء الامويين ومات معه سنة ١٣٢ . ويمتاز عبد الحميد بانه اول من اطال الرسائل واستعمل التحميدات في فصول الكتب فاستعمل الناس ذلك بعده وقلدوه فيه وله رسائل بليغة ذكر ابن النديم انها تجتمع في الف ورقة لم يصل الينا منها الا القليل

وفي الكتبخانة الخديوية رسالة خطية تنسب لعبد الحميد المذكور

الخلاصة

ان الامويين نشطوا الاداب الجاهلية ولا سيما الشعر والخطابة فارتقت في ايامهم وراجت سوق الادب بالبصرة والكوفة وكثر الشعراء ونظموا في كل باب ولم يصلنا كل ما نظموه

وفيه بدأ تكون الفقه والتفسير والنحو وضبط الخط وبدأوا بالاعجام والحركات وفيه رسخت اللغة العربية في المملكة الاسلامية بنقل الدواوين اليها . وفيه بدأوا بنقل العلوم الطبيعية

اما ماخلا الشعر والخطابة فلم يصلنا من ثمار قرائح اهل العصر الاموي كتاب في علم من العلوم . واهم مابين ايدينا من المؤلفات الشرعية او اللسانية او الادبية او في التاريخ والجغرافيا او في اي علم من العلوم انما هو من ثمار العصر العباسي الآتي ذكره . اما التفسير الذي ينسبونه الى عبد الله بن عباس فقد تقدمت الاشارة اليه

حتى الشعر الاموي فانه لم يصلنا الا على ايدي الرواة من اهل العصر العباسي

﴿ تم الجزء الاول ﴾

فهرست الجزء الاول

من تاريخ آداب اللغة العربية

اصحاب المعلقات

الشعراء الامراء

الشعراء الفرسان

الشعراء الحكماء

الشعراء العشاق

